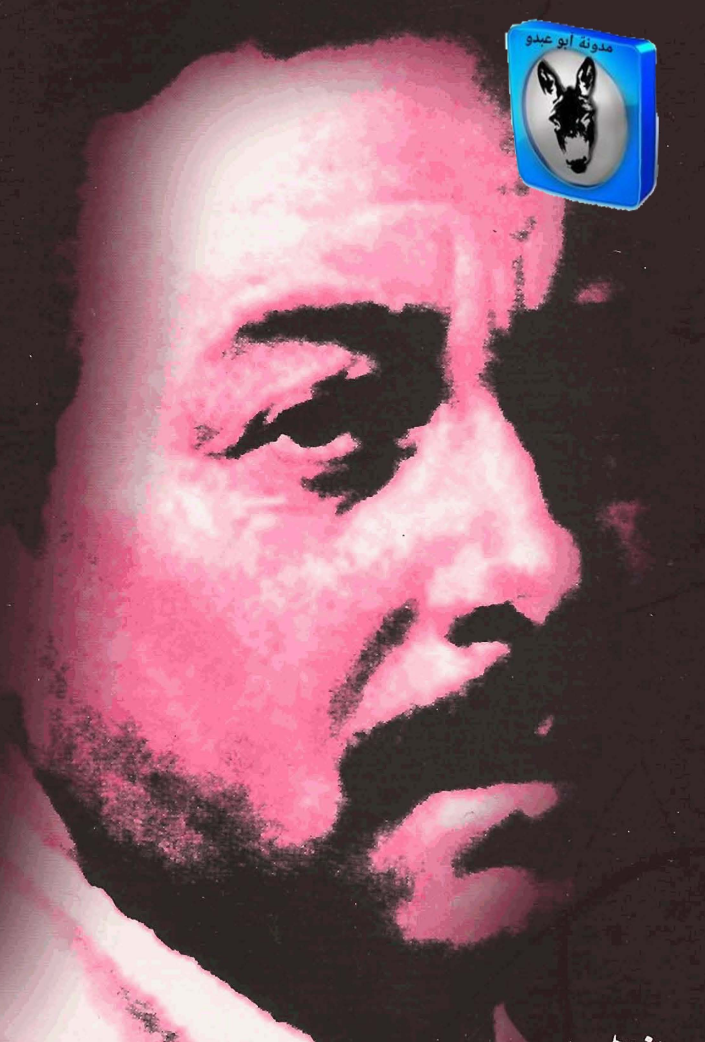
مذكرات

تنيسي ويليامز



ترجمة: أسامة منزلجي

مذكرات

تنيسي ويليامز



المـــــؤلـــــف : تنيسي ويليامز
عنوان الكتـاب : مذكرات
المتـــــــــرجم : أسامة منزلجي
النـاشـــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠٦

Author:Tennessee Williams
Title: Memoirs
Translator: Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

مذكرات
تنيسي ويليامز

ترجمة: أسامة منزلجي



مقدمة المؤلِّف

تصادفَ مؤخَّراً أنْ كنتُ موجوداً في مدينة نيوهيفن في كونكتيت، بخصوص انشغالي بما أُعلِنَ عنه بجلالٍ بأنه " العرضُ الافتتاحيّ " لـ " مغامرة دراميّة "، هي مسرحيةٌ سمَّيتُها " الصرخة" سأتحدَّثُ عنها بين حينٍ وآخر في هذا الكتاب. عُرِضَتْ " الصرخة " في شكلها النهائي وللمرةِ الأولى على خشبة المسرح في أول موسم عام ١٩٧٣، في ذلك الجناح المملوء بالحنان العريق العظيم من مسرح برودواي المُسمَّى شوبرت.

أعتقدُ أنَّ القارئَ قد يعرفُ أنَّ نيوهيفن مشهورة ليس فقط بوصفها مركزَ مسرحِ شوبرت بل أيضاً بأنها تحوي أكبر مدارسنا العريقة المعروفة باسم ييل.

في هذه اللحظة لن أخوضَ في موضوعِ حالتي العصبيّة والجسدية في ذلك الوقت وسأكتفي بالقول إني كنتُ أتعافى ببطءٍ شديد من إحدى النوبات مع إصابة بأنفلونزا لندن و/ أو هونغ كونغ، فاقَمَتْ حالتي التي استُنبِطَ اسمها من اسم "بان" الذي اسمه الأول ليس بيتر.

لا عليكَ من هذه المحاولات السقيمة لنشر روح المرح، التي يتَّصفُ بها بشكلٍ مثيرٍ للشفقة التماسيح العُجَّز والكُتَّاب المسرحيين العجائز، وعند خدش جلد هؤلاء الأخيرين سوف نجد أنه لا يمكنُ ثلمُه بوضوحٍ إلا بواسطةِ طَرَفٍ حادّ لحجرٍ كريمٍ أو بقليلٍ من زَغَب الهندباء البريّة في جوّ بعد ظهر أحد أيام أواخر الصيف.

على أي حال، وكما يقولون غالباً في مسرحياتي، دُعيتُ لأظهَرَ أمام مجموعةٍ من طلاب قسم الدراما في جامعة ييل في بعد ظهر اليوم السابق ليوم " العرض الافتتاحي " المذكور آنفاً لهذه المغامرةِ الدرامية. وتصوَّرتُ مسرحَ شوبرت كبناءٍ يضمُّ عدداً ضخماً من المقاعد، في الطوابق العُليا وفي الأسفل، وأيضاً تصوَّرتُ أنه يمكنُ أن يبقى عددُ

كبيرٌ من تلك المقاعد خالياً حتى في مناسبةِ " عرضٍ افتتاحيّ " . وخُيِّلَ إليّ أني إذا مارستُ تأثيراً إغوائياً على طلاب جامعة ييل فإنَّ بعض تلك المقاعد غير المحجوزة من أجل الأمسية يمكن أن تنتزع بحركةٍ جسورةٍ من بين أنياب الفراغ.

والآن وقد غطّيتُ الخلفيّةَ الجغرافيةَ والاجتماعيةَ والجسديّةَ والعقليّةَ للحادثة الوشيكة الوقوع فلندخل مباشرةً إلى صُلب القصة.

دُعيتُ لإقامةِ ندوةٍ مع طلاب قسم الدراما في جامعة ييل. نظَّمَ الندوةَ الرئيسُ الكريمُ لقسم الفنون المسرحية في جامعة ييل، ووجدتني أدخلُ (من الباب المكتوب عليه " خروج ") إلى قاعةِ محاضراتٍ أصغر بكثير من قاعة شوبرت لكنها تحوي نسبيّاً أكثر من مجرَّد جمهورٍ صغير. أستطيعُ أن أقول إنَّ عدده بلغَ نحو الخمسين، بغضّ النظر عن كلبٍ كبيرٍ كان يستكينُ في حضن طالبٍ في الصف أمامي. كان مجلسي على كرسي قابل للطيّ خلف طاولةٍ قابلةٍ للطيّ وُضِعَ عليها كأسٌ مملوءٌ، كما بدا، بماءٍ عاديّ وسرعان ما اكتشفتُ أنَّه كذلك فعلاً. بالإضافةِ إلى أنَّ الوجوهِ الشابة الموجَّهة نحوي كانت على قدمِ المساواةِ خاليةً من أي انعكاسٍ انفعاليّ لولوجي من ذلك الباب الجانبي المُخصَّص للخروج. والحقيقةُ هي أنَّ الوجهَ الوحيدَ الذي نمَّ عن اهتمامٍ حقيقيّ كان وجه الكلب.

إنني لستُ ماهراً جداً في إخفاء مشاعري، وسرعان ما تخلَّيتُ عن كلّ ادِّعاءٍ بشعوري بأني أقلّ اكتئاباً مما كنتُ فعلاً. كنتُ أتكلّم. كنتُ أصوغُ تلك النكات القديمة المُملّة الشبيهة بالنكات البائخة للرجل المدعو " بوب الميؤوس منه "[1] التي كان يُلقيها في مخيَّمٍ في أحد الحروب الفاشلة. وجدتُني أغوصُ أكثر في الكرسي القابل للطيّ، وذلك الوضع الهابط، المقرون بنوباتٍ من الأزيز، والتنشُّق العالي والسُعال، شجَّعَ بعض التجمُّعات الصغيرة على النهوضِ ومغادرة المكان، وهو تصرُّفٌ لم يُثِر في قلبي أيَّ شعورٍ بسعادةٍ خاصة. ومع ذلك تابعتُ حديثي ولكن تخلَّيتُ عن فكرةِ إلقاءِ النكات القديمة. وأخذتُ أصفُ لقاءً، كان قد وقع حديثاً عندئذٍ، مع كاتبٍ مسرحيّ زميل في بار " غرفة خشب السنديان " في فندق بلاتزا، في مانهاتن. قلتُ لهم إنَّ تلك المقابلة كانت غير مقصودةٍ من أيٍ منا، ولكنْ لما تصَادَفَ أنه كان صديقي الحميم غور فيدال[2]، فإني عانقتُه بحرارة. على أي حال، إنَّ السيد فيدال ليس من النوع الذي يمكن أن تسترضيه

بعناقٍ حار، وحين أخبرتُه، كجوابٍ على استفساراته الروتينية حول سير الترتيبات لمسرحية " الصرخة "، أنَّ هناك ممثِّلَين هما مايكل يورك وكارا دوف-ماكورميك، والمُخرج بيتر غلينفيل، والمنتج، ديفيد ميريك، وأنَّ كلَّ شيء يبدو أشبه بحُلمٍ يتحقَّق بعد العديد من الكوابيس السابقة، ابتسمَ لي مع تعبير التصدُّق الحزين وقال " الحقيقة، يا عصفور، أخشى أنَّ كلامَكَ لن يفيد كثيراً، لقد كَشَفتَ عن الكثير جداً من الأمور الشخصية بحيث لم يعُد في إمكان أي شيء أن يساعدك ".

هكذا، وللمرة الأولى شاهدتُ وميضَ اهتمامٍ في الوجوه الشابة المائلة أمامي. لعلَّ السبب هو اسم " فيدال " السحري أو لعلَّه تنبُّؤه بمصيري المهني المحكوم عليه بالإخفاق. على أي حال، وَقَفَتْ طالبةٌ شابةٌ من قسم الدراما وسط الحشد القليل لتسألني إن كنت أعتبر تقييم " غور " لوضعي المهني الحالي هنا في الولايات المتحدة موثوقاً.

نظرتُ إليها بصمتٍ برهةً متسائلاً إنْ كنتُ حقاً أعتبره كذلك، ولم أتوصَّل إلى نتيجة حول السؤال.

انزاحتْ عينايَ عن وجهها واستقرّتا على وجه الشاب الجالس في الصف الأمامي والكلب الأسود في حضنه.

لطالما كان الضحك بديلي للنواح، فضحكت بصوتٍ يعلو بقدرِ علوّ نواحي فيما لو لم أكتشف بديلاً نافعاً للبكاء. وأنا عادةً أُطيلُ من ضحكي أكثر مما ينبغي، وأرفعُ صوتي أكثر مما ينبغي. في هذه المرة اختصرتُ ادِّعائي الساخر بالمرح وقلتُ للسيدة الشابة " اسألي الكلب "

الحقيقةُ هي أني لا أعرفُ إنْ كان في إمكاني أنْ أتلقَّى مرةً أُخرى استجابةً نقديةً إيجابية مُقنعة لإنجازي المسرحي في هذا البلد. وجهلي بالجواب يُعادلُ جهل الكلب له.

غير أنَّ هذه الورطة التي وقعَتُ فيها لم تُسبِّب لي المرارة أو حتى أصابتني باضطراب شديد. إذ بصورةٍ ما يبدو أني سبَّبتُها لنفسي. ثمة ازدواجية في موقفي اتجاه الجمهور الآن. لا شك في أني أرغبُ في استحسانهم، أرغبُ في فهمهم وتركيزهم. ولكن في هذه الأيام أجد لديهم الكثير من الصدّ العنيد لنوعية مسرحي بشكلٍ يصدمني. يبدو أنهم متكيِّفون مع نوعٍ من المسرح يختلف تماماً عن النوع الذي أرغبُ في تأليفه.

في الواقع إنَّ مسرحي هو في حالةِ ثورة أيضاً: لقد انتهيتُ من نمط المسرح الذي أسَّستُ عليه سمعتي الشعبية الأولى. إنني أُنجِزُ شيئاً مختلقاً ينتمي كله إليّ، وخُلواً من أي تأثُّرٍ بأي كاتبٍ مسرحيٍ آخر في وطني أو بمدارس أخرى في المسرح في الخارج. هدفي هو دائماً كما كان: أنْ أُعبِّر عن عالمي وعن تجربتي فيه بالشكل المناسب للمادة.

منذ مسرحية " ليلة الإغوانا " أضحتْ ظروف حياتي تتطلَّبُ مني باستمرار أسلوباً أقلَّ تقليديّةً في الكتابة الدرامية: إنني أُشيرُ هنا إلى أعمالٍ مثل " غناديس فراولين " وأيضاً " داخل بار في فندق طوكيو "، وحديثاً، آخر عرضٍ لل " صرخة ". ثم، إلى حدٍ ما، أسلوب هذه المذكَّرات.

أودُّ أن أعترفُ لك أني قبلتُ بمباشرة هذه المذكرات لأسبابٍ ماديّة. إنها في الواقع أول عمل، في مجال الكتابة، أتولاّه بقصد الربح المادي. ولكن أودُّ أن أقول لك أيضاً إني بعد أن بدأته مباشرةً نسيتُ الناحية المادية وانغمستُ في ذلك النمط الجديد من التأليف، في البوح الذاتي السافر، باستمتاعٍ مطّرد.

إنَّ هذا الكتاب بأكمله مكتوبٌ بطريقةٍ تشبه عمليّة " التداعي الحُرّ "، الذي تعلَّمتُ ممارسته خلال خضوعي لجلسات عديدة من التحليل النفسي. إنه يُعنى بتدوين أحداثٍ جارية، التافه منها والهامّ، والذكريات، التي هي غالباً أهمّ بكثير، بالنسبةِ إليّ على الأقلّ.

سأُقاطعُ كثيراً ذكريات الماضي بسردٍ لِما يهمُّني من الحاضر، لأنَّ من بين العديد من الأشياء التي كانت تهمُّني في الماضي ما زالت تشغلني حتى يومي هذا.

وقبولك إياها سيعتمدُ جزئياً على تسامحك مع رجلٍ عجوزٍ لا يكادُ يكفُّ عن العدو رائحاً غادياً بين ذكرياته وحاضره.

إنَّ هذا " الشيء "، كما سمَّيتُهُ، يحتاج إلى تأويلك، ويجب أن أطلبَ منك أن تتذكَّر قدرَ ما تستطيع من تاريخ حياة الرجل الذي كتبه.

خلال سياق الكتاب سأتحدَّثُ مُطوَّلاً عن الحب وأغلب الكلام سيكون عن الحب الشهواني بالإضافةِ إلى الحب الوجداني. لقد عشتُ حياةً محظوظةً جداً، بالنسبةِ إلى رجلٍ كثيراً ما اقتربَ من شفا الدمار، تضمَّنَتْ عدداً هائلاً من لحظات الفرح النقيّ والملوَّث.

" تلك الموسيقى الحسِّية... "

لا أزالُ أسمعها بجلاء.

إذن، هل هذا الكتاب، ببنائه الغريب، هو مادةٌ حِرَفيَّة؟ هل لأيٍ من أعمالي صِفَة "المادة الحِرَفيَّة "؟ لطالما كتبتُ لضروراتٍ أعمق مما تتضمَّنه كلمة " حِرفَة "، وأعتقد أنَّ هذا أضرَّ بمسيرتي المِهَنيّة. ولكنه في أغلب الأوقات كان لصالحها. هل قلتُ مسيرتي المِهَنيّة؟ إنها عبارةٌ خاطئة. كان يجب أن أقول - كلا، لاشيءٍ أكثرَ ادِّعاءً من عبارة " نداء باطني ". ولكن أقول الحقّ، لم يكن لديَّ مرة خيارٌ في أن أكونَ غير كاتب.

* * *

والآن، ما البند التالي على جدول الأعمال؟ أو، فلأقتطِف عبارة آنّا مانياني[٣] " ما البرنامج اليوم؟ "

لقد أتاني النجاحُ في مجال المسرح في وقتٍ متأخِّرٍ جداً بالمعايير السائدة، ولكن سواء أتاكَ الحظُّ الحَسَنُ باكراً أم متأخِّراً، هذا إذا جاء، فيجب أن تعلم أنك محظوظ. أما الباقي فسؤالٌ يُطرَحُ على " الكلب ".

المذكّرات

١

لكي أبدأ هذا " الشيء " بنبرةٍ اجتماعيَّةٍ قويةٍ، دعني أقل لكَ إنه ذات فصل خريف قريب، وقبل أن تسقط أوراق الأشجار، تصادَفَ أن كنتُ أقضي عطلتي الأسبوعية في أحد آخرِ أعظم البيوت الريفية في إنكلترا، في عزبةٍ قريبةٍ جداً من ستونهنج(٤) حتى أنَّ حجراً منه سقطَ على أرض عزبة الليدي قبل أن يصلَ إلى ذاك المشهد الما قبل تاريخيّ للتعبُّد الكهنوتي ولم يُرفَع، ربما بسبب انهيارٍ ما أو ثورة نقابة العبيد، بل سُمِحَ له بالبقاء حيث وقع، وهذه المعلومة ليس لها أي صلة بما سيلي.

كان وقتُ النومِ قد حان وتساءلتْ سيدةُ القصر، بعد أن رمتني بنظرةٍ حادَّة، إنْ كنتُ أودُّ أن أنفردَ مع كتابٍ جيّدٍ بما أنها تعلمُ أني أنامُ نوماً مضطرباً. ونصحتني: " ادخل المكتبةَ وانتقِ شيئاً منها "، مشيرةً إلى غرفةٍ هائلةٍ باردةٍ في الجناح الأيسر للقصر ذي طراز البناء الإغريقي. ولما كانت هي متوجِّهةً إلى الطابق العُلوي، لم أجد مفراً من أن أرضخَ لاقتراحها. ولَجتُ المكتبةَ واكتشفتُ أنها تكادُ لا تحتوي إلا مجلداتٍ هائلةِ الحجم ومُلبَّسة بالجلد من النِتاج العتيق تُشبه بالمُقارنة ذلك الحجر الذي لم ينجح في الوصول إلى أرض ستونهنج. وبدوري اكتشفتُ مصادفةً باباً سرِّياً، يمتدُّ من الأرض وحتى السقف، مستوراً بشكلٍ يفتقرُ إلى البراعة بواجهةٍ من الكتبِ الزائفة، ولم تكن تلك هي حركةُ الخداع الوحيدة التي أُقابلها. وكان هناك كتابٌ حقيقيٌ عنوانه " الدليل العالمي "، أو شيءٌ من هذا القبيل. وبحركةٍ طبيعيّةٍ جداً انتزعتُهُ من عُلبتِه وانتقلتُ فيه على الفور إلى الفهرس لأرى إنْ كان صيتي قد وصل إليه. شعرتُ بالامتنان لدى اكتشافي وجود بياناتٍ هائلةٍ حول تلك الشخصية التي لا وجودَ لها وتحملُ اسمي المهني: تضمُّ البيانات عدداً من المغالطات غير المؤذية، لكنَّ إحدى تلك المغالطات كانت مؤسفةً بوضوح في تأثيرها على مزاجي.

بين قائمة مظاهر التشريف والتكريم التي تلقَّيتُها وجدتُ إعلاناً مذهلاً يقولُ إنه في سنةٍ معيَّنةٍ من بداية الأربعينات كنتُ قد تلقَّيتُ هبَةً مقدارها ألفَ دولار، نعم، تلك التي تُعرَفُ بـ " الهبَة الكبرى " من المؤسسة العالمية للفنون والآداب. وما برز جليّاً في ذهني كان عام الهبَة المزعومة، وليسَ الواهب. ففي ذلك العام (قبل أن تتبدَّلَ حياتي برُمَّتها مع نجاح مسرحية" الحيوانات الزجاجية " بسنين عديدة) اضطررتُ إلى رهن كل ما أملك بكل ما في الكلمة من معنى، حتى آلةٍ كاتبةٍ صغيرة كنتُ قد استعرتُها، وكل شيء آخر عتيق وجديد وخفَّ حملُه، بما فيه ملابسي كلها ما عدا قميص فانيلا قذراً، وبنطالاً لركوب الخيل وزوجاً من الأحذية، كانت البقية الباقية من آثار دورةٍ في دراسة ركوب الخيل وقد فضَّلتُها على فيلق تدريب ضباط الاحتياط المنتظَمة في جامعة ميزوري. في ذلك العام رحتُ أتنقَّلُ من مسكنٍ إلى مسكن لعجزي عن دفع الإيجار، وكان إيجاراً ضئيلاً. وفي ذلك العام اضطررتُ إلى الخروج إلى الشارع لأستجدي سيجارة، السيجارة الجوهرية جداً التي يجب على كل كاتب حيّ ومُدخِّن أن يبدأ بها العمل في الصباح. بل حتى أنه كان العامَ الذي تعوَّدتُ فيه أن أتناولَ ما يُسمّيه الفرنسيون " فراشات الحب " لأنني لم أكن أملُكُ ثمن زجاجة كيريكس، وهو أفضل مبيد حشري كان يُقدَّمُ في الحانات في تلك الأيام، وحين أُحرِجتُ ذات مرةٍ بصرخةٍ سمعتُها عند زاوية شارعٍ مزدحمٍ في وَضَح النهار " أنتَ يا ابن الحرام، أنت عديتني بالمرض ليلة أمس! " - وهي صرخةٌ فَصَمَتْ علاقتي الاجتماعية بالحيِّ الفرنسي في نيو أورلينز ودَفَعَتني إلى حزم أمتعتي - يعني، كلمة حزم ليست الكلمة الدقيقة، بما أنه لم يكن لديّ أمتعة - وتوجَّهتُ مباشرةً إلى فلوريدا. ولما كنتُ أبدو على الطرقات العامة كالشبح مما دفعَ راكبيَّ السيارات إلى زيادة سرعتهم حتى آخرها لدى رؤيتي في ضوء النهار، كان لابد لي من أن أحاول أن أحصل على الانتقال ليلاً في أغلب الأحيان. ولديَّ يوميات تُثبت صحة هذه الذكريات بالذات عن ذلك العام حين كان من المفروض أن أكون المتلقِّي المرِح الصاخب لتلك " الهِبَة الكبرى " من المؤسسة التي أنا الآن عضو مجاز فيها.

خلال سنواتي المُبكِّرة حين كنتُ شاباً هزيلاً ومُتيَّماً بمسرحٍ يتجاهله تماماً، تعرَّفتُ وربطتني علاقة حميمة بعددٍ كبير من الكُتّاب الشبان والفنانين وكنا جميعاً نستخفُّ

بمخاطر المهنة الصغيرة التي كنا على الدوام ننطلقُ مُبحرين بقواربنا الصغيرة في وجهها، كلٌ مع طاقمه المؤلّف من شخصٍ واحد، وهو نفسه طاقم القارب وقبطانه. كنا نتابع إبحارنا بقواربنا الصغيرة المُستقلّة لكننا كنا على مرأى أحدنا من الآخر، أحياناً نكادُ نتلامسُ، أقصدُ كأنْ نتداولُ في خليجٍ صغيرٍ على شاطئٍ صخريٍ تهكته العواصف، مما كان يمنحنا إحساساً دافئاً بالتئام الشمل، لا يختلفُ كثيراً عما شعرَ به في السنين الأخيرة الفتْيةُ الذين يُسمَّون بـ " ذوي الشعور الطويلة " والذين رماهم الجو الاجتماعي العاصف إلى ما يُسمَّى كوميونات.

إنَّ التشارك في المشاكل كالمشاركة في الحب وذاك النوع من الحب كثيراً ما كانَ الخبز الذي اقتسمناه فيما بيننا. لقد بقي بعضنا حياً والبعض الآخر مات، وأحياناً كان الأمر هو قضية حظ وأحياناً أخرى مسألةَ التحلّي أو عدم التحلّي بالقُدرة على الاحتمال وإرادة التحمُّل. أقصد أنْ أقول إنه لا أحد منا كان منبوذاً طواعيةً، بل كنا منبوذين بالمصادفة، ولم يكن لدى أي منا نَفَسٌ يهدُرُهُ على شكوى لا جدوى من ورائها من أنه لا أحد يُطعمنا بملاعق من ذهب.

أنا متأكّد من أنه حين كان يتوفَّرُ لنا الوقت للتفكير في هذا الأمر، كنا نرتابُ في إمكانية مجتمعٍ مثقَّفوه غزيرو الإنتاج، أقصد مجتمعاً يعدُّ ملايينه من الدولارات كما نعدُّ نحنُ نكلاتنا، أن يُبدي أو كان عليه أن يُبدي أكثر قليلاً من الاهتمام بمستقبل فنانيه الشبان الذين يمكن، إذا أُفسحَ لهم المجال لينضجوا، أن يتوقَّع منهم أن يتركوا بعض الأثر على ثقافةِ (كثيرة التقلُّب) لأمةٍ كانت آنئذٍ، كما هي الآن، أُمَّةً تحكمها تلك المجموعة الصغيرة العدد التي تمركزتْ فوق قمة عمود الطوطم وتخافُ إذا نظرتْ إلى أسفل أن تُصاب بالدوار.

والآن لكي أكونَ مُنصفاً أقولَ إنه كانت هناك في الأربعينات مصادر ماليّة ضخمة جداً توزُّع نُتفاً من صَدَقةٍ تُثارُ حولها دعايةٌ واسعةٌ على المواهب الشابة. فكانت منحة جماعة غوغنهايم، التي كان أحياناً ينالها وبعد جهدٍ جهيد فنانٌ رائع وهشّ مثل هارت كرين(٥). ربما لم يكن من الممكن قط أن تأتي باكراً لتنقذ هارت من تدميره لذاته، بل كانت تأتي، هذا إنْ أتت، متأخِّرةً جداً. وفي الثلاثينات كانت هناك مشاريع مكاتب العمل، وآه، يا الله، كم حاولتُ أن أُشترك فيها في شيكاغو ونيو أورلينز وكمْ قُمعتُ!

وبعد ذلك بوقتٍ قصير، ظهرتْ هِباتُ روكفلر ذات الألف دولار القابلة للزيادة في المستقبل ولكن غير المُحتَمَلة، بمقدار نصف المبلغ الأصلي. ذلك المبلغ وزيادته التي تبلغ نصفه لم تصادفني، في آخر الأمر.

إنَّ ذوي الثراء الفاحش لديهم إيمانٌ مؤثِّر في فعالية المبالغ الصغيرة.

كان يجب أن أكتب هذه الملاحظة بين قوسين بدل الحروف البارزة ما دامت ليست تنويهاً صادراً عني بل هي من أشدّ تعليقات بول بيغلو (الأسطوري) بلاغةً حول الهِبات الورعة، المُعفاة من الضرائب حتماً، التي تمنحها طبقتنا الثرية البابليّة.

إنها المرة الأولى التي أتحدَّثُ فيها، متأملاً، وبعد مرور فترةٍ زمنيّةٍ شاسعة، عن أولئك المُحسنين الشهيرين للشباب والموهوبين بنبرةٍ تقتربُ من الورع، ولكن يمكنك أن تعزو هذا إلى الإحساس بمرارةِ التقدُّم في السن. وحين كنتُ أحد الشبان الموهوبين، وأعيشُ بين مجموعةٍ من ذلك النوع، لم يكن يشيعُ بيننا رثاء الذات، على الأقلّ ليس بالقدر الذي يُميّزنا عن بقية البشر. وطبعاً جميعنا يعلم أنَّ رثاء الذات هو أحد المشاعر المتجذِّرة في البشر، هو شعورٌ باحترام الذات مُغالى فيه حتى وصلَ إلى درجة التكبُّر، وقد لاحظتُ وشعرتُ ولا أزال أشعرُ وألاحظُ الكثيرَ من احترام الذات الذي يصل إلى حد المغالاة في التكبُّر أكثر مما شعرت أو لاحظت رثاء الذات، الذي ما هو في آخر الأمر إلا تنويع بسيط على نغمة احتقار الذات، شعورٌ من الأفضل تركه لما هو بطبيعته مثير لمشاعر الاحتقار.

* * *

في عام ١٩٣٩ وجدتني مُستخدَماً لأنتف الريش في مزرعةٍ لتربية أفراخ الحمام في إحدى تلك المجتمعات الصغيرة القائمة على أطراف لوس أنجلوس، سمعتُ أحدهم يصفُها بأنها عدد كبير من القرى تبحث عن مدينة. عملُ نتف ريش صغار الحمام ذاك لم يكن مربحاً كثيراً، ولكن كانت له تعويضاته غير المادية. فقد كانت مجموعةٌ من الشبان تجتمع عدة مرات في الأسبوع في " سقيفة القتل "، وهناك تُذبَحُ أفراخ الحمام وتُنتزَع أعناقها ثم تُعلَّقُ من سيقانها المرتعشة بجنون فوق دلوٍ يتلقَّى نزيفها حتى آخر رمق. ومقابل كل فرخ حمام ينتفه كلٌ منا ويعدُّه لإرساله إلى أسواق لوس أنجلوس كنا نُسقِطُ ريشةً في زجاجة حليبٍ فارغة تحمل اسم كل واحد منا ثم نتلقَّى أجرنا وفق عدد

الريش المتجمِّع في الزجاجات عند نهاية عمل يومٍ كامل. كنتُ أجده عملاً بغيضاً: أما التعويض الذي كنا نحصل عليه إلى جانب الأجر الضئيل، فهو الثرثرة الرائعة التي كانت تدور بيننا نحن جامعيّ الريش في تلك السقيفة، وأذكر، ولن أنسى ما حييتُ، مقولةً فلسفيّةً عفويةً تفوَّه بها أحد الصبية الأكثر ثقافة.

قال " أتدرون أنكم إذا ما عُلِّقتُم هكذا فترة طويلة في زاويةٍ من هذا الشاطئ فإنَّ نورساً سيظهرُ عاجلاً أم آجلاً ويطير فوقكم ويتبرَّزُ عليكم جرَّةً ملآى بالذهب " (لقد استعنتُ بهذه المقولة مرتين، مرةً في مسرحية ومرة أخرى في نصِ أحد الأفلام، لكنني لم أسمعها تُقالُ على خشبة المسرح ولا على الشاشة. ما علينا -).

بينما كنتُ أمارسُ ذلك العمل، هبطَ عليَّ حظٌ عظيم. فقد تلقَّيتُ برقيةً من جمعية المسرح في نيويورك تُنبئني فيها أني فزتُ بـ " جائزةً خاصة " قيمتها مائة دولار عن مجموعةٍ من المسرحيات ذات الفصل الواحد عنوانها " أحزانٌ أميركية ". هذه الرقيَّة كانت بتوقيع هارولد كلورمن، وإروين شو، والمرحومة مولي داي ثاتشر كازان.

أغلب الناس ما عادوا يذكرون أنَّ مبلغَ مائة دولار في أواخر الثلاثينات كان مقداراً كبيراً جداً من المال، في حين أنه الآن، كما تعلم، لا يكاد يكفي لإحضار فتاة تقضي معها ليلة. ولكنه في ذلك الوقت لم يكن فقط مبلغاً كبيراً وإنما عاملاً مُشجِّعاً ورافعاً للمعنويات، وقد كان التشجيعُ، في " حرفتي وفني الكئيبَين "، يُعتَبَرُ بالنسبة إليّ، حتى في تلك الأيام، أهمَّ بكثير من أي شيءٍ يمكنُ صرفُهُ على شكل نقود.

الحقيقة هي أني حين أستعيدُ ذكرى التهاني المخلِصة والخالية تماماً من الحسَد التي تلقَّيتُها من زملائي وأيضاً من رفاقي العمّال في مزرعة الحمام، أعجزُ عن أن أكون كارهاً للبشر. فكلُّهم كان يعرفُ أني كاتبٌ، وبالتالي أني مخبول، وهنا، حلَّقَ فجأةً طائرُ نورس فوقَ رُكني وتوَّجني بذاك المنّ السماوي، حتى أني لم أنتظر طويلاً في ذلك الركن.

لا شك في أنه كان في إمكاني أن أشتري على الفور بطاقةَ ركوب الحافلة وأتوجَّه إلى مانهاتن وأحصلَ على ما يكفيني من الطعام مدة أسبوع أو أسبوعَين في " جمعية الشبان المسيحيين "، لكني عوضاً عن ذلك اشتريتُ بأقلّ من عشرة دولارات دراجةً مستعمَلَة كانت في حالةٍ جيدة، وابتاعَ قريبٌ لي خالي البال يعملُ في مزارع الحمام

دراجةً بدوره وانطلقنا، من باب الاحتفال بالمناسبة، جنوباً على طريق عامةٍ تدعى كامينو ريل وقطعنا الطريق من مقاطعة لوس انجلوس - من هوثورن، على وجه الدقة - حتى الحدود المكسيكية وعبرناها على متن الدراجة. ذهبنا إلى تيجوانا وإلى أغواكاليينته وكلاهما كان مكاناً بدائياً في ذلك الوقت. كانت الأماكنُ بدائيةً وكنا سُذَّجاً وفي حانةٍ في بلدةٍ حدوديةٍ قابلنا - فلنقُل اكتشفنا أنَّ تلك الإلهة الجميلة الصغيرة كانت طبيعتها، أحياناً، مفترسة، وفي طريق عودتنا على طريق كامينو الحقيقية[٦] جداً متَّجهين شمالاً كان إعجابنا بالحانات المكسيكية وزبائنها قد قلَّ كثيراً. والحقيقة هي أنه لم يتبقَّ معنا تكاليف الإيواء الليلي على الطريق، ولكن كانت هناك حقول مُريحةٌ يمكنُ النومُ فيها تحت النجوم الكبيرة.

ثم تصادفَ أن مررنا في وادٍ صغير بالقرب من لاغونابيتش - وكانت بلدةً جميلةً في تلك الأيام - مررنا بمزرعةٍ لتربية الدجاج عُلِّقَ على مدخلها يافطة تقول " نحتاجُ إلى مساعدة ". وبما أننا نحن أيضاً كنا بحاجةٍ إلى مساعدة، انحدرنا إلى الدرب القذرة وتقدَّمنا إلى أصحاب المزرعة، كانا زوجاً عجوزين يريدان استخدام حرَاس للدجاج مدة شهرين أثناء قضائهما إجازة في مكانٍ ما. (ولا أدري ما الذي كان يجذبني إلى الأعمال المتعلِّقة بالدواجن في تلك الأيام؛ لم ينجح أي تحليلٍ في تقديم أي تفسير لي).

لم يكن الزوجان العجوزان المحترمان صاحبا مزرعة الدواجن قد أصابا ثراءً من وراء المزرعة، بل إنَّ الحقيقة هي أنهما بالكاد كانا يتمكَّنان من إطعام الدجاج، وقالا، بنبرةِ اعتذارٍ مؤثِّرة، إنَّ كلَّ ما في وسعهما أن يقدماه إلينا من باب التعويض هو أن نشغلَ الكوخَ الصغير الكائن في مؤخر حظيرة الدجاج. فأكَّدنا لهما أنَّ وَلَعَنا بالدجاج يكفي لجعل عملنا ممتعاً، وانطلقا لقضاء إجازتهما وانتقلنا إلى الكوخ وأقمنا علاقات وديّة مع الدجاج منذ أن نثرنا له وجبته الأولى.

لا أدري ما آلَ إليه شاطئ لاغوانا الآن ولكن في الثلاثينات كان مكاناً لطيفاً يحلو فيه قضاء أيام فصل الصيف. فثمة مباريات في الكرة الطائرة، وتزلُّجٌ على الأمواج ومتزلجون، وتجمُّع الفنانين وأشياءَ أخرى كثيرة وكانت كلها تُشيعُ البهجة. ويبدو لي أنَّ أفضلها كان ركوب دراجتينا وارتقاء منحدر الوادي الضيِّق عند أول بوادر

الظلام في تلك الأيام حين كانت السماءُ ما تزالُ أشبه بقصيدة. وكانت الكلابُ في كل مزرعةٍ على طول الطريق تنبحُ علينا، ليس مهدِّدة، وإنما فقط لتُعْلِمَنا أنها تؤدي عملها.

أعتقدُ أنَّ فصلَ الصيف كان أسعد أوقات حياتي وأكثرها صحةً وتوهُّجاً، وأنا أحتفظُ بيوميات عن تلك الفترة، وفيها أشرتُ إلى ذلك الفصل بوصفه " نافه نافه ماهانا " وهو عنوان لوحتي المفضَّلة (التاهيتية) لغوغان، والذي يعني " الأيَام الرخيّة".

هكذا مرَّ الوقتُ حتى حلولِ شهر آب، الشهرُ الذي تجنُّ فيه السماءُ في الليل، فتعُجُّ بالشُهُب التي لها بدون شك تأثيرها على قَدَرِ البشر، وحتى بعد أن تُشرق الشمس.

باختصار: حلَّت الكارثة. انقضَّتْ أولاً على الدجاج ومن ثم ارتدَّتْ لتضربنا. فقد خرجنا ذات صباح صافٍ كالبلور من كوخنا لنكتشف أنَّ ما يُقاربُ ثلث ذلك السرب ذي الريش مستلقٍ على ظهره وجنبه وقد امتدَّت قوائمه في وضع rigor mortis (التيبُّس الدالّ على الموت)، وأنَّ الناجين من ذاك الوباء المباغت ليسوا بأفضل حال. كانوا يتجولون دائخين داخل حظيرتهم كأنما صدمهم الحزنُ على رفاقهم الموتى، وبين الحين والآخر يُطلِقُ أحدهم صرخةً عاليةً ثم ينطرحُ أرضاً ولا يُبدي أي حِراك. ولم نعرف أبداً ماذا كان ذلك المرض. إلا أنَّ هذا كان نهاية الـ " نافه نافه ماهانا ".

كان صديقي قد نجحَ بشكلٍ ما في الحصول بطريقةٍ قانونيةٍ على سيارةِ فورد عتيقة بالية، وفي وقتٍ متأخِّرٍ من يوم الكارثة فارقني وبتُّ وحيداً مع الدجاج الذي ضرَبَه الوباء، وكدتُ أحسده على مصيره. وأعتقد أنَّ تلك كانت أطول مدة أقضيها وأنا جائع. أمضيتُ نحو عشرة أيام بدون طعام اللهمَّ ما عدا بعض البقايا من البقول الجافة وبعض ثمار الأفوكاتو التي كنتُ أسرقها بين حين وآخر من أحد الكروم في الوادي. وقد بقيتُ على قيد الحياة بهذه المقادير السقيمة، بما أنَّ الدجاجَ الناجي ببطولة وإنْ كان موبوءاً لم يعد صالحاً للمقلاة أو لقدْر الطبخ. وأنا نفسي أُصِبتُ بعطالةٍ غريبةٍ جعلتني غير راغبٍ في مغادرةِ المزرعة، وعلى كل حال لم يكن قد تبقَّى معي قرش واحد، ولا حتى ما يكفي لإرسال رسالة التماس فيما لو كنتُ مستعداً نفسياً للتعرُّض لمثل ذلك الإحراج.

إلا أني أدركتُ أنَّ المرءَ بعد أن يُمضي قرابة الثلاثة أيام في شبه جوعٍ تام يكفُّ عن الإحساس بالجوع. فالمعدة تتقلّصُ، والتشنُّجات المِعَديّة تهمدُ، ويهبطُ عليكَ الله أو كائنٌ ما خفِيّةً ويَرزقُكَ بما يُسكِّنُ الألم، فتجدُ نفسك تغوصُ بشكلٍ غريبٍ، وبطريقةٍ مبهمةٍ تماماً، في حالةٍ من السكينة، وهذه الحالة مثاليّةٌ لممارسة التأمُّل في الأحداث الماضية أو الحاصلة أو القادمة، على التوالي.

بعد مُضيِّ أسبوعَين على تلك الحالة، الرتيبةُ في مجملها، سمعتُ حزامَ صديقي المحلول يقرقعُ من الإرهاق متَّجهاً نحو الكوخ ودخلَ وعلى وجهه ابتسامةٌ اعتياديةٌ عريضةٌ وكأنه غادرني قبل عشر دقائق.

أثناء غيابه كان يعزفُ على آلة الكلاينيت في ملهى ليليٍّ بالقرب من لوس أنجلوس، وقد تلقّى أجرَ أسبوع. وكان ذلك المبلغ كافياً لإيصالنا إلى جبال سان برناردينو لقضاء فترةِ نقاهة من محنتنا الشخصية.

كنتُ في ذلك الصيف قد تلقَّيتُ رسائلَ من وكلاء متعددين في برودواي كانوا قد قرؤوا اسمي في أعمدة المسرح باعتباري الفائز " بالجائزة الخاصة " لجماعة المسرح. قالت وكيلةٌ منهم إنها ليست مهتمَّةً بالمسرحيات الجادَّة إلا أنها تبحثُ عن " وسيلة نقل " جيدة. فكتبتُ أقول لها إنَّ وسيلة النقل الوحيدة التي في وسعي أن أزوِّدها بها هي دراجةٌ مستعملة. ولكنَّ سيدةً أخرى، هي أودري وود، أبدت اهتماماً أكثر جدِّيةً، وبناءً على نصيحةٍ من مولي داى تاتشر كازان اخترتُ الآنسة وود لتمثِّلني، وقد تبنَّتني هذه المرأة الضئيلة الأنيقة التي كان زوجها يدعوها بـ " عملاق المسرح الأميركي الصغير " - وكان كِلاهما ذا بنيةٍ جسمانيةٍ ضئيلة - قَبِلَتني، بدون أن تراني، موكِّلاً لها وظلَّتْ تُمثِّلني فترة طويلة، طويلة.

في أواخر خريف عام ١٩٣٩، وأثناء فترة اعتكافٍ في علِّيةِ منزلِ العائلة في ضواحي سينت لويس، تلقَّيتُ برقيةً من الآنسة لويز. م سيلكوكس، التي كانت في ذلك الوقت تشغلُ منصبَ السكرتير المُنفِّذ لنقابة الكُتَّاب المسرحيين، ومكالمةً هاتفيةً من أودري وود تنبئانني بأني حظيتُ بمنحةٍ مقدارها ألف دولار، وحثَّتني السيدتان على اللحاقِ بأوَّلِ حافلةٍ متوجِّهةٍ إلى مدينة نيويورك، مركز النشاط في تلك الأيام، ولعلها لا تزال كذلك.

حين وصلَ النبأ كانت والدتي، السيدة إدوينا (كورنيليوس. سي) ويليامز التي لا تُقهَر، أول مَنْ تلقَّاه. وانهارت فوراً. وأعتقدُ أنها كانت المرةَ الأولى التي أراها فيها تبكي وكان مشهداً مُذهلاً جداً وما زال يؤثِّرُ فيَّ بعمق، ذلك المشهد وصرختها " أوه، توم، كم أنا سعيدة! "

طبعاً كانت سعادتي تُعادلُ سعادتها ولكن لسببٍ ما لم يؤثِّر بي حُسنُ الحظ أبداً إلى حدِّ البكاء، ولا سوء الحظ، في هذا المجال. إنني أبكي فقط أثناء مشاهدة الأفلام العاطفية وهي أفلامٌ رديئةٌ في المعتاد.

سينت لويس ليست جزءاً كبيراً من العالم وقد احتلَّتْ فكرةُ استثمار مجموعةِ روكفلر ألف دولارٍ في موهبتي ككاتب، والتي كانت تفتقر إلى الكثير في مجال البرهان الفعلي في ذلك الحين وربما حتى بعد ذلك ببعض الوقت، احتلَّتْ قدْراً كبيراً من الاهتمام المحلِّي. وقد وجَّهتْ ثلاثُ من صُحُف سينت لويس الدعوة إليَّ للمجيء إلى مكاتبهما لإجراء مقابلاتٍ صحفية حول موضوع هذه المنحة.

الحقيقة هي أننا لم نكن دائماً معروفين كثيراً بتلك الصورة المُحبَّبة في مدينة سينت لويس الباردة، بل إننا، أختي روز وأنا، كنا معزولين تماماً هناك أثناء فترة طفولتنا ومراهقتنا. بالإضافةِ إلى أنه على الرغم من أنَّ والدي كان في وقتٍ مبكِّرٍ قد اكتسبَ نوعاً من السمعة السرِّية كونه عضواً ذا شأن في شركةِ الأحذية العالمية. فقد تعرَّضَ لمغامرةٍ مؤسفةٍ جداً أثناء لعبة بوكر استمرَّتْ طوال الليل في فندق جيفرسن قبيل انتباه مجموعة روكفلر إليَّ، ولم يُعلَن عن تلك المغامرة على الملأ إلا أنه دارتْ أقاويلُ كثيرةٌ عنها. فقد سبَّ أحدُ لاعبي البوكر أبي ووصفه بـ " ابن العاهرة "، ولما كان والدي ينحدر من سلالةٍ شرعيةٍ وشهيرة من شرق تنيسي، فقد ضربَ ك. ك ابن الحرام وطرَحَه أرضاً ثم عادَ ابن الحرام فنهضَ بسرعةٍ متحاملاً على نفسه وعضَّ أُذُن والدي وقطعها، أو على الأقلِّ قطعَ معظم جزئها الخارجي، فأُرسلَ والدي إلى المستشفى لإجراء عمليةٍ تقويمية. واقتُطِعَ غضروفُ من ضلوعه وقطعةُ جلدٍ من مؤخرته إلا أنَّ الجزءَ المقطوعَ من أذُنه لم يُستَعَدْ تماماً وإنما رُقِّعَ بشكلٍ تقريبيِّ يفتقرُ إلى البراعة. وقد سبَّبَتْ الثرثرةُ التي دارت حولَ هذا الحادث شيئاً من السُمعةِ السيئةِ للعائلة في سينت لويس وفي المقاطعة، وانزاحَتْ عني عندما حظيتُ بهذه المنحة من مجموعة روكفلر، وأعتقدُ

أنه لا ضيرَ في القولِ إنه منذ ذلك الحين أصبحَ هناك اهتمامٌ عامٌ وخاصٌ بتقلُّبات مقاديرنا...

* * *

في يوم الأحد تناولتُ طعامَ الغداء مع الشاعر الروسي " العظيم " يفتوشنكو. زارني في " الجناح الفيكتوري " متأخِّراً ما يُقاربُ الساعة يُرافقه رجلٌ بدينٌ جداً وصامتٌ. قال إنه جاء به كمترجم - وهذا أمرٌ غريبٌ لأنه على معرفةٍ تامةٍ باللغةِ الإنكليزية.

كان في الليلةِ السابقةِ قد ذهبَ بوصفه ضيفي لحضورِ عرض مسرحيتي " محاذير المهنة الصغيرة "، وعلى الفور شنَّ هجوماً على المسرحية.

" إنكَ لم تضعْ فيها إلا قُرابةَ ثلاثين في المائة من موهبتك، وهذا ليس رأيي أنا فقط بل رأي الناس الذين كانوا جالسين من حولي ".

تألَّمتُ لكلامه إلا أني حافظتُ على هدوئي.

قلتُ بهدوءِ سيدةٍ جنوبيةٍ " يسعدني كثيراً أن أعرفَ أني لا أزالُ أنطوي على قدرٍ كبيرٍ من موهبتي "

وراحَ يتكلَّمُ ويتكلَّمُ، وكان لفَّافاً دوَّاراً جداً بالإضافةِ إلى كونهِ شاباً جذاباً، وتجاوزنا وقتَ إغلاقِ المطعمِ في الفندق الذي كنتُ أُقيمُ فيه.

لا أعرفُ إنْ كان هو أم أنا مَنْ اقترحَ أن نذهب إلى البلازا، التي في الإمكان بلوغها سيراً على الأقدام.

بعد أن وصلنا واتخذنا مجلسنا في غرفة السنديان أخبرني أنه خبير في أنواع النبيذ. وعملَ على إقامة الدليل من فوره باستدعاء قهرمان النبيذ بتلك الغطرسة التي يتميَّزُ بها سلوكه وهو في الولايات المتحدة. أمَرَ بإحضار زجاجتين من نبيذ شاتو لافيت روتشيلد (وثمن الواحدة نحو ثمانين دولاراً في البلازا)، وبعدهما زجاجة فارغو إضافية. ومن ثم نادى على الرئيس ليُملي عليه طلبَه على العشاء. طلبَ (وحصل على ما أراد) طاساً كبيراً من كافيار الدلفين مع الإضافات المناسبة، وأفضل فطيرة لحم وأغلى أنواع شرائح اللحم له ومثلها لـ " مترجمه " الشَرِه.

هنا استولى عليَّ الغضب قليلاً، فنعتُّه بـ " الخنزير الرأسمالي " - استخدمت العبارة ممزوجة بشيءٍ من الفكاهة. ومن ثم بدأتُ أشنُّ عليه هجوماً مُضاداً.

قلت له " بما أني شاذ جنسياً يهمُّني كثيراً أن أعرفَ طريقتك (الروسية) في التعامُل مع أمثالي في بلدكُم "

" هذا هراء محض. نحن في روسيا ليست لدينا مشكلة شذوذ جنسي "

" أوه، حقاً! ما رأيك، إذن، بدياغليف، ونجنسكي، أو ببعض الفنانين الآخرين الذين تركوا الاتحاد السوفييتي ليتجنَّبوا عقوبة السجن لأنهم من أمثالي؟ "

ظلَّ يصرُّ قائلاً " نحن لا نعاني على الإطلاق من أي مشكلة حول الشذوذ الجنسي"

كان النبيذ ممتازاً، طبعاً، وتحسَّنَت أمزجتنا تحت تأثيره. قال لي إنني أصبحتُ مليونيراً في روسيا جرأء حقوقي الشرعية من عَرْض مسرحياتي هناك وأنَّ عليَّ أن أذهب وأعيش منها كملك "

قلت " مهما كان الوضع، أُفضِّل أن أبقى بعيداً عن روسيا "

تواصَلَ تناول وجبة العشاء حتى وقت الإغلاق في غرفة السنديان، ثم جاءت الفاتورة وكانت من الضخامة بحيث احتلَّ إدراجُ بنودها ثلاث صفحات...

قدَّمَ إليَّ أحدث مجموعة شعرية له، ممهوراً بإهداءٍ عظيم التنميق يُعبِّرُ عن الاحترام والحب.

أثناء جدالنا حول ما إذا كانت هناك مشكلة شذوذ جنسي في الاتحاد السوفييتي، قلتُ له " آمل ألاّ تظن أني أثرتُ الموضوع بغرض التخطيط لإغوائك "

أعتقدُ أنه يرى أني مجنون تماماً، وأعتقدُ أني أحملُ الرأيَ نفسه عنه، بالإضافةِ إلى" الاحترام والحب ".

* * *

بعد انتهاء اللغط الذي دارَ حول هِبَة روكفلر، غادرت سينت لويس متوجِّهاً إلى نيويورك، وقد وصلتُ إلى المدينة بواسطة الحافلة عند انبلاج الفجر. لم أكن قد أخذتُ قسطاً من الراحة ولا حلقتُ ذقني، وحين قدَّمتُ نفسي إلى مكاتب مؤسسة ليبلينغوود الكائنة في أعلى أعالي المبنى الكائن في ٣٠ بلازا روكفلر كان مظهري مُزرياً جداً.

كانت غرفة الاستقبال ملآى بفتيات يسعين إلى الحصول على عملٍ في جوقةِ أحد العروض الموسيقية التي كان السيد ليبلنغ، زوج وكيلتي الأولى، أودري وود، يوزِّع أدوارَ ممثليها، كُنَّ يتجولّنَ في المكان، يشقشقنَ كعصافير تقفُ فوق أعالي نبتة الجنون،

ثم جاء السيد ليبلنغ خارجاً من مكتبه الخاص الداخلي يُصدرُ تعليماته وهتفَ " أوكيه يا فتيات، قفن في الصف الآن! "، فانضمَّ الجميع إلى الصف ما عدايَ. بقيتُ جالساً على كرسي في إحدى الزوايا. وتمَّ انتقاء عددٍ من الفتيات لتجربةِ الأداء، ورُفِضَتْ الأخريات بلطفٍ، فانطلقنَ يشقشقنَ. ثم لاحظَ ليبلنغ وجودي فقال لي " لا شيء لأجلكَ هذا اليوم "

قلتُ " أنا لا أريدُ أي شيء اليوم غير أن أُقابل الآنسة وود "

وفي اللحظة التي أنهيتُ عبارتي هذه دَخَلَتْ إلى المكتب الخارجي امرأةٌ ضئيلةُ الحجم جداً وأنيقة ذات شَعرٍ أحمر، وبشرةٍ ناعمةٍ وفي عينيها تطلُّ نظرةٌ تنمُّ عن ذكاء حادّ هادئ لا تزالُ موجودة هناك حتى هذا اليوم.

خمَّنتُ أنَّ تلك هي السيدة التي جئتُ لمقابلتها ولم أكن مُخطئاً. نهضتُ واقفاً وعرَّفتها بنفسي، فقالت "عال، عال، أخيراً نجحتَ في الوصول". فأجبتُها "ليس بعد"، ولم أقصد بهذا المُزاح وإنما كنتُ جاداً، وشعرتُ بالخيبة بسبب نوبةِ ضحكها العابثة.

٢

أعتقدُ أنه من نافل القول إني كنتُ ضحيّةً لمرحلة مراهقة تتّسِمُ باضطرابٍ شديد. والمشاكل بدأتْ قبل حلول فترة المراهقة: أظنُّ أنَّ من الواضح أنها مُتجذِّرةٌ في الطفولة.

سنوات طفولتي الثماني الأولى في ميسيسيبي كانت الأبهج ببراءتها في حياتي كلها، وذلك عائد إلى الحياة المنزلية الرحيمة التي وفَّرَها لي جَدّايَ الحبيبان من آل ديكن، اللذان عشنا معهما، وإلى العالم المجنون الجميل نصف الوهمي الذي كانت تخلقه أختي مع ممرِّضتنا السوداء الجميلة أوزي، العالم المُستقلّ، والخفيّ على أي إنسانٍ إلا على حَلَقَتنا الثلاثيّة السرِّية الصغيرة.

ذلك العالم، ذلك الزمن الفاتن، انتهى مع انتقالِ العائلة السريع إلى سينت لويس. هذا الانتقال سَبَقَه، من جانبي، مرضٌ شخَّصَه طبيبُ بلدةٍ صغيرةٍ في ميسيسيبي بأنه دفتريا مصحوبة بمضاعفات. استمرَّ عاماً، وكادَ يقتلني، وبدَّلَ في طبعي بشكلٍ متطرِّفٍ بقدر ما فعله في صحتي الجسدية. قبْلَه كنتُ صبياً صغيراً ذا طبيعةٍ عنيفةٍ، عدوانيةٍ، وكادت تكونُ مُتنمِّرة. وأثناء فترة مَرَضي تعلَّمتُ أن ألعبَ وحدي، ألعاباً من اختراعي.

من بين هذه الألعاب واحدةٌ أتذكَّرها بوضوح كنتُ أُمارسها بورق اللعب. ولم تكن لعبةً أُحاديّة. وكنتُ قبل ذلك قد قرأتُ " الإلياذة " فحولّتُ الأوراق السوداء والحمراء إلى جيشين متقابلين يتقاتلان لاحتلال طروادة. الأوراق المَلَكية، التي تحمل وجوه كلٍ من الإغريق والطرواديين، كانت تُمثِّلُ الملوك، والأمراء، والأبطال، والأوراق ذات الأرقام فقط كانت تمثِّلُ الجنودَ العاديين. وكانوا يتقاتلون كما يلي: أضربُ ورقةً حمراء بأُخرى سوداء والتي تقعُ منهما على غطاء السرير بوجهها إلى أعلى تكونُ المنتصرة. وكان مصيرُ طروادة، بعيداً عن حقائق التاريخ، تُقرِّره فقط تلك الجولات الصغيرة بين الأوراق.

خلال فترة المرض تلك وممارسة الألعاب الفردية، زرَعَتْ عنايةُ أمي المُغالية في الوسوسة فيَّ عناصرَ تكوين الخنوثة، مما أثارَ سخطَ والدي الشديد. وكنتُ أُمِّي باطراد شخصيةً هجينٍ، تختلفُ عن سلالة العائلة من أبطال معارك الحدود في شرق تنيسي.

كانت سلالة والدي سلالةً لامعة، وقد عفا عليها الزمن الآن، على الأقلّ من ناحية الشُهرة. كان ينحدرُ منها مباشرةً من أول حاكم لتنيسي جون (نوليتشكي جاك) سيفيير، ومن توماس لانيير ويليامز الأول، أول مستشار للمنطقة الغربية (وهو اسم ولاية تنيسي قبل أن تغدو ولاية). وطبقاً لسلاسل الأنساب المُدوَّنة، يمكنُ تقصِّي نَسَبَ آل سيفيير في الماضي حتى مملكة نافار الصغيرة، حيث كان أحدهم تحت حماية ملك البوربون. ثم تفرَّقَ شمل العائلة إلى فروعٍ دينية: بين رومان كاثوليك وهوغونوتيين[٧].

ظلَّ الكاثوليك منهم يحملون اسمَ كزافييه، أما الهوغونوتيون فبدَّلوا الاسمَ إلى سيفيير حين فرّوا إلى إنكلترا أثناء مذبحة القديس بارتولوميو. والقديس فرانسيس كزافييه، الذي تُنسَبُ إليه هداية العديد من الصينيين - وهي، في رأيي، مهمَّةٌ باسلةٌ لكنها دونكيخوتيّة - هو أقربُ فرد في العائلة يدَّعون شهرته العالمية.

ثم جاءَ جدّي لوالدي، توماس لانيير ويليامز الثاني، ليُبدِّد ثروته وثروة زوجته على الاشتراك في حملاتٍ فاشلةٍ للفوزِ بمنصبِ حاكميّة تنيسي.

واليوم حُوِّلَ مقرُّ آل ويليامز المَهيب العريق الكائن في نوكسفيل إلى دارٍ للأيتام أسود اللون - نهاية طيِّبة له.

السؤال الذي يواظبُ الصحفيون ومُقدِّمو برامج الأحاديث على طرحِه عليَّ بتكرار مملٍ هو " كيفَ أُطلِقَ عليكَ اسم تنيسي في حين أنك ولِدتَ في ميسيسيبي؟ ". إذن كان ما سبق هو تبريرُ لَقَبي المِهني - وها قد انغمست في نقطةِ الضعف الجنوبية المُتمثِّلة في تسلُّق شجرةِ العائلة.

إنَّ أبي، كورنيليوس كوفن ويليامز، ترعرعَ بدون أن يتلقَّى غالباً التأثيرَ المُرطِّب للأم بما أنَّ الجميلةَ إيزابيل كوفن ويليامز قد توفيتْ بمرض السل وهي في سن الثامنة والعشرين. وبالتالي تكوَّنَتْ له شخصية خشنة صلبة. ولم تلِن في أكاديمية بلبكل العسكرية حيثُ أمضى أغلب وقتَه في مقرِّ الحراسة لمراقبة خرق القوانين، وهناك كان يقتاتُ فقط على اللفت، الذي لم يكن يسمحُ قط بظهوره على مائدة العائلة. وبعد أن

درسَ القانون مدة عام أو عامَين في جامعة تنيسي، رُقِّيَ إلى رتبةِ ملازم أثناء الحرب الأميركية الأسبانية، وأُصيبَ بحُمَّى التيفوئيد، وفَقَدَ شعرَه كله. وتدَّعي أمي أنه ظلَّ وسيماً إلى أن أصبحَ يُسرِف في الشراب. أنا لم أره أبداً خلال فترة امتناعه عن الشراب ولا في زمن وسامته.

لكنَّ الإسرافَ في الشراب لا يضرُّ بسُمعة بائعٍ متجوِّل من ميسيسيبي. فبعد عمله فترةً قصيرة في مؤسسة الهاتف، أصبحَ بائعَ أحذية وحَظيَ بالشعبية وبالنجاح في هذه المهنة المتنقِّلة واكتسبَ أثناء ممارستها وَلَعاً بلعب البوكر وبالنساء المستهترات - مما زادَ من مصادر كرب أمي.

كان بائعاً جوّالاً جيداً جداً حتى أنه رُقِّيَ ليصبحَ وكيلَ مبيعاتٍ لأحدِ فروعِ شركةِ الأحذية العالمية في سينت لويس - ترقيةً أخذتنا إلى سينت لويس حيث تقعُ مكاتبُ شركة الأحذية للبيع بالجملة الرئيسية، وتسبَّبَتْ أيضاً في حرمان والدي من الحرية والحياة الطائشة اللتين كانتا عِماد سعادته.

وذهبَ أبي إلى سينت لويس قبل أمي وروز وأنا.

استقبلنا في محطة يونيون. وحالما غادرنا ذلك البناء الحجري الرمادي ذي التصميم الغريب، والمُهدَّد الآن بالإزالة، مررنا بكشكٍ منفرد لبيع الفاكهة. ولدى مرورنا به مددتُ يدي وقَطَفتُ حبة من العنب، فانهالَ أبي بصفعةٍ موجعةٍ على يدي وهدرَ في وجهي " إياك أن تجعلني أراكَ تسرقُ ثانيةً! "

لو أني أُدرِجُ الجوانب المنفِرة لشخصيته في لائحة لامتدَّتْ كثيراً: الصدق التام والالتزام التام بالحقيقة، كما يراها هو، في تعامُله مع الآخرين.

كان منزلنا الأول في سينت لويس كائناً في ويستمنستر بليس، وهو شارع جميل مأهول محفوف بصفَّين من الأشجار الضخمة أضفتْ عليه مسحةً جنوبية. وعقدتُ أنا وروز صداقات وقضينا حياةً طفوليّةً ممتعةً بينهم، نلعبُ لعبةَ " الغمّيضة " و " طِرْ، يا غنم، طِرْ "، ونستحمّ تحت مياه خراطيم الحديقة في حَرّ الصيف. كنا على مرمى حجر من حوض سباحة لوريلي ومن دار سينما ويست إند ليريك وكنا نتسابقُ بالدراجات حول المبنى. وكانت أقرب صديقات روز طفلة جميلة أمُّها مُتكبِّرة تتفوهُ بملاحظات خبيثة عن أمي وأبي أمامنا. وأذكر أنها قالت ذات مرة " السيدة ويليامز دائماً تسير في الشارع

كما كانت تسيرُ على الممشى الخشبي في مدينة أتلانتيك، والسيد ويليامز يتبخترُ مُختالاً كأمير ويلز.

لا أدري لماذا انتقلنا من محلّة ويستمنستر بليس إلى رقم ٥ جنوب تيلر، ربما لأنَّ شقة جنوب تيلر كانت مُشمسةً أكثر (كانت أمي تتعافى من " بقعة في رئتيها "). على أي حال، كانت تلك خطوةً واسعةً باتجاه أسفل السُلَّم الاجتماعي، وهو أمرٌ ما كنا لنوليه أي اهتمام ونحنُ في ميسيسيبي، وتخلّى عنا أصدقاؤنا السابقون كلُّهم نهائياً – لأنَّ سينت لويس كانت من الأماكن التي يشكِّلُ موقع السكن فيها أهمية رئيسية. هذا، بالإضافة إلى الالتحاق بمدرسة خاصةٍ والاشتراك في نادي سينت لويس الريفي أو في أحد المراكز التي تعادله في الاحترام، وحضور دروس ماهلر في الرقص وركوب النوع المناسب من السيارات.

وهكذا بات علينا أن نعقد صداقات جديدة.

وسرعان ما تعلّقتُ بطفلٍ مشاكس صغير يُدعى ألبرت بدينغر، كان كثير المُزاح كأولاد آل كاتزنجامر. لا أذكرُ إلا عدداً قليلاً من أولئك المهرِّجين الذين كانوا لا يتورَّعون عن رمي حجرٍ على نافذةِ منزلٍ فيه طفلٌ متخلّف عقلياً، ويُلصِقون جبن ليمبرغر على غطاء مشعاع سيارةٍ متوقِّفة. ثم كان هناك غاي شو، وهو طفلٌ أيرلندي عنيف أحمر الشَعر وكان يُسعده أن يدفعني إلى المجرور، بنوعٍ من الإزعاج الودود لم أكُن أُحبِّذه قط. في أول الأمر كنتُ أقضي فترات بعد الظهر الحُرَّة كلها مع ألبرت، أشاركه باستمتاعٍ في مُزاحه. كنتُ مُكرَّساً له بإخلاص وهكذا عاملني بدوره. وفجأةً خرجتْ أمي بأحد مراسيمها العالية: إنَّ لألبرت تأثيراً مخيفاً عليَّ ويجب ألاّ أقابله بعد الآن.

استشاطت السيدة بدينغر غضباً وأذكرُ كيفَ أتتْ لتتحدَّث مع أمي بهذا الشأن.

أعلنتْ قائلة " إنَّ ابني فتى أميركي مفعم بالنشاط "، ورمتني بنظرةٍ عابسةٍ تشيرُ بوضوح إلى أني عكس ذلك تماماً.

قمتُ بمحاولةٍ أو اثنتين سراً لمواصلة صداقتي مع ألبرت، إلا أنَّ السيدة بدينغر عاملتني ببرود حين كنتُ أنسلُ إلى هناك ولم يبدُ على ألبرت الاهتمام بالأمر.

كانت ممارسة التكبُّر الخبيثة عند " الطبقة الأميركية الوسطى " تجربة جديدة بالنسبة إلى روز وإليّ وأعتقد أنَّ اكتشافها المفاجئ والفظ كان له أثر مؤذٍ كثيراً على

حياتنا. فلم يخطر قط على بالنا أنه يمكن للمعوِّقات المادية أن تُقصينا عن أصدقائنا. في ذلك الوقت تقريباً، وأنا في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، بدأتُ أكتبُ القصص - لعله كان إجراءً تعويضياً...

ولكن الآن سآتي على ذكر أول لقاء لي مع هيزل.

كان آل كريمر يقطنون في مكانٍ قريبٍ منا في الشارع الوحيد الرائع في الجوار، شارع يتألَّف بأكمله من مساكن مع حديقةٍ عامة مزروعة بالأشجار، شارع يُدعى شارع فوريست.

وفيما بعد ظهيرة أحد الأيام سمعتُ طفلاً يصرخُ في الزقاق الخلفي لهذا الشارع. فقد كان بعض الشبان المشاغبين يضربون، لسببٍ مجهول، فتاة صغيرة مكتنزة، بالحجارة. وهرعت إلى نجدتها، ولجأنا هاربين إلى منزلها ومنه مباشرة إلى العلّية. وهكذا بدأتُ أشدّ صداقات طفولتي متانةً، نضجتْ فأضحتْ ارتباطاً رومانسياً.

كنت حينئذٍ في الحادية عشرة، وكانت هيزل في التاسعة. صرنا نُمضي فترات بعض الظهر في علّية بيتهم. ولما كنا طفلَين جامحي الخيال أخذنا نخترعُ ألعاباً كثيرة، أما التسلية الرئيسية التي أذكرها فهي القصص المصوَّرة التي كنا نفبركها. وكانت هيزل تُحسِن الرسم أكثر مني وكنتُ أتفوَّقُ عليها في فبركة الحكايات.

كانت السيدة كريمر العجوز، جدّة هيزل، تحتلُّ مركزاً بارزاً مُفعماً بالنشاط في الوسط الاجتماعي لسينت لويس؛ ومنتسبة إلى النادي النسائي، وتقود سيارة لامعة " كهربائية " وتتصرَّفُ بأسلوبٍ فخم.

في أول الأمر أبدتْ أمي ارتياحها لأني أرافقُ هيزل، وليس ألبرت بدينغر أو بقية أولاد لاكليد وساوث تيلر العنيفين.

كانت هيزل حمراء الشعر وذات عينين بُنِّيتين براقتين كبيرتين وبشرة شفَّافةٍ كاللؤلؤ وتملك ساقَين فائقتيّ الجمال وقد برز صدرها باكراً: كانت تميلُ إلى الامتلاء، كأمها (التي كانت أشبه بكرةٍ من الزبد)، إلا أنَّ طولها كان لا بأس به. والواقع أنه حين بلغتُ السادسة عشرة وأصبحتْ هيزل في الرابعة عشرة كانت قد أضحت أضخم جثة مني وبدأتْ عادة الانحناء قليلاً إلى الأمام أثناء سيرها إلى جانبي عَلَناً خشيةَ أن أُحرَج من التفاوت في طول قامتينا.

أعتقدُ أنه يمكنني أن أقول بكل صدق، على الرغم من العلاقات الجنسية الشاذة التي بدأتُ بممارستها بعد ذلك بسنين عديدة، إنها كانت حبَّ حياتي العظيم خارج النطاق العائلي.

لم توافق أمي على علاقتي الوثيقة بهيزل، التي كانت تتطوَّر، ولهذا السبب لم تعُد مس إدوينا تريدني أن أعقد أي صداقات؛ فالأولاد أعنفَ من أن يتوافقوا مع ولدها الرقيق، توم، ثم إنَّ الفتيات، طبعاً، " مبتذلات " جداً.

أخشى أنَّ هذا الكلام كان ينطبقُ أيضاً على موقف المس إدوينا من صداقات أختي وعلاقاتها الرومانسية الصغيرة. وفي حالة روز كانت نتائجها أكثر مأساوية.

اعتراضُ مس إدوينا كان أولاً على والدة هيزل، مس فلورانس، ومن ثم على هيزل. وكانت مس فلورانس تكتُمُ يأسَها وهي في المنزل بإظهار حيويةٍ شديدةٍ وبميلٍ إلى التصرُّف برُقيٍّ وأناقةٍ وهي خارجه. كانت تعزفُ على آلة البيانو سماعيّاً بمهارةٍ فائقةٍ وبجَهَارةٍ عاليةٍ جداً وتتمتَّعُ بصوتٍ شجيٍّ، قويّ وممتاز. وكانت كلما وَلَجَتْ شقَّتنا تتَّخذُ لها مجلساً أمام البيانو العمودي[٨] وتباشرُ غناء إحدى الأغنيات الشائعة حينئذٍ، والتي لا تكونُ معروفةً قط لدى مس إدوينا.

وطبعاً كانت المس إدوينا تُسمِع المرأة المُطلَّقة عباراتها المنتقدة بأسلوبٍ مهذَّب.

" أخشى، يا مس فلورانس، أنك تنسين أنَّ حولنا جيراناً والسيدة إبس القاطنة فوقنا تتذمَّرُ أحياناً حين يرفع كورنيليوس صوتَه ".

غالباً ما كان ردُّ مس فلورانس فعَّالاً فتقول إنه يمكن للسيدة إبس القاطنة في الطابق العلوي أن تذهب إلى الجحيم، لأنَّ أمرها لا يهمُّها في شيء...

في آخر مرة زرتُ سينت لويس، لقضاء عطلة عيد الميلاد، صحبني أخي ديكن إلى الأماكن القديمة كلها التي عشنا فيها أيام الطفولة. وكانت جولةً مثيرةً للشجن. لقد فَقَدَتْ ويستمنستر بليس وشارع فوريست بارك كلّ ما كانا يتمتعان به من فتنة العشرينات. فالمساكن العتيقة الكبيرة قد حُوِّلَتْ إلى شُقَقٍ مفروشةٍ رخيصةٍ أو جُزِّئَتْ إلى شُقَقٍ مزدوجةٍ لا وصفَ لها وأبنيةٍ من شُقَقٍ صغيرة.

منزلُ آل كريمر كان قد أُزيلَ: والحقيقة هي أنَّ أفراد العائلة كلهم، بمن فيهم هيزل العزيزة، كانوا عندئذٍ قد ماتوا.

إنَّ هذا لا يُمثِّلُ إلا فاتحةً، في هذا " الشيء "، لقصة حبي الكبير لهيزل، وهي غير كافية على الإطلاق لتكونَ كذلك...

* * *

خلال فترة مراهقتي في سينت لويس، وأنا في سن السادسة عشرة وقعت عدة أحداث هامة في حياتي. ففي عامي السادس عشر كتبتُ قصة " انتقام نيتوكريس ". وقد نُشِرَ لي للمرة الأولى في إحدى المجلات، وتُدعى " قصص غريبة ". ولم تُنشَر القصةُ حتى شهر حزيران من عام ١٩٣٨. في ذلك العام نفسه صحِبني جدّي ديكن في جولةٍ عبر أوروبا مع مجموعةٍ كبيرةٍ من السيدات المنتسبات إلى الكنيسة الأُسقفية من دلتا الميسيسيبي، وثمة تفاصيل أُخرى حول هذه الرحلة سأوردها لاحقاً. وفي عامي السادس عشر وصلتْ مشاكلي العصبية العويصة إلى ما كان يمكن أن يشكِّل أزمةً مُدمِّرةً كالتي أفقدَتْ أختي عقلها إلى الأبد وهي في عشرينات عمرها.

في عمر السادسة عشرة كنت طالباً في المدرسةِ الثانويةِ لضاحية يونيفرسيتي سيتي في سينت لويس وكانت العائلةُ تقطنُ شقةً مزدحمةً في رقم ٦٢٥٤ من شارع إنرايت.

لم تكن يونيفرسيتي سيتي ضاحيةً راقية من سينت لويس وحيُّنا لم يكن أفضل منه إلا قليلاً، إلا أنه كان أفضل حالاً من الحيِّ الذي يقطن فيه آل رينغفيلد في مسرحية " الحيوانات الزجاجية ". كانت منطقةً قبيحةً تتألَّفُ، في الغالب، من أبنيةٍ مُجزَّأةٍ إلى شققٍ تعجُّ كخلايا النحل، وسلالم للنجاة وبقعٍ صغيرةٍ خضراء تدعو إلى الرثاء بين دروب إسمنتية.

ولما كان أخي الأصغر ديكن دائماً متحمِّساً لا يُقهَر لأي شيءٍ يتملَّكُهُ، فقد حوَّلَ بقعتنا الخضراء الصغيرة الكائنة خلف الشقة في شارع إنرايت إلى حديقةٍ صغيرةٍ مدهشةٍ مزروعةٍ بالخضروات. فإذا وجدتَ فيها أزهاراً تكون ويا للأسف محجوبةً بفيضٍ من شتى أصناف القرع ونباتاتٍ أخرى صالحةٍ للأكل.

وكان في إمكاني، طبعاً، أن أتولَّى أمرَ المساحةَ المزروعةَ بشجيرات الورد كلها، غير أني أشكُّ في أنها كانت ستطرحُ ورداً. إنَّ تصرفاتي اللاعمليّة، أو فلنقُل تصرفاتي اللاعملية بشكلٍ هائل، في فترة المراهقة لم يكن ينجمُ عنها نتائجُ ناجحة بأي حال: ولا

أذكرُ خلال السنوات التي عشتها في سينت لويس والمناطق المحيطة من الورد غير الوردتين الحيَّتين في حياتي، هما جدتي، روز[٩] أ. ديكن، وطبعاً أختي، روز إيزابيل.

اتَّخذَتْ مشاكل مراهقتي أعنفَ أشكالها في صورة حياءٍ حتى درجة المرض. قليلٌ من الناس، اليوم، يعرفون أني كنتُ دائماً وبقيتُ على مدى سنيّ عمري أشبه بتمساح - حييّ إلى أقصى حدّ، وخلال حياتي التمساحيّة كنتُ أُعوِّضُ عن ذلك الحياء بما يتميَّزُ به آل ويليامز من اندفاعٍ وتبجُّحٍ وأحياناً بسلوكٍ غاضبٍ متفجِّرٍ. وأثناء سنوات دراستي الثانوية لم أكن أضعُ قناعاً، أو واجهةً. وفي المدرسة الثانوية في يونيفرسيتي سيتي بدأتُ أكتسبُ عادة الاحمرار خجلاً كلّما نظرَ إليّ شخصٌ في عينيّ مباشرةً، وكأني أُخفي وراءهما سراً مخيفاً أو بغيضاً.

لن تجدَ أي مشقّةٍ في أن تخمِّن ذلك السر، لكنني، في سياقِ هذا " الشيء "، سأزوِّدُكَ ببعض التفاصيل الموسَّعَة، وكلها صحيحٌ تماماً.

أذكرُ المناسبةَ التي بدأ فيها الاحمرارُ المستمرُّ من الخجل. أعتقدُ أنَّ ذلك كان أثناء درسٍ في الهندسة المستوية. وتصادفَ أن أرسلتُ نظري عبرَ الممشى فإذا بفتاةٍ جميلةٍ سمراء تنظرُ في عيني مباشرةً وعلى الفور شعرتُ بوجهي يلتهبُ. وازدادَ التهابه واشتدَّ حينَ عدتُ أنظرُ إلى الأمام. وقلتُ في نفسي، يا إلهي، إنني أحمرُّ خجلاً لأنها نظرتْ في عيني مباشرةً أو لأنَّ نظري وقعَ على عينيها هي، فماذا لو تكرَّرَ هذا كلما نظرتُ في عينيّ فتاةٍ أخرى؟

حالما بدأتُ أتفكَّرُ في هذه الفكرةِ الكابوسيّةِ إذا بها تتحوَّلُ إلى واقع.

منذ تلك الحادثة بالضبط، وبدون هوادة تقريباً على مدى السنوات الأربع أو الخمس التالية، كنتُ أحمرُّ خجلاً كلما قابلتْ عينايَ أي عينين بشريَّتين، لذكرٍ أم أنثى (ولكن على الأغلب لأنثى بما أنَّ حياتي كانت تنقضي في الغالب بين أفرادٍ من جنسي)، وأشعرُ بوجهي يلتهبُ بحُمرة الخجل.

كنتُ فتى نحيلاً جداً، ولا أظنُّ أنه كانت لديّ سلوكياتٍ أنثوية، إلا أنه بشكلٍ ما كان ثمة فتاةٌ صغيرةٌ سجينةٌ عميقاً في أعصابي: هي بنت مدارس خجول أشبه بتلك الموصوفةِ في قصيدةٍ معيَّنةٍ أو أغنيةٍ تقولُ " كانت ترتجفُ لدى مرأى عبوسك ". ولكنَّ

بنت المدارس السجينة في ذاتي الدفينة، اقصد ذواتي، لم تكن بحاجةٍ إلى عبوسٍ ليجعلها ترتجفُ، بل تكفيها لمحة.

احمرارُ الخجل هذا دفعني إلى تجنُّب عيني صديقتي العزيزة هيزل. حدثَ ذلك بسرعةٍ كبيرةٍ، ولابد أن هيزل وأمها، مس فلورانس، قد صُعقتا وارتبكتا من هذه السِمة الغريبة الجديدة التي طرأتْ عليَّ. ومع ذلك سمحتا لي كلتاهما أن ألاحظَ حيرتهما.

ذات مرة قالت لي هيزل ونحن في حافلةٍ مزدحمةٍ بالناس، وبعد أن خيَّمَ عليَّ صمتٌ مُطبق بعض الوقت، " أتعلم أنه لا يمكنني أن أقولَ أي شيءٍ من شأنه أن يؤذيك؟"

الحقَ أنَّ هذا كان كبدَ الحقيقة: هيزل لم تقُلْ أبداً أي كلمةٍ يمكن أن تؤذيني طوال الإحدى عشرة سنة من صداقتنا الحميمة ، التي نضجتْ، بالنسبة إليَّ، لتغدو اعتماداً عاطفياً كاملاً والمعروف عموماً باسم الحب. وأعتقدُ أنَّ مس فلورانس كانت تحبني كابنٍ لها، وتتحدَّثُ معي حديثها مع شخصٍ بالغٍ عن حياتها الموحشة والصعبة مع والديها المُستبدَين في منزلهم الكبير في الحي السكني المجاور للشقة ولسلالم النجاة.

أعتقدُ أني في فترةِ الحُلُم أدركتُ للمرة الأولى أني أميلُ إلى هيزل جنسياً وحدثَ ذلك في ويست إند ليريك، في دارٍ للسينما في شارع دلمار. كنتُ جالساً إلى جوارها قبل أن يبدأ عرض الفيلم، فإذا بي أَعي فجأةً عُريَ كتفيها وتولَّدَتْ لديَّ رغبةٌ بلمسهما وشعرتُ بإثارةِ أعضائي التناسلية.

في مرةٍ ثانية، كنا نسيرُ بالسيارة في زقاق العشاق في فوريست بارك ذات ليلةِ صيف، ومعنا مس فلورانس وصديقة لها فاسقة، فإذا بأضواء سيارة هيزل الباكارد الخضراء الأمامية تُسلِّطُ على زوجٍ شابين يتبادلان قبلةً طويلةً عنيفةً، فصرختْ صديقتها وضحكت، ثم قالت " أراهن على أنه يمدُّ يارداً من لسانه في حنجرتها! "

كثيراً ما كانت السيدات يتسلَّينَ، في أمسيات الصيف، بقيادةِ سياراتهنَّ في زقاق العشاق في الحديقة العامة والتوقُّف فوق قمة تل آرت حيث ينهمكُ العشاق الشبان في "عناقات" عنيفة.

تسلَّينا، واستمتعتُ بالتعرُّض لتلك الصعقة.

ذات أمسية صحبتُ هيزل في نزهةٍ عبر النهر على متن الباخرة " J.S" وكانت ترتدي ثوباً للحفلات من الشيفون الأخضر الفاتح بلا أكمام وارتقينا الجزء العالي المُظلم من ظهر الباخرة وأحطتُ كتفيها اللذيذتين بذراعي فـ " قذفتُ " ولوَّثتُ سروالي الأبيض.

يا للإحراج! لم يذكُر أيٌ منا أي شيء عن البقعة الرطبة الواشية الظاهرة على مقدمة بنطالي إلا أنَّ هيزل قالت " لنبقَ هنا ونتمشّى على المتن، لا أعتقد أننا يجب أن نرقص الآن... "

خلال فترة الثلاثينات كان التنزُّه على متن البواخر ليلاً تسليةً شائعةً في سينت لويس، وذات مرة خرجتُ مع صبيّةٍ جميلةٍ من عائلةِ شوتو الشهيرة، عائلةٌ يعود أصلها إلى زمنٍ كانت فيه سينت لويس تنتمي إلى المنطقة الفرنسية في الولايات المتحدة. وأعتقدُ أنها كانت نزهةً مزدوجةً ضمَّتْ أختي روز.

كنتُ مفتوناً جداً بالآنسة شوتو الجميلة وفي العطلة الأسبوعية التي تلتْ - وكنت عندئذٍ أعملُ في تجارة الأحذية - دعوتُها إلى القيام بنزهةٍ أخرى فحصلتُ على هذا الردّ المُحبِط" أوه، أشكرك، يا توم، ولكن كما تعلم إنني مصابة بحساسية مَرَضيّةٍ شديدة ضد الورد "

لا أعتقدُ أنها كانت تُلمِّحُ إلى أختي وإنما إلى الورد الحقيقي، لكنني لم أدْعُها إلى الخروج بعد ذلك. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تخرجُ فيها إلى مكانٍ عام وأعتقد أني لم أكن صحبةً مقبولةً لتلك الفتاة في خروجها الأول إلى المجتمع.

أجدني بشكلٍ ما غيرَ قادرٍ على التقيُّد بالتسلسل الزمني كما ينبغي.

أراني الآن أقفزُ عائداً إلى سن السادسة عشرة حين صحبني جدي في رحلةٍ إلى أوروبا - وهناك وقعَتْ حادثةٌ مذهلة.

تكفَّلَ جدي بمصاريفي لتلك الرحلة إلى أوروبا، لكنَّ والدي أعطاني مائة دولار لمصروف جيبي (وقد نُشِلَ مني المبلغ في باريس، وبالتحديد في برج إيفل).

أبحرَ فريقُ جدي على متن سفينة " الهومري " التي كانت في وقتٍ سابق بارجةَ الأميرال في أسطول القيصر فيلهلم من سفن الركّاب. أبحرنا في منتصف الليل وكانت انطلاقةً احتفاليّةً رافقها عزفٌ من فرقةٍ نحاسيّة، أو عدَّة فِرَق، مع الكثير من الشرائط الوَرَقيّة الملوَّنة يُقذَفُ بها من السفينة إلى رصيف الرسو. وأعتقد أنه أُطلِقَ العديدُ من البالونات وطبعاً كان هناك الكثير من الصراخ والشراب والضحك. كان جواً أقربُ شَبَهاً بحفلات سكوت وزيلدا(١٠) فيتزجيرالد.

أذكُرُ بشكلٍ خاص بنكي سايكس بعقصة شعرها المصبوغ باللون الأحمر وشبشبها ذي الكعب العالي المُستدقّ وحيويتها المُبهِرة (وكانت واقفةً مع جدّي ومعي على ظهر

السفينة) حين أطلقَ المركبُ صفّارته مُعلناً " لينزل المودِّعون إلى الرصيف ". وكانت بنكي، زهرةُ الجنوب العزباء، تقتربُ، في تقديري، من سن الخمسين، ولا شك في أنَّ سبب بقائها بدون ارتباط يعودُ إلى دعوى قضائية لأنه في سنواتِ عمرها المُبكِّرة لابد أنها كانت مخلوقةً مذهلة. والحقيقة هي أنها كانت لا تزالُ مذهلةً، وإنْ كانت طريقتُها غريبةً في وضع مساحيق التجميل وفي إبدائها الشجاعة في تصغير سنِّها الحقيقي الذي كانت تُبرزه بانتعالها الكعب العالي جداً ولبسها التنانير القصيرة والثياب الضيقة الجديرة بفتاةٍ صغيرة.

كنتُ شديد الكَلَف بالمس بنكي. وعلى الرغم من حيائي المؤلم، فإني لم أكد أضمرُ أي خوف منها.

في اليوم الأول لإبحارنا شربتُ أول كأسٍ من الكحول. وكان شراب كريم دو منت الأخضر، قُدِّمَ إليّ على البار على ظهر السفينة.

بعد ذلك بنصف ساعة أُصِبتُ بدوارِ بحرٍ عنيف وبقيتُ على تلك الحال طوال خمسة أيام من الرحلة، داخل قمرة رديئة التهوية وبلا كوى - إذ أنَّ فرقتنا لم تكن مسافرةً في الدرجة الأولى.

كان بين الركاب مُعلِّمةُ رقص وأسعد الأوقات التي أذكُرها خلال ذلك العبور الأول إلى أوروبا، في صيف عام ١٩٢٨، كان رقصي مع تلك السيدة الشابة، خاصةً رقصات الفالس. في تلك الأيام كنتُ راقصاً ممتازاً، وأخذنا " ننسابُ حول المكان؛ ننسابُ وننساب "، كما كان يمكن لزيلدا أن تقول.

كانت مُعلِّمة الرقص شابةً في نحو السابعة والعشرين وكانت تنعمُ بتبادُل الغزل الواضح مع مَنْ يُدعى القبطان دو فو من أعضاء الفريق. وأذكرُ حديثاً مُبهماً دارَ ذات ليلة. أقصد أنه كان مُبهماً بالنسبة إليَّ حينئذٍ، وأيضاً مُزعجاً وأنا أذكره بوضوحٍ تام.

لم يكن القبطانُ دو فو يعجبه أن أقضي وقتاً طويلاً وأنا أرقص مع مُعلِّمة الرقص. وذات أمسية كنا نحنُ الثلاثة جالسين على طاولةٍ صغيرةٍ في بارِ السفينة، قرابة انتهاء الرحلة، وإذا بالقبطان دو فو ينظر إليّ ويخاطبُ مُعلِّمة الرقص " أنتِ تعرفين ماذا سيكون عليه في المستقبل، أليس كذلك؟ "

فقالت " لا أعتقد أنه في الإمكان التأكُّد من ذلك الأمر في سن السابعة عشرة ".

طبعاً أنتَ تعرف عمَّا كانا يتحدثان، ولكن في ذلك الوقت أصابني لَبْس - على الأقلّ الآن يبدو لي أنه التبَسَ عليّ.

* * *

نحن الآن نقترب من بداية أشدّ الأزمات روعاً، وقُرباً من دفعي إلى الإصابة بالذهَّان، التي تعرَّضتُ لها في حياتي المبكّرة. وأخشى أنه سيكون من الصعب الإحاطة بها.

بدأت الفكرةُ حين كنتُ أمشي وحدي في أحد شوارع باريس. وسوف أحاولُ أن أزيد في وصفها قليلاً، لأنَّ لها أهميةً في تركيبتي النفسية. فقد تبدَّى لي فجأة أنَّ عملية التفكير هي لغز الحياة البشرية المُعقَّد حتى الرعب.

ووجدتني أسرع الخُطى أكثر فأكثر وكأني أحاولُ أن أسبقَ هذه الفكرة. وكانت قد بدأت تتحوَّل إلى رهَاب. وبينما أنا أحثُّ خطواتي أخذَ العرقُ يتصبَّب مني وقلبي يزدادُ وجيبه، وحين وصلتُ إلى أوتيل روشامبو، الذي ينزلُ الفريق فيه، كنتُ قد أصبحتُ حطامَ جسَدْ يرتعشُ ومنقوعاً بالعرق.

شهرٌ واحدٌ على الأقلّ من هذه الرحلة ظلَّ مغلَّفاً بالنسبة إليّ بهذا الرهَّاب من عملية التفكير، وتعاظمَ هذا الرهَّاب وتضخَّمَ حتى أظنني بتُّ قيد شعرةٍ من الجنون المُطبق بسببه.

ذهبنا في رحلةٍ في نهر الراين المتعرِّج، بدءاً بمدينةٍ تقعُ شمال بروسيا وانتهاءً بمدينة كولون.

على جانبيّ قاربنا النهري بمتنه المفتوح على العراء ارتفعتْ تلالٌ كثيفةُ الأحراش، شديدة الخُضرة وقد شَمَخَتْ فوق العديد منها قلاع من القرون الوسطى وأبراج.

لاحظتُ هذا كله، على الرغم من أني كنتُ على حافةِ الجنون.

أبرز ما يجذب عين السائح في كولون هي كاتدرائيتها العريقة، أجمل كاتدرائية رأيتُها في حياتي. كانت طبعاً غوطيّةً، وبالنسبة إلى كاتدرائية بروسيّة، كان تصميمها يُعتَبَرُ رقيقاً بشكلٍ مدهش وشاعرياً.

وصلَ رهابي من عملية التفكير إلى ذروته.

ولجنا الكاتدرائية، فإذا بها من الداخل تفيضُ بنورٍ ملوَّن بألوانٍ جميلة يتسرَّبُ من نوافذ ضخمة زجاجها ملوَّن.

جثوتُ على ركبتيّ، مقطوع الأنفاس، ورحتُ أصلّي.

بقيتُ راكعاً أصلي حتى بعد أن غادرَ الفريقُ المكان.

ثم حدثَ أمرٌ عجيب حقاً.

إني لست ميّالاً إلى تصديق المعجزات والخرافات. ولكن ما حدث كان معجزةً ذات طبيعة دينيّة وأؤكّد لك أني لا أتبجَّحُ سعياً لأكون قديساً حين أحكي لك ما حدث. فقد بدا وكأنَّ يداً غير محسوسة حطَّتْ على رأسي، وفي اللحظة التي لمستني ارتفعَ عني الرهَاب بخِفَّة كرُقاقة من الثلج مع أنه كان يجثُم ثقيلاً على رأسي ككتلةٍ من الحديد تكادُ تفلق الجمجمة.

يوم ذاك كنتُ في السابعة عشرة من عمري، ولم يساورني أي شك في أنَّ يدَ ربّنا يسوع قد لمسَتْ رأسي برحمتِها وطردَتْ عنه الرهَاب الذي يدفعني إلى الجنون المُطبِق.

كان جدي دائماً ينتابه خوف رهيب كلّما غبتُ عن ناظريه وابتعدتُ عن مجموعة النساء، لم يكن من النوع المؤنِّب، وما كان قط صارماً، لكنه كان يقول لي لدي عودتي " يا إلهي يا توم، كم تَمَلَّكَنا الرعب حين عُدنا إلى الحافلة ولم نجدك. وقد قالت إحدى السيدات إنك هرعت خارجاً من الكاتدرائية وإننا سنجدك في الفندق "

وعلى مدى أسبوع بعد ذلك كنتُ في أحسن حال وبدأت للمرة الأولى أستمتعُ برحلتي الأولى إلى أوروبا. ولا أزالُ أجد التمشّي بدون هدف متنقِّلاً بين معارض الفنون أمراً ممتعاً فقط بعض الوقت بين حين وآخر، وبعد ذلك يصبحُ الأمرُ مرهقاً جداً، جسدياً.

غير أنَّ الرهَاب من " عملية التفكير " اختفى تماماً مدة قاربتْ الأسبوع وأخذ الإرهاق الجسدي يتلاشى بدوره.

الذروة الأخيرة في الرحلة كانت مدينة أمستردام، أو، بدقّةٍ أكبر، الألعاب الأولمبية التي كانت تُقام في أمستردام في ذلك العام. وقد حضرت الفرقة مسابقة الفروسية وخلال هذه المسابقة عاد إليَّ رهابي قليلاً وبشكلٍ ضئيل.

بما أني كنتُ أعتقدُ طوال الوقت أنَّ " المعجزة " التي ظهرتْ في كاتدرائية كولون هي التي طردته، فقد اضطربت أيَّما اضطراب من عودته، وإنْ بشكلٍ ضئيل نسبياً.

في تلك الليلة خرجتُ وحدي لأذرع شوارع أمستردام، وفي هذه المرة تجلّتْ " معجزةٌ " ثانية لتُبعِد الرعبَ عني. وقد ظهرت من خلال قصيدة صغيرة نَظمتُها. وهي ليست قصيدةً جيدة، اللّهم فيما عدا البيتَين الأخيرين، ولكن اسمحْ لي أن أوردِ منها مقطعاً، بما أنها تردُ بسهولة إلى الذهن:

يمرُّ بي الغرباءُ في الطريق
حشوداً لا تنتهي: وَقْعُ أقدامهم
يتردَّدُ متشابهاً في أُذُنيَّ
يُخدِّرُ أحاسيسي، يُهدِّد مخاوفي،
أسمعُ ضحكاتهم وتنهداتهم،
أنظرُ في عيونهم التي لا يعُدُّها حصر:
فجأةً يبردُ رُعبي المُستعرِ
كجمرةٍ سقطَتْ على الثلج.

إنَّ إدراكي من خلال هذه النبذة الشعرية الصغيرة لكوني واحداً من العديد من أمثالي - وهو إدراكٌ على قدْرٍ كبيرٍ من الأهمية، بل لعلّه الأهمّ، على الأقلّ فيما يتعلّقُ بمسألةِ التوازن العقلي - هذا الإدراك لكوني فرداً في الإنسانية المترامية بحاجاتها التي لا تُحصى، ومشاكلها ومشاعرها، ليس كمخلوقٍ فريدٍ بل فرد، فقط شخص واحد بين أعدادٍ غفيرةٍ من أشباهه، نعم، أعتقدُ أنه أهمّ وعي يمكنُ أن نتوصّلُ إلى بلوغه الآن، تحت الظروف كلّها ولكن بشكلٍ خاص في الظروف الحاضرة. واللحظة التي أدركتُ فيها أنَّ وجودي ومصيري سوف يتلاشيان بالخفَّة نفسها التي سَقطَتْ بها الجمرةُ على رُكامٍ من الثلج أعادتْ إليَّ، بطريقةٍ مُختلفةٍ تماماً، تجربةُ كاتدرائية كولون. وأتساءلُ إنْ لمْ تكُن مُتمِّمةً لتلك التجربة، ومُعزِّزةً لها: أولاً، لمسةُ اليد الغامضة على الرأس المتوحِّد المُعذَّب، ومن ثم الدرس الرقيق أو البرهان على أنَّ ذلك الرأس، على الرغم من الأزمة المتأججة التي تحكُمُهُ، كان ما يزالُ رأساً واحداً في شارعٍ يعُجُّ بأمثاله.

حين عُدتُ من أوروبا، كان ما يزالُ أمامي سنةٌ أُمضيها في مدرسة يونيفرسيتي سيتي الثانوية في سينت لويس. وكانت الأمور قد أضحتْ أيسرَ قليلاً من المعتاد. وذلك لسببٍ واحدٍ، فقد كان البحثُ المدرسي، باقتراحٍ من مُدرِّسِ اللغة الإنكليزية،

يدعوني إلى سردِ رحلاتي إلى أوروبا، فأنجزته على شكلِ سلسلةٍ من الصور الوصفية، لا تشيرُ أيٌ منها إلى معجزتَيّ كولون وأمستردام ولا إلى الأزقة، ولكنه مع ذلك منحني مركزاً خاصاً بين مجموع الطلاب، ليس فقط بوصفي الأشدّ حياءً في المدرسة وإنما لأني الوحيد الذي سافرَ إلى الخارج.

كان ما يزالُ مستحيلاً عليَّ تقريباً أن أتكلّمَ بصوتٍ عالٍ في غرفة الدرس. وقد كفَّ الأساتذةُ عن طرحِ الأسئلة عليَّ لأنهم حين كانوا يفعلون كنتُ أُخرجُ صوتاً بالكاد يبدو مفهوماً، وتضيقُ حنجرتي من الخوف.

* * *

ذلك الرهّاب المذكور، الذي سبَّبَته الطبيعةُ المُرعِبة لعمليّة التفكير، لم يعاودني بعد ذلك أبداً.

دعني أُقسم على قول هذه الحقيقة: إنني لم أشك أبداً في وجود الله ولا أهملتُ الركوعَ والصلاةَ حين كنتُ أجدني (وكم من مرةٍ تعرَّضتُ لهذا) في وضعٍ أراه من الخطورة ويستلزمُ رعايةَ الرب وبالتالي تَدَخُّله.

الآن سوفَ يظنُّ بعضُ الساخرين أني أُنافسُ ميري بيكفورد[١١]، التي أَلَّفَتْ كتاباً عنوانه " لِمَ لا نُجرِّب اللجوءَ إلى الله؟ "

لا بأس. أنا ناضجٌ بما فيه الكفاية لأقعَ في هوى الآنسة بيكفورد، إنْ كان هذا يُفيد.

٣

حين كنتُ أستعدُّ للالتحاقِ بالجامعة في أوائل خريف عام ١٩٣٩ وجدتُ فجأةً أنه لم يكن هناك أي مبلغ مخصصاً لدفع الرسم، ولولا مبلغ الألف دولار الذي تقدَّمتْ به الجدَّةُ في الوقت المناسب، لما تمكَّنتُ من الالتحاق. وهذه فقط مرةٌ واحدةٌ من مراتٍ عديدة في حياتي عملتْ فيها جدَّتي وجدي ديكن على جلب الاستقرار والنظام إلى وضعي الفوضوي المعتاد، أو يتحمّلان مسؤولية إنجازِ شيءٍ ما، أولاً بفضلِ جو السعادةِ القادران على خلقِه، وثانياً بفضلِ ما يتمتّعان به من قوةٍ تكادُ تكونُ سحريةً على تدبير معونةٍ مالية من مصادرهما الضئيلة.

وانطلقتُ إلى جامعة ميزوري، الواقعة في بلدة كولومبيا الفاتنة.

لم أحاول الحصول على " احتفالٍ أخويّ "، بما أني لم أتصوَّر أن أُقبّل ضمن أي منظَّمةٍ أخوية[١٢] ولا رغبتُ في أن أكونَ عضواً أخوياً.

سبَّبَ هذا خيبة الأمل لوالدي، الذي كان بدوره عضواً في منظَّمة " باي كابا ألفا " خلال سنوات دراسته في جامعةِ تنيسي وقد صمَّمَ على أن يتصرَّف بخصوص هذا الشأن على عجَل.

رافَقَتني مس إدوينا إلى كولومبيا، ولم تكن تهتمُّ قط لأني لم أحصل على "احتفالٍ أخويّ ". قضينا ليلتنا الأولى في غرفة في فندق وفي اليوم التالي اختارتْ لي ما اعتبرَتْهُ مثوىً لائقاً. وكان المثوى منفصلاً، جنسياً، فثمة بناءان تملكهما سيدةٌ في منتصف العمر، جمَّة الحيوية، أرملةٌ لديها سيارة بويك حمراء براقة ذات غطاء قابل للطيّ.

كان الفتيان والفتيات يتقابلون فقط على مائدة الطعام. وثمة آلة بيانو كانت اثنتان أو ثلاث من البنات يُحسِنَّ العزف عليها، ووجدتُ في ذلك إجراءً ساراً لي.

نسيتُ أن أذكُر أني في ليلتي الأولى في كولومبيا، وأنا في الفندق كتبتُ، مستخدماً قرطاسيته، رسالةً إلى هيزل، التي كانت تدرسُ في جامعة ويسكنسُن، أعرضُ عليها الزواج. وفي غضون أسبوع أرسلتْ إليَّ رداً ممتنّاً ولكنه سلبيّ، موضّحةً أننا لا نزالُ أصغر سناً من أن نفكّرَ في مثل ذلك الأمر...

شاركتُ الغرفة مع شابٍ يسيرُ أثناء نومه. وذات ليلةٍ خرجَ من سريره واجتازَ الغرفة حتى سريري وتمدَّدَ معي. وأذكرُ أنه كان فتى ريفياً طويل القامةِ وهزيلاً، أشقرَ وعليه آثارُ حبّ الشباب، لكنّه لا يخلو من جاذبية.

طبعاً، حين زحَفَ إلى السرير معي صرختُ مرعوباً، فغمغمَ بشيءٍ ثم قفلَ عائداً بخُطى مترنِّحةٍ قاطعاً الغرفةَ إلى سريره الفردي القائم في زاويةٍ أخرى.

والآن سأدلي باعترافٍ ذي طبيعةٍ مضحكة؛ فقد رحتُ أنتظرُ على مدى ليالٍ عدة أن تعاوده نوبة السير أثناء النوم تلك، وتمنّيتُ أن تقوده إلى الوجهةِ ذاتها.

إلا أنها لم تحدث إلا في تلك المرة.

ولكن ذات أمسية، وقبل أن يأوي إلى الغرفة، نزعتُ مساميرَ ملولبةً من سريره الخفيف لكي ينهار حين يلجأ إليه.

أعتقدُ أني لم أكن متمالكاً تماماً لكامل قواي العقلية في تلك الأيام. على أي حال، تفكّكَ السرير، فعمل بسرعة وصمت على إعادة تركيبه، وهو يرميني بنظراتٍ مبهمة.

كان قد مضى عليَّ في المثوى قرابة الشهر حين زارني ثلاثة أو أربعة من الشبان الوسيمين والجذابين من المنظَّمة الأخوية " ألفا تاو أوميغا ".

تمَّتْ تلك الزيارة عبر تدخّل والدي. فقد كان له اثنان من أقاربه البعيدين الشبان، المعروفين بفتيان ميربورز، في جامعة تنيسي وكانا عضوَين مؤثِّرَين في تلك المنظَّمة. وقد كتبا إلى الفرع المحلّي، غاممًا رو، يقولان إنَّ ابن موظف كبير في الشركة العالمية للأحذية " يتوارى " في مثوى وإنَّ هذا لا يجوز، نظراً إلى تحدُّره من آل ويليامز وسيفيير في شرق تنيسي، ونظراً إلى أنه كاتب له مؤلفات مطبوعة ورحّالة في العالم.

شرحَ أحد أخوة المنظَّمة الأمرَ بكل ما استطاعَ من دفء مشاعر مؤثِّر وربما صادق، وأصرَّ على أن أتوجَّه معه مباشرةً إلى مقرّ المنظَّمة حتى أرى على الفور مدى أفضليته على المثوى " الموحش '

لو أني أرى هذا " الأخ "، الذي سأسمّيه " ملموث "، اليوم لتعرَّفتُ عليه مما آل إليه.

أصبحَ لوطياً كما أرادوا لأمثاله أن يكونوا...

إلا انه عندئذٍ بَهَرَني فقط بحُسنه غير العادي وفتنته.

وذهبتُ إلى مقرّ المنظّمة الأخَويّة. وفي الطريق إليه مررنا بالمقرّ الجديد الذي كان يُبنى، عبارة عن كتلة ضخمةٍ من طرازٍ تيودوري زائف نجحَ في أن يبدو متعةً للنظر. وقبل أن أصل إلى المقرّ المؤقّتْ لفرع منظمة " غاما رو "، كنتُ قد عقدتُ العزم على أن أقبلَ أن أنضم إليهم، أقصد أن آخذ عهداً على نفسي، إذا ما ألحُّوا في طَلَبهم.

في اليوم التالي فعلوا، وبما أنَّ الأخوة حظوا بإعجابي بسحرهم، بتُّ تواقاً إلى قبولِ طلبهم.

استقبلني فرع منظمو " ألفا تاو أوميغا " في ميزوري يو، بكل حفارة، في أول الأمر، ثم بالكثير، والكثير الكثير من الارتباك بعد ذلك.

لا شك في أنهم لم يكونوا قد قابلوا قط شاباً غريب الأطوار مثلي، فما بالك بقبولي مُعَاهِداً.

كان يُعقَدُ مرةً في كل أسبوع، عند منتصف الليل، ما كان يُسمى بـ " محكمة الكنغر ". في تلك المحكمة، التي كانت تُدارُ بوقارٍ عظيمٍ، تُقرَأ بصوتٍ عالٍ الانتهاكات التي ارتكبها كُلُّ مُعاهد أمام الجمعية وتوَزَّعُ عقوبة الضرب. وفي بعض الحالات يكون الضربُ خفيفاً، وشديداً في حالاتٍ أخرى.

في حالتي كان الضربُ يقصمُ الظهرَ بكل ما في الكلمةٍ من معنى.

كان أحدُ الأخوة يقفُ متوازناً حاملاً مِقرَعةً في آخر الغرفة الأمامية الطويلة. ويؤمَرُ المُعاهِد المُعَاقَب بالانحناء، موجِّهاً ظهره إلى الأخَ حامل المِقرَعة، وبأن يُمسِكَ خصيتيه عالياً، لأنَّ الأخَ لا يريد أن يكون الخِصَاء هو العقوبة.

ثم يندفعُ الأخُ ذو المِقرَعة بقوةٍ قاطعاً الغرفة الكبيرة ويوجه ضربةً قويةً إلى ظهر المُعَاهِد.

كثيراً ما كنتُ أتلقَّى العقوبةَ القصوى ومقدارها عشر ضربات. وغالباً ما كانت تُنفَّذُ بعنفٍ شديد بحيثُ أني بالكاد أتمكّنُ من ارتقاء الدرج إلى السرير...

فماذا كانت ذنوبي؟

عديدة ومتنوِّعة. الحقيقة هي أنها كانت فعلاً لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

كانت روحُ الفوضى قد تسرَّبَتْ إلى كياني. ويعودُ ذلك من ناحيةٍ إلى الحنين إلى المثوى القديم، ومن ناحيةٍ ثانية إلى ضآلةِ مُخصَّصي الشهري من والدي. كانت دائماً تنقصني القمصان، وفي تلك الأيام كان من المتوجّب الظهور على مائدة العشاء في مقرّ المنظمة الأخوية مُرتدياً قميصاً نظيفاً وسترة.

يرنُّ جرسُ العشاء في السادسة ولم أكن مرةً واحدةً مستعداً لذلك. جائع، نعم، ولكن كنتُ دائماً أُفاجَأ بصَخَب الرنين.

كنتُ أنتظر حتى بعد أن يهبط كلُّ الفتيان الذين في الطابق معي إلى قاعة العشاء الكبرى في الطابق الأرضي، ومن ثم أهرعُ إلى غرفة أحدهم وأنتزعُ أحد قمصانه وأرتديه لحضور وجبة العشاء. ومن ثم، بعد الانتهاء من تناول الطعام، أعودُ وأُرجِعه، خِلسَةً.

ولم أكن بارعاً في تنفيذ ذلك وسرعان ما كُشفَ أمري.

بعد ذلك، وهذا بحقّ اعترافٌ مني شنيع ـ تمكَّنَتْ مني عادةُ " تزوير الشيكات ". فكلَّما خرجتُ لألبِّي موعداً هُلامياً، كما كانت تُسمَّى اللقاءات التي تتمُ بعد الظهر، ومن ثم أجدني غير قادرٍ على تسديد فاتورة المقهى، أُحرِّرُ شيكاً موجَّهاً إلى مصرفٍ لا رصيدَ لي فيه. تلك الشيكات المزيفة كانت تُلصَق على صندوق المُحاسِب في المقهى.

بحقّ الجحيم ما الذي كان يدورُ في عقلي في ذلك العام؟

لا شيءَ واضحاً تماماً.

كان الفرعُ يُقيمُ مرةً تقريباً في كل شهر حفلةَ رقصٍ رسميةٍ ويُعطى المُعاهدين لائحة بأسماء فتيات من نادي الإناث يُقبَلنَ كمُرافقات في مثل تلك المناسبات الفخمة. وكنت دائماً أتجاهلُ اللائحةَ وأُحضرُ فتاةً إما لا تكونُ عضواً في أي نادٍ للإناث أو منتسبةً إلى نادٍ نسائيّ غير ذي أهمية، مثل نادي " فاي مو "، أو نادي " ألفا دلتا باي " ذو اللقب السرّي المخيف" قطة ما بعد العشاء ".

وكنتُ أواظبُ على اصطحاب فتاةٍ معيَّنةٍ من نادي " ألفا دلتا باي " إلى حفلات الرقص هذه. وكانت فتاةً مهووسةً جنسياً: وحلوة جداً، جداً. لم يكن لديها غير ثوب

رسمي واحد من الساتان البني الغامق البرّاق، ولم يكن يضمُّ بشكلٍ كافٍ صدرها ولا يُخفي شيئاً من مؤخرتها المثيرة.

على الرغمِ من أنَّ ظهورها في حفلات الرقص كان يُعتَبر فضيحة اجتماعية، فمع تقدُّم المساء كان الأخوة يقاطعوننا بتكرارٍ متزايد إلى أنْ تُصاب بالدوار من كثرة تردُّدها على حلبة الرقص مثل تيبي سميث من مقرّ " ثيتا " أو مثل ملكة " كابا كابا غاما " التي نسيتُ اسمها.

بعد منتصف الليل كان الشبان يستولون على فتاتي كُلّياً ويأخذون يراقصونها كلٌ بدوره في غرفة المكتب الصغيرة المظلمة، أما ما يحدث هناك فلا أستطيع أن أذكره بكلامٍ موثوق. ولكن يمكنني بسهولة أن أتكهَّنَ بأنهم كانوا يمارسون معها ما سمَّوه "مضاجعة جافة".

لم تكن تحرُكاتي الحميمة معها كثيرة: مرة واحدة، ونحن في السيارة، قبضتُ على ثدييها فكادت تُصابُ بنوبة صَرَع.

فتيان وفتيات معاً. ولا يمكنُ ذكرُ ما يدورُ بينهم...

خلال الصيف الذي تلا سنتي الأولى في الجامعة حصلتُ على عملٍ ملائمٍ فترة وجيزةٍ في سينت لويس.

عملتُ كبائعٍ متجوِّل بين المنازل لإحدى " المجلات النسائية " الكبرى، ولا أتذكَّرُ كيفَ حدثَ ذلك لكنني قمتُ به بدون شك فقط لأسعِدَ، أو فلأقُل لأُشبِعَ رغبة " أبي المحترم ".

كنا نحو عشرة جَنَّدَنا ما يشبه مدير مبيعات محلِّي كان مقيماً في فندق من الدرجة الثانية في غراند آفنيو، وكنا فريقاً متنافراً، ننطلقُ أزواجاً، ونعملُ على جانبيّ الشارع المتقابلَين. وكان الفتى الذي عملَ معي قد جاءَ من أوكلاهوما.

أدهشني بسلوكه الشاذ. ولم أكن عندئذٍ قد برزتُ بعد إلى عالم الشاذين جنسياً ولم أكن أعرفُ أنَّ ذلك الشريك كان في الواقع شاذاً صغيراً. كان أشقرَ وعلى قدرٍ من الجمال، كما أذكُر، إلا أنه أثار اهتمامي من ناحية كونِه رفيقاً مسلياً في عملٍ مملٍ جداً. ولم يُحرِز أيٌ منا كبيرَ نجاح في بيع المجلة النسائية. كانت ربات البيوت تُصفقُ أبوابها في وجهينا في أغلب الأحيان. طبعاً كان ذلك العام هو أول الغيث في شعوري

بالإحباط. وأعتقدُ أنَّ العملَ استمرَّ بالنسبة إليَّ وإلى شريكي الشاذ قرابة الأسبوعين. وبعد أن طُردِنا شرَ طردة، بقي الفتى القادم من تولسا في سينت لويس. وذات مساء خرجنا معاً مع هيزل وصديقة لها تُدعى لوسي. ودُهشتُ لقلّة اهتمام الفتى بالخروج مع فتاةٍ، فقد قال " ألن نتسلّى أكثر إذا ذهبنا إلى الحانات؟ "، ولم أكن قد ذهبتُ قط إلى " الحانات ". ولم يُعيِّن بالضبط نوع الحانات التي يعنيها وأنا حتماً لم أكن أعرفُ، ولا اشتبهتُ بوجودها.

بعد أن جمعنا عمولاتنا الصغيرة من الاشتراكات في المجلة، صعدنا إلى الطابق العلوي من إحدى الحافلات المتوجِّهة إلى الحي حيثُ منزل هيزل. وأعتقدُ أنَّ هواء المساء أنعشَ شريكي فدفعه إلى التصرُّف بحماقة، فأخذ يُكرر اسمَ " لوسي " ويعوي بصوت سوبرانو من فرط انشراحه. وكان لعوائه نبرةٌ هستيرية.

أعتقدُ أنَّ هيزل كانت أشدَّ حكمة في المسائل الجنسية مني في ذلك الوقت. فحين دعَتْ فتى أوكلاهوما إلى دخول منزل آل كرير ظلّتْ ترمقه بعينيها البنّيتين الواسعتين بشيءٍ من الرعب. وظلَّ طوال الأمسية يبربرُ كعصفورٍ ويُشدِّدُ بشكلٍ خاص على لفظ اسم " لوسي ". ويجب أن أعترف بأنه ما كان أحدٌ ليولي لوسي أي اعتبار في حفلة رقص أي منظّمة أخوية: كانت تشبه تماماً ما يوحي به اسمُها. كانت طويلة القامة، بارزة العظام، ويُحيطُ بها جوٌ طابعه " لوسي ". لكنَّ سلوكَ شريكي كان مُبالَغاً فيه كثيراً وانتهتْ السهرةُ المزدوجةُ بشكلٍ غامض. وبدَتْ هيزل أكثر تجنُّباً لي للمرة الأولى في علاقتنا الطويلة الأمد.

حين أقولُ إنَّ هيزل ربما كانت أشدَّ حكمةً مني في الأمور الجنسية، فلستُ متأكداً مما أعنيه بذلك. فعلى مدى خمس إلى ست سنوات كانت صديقة مُحبَّةً إلا أنه كان حباً من النوع الذي يصفه الفيكتوريون بالنقي. وقد لا تصدِّق حين أقولُ إنَّ هيزل كانت تسمحُ لي بتقبيلها فقط مرَّتين في العام من شفتيها، وذلك في عيد الميلاد وفي عيد ميلادها هي. وحين أستعيدُ تلك الذكريات أتساءلُ إن كانت فعلاً كما يسميها أطباء النفس بـ " الباردة "، أم أنها كانت تُبدي الاحتشامَ من باب التغنُّج لتستفزَّ مزيداً من الموقف العدائي عندي. إنني أميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ الاحتمال الثاني هو الصحيح، لأني أذكرُ بعد ظهيرة أحد الأيام وكنا في سني مراهقتنا المبكرة حين زرنا معرض الفنون في

سينت لويس، الكائن فوق قمة آرت هيل في فوريست بارك، كيف هرعتْ متوجِّهةً مباشرةً إلى جناح تماثيل قديمة يحتوي تمثال " الغاليَ يحتضر " الذي لا تسترُ جسده غير ورقةُ تين. والآن إليك ما حدث، وهو في الحقيقة المطلقة ما يلي: كان في الإمكان رفعُ ورقة التين وكانت هيزل تعرفُ ذلك. فرفعتْ ورقة التين وسألتني " هل خاصّتكَ يشبه هذا؟ "

ولم تحصل مني كجواب إلا على احمرارِ خجل العذارى...

لقد ضمَّنتُ هذه الحادثة الصغيرة إحدى أفضل قصصي القصيرة نشرتْها صحيفةُ "النيويوركر"، الشهيرة: كان عنوانها " ثلاثة لاعبين في لعبة صيفية "، وقد حَذَفَتْها "النيويوركر " من القصة، أقصد حادثة ورقة التين تلك، لكني أعدتُها حين ظهرتْ القصة في " هارد كاندي " وأعتقد أنَّ هذا هو الصحيح، لأنَّ الفتاة الصغيرة في القصة تقوم شخصيتها على أساس شخصية هيزل وهي طفلة - بما فيه الجزء الخاص بالسيارة القديمة،" الكهربائية ". فقد كان لدى السيدة كريمر الجدَّة grandmère، سيارة "كهربائية"، وكانت السيدة العجوز المُدَّعية تحبُّ أن تجلسَ داخل مربَّع الصندوق الزجاجي وتقود سيارتها بكل رصانةٍ بين القطاعات السكنية الأكثر رُقيّاً من المدينة. كانت مولعة بهيزل وكانت أحياناً تسمحُ لهيزل أن تأخذني معها في نزهة بالسيارة. ولم تكن تزيدُ سرعة السيارة الكهربائية على عشرين ميلاً في الساعة. وبعد ذلك أُهدى آل كريمر هيزل سيارة باكارد خضراء خفيفة، إلا أنَّ ذلك حدثَ في وقتٍ لاحق...

لا أدري لماذا ظلَّ فتى أوكلاهوما يتسكَّعُ في أرجاء سينت لويس، وحرُّها لا يُطاقُ في الصيف، ومع ذلك ظلَّ ماكثاً فيها وبقيَ يلحُّ في اقتراحه للذهاب إلى " الحانات " - لكني كنتُ أرفضُ باستمرار. كان فيه شيء يزعجني، وقد ارتحتُ قليلاً حين عادَ إلى وطنه. (في وقتٍ لاحق تلقَّيتُ من تولسا إعلاناً مكتوباً بحبِّه لي).

كفى الآن، ولنعُد إلى الجامعة، وإلى شابٍ ذي عينين كبيرتين مُضيئتَين تبرقان في الليل كعينيَّ قطة من نار.

أصبحتُ الآن عضواً رسمياً في المنظَّمة، وفي وقتٍ من الأوقات حظيتُ برفيقِ الغرفة هذا ذي العينين الفاتنتين، والشعر الأسود والتكوين الجسدي الذي يخلبُ اللب - وسأسمّيه سميتي.

مرة في كلّ فصل خريف كانت المنظَّمة تُقيمُ " أسبوعاً في المنزل العتيق " حيثُ يزدحمُ المنزلُ التيودوريّ الضخم بطلاب الجامعة. أثناء تلك العُطَل ينامُ الجميع أزواجاً في أسرَّةٍ صغيرةٍ لقضاء الليل. وقد اشتركَ في أحد الأسرَّة في المنامة الكائنة في الطابق الثالث مع سميتي، ونمنا تحت - كلا، ليس نمنا تحت بل تمدَّدنا تحت - ملاءةٍ رقيقةٍ جداً، فقد شكَّلَ سيلُ طلاب الجامعة ضغطاً هائلاً على مخزون أغطية الأسرَّة. حسنٌ، في تلك الليلة مررتُ بمغامرةٍ فريدة. فقد كنا هو وأنا نائمَين بملابسنا الداخلية. كنتُ أرتدي بنطالاً قصيراً وقميص فانيلا، وأعتقدُ أنه كان يرتدي فقط بنطالاً قصيراً.

بعد إطفاء الأنوار في المنامة بدأتُ أشعر بأصابعه تداعب أعلى ذراعيّ وكتفيّ، بلا وعي منه في أول الأمر وبعد ذلك، بعد ذلك -

كنا نائمين متعانقين وبدأ يضغط بقوة على ردفيّ وأخذت أرتعشُ كورقة في مهبّ الريح.

لكنَّ الأمرَ توقَّفَ عند ذلك الحد.

ثم، بعد ذلك ببضعة أسابيع، حين عُدنا إلى مهاجعنا المعتادة وصعدتُ إلى سريري العُلوي، إذا بالفتى يقفزُ لينضمَّ إليَّ.

فقلت، تلقائياً، وببراءة البتول " ماذا تريد؟ " أو "ماذا تفعل؟ "

ضحك، بخجل، وقفزَ عائداً هبوطاً إلى أسفل.

أعتقد أني بقيتُ مستلقياً يقظاً تقريباً طوال الليل، ألعنُ نفسي لسوء تصرُّفي في " سحق " تلك الخطوة الجريئة جداً (بالنسبة إلى تلك الأيام). كم يختلط الأمر أحياناً على المرء، كم يكونُ جاهلاً!

بدأ فتى آخر يزورُ غرفة نومنا ليلاً وفي ليلة من الليالي - وكانت تقضي حصراً بتبادل الحديث، أو " بالثرثرة " كما يقول الفتيان اليوم - ابتسم سميتي لزائرنا وقال "أتعرفُ ما أنوي أن أفعل في هذه الليلة؟ سوف أبعصُ تومي"

في الواقع لم أفهم ما عناه، في تلك الأيام لم أكن قد سمعتُ عن مصطلحات اللواط.

كان يدور بيننا نحن الثلاثة في السرير السفلي قليل من عبث جنسي مراهق. كنا نحن الثلاثة نرتدي الشورت، وأخذنا نشابكُ سيقاننا معاً قليلاً، ولم نذهب إلى أبعد من ذلك.

كنتُ أنا وسميتي نخرج معاً في نزهة مزدوجة مع فتيات من جامعة ستيفنز، وأُصبنا بالإحباط نحن الاثنان. إذ لم تكن الفتيات يسمحنَ لنا بالكثير.

وأذكُرُ الآن ذات ليلة بعينها وكنا قد خرجنا مع فتاتين ليستا من جامعة ستيفنز وإنما مع فتاتين خليعتين جداً من أحد المعاهد المختَلَطة، ولم تنتسبا لأحد نوادي الإناث لأسباب واضحة تماماً. وكان مع إحداهما سيارة صغيرة مكشوفة، فخرجنا بها معاً إلى مقلع الحجارة وتوقفنا هناك تحت ضوء القمر. ثم قال سميتي " لماذا لا تتمشّيا أنتما الاثنان على الطريق قليلاً؟ "

أخذنا نتمشّى على الطريق - ولم يحدث أي شيء بيننا.

حين رجعنا إلى السيارة المكشوفة، كانت فتاةُ سميتي تشربُ خمراً محلّياً وكانت أزرار بنطاله محلولة وعضوه المنتفخ يبرزُ منتصباً، فارتعتُ قليلاً. لقد بدا أشبه بقطعة سلاح منه بجزءٍ من جسدٍ إنساني.

لكنَّ العينين الناريّتَين، والجسد الطويل المتناسق عادلَتْ ذلك المشهد الكريه، ومع تقدُّم العام نمى بيننا الحب أكثر فأكثر، ولكن ظلَّ بدون أي تنفيسٍ من الجانب الجسدي للعلاقة، على الأقلّ ليس إلى الحد الذي يؤدّي إلى إطلاق العنان.

عندما حلَّ فصل الربيع أذكُرُ أننا كنا متمدِّدين على أرض المرج الفسيح ليلاً فدسَّ يدَه داخل قميصي وأخذَ يُداعبُ جذعي بأصابعه الضخمةِ تلك. وكنتُ دائماً أدخلُ في دور الارتعاش كورقةِ الشجر وفي كل مرة لم أكن أقول أو أفعل ما من شأنه أن يُشجِّعه.

لا شك في أن علاقتنا كانت قد بدأت تسبِّبُ الاضطراب للأخوة.

ورَسَبَ سميتي فانتقلَ وقلبُه يتفطَّرُ حُزناً إلى مثوى عام. إلا أننا واصلنا التلاقي بدون انقطاع، وذات ليلة ذهبنا إلى ما يُشبه حانةً في الهواء الطلق، مطابقةً لتلك التي وصفتُها لاحقاً في مسرحية " هبوط أورفيوس ". كان الموقعُ عبارةً عن تلٍ طويلٍ منحدرٍ تنتشرُ عليه منازلُ صغيرة للاستحمام يُقدَّمُ فيها خمر محلّي ويُتاح للأزواج أن يتمادوا بحرية. وكانت المنتجعات مُضاءةً بمصابيح من المناديل الورقيّة، وتأخذُ بالانطفاء واحداً بعد آخر.

أعتقدُ أننا كنا أحياناً نُطفئ مصباحنا أيضاً، ومع ذلك لا يحدثُ أي شيء.

ولكن ذات ليلة حدثَ شيء.

كانت الخمر قد لعبت برأسينا وتملكنا الدوار فبدأنا نضحكُ ونصرخُ معاً بشكلٍ جنوني. وفجأةً انطلقنا خارجَين من المنتجع وانحدرنا منه أسفل التل باتجاه السياج في أخفض نقطةٍ منه. وكنتُ من شدَّة السُكر بحيث لم أتمكَّنْ من عبور السياج. فتمدَّدتُ مبسوط الذراعَين والساقين على العشب الطويل الرطب وتمدَّدَ هو فوقي. وتصارعنا فيما يُشبه مصارعة العشاق. وهذا كل شيء. لكنه قال لي " هيا نقضي الليلة عندي "

ذهبنا إلى هناك بسيارة أجرة وحاولَ عدة مرات، على سبيل المُزاح أن يُقبِّلني من فمي وفي كل مرة كنتُ أُبعِده عني.

تراني أحمق، هه؟ أعتقد ذلك...

بعد ذلك بقليل ولدى ولوجنا غرفة النوم، تقيَّأتُ على الأرض.

مَسَحَ القيء الممزوج بالخمر بالمنشفة ثم خلعَ ملابسي ووضعني في السرير. دخلَ السرير معي وضمَّني إليه بقوةٍ بذراعيه وساقيه ورحتُ أرتجفُ بعُنفٍ حتى ارتجَّ السرير.

بقي يحضنني طوال الليل وبقيتُ أرتجفُ طوال الليل.

قد أقولُ عند هذه النقطة " آه، إنه الشباب " وأنجو ربما بفعلتي...

بعد انتهاء الامتحانات (وقد رسَبَ فيها) كانت ليلةٌ تُعرَف بـ " الليلة المجنونة " - الليلة التي تسبقُ مباشرةً انطلاقَ فتيان الجامعة إلى بيوتهم. وتكوَّمنا، سميتي وأنا وبعض الرفاق جميعاً، في سيارةِ أحدهم الكبيرة ورحنا نتجوَّلُ بها في البلدة بحثاً عن خمرٍ مهربة. وسكِرنا، كلنا. ثم نفدت الخمرُ منا فتوجَّهنا إلى محلٍ تصنَعُ فيه خمرٌ محلِّية. بقينا، سميتي وأنا وأحد الفتيان، في السيارة بينما ذهبَ رفاقُنا إلى المحل للشراء. وأثناء انتظارنا أنزلَ سميتي يده إلى مُلتقَى فخذَيَّ، فارتفع قضيبي وانتصب.

ثم أخذَ يُنكِّتُ عليه.

هتفَ قائلاً، بعد أن أبعدَ يدَه عن الموضع غير اللائق، " إنَّ توم يعتقدُ أني مثل ملموث "

تلك الإشارة إلى ملموث تؤدِّي مباشرةً إلى ذِكرِ اجتماعٍ غريبٍ لفرع المنظَّمة كان قد عُقِدَ في " المقرّ " قبلها ببضعة أسابيع.

كان اجتماع فرع المنظَّمة سرّياً. لم يكن ملموث حاضراً. وكان يُخيِّمُ جوٌّ من الوجوم المُكهرَب.

ألقى أحدُ موظَّفي المنظَمة الأخوية خطاباً، قال فيه إنه متأكِّد من أننا لاحظنا غياب ملموث وأنَّ ثمة سبباً لذلك وهو سببٌ صاعقٌ حتى أنه يصعُبُ عليه أن يذكُرَه.

ثم قال ببطءٍ، محملِقاً بضراوة في الفضاء، " لقد تمَّ اكتشافُ أن ملموث مصّاص أير"

وخيَّمَ صمتُ الرعب.

ثم تولّى أخٌ آخر، باركَه الرب، الكلام.

قال " هذا غير صحيح، لقد كنت شريكه في الغرفة طوال العام وأنا أعرفُ كيف يكونُ مصاص الأير وهو ليس كذلك "

كان الفتى الذي تكلّم أيرلندياً أسمر وسيماً جداً جداً. وأعتقدُ أنَّ من المنطقي أن يكونَ ملموث قد حاولَ إغوائه. لكنَّ ملموث فتى هادئ.

قال الموظف " أنا آسف، ولكن نحنُ متأكِّدون كلَّ التأكُّد من صحة معلوماتنا "

ثم حكى كيف وصلَ ملموث ذات ليلة إلى حالةٍ من السُكر الشديد، وحاول أن يضاجع بعض الفتية في محلٍ آخر، وكيف أنه، حين فشلَ في تحقيق مأربه، صعدَ إلى المنامة وقام بمحاولاتٍ مع أحد " أخوتنا ".

حسنٌ، لقد تقرَّرَ أنه يجب طرد ملموث ليس فقط من المنظمة الأخوية وعلى الفور، بل أيضاً من عملِه ومن البلدة كلِّها. وفي غضون أسبوع لم يبقَ له أي أثر ولا أظنني سمعتُ أي شيءٍ عن مصيرِه اللاحق.

والآن، المزيد عن سميتي.

كنتُ أعمدُ مرةً تقريباً في كل شهرٍ إلى التوجُّه سيراً على القدمين إلى بيتنا في سينت لويس - أقصد إلى يونيفرسيتي سيتي، ومنها إلى شقة إنرايت. وشاءت المصادفةُ أن تكونَ غرفة أختي روز شاغرةً من أجلنا، أنا وسميتي، خلال عطلة نهاية أحد الأسابيع، فقد كانت روز قد انتقلَتْ إلى مستشفى بارنز لإجراء بعض الفحوصات. فبعد انهيارها العقلي أُصيبَتْ بعسر هضم طالَ أمدُه.

تقاسمنا أنا وهو سريرها العاجيّ، وكان مزدوجاً. وأمضينا طوال تلك الليلة مستلقين يُجافينا النوم، فحضنني بقوة متظاهراً بأنه نائم وكنتُ أنا أرتعشُ وأسناني تصطك.

هل تكفي حياةٌ بطولها لتحتوي ندمي على تلك المضاجعة التي أجهضَتْ بحماقة كبيرة، ولكن اللذيذة بجنون؟

* * *

بالأمس قرَّرتُ مرة أخرى، كما كنتُ قد فعلتُ قبل بضعة أيام وقبلها أيضاً، أن أُمثِّلَ دوراً في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، وهو دور دوك. ومن باب جذب الناس إلى حضورِ المسرحية. بعد انتهاء العرض رافقتُ كاندي دارلينغ إلى مقهى صغيرٍ مجاور يُدعى مقهى ب. ج كلارك. وأخذتْ المجموعةُ تتَّسعُ حتى بلغَتْ ثمانية أشخاص. وأثناء تناولنا طعامِ العشاء هناك، لعبَ الخمرُ قليلاً برأسي، فقلتُ " أتدرون، إنني هذه الأيام أنام وحيداً. أتدرون، إنَّ نومي خفيف جداً حتى أنَّ وجودَ أي شخصٍ آخر معي في الغرفة يُبعدُ النومَ عن عينيَّ... "

قالت كاندي " أنا أيضاً مثلك "، وتبادلنا نظرات المواساة.

قلتُ أشياءَ كثيرة، أغلبُها عن إيماني بالله وبالصلاة، وعن أنَّ المفارقةَ هي في عدم إيماني بالعالم الآخر. وقلتُ أيضاً إني أؤمنُ بالملائكة أكثر من إيماني بالله والسبب في ذلك يرجعُ إلى أني لم أعرف الله قط - أهو حقيقي أم زائف؟ - ولكن عرفتُ عدة ملائكة خلال حياتي.

" ماذا؟ "

قلتُ مُفسِّراً " آه، أقصد ملائكة بشريين "، وهذا صحيح كلَّ الصحة...

كانت عودتي إلى " خشبة المسرح " بدور دوك في الليلة الفائتة خيبة أمل واضحة. لم أعُد مخزونَ الطاقة الذي كُنتُه خلال أدائي للدور المحدود في الفترة الأولى في نيو ثياتر، حين كنتُ أُقيمُ بعد انتهاء العرض " ندوات ". في أول عروض العودة، مساء يوم الثلاثاء، كانت الأماكنُ محجوزةً كلها، وتملَّكتني طوال الأمسية إثارةُ عودتي كممثل، على الرغم من حدوثِ بعض السهو في الإلقاء، مع قدرٍ من البراعةِ في الأداء.

ولكن مساء أمس حُجِّمَتُ على الفور، لدى دخولي غرفة تغيير ملابس الرجال، على يد براد سليفان، الذي يقومُ بدور بيل، الفحل المُتبجِّح بشكلٍ يُثيرُ الشفقة. وكان سليفان يميلُ دائماً إلى تثبيط همَّتي، أو على الأقلِّ هذا ما تراءى لي، ولا أدري السبب. لطالما كنتُ أُعاملُه برفعِ كلفةٍ ودودٍ ورقيق، وهذا الأسلوب في السلوك حاولتُ

أن أُرسِّخَه مع كل طاقم الممثلين منذ بدء البروفات. ويجب أن أعترف بأنَّ معظم الباقين قد استجابوا بكل ودّ، أقصد، في أغلب الأحيان. والحقيقة هي أني كنتُ أقربَ، في السن، والروح، إلى ذلك الممثل المُجيد، ديفيد هوكس، الذي حللتُ مكانَه في دور دوك.

الواقع هو أنَّ عودتي إلى أداء الدور كانت مسألة تطلَّبَها شباك التذاكر. فخلال أسابيع الصيف الشديد القيظ، كان العملُ يصلُ إلى أدنى مستوى. وطلبَ مني وكيلي الحالي، بيلي بارنز ، أن أعود إلى أداء الدور ما دام قد تبيَّن أني شكَّلتُ عنصر جذبٍ خلال ذلك الأسبوع الوحيد الذي ظهرت فيه في وقتٍ مبكِّر من الصيف.

لكنَّ العنفوان كان قد خَمَدَ قليلاً، وفي الليلة الفائتة تضاءلَ عدد رواد المسرح بشكلٍ كبير وربما باتَ جلياً للممثلين أني لن أكونَ عنصر جذبٍ الذي برهنتُ عليه قبلاً. وبين الحين والآخر كان جين فاننغ، الذي يقومُ بدور مونك، يتذمَّرُ من أنَّ مناجاتي الافتتاحية ليست" مسرحيّة " بما يكفي. وفي رأيي إن هذا الكلام غير مُنصِف، وقد خابَ أملي بجين كثيراً، وهو الذي طالما كان نِعمَ المُعين لي في العروض السابقة. وبعد كل شيء كنتُ أكدُّ يتهدَّدني خطران. فقد كان يُقال لي على الدوام إنني لا أبرز الدور كفاية وإنَّ عليَّ دائماً أن " أغشّ " وأنا في مقدمة خشبة المسرح. على أي حال كنتُ دائماً على اتصالٍ مع جين من خلال تبادُل نظراتٍ سريعة معه. ومدير المسرح أيضاً سبَّبَ لي إزعاجاً كبيراً. قال إنني أسقطتُ بضع مقاطع مُهمِّة. صحيح أني أسقطتُ مرتين سطراً أو سطرين من دوري المُسهَب، إلا أنَّ المقاطع المُسقَطة لم تكن هامة، وأعتقد أني، بدون مساعدة جين، قد أحسنتُ تغطيتها ولعلَّ المسرحية الكثيرة الكلام تحسَّنَتْ بعد الإسقاط.

الآن لم يبقَ من المُدافعين عني من الذكور إلا بيل هيكي، على الرغم من أنَّ باتريك بدفورد كان، كعهدي به دائماً، ودوداً جداً معي. غير أني انزعجتُ أيَّما انزعاج - ربما بسبب أناي الجريحة - بعد انتهاء العرض وقلتُ، مع لمسةِ مُزاحٍ، إنه من الآن فصاعداً سوف أستخدمُ غرفةَ تغيير ملابس السيدات أو الغرفة المنفصلة المُخصَّصة لكاندي دارلنغ - التي، بما أنها transvestite(١٢) ، أُعطِيَتْ لها غرفةٌ خاصة. وبالمناسبة، فقد أصبحت من أعزّ أصدقائي من بين الممثلين.

غادرتُ دار المسرح وأنا بملابس التمثيل، ومررتُ قبل مُغادرتي على غرفة كاندي ودعوتها إلى تناول العشاء في مطعم جو ألن، وهو مَرْبَعٌ ليلي مُخصَّص للعاملين في المسرح في شارع ويست فيفتي سيكس، وكانت قد مَدَحَته أمامي في الليلة السابقة. ارتدتْ أبهى حُللها على طراز الخمسينات ووضعتْ شعرها المستعار الأشقر الملائم جداً لها، وفوقه اعتمرتْ قبعة ضيِّقة من المخمل الأسود على شكل جَرَس مزوَّدة بماسات متألِّقة تغطِّي جبينها.

لاشك في أنَّ ولوجنا مطعم جو ألن قد لفَتَ إلينا الأنظار، فقد كان طول كاندي يتجاوزُ الستة أقدام أما أنا فلم يتجاوز طولي الخمسة أقدام ونصف. وكنتُ أعتمرُ قبعتي " الفلاَّحيَّة "، من طراز ستتن بثلاثين دولاراً ذات حواف عريضة معقوفة إلى أعلى كنتُ قد اشتريتُها لأرتديها أثناء تمثيلي للدور.

استُقبلنا بحفاوةٍ من قِبَل صاحب المطعم وتبادلنا حديثاً لطيفاً. وألْقَتْ كاندي قصيدةً كانت قد ألَّفَتْها تُدعى " غبار النجوم " وكانت مؤثِّرةً جداً. تحدَّثنا عن حياتينا الخاصَّتَين، وما يسودهما من وَحشَة، وعن مشاكلنا " مع الرجال ". ثم أوصلتُها إلى منزلها - إلى شقَّتها المزدوجة المجاور لكنيسة العلم المسيحي (تقولُ إنها تستمدُّ منها ذبذبات ممتعة) - وحين أوصلتُها إلى مدخل الشقَّة، دعتني إلى الدخول لكنِّي أحجمت. كنتُ مُتعَباً ولم أرغب في مزيدٍ من الخمر.

* * *

سَنَتي الثالثة في جامعة ميزوري كانت بلا طعم نسبياً. فمعبودي سميتي لم يعُد أبداً إلى دراسته، ورفيق الغرفة الذي حصَلْتُ عليه لم يُثِر لديَّ أي اهتمام. وخلال ربيع ذلك العام أقمتُ علاقةً بريئةً صغيرةً ومؤثِّرةً مع فتاةٍ فاتنةٍ جداً تُدعى آنا جين. كانت مشاعري نحوها رومانسية. وكانت جميلة جداً، تقطن في مكانٍ قريبٍ في جمعية " ألفا تشي أوميغا " النسائية، وكانت تتمتَّعُ بروحٍ مرحةٍ بهيجة. وقد كتبتُ قصيدةً صغيرةً عنها، في الواقع هي عدة قصائد. وهاكَ واحدة:

هل أنسى

ليلة انتظرتِ

بالقرب من باب بيتكِ -

أيمكنُ التعبيرُ عن ذلك
ببساطةٍ أكبر؟ -
من أجل المزيد.

قلتِ شعراً
في الحب الغضّ
ونحنُ واقفان
نستنشقُ عبقَ
ما بعد المطر اللذيذ
في الغابــة.

كنتُ أحمـق،
لم أعرف ماذا
كنتِ تنتظرين.
ثم ابتسمتِ
وبهــدوء
أغلقتِ الباب.

كانت سَنتي الأخيرة في تلك الجامعة الأولى من الجامعات الثلاث التي التحقتُ بها. كانت درجاتي جيدة في اللغة الإنكليزية وفي مادة أو اثنتين أخريين، لكني طردتُ من المنظَّمة وحصلتُ على درجاتٍ سيئةٍ في عدة مقررات أخرى.

حين عدتُ إلى المنزل أعلنَ والدي أنه لم يعُد قادراً على دفع مصروفات جامعتي وأنه سيحصل لي على عملٍ في فرع الشركة العالمية للأحذية.

واظبتُ على ذلك العمل مدة ثلاث سنوات، من عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٣٤، وكنتُ أتلقّى مبلغ خمسة وستين دولاراً في الشهر - وكان عملاً مُقبضاً.

الحقّ يُقال، ما كنتُ لأقايضُ تلك السنوات الثلاث بأي شيء لأني تعلّمتُ خلالها أنّ مصير العامل ذي الياقة المُنشّاة يُعتَبَر وصمة على جبين الشركات.

حصلتُ على العمل لأنَّ أبي كان قد دبَّرَ للرئيس الأعلى منصبه في فرع الشركة العالمية لصُنَّاع الأحذية (كان ذلك قبل حادثة لعبة البوكر وانحدار فسقوط " الأب المحترم "). وطبعاً كان الرؤساء متلهِّفين للعثور على عذر للتخلُّص مني، فأسندوا إليَّ أشدّ الأعمال بَعثاً على الملل والإرهاق. فكان عليَّ أن أنفض الغبار عن مئات الأحذية في معرض العيِّنات في صباح كلّ يوم، ثم كان عليّ أن أُمضي ساعاتٍ طوالاً أطبعُ على الآلة الكاتبة الطلبات المترتبة على المصنع. أرقام، ولا شيء غير الأرقام! وقرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر كنتُ أُبعَثُ إلى مؤسسة عميلنا الرئيسي ج. س بيني، مع صناديق ضخمة من الأحذية لكي يقبلها أو يرفضها. وكانت الصناديق من الثقَل بحيث تتطلَّبُ جهداً جباراً لرفعها: ولم أكن أقوى على حملِها إلا لمسافةِ نصف عمارة لأضعها فيما بعد وألتقط أنفاسي.

ومع ذلك تعلَّمتُ الكثير هناك عن الصلِة الوثيقة بين زملاء العمل ذوي الرواتب الأدنى، وخرجت بعددٍ من الأصدقاء الصدوقين، خاصة صديق بولوني يُدعى إدي كان كما يُقال يأخذني تحت جناحه، وفتاة تُدعى دوريتا، وكان إدي مُتيَّماً بها. ثم كانت هناك عانسٌ على الطاولة المجاورة لي، هي نورما الضئيلة المُكتنزة. وأثناء عملنا كنا نتبادل أحاديث هامسة عن الأفلام السينمائية الجيدة والعروض المسرحية التي تجري في البلدة، والعروض الإذاعية مثل " آموس وآندي ".

خلال عامي الأول بلغتُ سنَّ الرشد وتمَّ تسجيلي في خانة وأدليتُ للمرة الأولى والأخيرة بصوتي في انتخاباتٍ سياسية. وكان ذلك لصالح نورمَن توماس: كنتُ عندئذٍ قد أصبحتُ اشتراكياً، لأسبابٍ أضحت الآن جليّة.

كانت هيزل ما تزالُ تدرسُ في ويسكنسن. وكانت تغنِّي في المذياع بنجاحٍ كبير. وواظبتْ على زيارة والدتها، مس فلورانس، على الأقلّ مرة في الأسبوع.

بدأتُ أكتبُ أثناء الليل. كنتُ أبدأ قصةً وأكملُها في غضون أسبوع ثم أُرسِلُها بالبريد، حال الانتهاء من كتابتها، إلى مجلةَ القصة المميَّزة المُسمَّاة " قصة ". في ذلك الوقت أثار ساروين الشاب ضجَّةً في تلك المَجلة بأقصوصة " الشاب الشجاع على الأرجوحة المُحلِّقة ". في البدء شجَّعني الناشرون مع ملاحظاتٍ نقديةٍ صغيرةٍ شخصية. ولكن سرعان ما بدأتُ أتلقَّى " صِيَغ " الرفض البغيضة تلك.

كنتُ أحصلُ على عطلةٍ بعد ظهر أيام السبت من عملي في الشركة العالمية. وفي أوقات الفراغ المُحبَّبة تلك كنتُ أُحافظُ على حِميةٍ لا تتغيَّر: أذهبُ إلى المكتبة التجارية في قلب سينت لويس، وهناك أقرأُ بنَهَمٍ، وأتناولُ غداءً بخمسةٍ وثلاثين سنتناً في مطعمٍ صغيرٍ ممتعٍ، ثم أعودُ إلى البيت بواسطة " السرفيس " - لأركِّز تفكيري في قصةِ الأسبوع القصيرة. وطبعاً كان نهار يوم الأحد كله مخصَّصاً لإنهاء القصة.

خلال أيام الأسبوع كنتُ أنظمُ الشعرَ: أخشى أنه ليس مميَّزاً كثيراً. وفي مناسبةٍ واحدة نظمتُ في عُجالةٍ ما يمكنُ اعتباره أسوأ سوناته أَلَّفتُ، ويُدهشني الآن ويُضحكني أن أوردها كاملةً:

أراهُنَّ ممدَّدات في قبورهُنَّ
كلّ شاعرات هذا البلد،
كلُّ قابعةٌ في كهفها الصغير الغامض،
الأغنية منزوعةٌ من الشَفَة والقلمُ مسروقٌ من اليد.
لا صوتَ يصدرُ عنها، كأنها حجر،
أضحتْ الآن أقلَّ طنيناً من عُشب الشتاء،
هذه الكتلةُ من اللحم الذابل والعظام الجافة
التي كانت ذات مرة رمزاً للجمال الخالد.
لقد أحكمَ الموتُ قبضَتَه بقسوةٍ وحطَّمَ قيثارة سابو،
وتفرَّقَ باريت وويلي كلٌّ في طريقه الصامتة.
لا يهمُّه كم يسفحُ من نارٍ مقدسة
حين تُهشَّمُ الجرَّةُ الفخّاريّة.
ولكن، أيها الموتُ، إنني أغفرُ لكَ كلَّ ما أخذتَه
ما دمتَ ستتركُ لي " ميلاي " العظيمة.

كان عملي في مجال القصة القصيرة، الذي انحصرَ حينئذٍ ضمن فترة عُطَل نهاية الأسبوع وحفَّزَه شربُ القهوةِ القوية، أفضلَ بمراحل، وأغلبُ تلك القصص محفوظٌ في أرشيف جامعة تكساس.

ظهـرت أول بـوادر اضـطراب قلبي في ربيع عـام ١٩٣٤، وبقي يـلازمني منذ ذلك الحين، بدرجـات متـفـاوتة جداً، أحيـاناً بشكلٍ لا يكفي حتى لجلب انتبـاهي ولكنه في أوقاتٍ أخرى يكفي ليتحوَّلَ إلى هاجس.

أول بادرة مـثـيـرة لتـلك الحـالة، في ربيع عـام ١٩٣٤ ـ أثارها أمـران. أولاً، زواج هيـزل المفاجئ تماماً من شاب يُدعى تيرينس مكيب، كانت تخرجُ معه وهما في جامعة ويسكنسن. فـشعرتُ وكـأنَّ السمـاءَ انقضَّتْ عليَّ، وكـانت ردَّة فعلي هي أن أُباشرَ عملي كل مسـاء بتأليف القصص القصيرة، متغلباً على الإرهاق بشُرب القهوة السادة.

وذات مسـاء كنتُ أعـملُ على تأليفِ قـصةٍ عنوانهـا " وقْعُ أقدامٍ تقـترب "، لعلَّها أنضج قـصة قـصيرة خرجتُ بها من تلك الحِقبة. وكنتُ قد وصلتُ إلى مشـهدٍ حَرِجٍ حين وعيتُ فجأةً أنَّ قلبي يخفقُ بقوةٍ ويطفر.

ولما لم يـكن بين يديَّ أي دواء مُـهـدِّئ، أو حـتى كـأس من النبـيـذ، خطرَ في بالي خـاطرٌ مـجنون: قـفـزتُ من مكانـي أمـام الآلة الكاتبـة، ثم اندفـعتُ خـارجـاً إلى شـارع يونيـفرسيـتي سيـتي، ورحتُ أغذُّ السير أسرع فأسـرع وكأني بتلك الطريقة أسبقُ الأزمة القلبيـة. مـشيتُ المسـافة كلهـا من يونيفرسيـتي سيتي وحتى يونيون بوليـفار في سينت لويس، مـتوقِّعـاً عند كل خطوة أن أقعَ صريعاً. كـانت ردَّة فعل غـريزية حيـوانية، شبيـهةً بردَّة فعل قطة أُصيبَت بلوثةِ جنون، أو كلب صدمتـه سيـارة، فـأخذ يدور ويدور إلى أن خرَّ صريعاً، أو كدجاجة ذبيحةٍ تركضُ وتضربُ بجناحيها بشكلٍ فظيع.

حدث ذلك في منتـصف شهر آذار. كـانت الأشجـارُ على جانبيِّ الشـارع قد بدأتْ تُخرِجُ براعمـها، ونوعـاً ما كـان لمشاهدتي لتلك الخُضرةِ الربيعـية الأوليـة وأنا مندفعٌ في سيري أثرٌ تدريجي مُهدِّئ - وتوجَّهتُ عائداً إلى المنزل وقد أخذَ الوجيب يستقر.

لم آتي على ذكرِ أي شيءٍ لأسرتي وواظبتُ على عملي اليومي في شركة الأحذية.

وفي عـطلة نهـاية الأسـبـوع تلك ذهبتُ وأخـتي لحـضـور فـيـلم " كـزبرة الثـعلب الأرجوانيـة "، بطولة لزلي هوارد. وكنتُ مشدوداً جداً لمتـابعة مجريات الفيلم. وبعد ذلك استـقلنا سـيـارة سرفـيس عـائدين إلى المنزل، وكـانت تلك وسـيلةُ نقلٍ سـادتْ في فـترةِ الكسـاد الاقتـصادي. كـانت تُكلِّفُ الراكبَ خمسينَ سنتـاً للانتقـال من قلب مدينة سينت لويس إلى يونيفرسيتي سيتي في الضاحية.

بينما كنا نخترقُ شارعَ ويلمار متوجِّهَين إلى يونيفرسيتي سيتي، أخذَ توتُّري يزداد باطِّراد وظهرتْ عليَّ عوارضُ مرعبة. فقد تسرَّبَ الإحساسُ من يديَّ، وتصلَّبتْ أصابعي وأخذَ قلبي يضربُ بقوة.

حين اقتربنا من مستشفى سينت لويس فينسنت ملتُ إلى الأمام وقلتُ للسائق: أرجوك أوصلني إلى مدخل المستشفى، سأصابُ بنوبةٍ قلبيّةٍ أو سكتةٍ دماغية "

بقيتُ في جناح أمراض القلب مدة أسبوعٍ أو عشرة أيام. وإبَّان عودتي إلى المنزل ظهرَ على روز للمرة الأولى الاضطراب العقلي بشكلٍ واضح...

أتذكَّرها وهي تتجوَّلُ في غرفتي الصغيرة وتقول " هيا بنا نَمُتْ كلنا معاً "

ولم تعجبني الفكرة على الإطلاق.

في غضون أسبوع بعد ذلك قدَّمتُ استقالتي لصديق والدي، السيد فلتشر من شركة صُنَّاع الأحذية، وتلقَّيتُ تنويهاً مُهذَّباً بذلك الشأن " أطيب التمنيات بالشفاء العاجل. وجميعنا كنا نُقدِّرُ مزاياك المتعددة الأصيلة ". كنتُ أتمنى لو كانت تلك الرسالة بحوزتي إذاً لأحطتُها بإطارٍ من فضة...

قرَّرَ الأهلُ أنه يجب أن أقضي فترة النقاهة في الصيف مع جدي وجدتي في منزلهما الصغير في ممفيس.

وهكذا تلقَّيتُ في عيد ميلادي الرابع والعشرين كهديةٍ عتقاً أبدياً من العمل في مجال بيع الأحذية بالجملة في سينت لويس، وبالتالي منحت فرصة كاملة للاقتراب من النضج في " فنّي ومهنتي الكئيبَين "، كما وصف ديلن توماس امتهان الكتابة. أما بالنسبة إليّ فقد كان في أغلب الأحيان التزاماً يائساً، لكني لم أر فيه قط أي شيء كئيب. حتى أفضل الشعراء يمكن أحياناً أن يخرجوا بنتيجةٍ سيئة، كما فعل ستيفن سبندر حين تحدَّثَ عن " الحاجة المسائية الخطيرة إلى الحب ". لا أدري ما الخطورة في الرغبة الجنسية؟ ومهما يكن المرءُ رومانسياً، فلا يمكن اعتبارُ الرغبة القوية بـ " وضع الخنجر في غمده " مسألةً خطيرةً، وهي لا تُمارَسُ إلا خلال ساعات الليل، وكأنها صلاةٌ مسائيّةٌ في كنيسةٍ أُسقُفيّة على أداء الطقوس. وربما يخلطُ بعض الشعراء بين ضجيج فعل الجنس والركوع للصلاة أمام المذبح العالي: قد يكونُ، أحياناً، وضعاً عملياً، لكنه حتماً ليس المكان المناسب.

* * *

ها أنا ذا اليوم أغدو مُهرِّجاً، أخشى أنَّ هذا نتيجة إعادة قراءتي لمسرحيتي الميلودرامية المضحكة " المملكة الأرضية "، التي وَعَدَ مايكل خان بإحياء عرضها في برينستون مُستخدماً مواهبه الإخراجية الرائعة التي اكتسبها من شكسبير الأميركي ومسرح هتْ كات في سترادفورد ، كونيكتيكت.

* * *

كلُ شيءٍ يُحَالُ إلى الموسم القادم، الموسم القادم، حتى بتُّ أشعرُ أنَّ الأسبوع القادم لن يأتي أبداً!

كنتُ أتمنى لو أني أتمتَّعُ بروحٍ بريكتوب التي كانت الضيف المفاجأة في حفل عشاء تشك بودن في الليلة قبل الفائتة، بمناسبة عيد ميلادها الثمانين: دخلتْ الشقة وهي تغني Quiereme Mucho، الأغنية التي كنتُ دائماً أطلبُ منها أن تغنيها في ناديها في فيا فنيتا في روما. ومن بعدها غنَّتْ أغانٍ كثيرةٍ مفضَّلةٍ لديَّ، وكان صوتها، وطريقتها في نطق الكلمات وأسلوبها في التعبير ما زالت جميلةً كعهدها دائماً.

مايكل موريارتي بدوره غنَّى بدوره لصَحبِه وهو يعزف على آلة البيانو ولا أزال أعتبره ممثّلنا الدرامي الشاب الواعد أكثر من غيره...

جيم دايل من سكابينو غنَّى وعزفَ أغنيةً من تأليفه بعنوان molto con brio.

* * *

مسرحيتي الأولى أُنتِجَتْ وأنا في الرابعة والعشرين من العمر وكنتُ مُقيماً مع جدَّيَّ في ممفيس في صيف عام ١٩٣٤. تلك المسرحية (وعنوانها " القاهرة، شنغهاي، بومباي! ") أنتجتْها بنجاح فرقة " ممثلو روز آربور "، وهي مجموعةُ مسرح صغير، في ممفيس. وكان لدى جدي وجدتي ديكن منزلٌ صغيرٌ في شارع سنودَن. وكان قريباً من جامعة ساوث ويسترن وأقربَ من مقرِّ نول رودس وزوجته وأمه وقطته. وكان البروفيسور رودس وعائلته الصغيرة أصدقاءَ مقرَّبين جداً منا. كانوا فيرجينيين من الطراز الأول. وفيما بعد أصبح البروفيسور رئيس الجامعة: أعتقد أنه في صيف عام ١٩٣٤ كان رئيس قسم اللغة الإنكليزية وقد أفسحَ لي مجالاً للجوءِ إلى مكتبة الجامعة وأمضيتُ أغلب أوقات ذلك الصيف وأنا أقرأ هناك، أو في مكتبة البلدة الكائنة في شارع مين.

خلال ذلك الصيف وقعتُ في حب مؤلَّفات أنطون تشيخوف، على الأقلّ فيما يخصُّ قصصه القصيرة العديدة. فقد عرَّفَتني إلى حساسيةٍ أدبيّة شعرتُ بتآلفٍ وثيقٍ معها في ذلك الوقت. والآن أجد أنه ينطوي على الكثير الكثير. ومازلت أعشقُ الشعرية الرقيقة التي تتَّسِم بها مؤلفاته، وأعتقد أنَّ مسرحية " النورس " لا تزال أعظم المسرحيات الحديثة، إذا استثنينا مسرحية بريخت " الأم شجاعة ".

لطالما قيلَ إنَّ لورانس شكَّلَ المصدر الأول لتأثُّري الأدبي. والواقع هو أنَّ لورانس ساهمَ بحقٍّ بشخصيته الـ simpatico (المُحبَّبة) جداً في نشأتي الأدبية، لكنَّ تشيخوف استلَمَ قصب السبق كمؤثِّر - أي، إنْ كان هناك أي تأثير خاص إلى جانب ميلي ذي الطابع المتوحِّد - في توجيهي إلى ما لستُ متأكِّداً أين ولعلّي لم أعرف مطلقاً...

* * *

مساء أمس ذكَّرني دونالد مادن بوعدي بعملِ صِياغةٍ جديدةٍ لمسرحية " النورس " (وكنا معاً نشعرُ بأنها لم تخرج أبداً عن حدود الترجمة الضيقة، ولا حتى على يد ستارك ينغ) وبتوقي إلى إخراجها، على أن يقومَ مادن بدور بريغورين، وآن ميتشم بدور نينا أو بدور الآنسة آركادينا -

ولكن ليلة أمس هززتُ رأسي قليلاً لدى تذكُّر ذلك المشروع الطموح، وقلت - ولم أقصد أن أرثي نفسي - إنني أعتقد أنه يتوفَّرُ لديَّ الوقتُ الآن للقيام بأي عملٍ يتعلَّقُ بالكتابةِ إلى جانب هذا " الشيء " الذي يُدعى مذكراتي، وربما أكتبُ نسخةً أخيرةً من " قطار الحليب " لأجل مايكل يورك، وأنجيلا لانسبري...

* * *

في ذلك الصيف من عام ١٩٣٤، في أول عهدي ككاتب مسرحي، كانت تقطنُ بجوار بيت جدِّي في ممفيس عائلة يهودية عندها ابنة عطوف جداً ومطبوعة على الودِّ تُدعى برنيس دوروثي شابيرو. وكانت عضواً في نادٍ مسرحيٍّ صغير في ممفيس. وكانت عروضهم تُقامُ على منحدَرٍ فسيحٍ خلف مرجٍ يخصُّ سيدةً تُدعى السيدة روزبورو، مما يُعلِّل اسم " روز آربور " الذي تحمله تلك الزُمرة من الممثلين، وطلبَتْ دوروثي مني أن أتعاون معها في عملٍ مسرحي للفرقة - كانت تعرفُ أني كاتب وأنها ليست كذلك. فكتبتُ مسرحيةً سمَّيتُها" القاهرة، شنغهاي، بومباي! " - وهي مسرحيةٌ كوميدية

صغيرة مُؤثِّرة تنحو إلى الهزل وتدور حول اثنين من البحارة خرجا مع فتاتَين من النوع " المستهتر ". ووضعتْ برنيس دوروثي شابيرو للمسرحية مقدمةً لا لزومَ لها على الإطلاق وأيضاً، يجب أن أعترف، غير متميِّزة. وشكراً لله لأنَّ المقدمة كانت قصيرة: وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أذكره لصالحها.

عُرِضَتْ المسرحية في أواخر ذلك الصيف. ولم تكن طويلة، إلا أنها حقَّقَتْ نجاحاً عظيماً للفرقة. وفي برنامج العرض جاء ذكري كمُشتركٍ في التأليف وجاء اسمي بعد اسم دوروثي. ومع ذلك، فالضحك الخارج من القلب وبطلاقةٍ والذي أشاعته الكوميديا التي كتبتُها أنا أبهجني.

في ذلك المكان والزمان تلاقينا، المسرحُ وأنا، على السراء والضراء.

أعرفُ أنه الشيء الوحيد الذي أنقذَ حياتي.

* * *

خلال فصل الصيف نفسه من عام ١٩٣٤ في ممفيس، حين بدأتُ أُدركُ بشكلٍ كامل انجذاباً ارتبتُ فيه مطوّلاً إلى الكتابة للمسرح، وبدأتُ أُدركُ بشكلٍ أكبر انجذاباً، وأيضاً كنتُ قد ارتبتُ فيه بعض الوقت، نحو الشبان. ثم كانت هناك رِقَّةُ بنيتي الجسدية.

وبعد ظهيرة أحد الأيام خرجتُ مع شابَّين من طلاب الجامعة كانا من أصدقاء جدي. كانا على جانبٍ كبير من الوسامة: أحدهما أسمر، والثاني أشقر مُشرِقاً.

حين أتأمَّلُ في وقائع الماضي أُدركُ أنهما كانا مُتحابَّين. صحباني إلى بحيرةٍ بالقرب من ممفيس حيثُ يوجد شاطئ للسباحة - ومن ثم، في الواقع، لَدَغتني بقَّةُ الحب على هيئة اشتياقٍ جنسيَّ إلى الأشقر، وأعتقدُ أنَّ الشعورَ كان متبادلاً: فقد دعاني ذات مساء لتناول طعام العشاء معه في مطعم فندق بيبودي. وشربنا البيرة، أظنُّ أنَّ البيرة كانت السبب الحقيقي لشدَّة الخفقان الذي بدأ فجأةً يتملَّكُ قلبي الولهان. وانتابني الرعب وكذا كان حال الأشقر. استُدعيَ الطبيبُ، وكان امرأةً، وكانت طبيبة رديئةً جداً. أعطتني قرصاً مُهدِّئاً لكنَّها أنبأتني، بوجوم، بأنَّ العوارض التي ظهرتْ عليَّ هي بحق على جانب من الخطورة.

قالت قدْرُ الكآبة تلك " يجب أن تقومَ بفعلِ كل شيء بحرصٍ وببط "، وقالت إني إذا لجأتُ إلى ممارسة المشي بحَذَرٍ وببطءٍ فسوف أنجحُ في بلوغ سن الأربعين!

قال الأشقرُ المسكين " أوه، كم أنا سعيد لإبلاغي بهذا، إنه يُسرعُ في سيرهِ كثيراً في الشارع بالنسبةِ إلى مريضٍ في القلب مثله "

هذه الواقعة نتجَ عنها عودةُ اضطرابات القلب التي كانت قد بدأتْ تهدأ في أواخر ذلك الصيف.

* * *

علاقتي الجنسية الكاملة الأولى والأخيرة والوحيدة مع امرأة تمّتْ بعد ذلك، بعد أن عدتُ إلى الجامعة لأقضي فيها عاماً، في قسم الدراما من جامعة أيوا، في خريف عام ١٩٣٧. أظنُّ أن الفتاةَ كانت شبِقةً صرفاً، وسأدعوها سالي. ولم تكن فقط شبِقةً بل ومدمنة كحول. وتطوَّرت علاقتها معي بصورةٍ مفاجئة كما يحدثُ مع مُطاردي العصابات، وذلك قُبيل عرض مسرحيتي (شبه الاحترافيّة) الثانية " النوع المُتملِّص " في سينت لويس على يد فرقة سمرز. ومجرَّد عرض مسرحيةٍ لي في سينت لويس مَنَحَني زهواً في ذلك الموسم الخريفي في أيوا. وأعتقدُ أنَّ سالي وجدَتني مُثيراً للاهتمام لهذا السبب، مع أني كشاب كنتُ أتمتَّعُ، أيضاً، بقدرٍ من الوسامة. كان جسمي قد أضحى نحيلاً ممشوقاً كأجساد السبّاحين ولم يكن الإعتامُ في عيني اليُسرى قد ظهرَ بعد. وكانت لسالي تقاطيعُ وجهٍ إيطالية، أقصد أنَّ الجبين والأنفَ كانا مستقيمين، والفمَ ممتلئاً وحِسِّياً، وأنفاسَها دائماً تفوحُ منها رائحة تبغٍ وبيرةٍ مُحبَّبة. كانت ضخمة البنية، خاصة ثديبها، اللذين كانا الأكثر بروزاً في جسمها.

وذات مساء في أوائل الخريف استعارت شقَّةً من صديقةٍ لها، بُغية إغوائي. وأذكُرُ كيف أخذتْ الأغاني القديمة تنسابُ من المذياع، مثل " قَبِّلني ثانية " و " أُحبُّ عناقَكَ " و" آه، عِدني "، وما إليها، وكأننا نحن مَنْ طَلَبَها، وسرعان ما انطرحنا على الصوفا عاريين، ولم أحظَ بانتصاب، لا جدوى، لا جدوى، وفجأةً شعرتُ بغثيانٍ بسبب الخمر الذي شربتُهُ والضغط العصبي والإحساس بالحَرَج. فاندفعتُ متوجِّهاً إلى الحمَّام وتقيَّأتُ، ثم خرجتُ متلفِّعاً بمنشفة، أُجرجرُ أذيال الخجل من فشلي في امتحان الرجولة.

قالتْ " توم، لقد أثَّرتَ في أعمق أوتار طبيعتي، وتر الأمومة "

في الليلة التالية صحبتُها إلى مقرِّها في النُزُل الذي تُقيمُ فيه، كانت ترتدي سروالَ تزلُّج قرمزيَّ اللون وسترةً صوفيّةً غليظة بيضاء يبرزُ من تحتها ثدياها الضخمان. أطفأتْ الأضواء في ردهة النُزُل وأومأت لي نحو الصوفا.

أحرزَت مداعباتها نجاحاً كاسحاً. فتحتْ زمام بنطال تزلُّجها المنزلِق وضاجعتُها وأنا ما أزال أرتدي معطفي. قوطعنا مرةً أو مرَّتين بعودة النزلاء. فكانت تُغلِقُ زمام بنطالها المُنزلق وأُزرِّرُ أنا معطفي لكنَّ أحداً لم يُخدَع بذلك ولم يأبهوا، فقد كان نُزُلاً فاسقاً. وكان النزلاء يتوجَّهون من فورهم إلى أعلى وفي الحال نعودُ إلى انهماكنا الشبِق في فضِّ بكارة عُذريَّتي.

تعلَّقَتُ بها كتعلُّق البط بالماء. ثم قذفتُ وما كنتُ مُطلقاً لأتخيَّلُ حدوثَ مثل ذلك الأمر، كل ذلك السائل الحار الذي تفجَّرَ داخلها وحولَ قضيبي وكبتها اللاهث لصرخاتها.

لم أكن بعدُ قد عشقتُ سالي لكنني شعرتُ باعتزازٍ رهيبٍ بنفسي. عدتُ إلى المقرّ بعد منتصف الليل. وصعدتُ مباشرةً إلى مرحاض الرجال في مقر المنظَّمة الأخوية. وكان أخٌ آخرُ يتبوَّلُ حين بدأتُ أتبوَّل. فقلت له " ضاجعتُ فتاةً هذه الليلة "

" عال، عال، كيف كان الحال؟ "

قلتُ " أوه، كأني كنتُ أخترقُ قناة السويس "، وابتسمتُ ابتسامةً عريضةً وشعرتُ أني رجلٌ تامّ النضج.

ثم أخذنا نقومُ بها كلَّ ليلةٍ على مدى ما يقاربُ الشهرين ونصف أو ثلاثة أشهر قبل بدء عُطل عيد الميلاد. كنا نُعيدُ المشهدَ نفسَه، وأعتقدُ أن كلينا كان يستمتعُ أكثرَ فأكثر. تعلَّمتُ كيف أؤجِّل رعشتي. لكني في تلك الأيام كان في إمكاني أن أحصل على الرعشةِ ومع ذلك أظلُّ أحتفظُ به منتصباً.

ثم كانت فترةُ عطلة نهاية الأسبوع لافتتاح مسرحيتي، التي مَثَّلتْها فرقةُ سمرز، المسرح شبه المحترف الذي تعاملتُ معه وأنا في سينت لويس.

ثم تذوَّقتُ للمرة الأولى طعمَ الدم الذي امتصَّه النُقَّاد مني.

كانت مسرحيةً أفضل بكثير وواعدةً أكثر من مسرحيتي الطويلة الأولى " شموعٌ في الشمس "، لكنَّ النُقَّادَ حطُّوا من قدْرها. وبعد ذلك أُقيمتْ حفلة سُكرٍ وقصفٍ في

غرفة فندق أحدهم في قلب البلدة. وقد اندفعتُ أنا أثناءها فجأةً نحو إحدى النوافذ لكني أوقفتُ ولا يمكنني أن أؤكّدَ إن كان في نيّتي أن أقفز.

إنَّ أساسَ القضية هو أني كنتُ قد انتهيتُ إلى أن الكتابةَ هي حياتي، وأنَّ فشلي فيها يعني موتي...

في تلك الأيام كان لدى أصدقاء رائعون وأعتقدُ أني كنت أستحقُّهم لأني كنتُ أتجاوبُ بمنتهى الحرارة مع أي علاقةٍ وديّةٍ تُعرَضُ عليّ. وقد واسَتني سالي، ولم تُبدِ أدنى إحساسٍ بالخيبة من فشل مسرحية " النوع المتملّص ". واستمرّت الأمورُ بيننا كما كانت.

وذات ليلة قالت لي همساً ونحنُ على تلك الصوفا في غرفة الجلوس، " توم، أريدُ أن أُريكَ شيئاً "

ثم أخذَتْ تنزلُ إلى أسفلي فصُعِقتُ ومنعتُها.

وفي آخر ليلة قبل بدء عطلة عيد الميلاد، استأجرنا غرفةً في فندقٍ مشبوه في البلدة وأمضينا أول ليلةٍ لنا ونحن عاريان تماماً في السرير. وكانت النتيجة نوعاً ما أقلّ نجاحاً من ليالينا على الصوفا حيثُ تبيتُ في النُزُل. ووضعتْ كميةً من البيرة تحت السرير وظلّتْ تشرب بين فترات المضاجعة وأصبحتْ أنفاسُها كريهة قليلاً.

حين غفَونا قليلاً ثم أفقنا وحاولتُ أن أُقبِّلها، قالت لي " كلا، كلا يا حبيبي؛ إنَّ فمي مملوءٌ بريش دجاج عجوز "

لدى عودتي من فترة العُطل رَفَضَتْ أن تُقابلني. قالت إنَّ جديداً قد طرأ وإنها ستُخبرني بالتفاصيل لاحقاً. وانقضتْ عدة أيام قبل أن نتقابلُ ثانيةً وأخبرتني بأنها حامل.

لم أُصدِّقها. شككتُ في أنها كانت تخرجُ مع فتى جديد وكنتُ على صواب.

لقد كانت علاقةً قصيرة الأمد، لكنها عميقة الأثر وأعتقد أنها كانت تُحبني طالما كنتُ أُرضيها، أما الآن فقد بدأتْ علاقةً مع فحلٍ حقيقيّ وتخلّتْ عني.

طوال الوقت الذي انخرطتُ خلاله مع سالي وبعد ذلك بعدَّة أشهر، لم يُثِر اهتمامي أي فردٍ من جنسي.

بعد أن نبذَتني نهائياً إكراماً للفحل الجديد، حاولتُ أن أُقيمَ علاقةً مع فتياتٍ أُخريات. لسببٍ ما لم أنجح.

* * *

كان هناك شابّان فائقا الجمال يُمثِّلان في إحدى المسرحيات التي تُعرَض على مسرح الجامعة، وكانت نسخةً ممسرحة لإحدى روايات جين أوستن. أحدهما هو الممثل والتر فليشمن، كما كان يُسمَّى عندئذٍ، وقد ظهرَ، بالفعل، بعدها ببضع سنين، للمرة الأولى في السينما ليُمثِّل فيلماً قائماً على أساس قصة حياة فالانتينو. كان يمتلكُ جسداً مثالياً حتى الروعة. الممثل الشاب الوسيم الآخر في مسرحية جين أوستن، التي كان أساسها رواية" كبرياء وتحامُل "، دعاني ذات أمسية لأتناول طعام العشاء معه - قال إنَّ ثمة ما يُقلقهُ، وإنه لا يدري كيف يُفصِح لي عنه. لكنَّه بعد أن شربَ بضعة كؤوس من البيرة أفصَحَ.

" الحقيقة هي أني دخلتُ ليلة أمس إلى غرفة نوم فليشمَن فألفيتُه هناك عارياً وقد - في الواقع أنا - لا أدري كيف أقولها، لكني أحسستُ بما يُشبه الرغبة في لمسه كما يلمُس الرجل المرأة، كما تعلم "

ظلَّ مُطرِقاً عينيه ذات الرموش الطويلة إلى المائدة. وتضرَّجَ وجهُه الجميل بحُمرة الخجل.

كانت تلك افتتاحيةً مثاليةً وأعتقدُ أنه قَصَدَ أن تكون كذلك.

حين تكلَّمتُ أخيراً قلتُ له " لا أرى في هذا ما يستدعي القلق "

همسَ قائلاً " إنه ليس أمراً طبيعياً "

قلتُ " بل هو طبيعي. إنه أمرٌ طبيعي تماماً وأنتَ تتصرَّفُ بحماقة "

رافقتُه حتى منامته وتصافحنا وتبادلنا تحيّة المساء.

* * *

كنتُ قد اخترتُ أن أُشاركَ طالباً شاباً شائناً من الشرق الأوسط شقةً لأضمن مكاناً خاصاً نمارسُ فيه، أنا وسالي، الحب ، وسأدعوه " عبدول ".

كان عبدول مُتصيِّداً فاضحاً للفتيات، وكان له سجلٌ سيئ في دائرة الشرطة المحلية بسبب أساليبه السافلة.

على أي حال، حين كنتُ أبحثُ عن شقة تصادَفَ أن كان يشغُل واحدة ويريدُ مَنْ يشاركه فيها . كان شاباً أسمر أعجف، ولم تكن الشقةُ، طبعاً ، مُغرية وكانت دائماً تعبقُ بأبخرةِ الطبخ وبرائحةٍ حلوةٍ قويةٍ حتى إثارة الغثيان.

كان رفيقاً طيِّباً بشكل عام لولا أنه كان أحياناً يعودُ إلى البيت وهو يتطوَّحُ من شدَّة السُكر ويُخبرني بأنه حين يسكرُ يكونُ على استعدادٍ لمضاجعة أي فتاةٍ أو فتى أو معزاة: وقد حاولَ مرةً أن يدخلَ إلى سريري فقابلتُه بمقاومةٍ ضاريةٍ أقنعَته بأني لستُ بديلاً راغباً للفتيات والماعز.

وذات ليلة أُلقيَ القبضُ عليه فاتَّصَلَ هاتفياً بالشقَّة وأخذ يتوسَّلُ إليَّ كي آتي إلى السجن وأُطلِقَ سراحه. ولحُسن الحظ أنه كان يملك المال اللازم لدفع الغرامة. توجَّهتُ إلى السجن فوجدتُهُ في زنزانةٍ واحدةٍ مع سكِّير عجوز ملتحٍ غائم العينين وكان عبدول يحاولُ أن يتبادلَ الحديثَ معه. فكان يصرخُ في وجهه مُكرِّراً " أنت أيضاً تتبوَّل؟ أنت أيضاً تتبوَّل؟ "

يبدو أنَّ عبدول في تلك المرَّة أُلقيَ القبضُ عليه لأنه كان يتبوَّلُ في زقاقٍ خلف إحدى الحانات.

جهودي التي بذلتُها لإغراء سالي بالمجيء إلى الشقَّة لم تنجح إلا في مرةٍ واحدةٍ، وجاءت مع صديقها الجديد وكنت أشعرُ وكأنَّ ملحاً سيبيرياً يُفرَكُ على جراحي وأنا أراها لا تقوى على إبعاد يديها عنه أثناء تناول طعام العشاء الذي أعدَّه عبدول.

وسمَحَتْ لي بتبادُل حديثٍ خاصٍ معها بضع دقائق في المُختلى.

" أنا أحبك يا توم، ولا أريدُ أن أُسبِّبَ لك الألم يا حبيبي، ولكني امرأةٌ سيئة، ولستُ بحامل. لقد اختلقت تلك القصة، والحقيقةُ هي أني فقدتُ مبيضاً أثناء إجراء عمليةٍ جراحية. المهم هو أني شيطانُ جنس، وأرغبُ في ممارسته منتقلةً من رجلٍ إلى رجل ويمكنني أن أُدمِّرَ حياتك "

سمحتْ لي بتقبيلها ومعانقتها برهةً، ومن ثم عادت إلى رجلها الشاب الجديد. تملَّكَتني الكآبةُ بعض الوقت، إلا أني كنت قد كوَّنتُ صداقةً حميمةً مع شابٍ يُدعى لوماكس وفتاته السوداء؛ كانا رفيقَين رائعين وكانا أيضاً يدرسان في معهد الدراما.

رُشِّحتُ لدور غلام الفارس في مسرحية " ريتشارد أوف بوردو "، وقالا إنهما سيُعدَّاني للقيام به. لوَّنا وجنتيَّ، ودهَنا شفتيَّ بأحمر الشفاه وجعَّدا شعري، ثم ألبسني لوماكس ثوبَ غلام الفارس وأحضرني إلى الفتاة السوداء لمعاينتي.

سألَها " أترينَ ما أرى؟ ". لم أفهم ما كان يعنيه. ثم نظرتُ في المرآة وعرفتُ. كنتُ أبدو كفتاةٍ صغيرة...

أثناء قيامي بدور غلام الفارس كنتُ أقولُ سطراً واحداً. ولم أكن بعد قد برأتُ من حيائي الفظيع. وطوال مدة المشهد الذي أظهرُ فيه كان عليَّ أن أجلسَ في مقدمةِ خشبة المسرح، وأنا أُلَمِّعُ خوذة، وطوال تلك الفترة تزدادُ حنجرتي جفافاً على جفاف خوفاً من ترقُّب إلقاء ذلك السطر الوحيد. وكان عليَّ ببساطةٍ أن أقولَ إنَّ شخصاً ما قد وصل إلى البوابات. ولكن حين يأتي دوري للكلام يكون الصوتُ الذي ينبثَقُ من حنجرتي المخنوقة غير واضحٍ وكان دائماً يحظى باستحسان الجميع - كان أشبه بصرير فأر. إلا أنهم كانوا يقولون إنه مؤثِّر. ومع ذلك أشكُّ في أنَّ وجودي على خشبة المسرح كان لمجرَّد أن مظهري يبدو حسناً جداً بالمساحيق التي يضعها لي لوماكس.

أذكرُ أني قمتُ بدورٍ آخر على خشبةِ مسرحٍ كبيرٍ في جامعةِ أيوا. كان ذلك في مسرحيةٍ تدور حول " التائبين " ووضعتُ في مشهد ضربٍ بالسوط يجري بين الرهبان الشبّان. ولن أنسى ما حييتُ سطراً واحداً من العرض، كتبتُهُ في بلدتي في حَرَم الجامعة. فأحد الممثلين يتخبَّطُ عاري الكتفين على خشبة المسرح، وهو يسوطُ نفسه بسوطه ويصرخ عالياً " الليلة ستجري الكثير من الأعمال المجيدة في الموارادا " (والمورادا هي الغرفة تحت الأرضية التي يُمارسُ فيها السوط)

الذي قامَ بشخصية المسيح، وظهرَ بصورة الضحية أثناء طقوس الصَلْب، كان فليشمن، وفي ذلك العام كان الممثل الشاب الأول. ورُفِعَ وهو شبع عارٍ فوق الصليب - وكان جمالُهُ الرجولي الغض هو السبب في عودتي إلى ميلي الجنسي الغالب.

وبدأتْ سالي تغيبُ عن مجال شهوتي الجنسية.

وبدأ آخرون من جنسي يدخلون إليه.

ذات مرة وأثناء التدرُّب على مسرحية: ريتشارد أوف بوردو " كان ليميول ايرز، الطالب خرِّيج جامعة أيوا وكان مثلي مستاءً من أ. س ميبي، رئيس قسم الدراما، أقول كان يتمشَّى حول غرفة ملابس الرجال وهو عارٍ تماماً قبل بدء أحدِ العروض. كان أشبه بقديسٍ شاب خارجٍ من لوحةٍ إيطاليّة من عصر النهضة - بخصلات شعره الداكنة اللامعة، وجسمه المثالي التكوين.

وتقابلنا في إحدى المرات عند الغروب في حديقةِ حيوانٍ صغيرة قائمةٍ فوق تل. ولم يكن هناك أحدٌ في المكان. وفي اللحظة التي وقعَ بصرُ كلٍ منا على الآخر سمعنا صوتَ رفرفة أجنحةٍ قوية.

" ما هذا ؟ "

أجابَ " إنه دجاجُ الحبش يبيت "

تريَّثنا بعض الوقت، وتمنَّيتُ لو أننا أطلنا المكوثَ. لكنَّ ليمْ، في اعتقادي، كان متعوِّداً على نماذج أكثر عدوانيّة من الرجال، فابتسمَ وتابعَ طريقَه.

كان ربيعاً موحِشاً، وقد نَفَدَتْ مني أغلبُ نقودي في مشاركة شقة عبدول حتى أني اضطررتُ وعلى مدى شهر، أن أعيشَ حصراً تقريباً على قوت البيض وحده، وكان متوفِّراً منه في ذلك الموسم فيضٌ، مما جعلَه رخيصَ الثمن كثيراً. لا زلتُ أحبُّ أكلَ البيض، مع أنه الآن مُحرَّمٌ عليَّ بسبب نسبة الكوليسترول العالية عندي، لكنَّ البيض يصبح بغيضاً بعد فترة حين يقتصرُ طعامك عليه.

ثم قابلتُ ذلك الرفيق الأيرلندي الشاب المفعم بالحيوية وكنا نخرجُ إلى النزهة في قاربٍ طويلٍ في نهر ايوا، ثم نذهبُ إلى ركنٍ منعزل وهناك نغني أناشيد أيرلندية. ثم أُقيمَ مهرجانٌ في البلدة فصحبني أيضاً إلى هناك.

كنتُ قد فقدتُ الحماسَ للدراسة فرسبتُ في ذلك الفصل الدراسي واضطررتُ إلى المكوث خلال الفصل الدراسي الصيفي بالحصول على شهادتي. وخلال ذلك الفصل الدراسي كنتُ باستمرار بصحبةِ لوماكس وصديقته السوداء اللذيذة.

لم تكن لدي أي رغبة في أن أنالَ الشهادة، ولا أردتُ أن أغادرَ الجامعة. وكنا مُحبَطين.

ثم وقع حادثان رهيبان: فقد أُخضعَتْ روز لإجراء جراحةٍ فَصِّية[١٤]، وكانت إحدى أوائل مثيلاتها من العمليات الجراحية التي تُجرى في الولايات المتحدة، ثم توفيت عمتي بيل في نوكسفيل، جراء تلوُّث ضرس العقل وقد تغلغلَ سُمَّه في جسمها.

كتبتْ العمة ايلا تقول " لقد كانت عمَّتكَ المسكينة بيل مُحاطةً بجدارٍ صلبٍ من الصلاة، لكنَّ الموتَ تمكَّنَ من اختراقه "

كنتُ قد بدأتُ أتقدَّمُ في الكتابةِ بأسلوبٍ متفرِّد. وأذكُرُ أني كتبتُ هناك قصة " اللعنة " بالإضافةِ إلى عددٍ من القصائد الصغيرة الجميلة.

لدى انتهاء الفصل الدراسي الصيفي كنت قد نلتُ شهادتي، ودعاني لوماكس وصديقته السوداء إلى الذهاب معهما إلى شيكاغو، قائلين إنَّ في إمكاني أن أنضمَّ

إلى مشروع " إدارة سير العمل " الذي يقوم به الكُتَّاب هناك. وما فعلناه كان أننا قابلنا بعض اللوطيين السود الرائعين كانوا يعملون في مجال الترفيه عن رواد نادٍ ليليّ صاخب. وأذكُرُ واحداً منهم يتمتَّعُ بطاقةٍ خاصة من المرح والحيوية علّقَ قائلاً " أتدري، إنني آخذ الملاءات في كل رحلة " - وهذا يعني أنه يقومُ بالدور السلبي في عملية اللواط. وحاولتُ أن أنضمَّ إلى ذلك المشروع لكنهم رفضوني لأني لم أستطع أن أقول إنَّ عائلتي معْوزة. ولم أكن أملك غير عشرة دولارات لأنفِقَ منها خلال فترة وجودي هناك، لذلك اضطررتُ إلى إرسال برقيةٍ إلى البيت طالباً نقوداً لأعودَ إلى المنزل في مقاطعة سينت لويس.

كان كلارك هيل ماكبرني قد عادَ إلى وطنه في سينت لوي من باريس، واستعدنا صداقتنا، وكان فصلُ الصيف مرِحاً. كان هناك أصدقاءُ آخرون، وقد خرجَ الناسُ للتنزُّه على طول نهر ميرامك وتواصل اللهو بدون انقطاع تقريباً. وسمحَ لي والدي أن أقودَ سيارة العائلة مرات عدةٍ: كان ما يزالُ يحاولُ أن يتغلَّبُ على حيائي الرهيب منه. لقد كنتُ مهماً بالنسبة إلى أبي لأني كنتُ سميّ والده، توماس لانيير ويليامز الثاني.

* * *

وما دمتُ بصدد الحديث عن جامعة أيوا، فلأكلِّمكَ عن أ. س ميبي العجوز، الذي كان يرأسُ قسمَ الدراما هناك. فقد عانى ميبي على مدى سنواتٍ طويلةٍ جداً من ورمٍ خبيثٍ في الدماغ عُضال قيل إنه غير خطِر لكنه كان في بعض الأحيان يؤثّر بصورةٍ غريبة الأطوار على سلوكه.

كان مُكرِّساً نفسه لمؤسسة المسرح الجديد العظيمة تلك التي كان قد أنشأها في حَرَم جامعة أيوا وكان دائماً يحضرُ التدريبات النهائية على أي عرضٍ وشيك.

وذات ليلةٍ كان أحد العروض الذي يوشك أن يُرفَع الستار عنه في حالةٍ مُزريةٍ واستشاطَ ميبي غضباً، فخلَعَ نظارتيه ورمى بهما إلى الممثلين وأجبرهم على مواصلة التدرُّب طوال الليل وإلى أن أُصلِحَ الإنتاج وحازَ على رضاه.

كان ميبي متحاملاً عليّ وعلى ليميول ايرز، وكان يُلمِّح إلى أنَّ ايرز، الذي تخرَّجَ من جامعةِ برينستون، هو لوطي - وهذا ما كنتُ أشكُّ فيه بحقّ، إلا أنه لوطي طيب جداً وشديدَ الذكاء ولا يستحقُّ على الإطلاق اضطهادَ ميبي له.

(هنا سأضعُ ما يلي بين هلالين، ولكن ذات ليلة - بعد ذلك بسنين عديدة، في عام ١٩٤٣ - بينما كنتُ مقيماً في الويست كوست أقومُ بعملٍ لصالح شركة مترو غولدن ماير ولم أكن أعملُ أي شيءٍ لأجلهم، وإنما أتلقَّى الراتب الذي كانوا مضطرين قانونياً إلى دفعهِ إليّ كل أسبوع - دعاني ليمْ ايرز لقضاء الليلة في منزله الساحر الصغير في بيفرلي هيلز. وحين استيقظتُ في الصباح كان ذلك على مشهدٍ رائعٍ لليم وهو عارٍ تماماً، يتجوّل في أرجاء صالة الطابق العلوي. حيَّاني بكلّ ودّ. وطبعاً كانت العبارةُ التي سألقيها جاهزةً في ذهني" كفاكَ يا ليم، لقد سبقَ وشاهدتُكَ وأنت عارٍ ". ولكن الحياءَ لَجَمَني وضاعتْ فرصتي الذهبية الأخيرة تلك إلى الـ toujour(الأبد)...

كان ليم بحقّ أجملَ شابٍ في حالة استعدادٍ تامٍ وقعتْ عليه عينايَ، وبدون محاولة إغوائه - اللهم ماعدا... لا، إنَّ بعض التكتُّم مطلوب.

كيف يمكنني أن أقول " je ne regrette rien" - التي جاءت على لسان "عصفور الدوري الصغير"(١٥) ابنة مونمارتر...؟)

* * *

خلال فصل الصيف الفريد ذاك كنتُ ما أزالُ أشعرُ بالضجر، وتعوَّدتُ على أن أتمشّى بلا هدف أجوبُ الشوارعَ ليلاً هَرَباً من حرارةِ غُرفتي الخانقة. كانت هناك أشجارٌ ضخمةٌ كثيرةٌ وكانت البلدة تتَّصفُ بسحر أيام زمان، وليلاً تبدو أشبه ببلدة جنوبية. كنتُ ضجِراً وخائفاً. ولا أعرفُ ما هي خطوتي التالية. وأخيراً توصَّلتُ إلى قناعةٍ تامةٍ بأني " شاذ جنسياً "، ولكن لم أكن أدري ماذا أفعل بهذا الخصوص.

لم أكن أعرفْ حتى كيف أتجاوبُ مع فتى في المناسبات النادرة التي كان يعرُضُ أحدهم نفسَه عليّ.

* * *

بالأمس، يوم السبت، قمتُ بعملٍ رائعٍ لأجل نفسي، وكان عملاً بهيجاً. فقد أمضيتُ برفقة صديقٍ شاب خمس ساعاتٍ نتسكَّعُ في أرجاء سنترال بارك. وكنا قد دخلنا من زاوية " الشاذين " الكائنة عند تقاطُع الشارع الثاني والسبعين والجهة الغربية للسنترال بارك. اشترينا شراب الليمون والكرز المُثلَّجَين وواصلنا تسكُّعنا في المنطقة وانتقلنا إلى الطرف الآخر من البحيرة الذي كان خالياً إلا من الشاذين جنسياً.

وهم مجموعةٌ لطيفة جداً ومُحبَّبةٌ أثناء النهار. وقد لاحظتُ أنهم، حين يجتمعون بأعدادٍ كبيرة، يتخلَّصون من صِفتَيِّ الخنوثة والميوعة اللتين كانتا سبب نفوري منهم. وكنتُ أستمتعُ بصُحبة " المخنثين " في وقتٍ من الأوقات وأنا ما أزالُ شاباً وأقطنُ في مقر "جمعية الشبّان المسيحيين ". إلا أنَّ أصدقائي المُقرَّبين، وعلى الرغم من قابليتهم مثلي ليصبحوا مخنَّثين، عندئذٍ، فلم يكونوا يُمثِّلون نماذجَ " واضحة ".

لكني تعرَّفتُ فعلاً إلى بعض النماذج الواضحة في نيو أورلينز، في أول عهدي "بكشف أمري ". مثلاً، أحدهم، وسأسمِّيه أنطوان، كان يجوبُ الشوارع في الحي الفرنسي حاملاً معه زجاجةً صغيرةً من أملاح الشمّ على شكل سائلٍ وكلما اقتربتْ منه امرأةٌ أو فتاةٌ يتوقَّفُ ويتَّكئ على جدار ما وهو يهمسُ همساً ولهاناً: "poisson" - ثم يستنشق من قنينته ذات المحتوى المُضاد إلى أن تتجاوز السيدة، وحتى بعد ذلك يظلُّ يتكلَّفُ نوعاً من حالة شخصٍ مُحطَّم...

كنت أجده مُسلِّياً إلى أقصى حد، ولكن كان لأنطوان جانبٌ جادٌ ويكشف عن موهبة، كأغلب أشباهنا. لم يكن رساماً لامعاً لكنه كان يمتلك إحساساً خاصاً متميِّزاً ومؤثِّراً إلى حدٍ كبير جعل منه فيما بعد مهندس ديكور ناجحاً في نيويورك.

أذكُرُ ليلة افتتحَ أنطوان، الذي كان يملُك شقَّةً ساحرة التصميم في تولوز، انتاجه لمسرحية "أربعة قديسين في ثلاثة فصول"[١٦] - وكان الممثلون جميعاً من الشواذ جنسياً - وهم لم يستعرضوا شذوذهم من خلاله بل قدَّموه بأسلوبٍ أصيل وكان أفضل عرض لعمل شتاين أشاهده حتى ذلك الحين.

أذكُرُ أيضاً أني، لدى عودتي إلى نيو أورلينز بعد أول عهدي بإعلان طبيعتي لمجتمع شاذِّي نيويورك الأكثر سرِّية في تنظيمه، أني نصحتُ أصدقائي الشاذين من القسم أن يتصرَّفوا بطريقةٍ تتجاوزُ مجرَّد المحاكاة المضحكة لأسلوب الجنس الآخر. قلت لهم، للذين أنصتوا إليَّ، إنَّ هذا النوع من السلوك يجعلهم ببساطة مُثيرين للتقزُّز، جنسياً، بالنسبة إلى كل مَنْ له اهتمامٌ بالجنس... بالإضافة إلى أنه أيضاً: موضة قديمة".

لاشك في أنَّ تعبيرَيّ " مُخنَّث و " مائع " هما نِتاج السُخرية من الذات، فرضهما مجتمعنا على الشاذين جنسياً، وسوف تختفي مصطلحاته البغيضة سريعاً بعد أن بدأتْ حركة تحرير الشاذين تنجحُ في حملتها الجادة لتوكيد الذات، لصالح أقليتها

المُساء فهمُها والمضطَّهَدة، على وضعها الحُرّ داخل المجتمع مما سيُتيحُ لها أن تستعيدَ احترامها لنفسها، على الأقلّ بالدرجة التي سوف ترتفعُ إلى أعلى مما هو شائع.

لا يساورني أي شك في أنَّ " الشاذين " من الجنسين يتمتعون برهافةِ حسٍ أكبر - وهي موازية لموهبة أكبر - مما هو عند " الطبيعيين "...

(لماذا؟ لأنَّ عليهم أن يعوِّضوا عن فقدانهم لأشياء كثيرة)

إنني، وأنا أُتابعُ في ظل هذا المزاج السعيد من تهنئة الفن، أجدني قد أنشأتُ، أو أني أسعى إلى إنشاء، أتباعاً لي في مدينة نيويورك. فمثلاً، بالأمس توقَّفتُ بصُحبةِ صديق في محل صغير لبيع ملابس الرجال الغالية الثمن، ووجدتُ بذلة جميلة من القطن والبوليستر بلونٍ نحاسيٍّ تناسبني بعد إجراء تعديلات صغيرة عليها. وحين قدَّمتُ بطاقة الاعتماد أثارَ صاحب المحلّ الكثير من اللغط حولي، ولكي يُثبِت أنه صادق قدَّمَ لي هدية عبارة عن ربطة عنق من الحرير ثمنها ثلاثون دولاراً تتماشى تماماً مع البذلة. وسوف أظهر بهما معاً في برنامج عرض نقاش " الظهيرة " في يوم الأربعاء القادم مع كاندي دارلينغ لدعم مسرحية" محاذير المهنة الصغيرة ".

على الرغم من استنزافي التامّ بعد انتهاء العرض المسائي، الذي بدأ في العاشرة مساءً لمسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، خرجتُ مع نجمتنا، هيلينا كارول، لمقابلة دونالد مادن، الوحيد إلى جانب براندو - كلا، هذا غير صحيح، لقد انضمَّ الآن مايكل يورك إلى النخبة، لتصبح ثلاثية - الذي " كُتِبَتْ مسرحيات " خصّيصاً له أو على الأقلّ أدوارٌ في مسرحيات، أكثر من مرة. في الحقيقة، كنت في الستينات قادراً على الوقوع في شِباك الغرام، وأثناء التدريبات على مسرحية " في حانة داخل فندق طوكيو" - وعلى الرغم من حالتي، التي كانت تنحدر إلى شفا انهيار عقلي وجسدي - كنتُ " مُتيَّماً بالفتى " مادن لكنني أحجمتُ عن البوح بذلك بسبب انهماكه في العمل.

إنَّ شعوري تجاه مادن قد استقرَّ إلى حدٍ بعيد ليغدو حُبّاً أفلاطونياً يقومُ على أساس تقديري العميق جداً له كممثل. وأعتقدُ أنه ليس هناك في الولايات المتحدة ممثلٌ واحدٌ أفضل منه... (ربما سيُتاح لمايكل موريارتي أن يُهدِّد مكانته البارزة ذات يوم).

٤

أودُّ أن أحكي لكَ عن علاقة حب أخرى بالغة الأهمية، بعد علاقتي بهيزل وسالي، وهي أول علاقةِ حبٍ ذكَريّ عظيمة. ففي أوائل صيف عام ١٩٤٠ صحبني بول بيغلو حتى القطار المتوجِّه إلى بوسطن، حيث كنتُ سأنتقل منها إلى بلدة بروفانستاون التي بالكاد كنتُ سمعتُ عنها. وكنتُ قد نجحتُ أخيراً في الحصول من نقابة المسرح على عقدٍ خاصٍ بنقابة الكُتَّاب المسرحيين لعرض مسرحية " معركة الملائكة " كتعويضٍ عن " تفهُّمَهم " الباهت الذي أبدوه في أول الأمر: وهذا يعني أنَّ راتبي قبل التنفيذ أصبح مائة دولار في الشهر بدل خمسين. وشعرتُ أني فاحشُ الثراء. لكنَّ بيغلو رأى أنَّ من الأفضل لي أن أخرج من البلدة. وفي تلك الأيام كنتَ دائماً ترى الناس يودِعونني القطارات والحافلات وكأني بيدقٌ في لُعبة شطرنج. ويبدو أنَّ هذا ما كنتُ أريده، وقد حصلتُ على ما أردت. وكم كانوا لطيفين معي في تلك الأيام! اعلمْ أني أقولُ هذا بمنتهى الصدق...

من بوسطن استقلت القارب اليومي المتوجِّه إلى بلدة - ب وهناك، مكثتُ بضعة أيام في منزلٍ يؤجِّرُ غُرَفاً، وكان منزلاً من الطِراز القديم البناء بنظامٍ عفويّ رائع وأرجوحة في الشُرفة. وكان يقطنه أناسٌ لا يقلُّون عفويةً وروعة. منهم شاب استسلمَ لمغازلتي الطائشة منذ الأمسية الأولى.

نعم، كما ترى، لقد خرجتُ أخيراً وبشكلٍ كاملٍ من القُمقُم، لم أكن شاباً يلفتُ انتباه الكثير من الرؤوس في الشارع، وذلك قبل انتشار موضة البلو جينز والتيشيرت، التي كانت ستعمل لصالحي، لأني كنت صاحب بُنية سبَّاح جيد. وكان لون بؤبؤ عيني اليسرى قد تحوَّلَ رمادياً بسبب ذلك الإعتام المبكِّر بشكلٍ مُلفتٍ للنظر لعدسة العين. وكنتُ ما أزالُ خجولاً جداً إلا حين أكونُ ثملاً. آه، كم كنتُ أُصبِحُ عكسَ ذلك بعد أن أشرب.

(في تلك الأيام كنتُ أجوبُ ساحة تايمز مع كاتبٍ شاب آخر يُفضِّلُ أن يبقى اسمُه مجهولاً في هذا السياق، وكان يُرسلني إلى زوايا شوارع يتجمَّعُ فيها البحَّارةُ أو مُجنَّدون في البحرية، لأقومَ بتمهيداتٍ سريعةٍ جداً وصريحةٍ، بعباراتٍ فظَّةٍ حتى أنه من الغريب أنهم لم يذبحوني على الفور. كنتُ أذهبُ إليهم وأقول [عبارةٌ حذَفَها المؤلِّف][17] وكانوا أحياناً يظنُّونَ خطأً أني قَوَّاد يُروِّجُ لعاهراته ويُجيبون " طبعاً، أين فتياتك؟ " - واضطرُ إلى أن أشرحَ لهم أنَّ المقصودين هما زميلي وأنا. فإذا بهم، ولسببٍ ما، يُحدِّقون إليَّ برهةً مذهولين، ومن ثم ينفجرون بالضحك ويجتمعون معاً للقيام بمشاورةٍ سريعة، ثم، وكما يحدثُ غالباً، يقبلون العَرضَ، ونذهبُ إلى شقة زميلي الريفية أو إلى غرفتي في " جمعية الشبان المسيحيين ")

لاشك في أن هذا يُشبِعُ بشكلٍ كافٍ، على الأقل، النُّعاظ[18] المنحرف الذي ابتُليتُ به لحسن الحظ خلال تلك السنوات المُبكِّرة من حياتي وأنا في مانهاتن. إنَّ النشاطَ الجنسي هو انبثاقٌ عند الإنسان كما عند الحيوان. وللحيوانات مواسم في ذلك. أما أنا فكنتُ أمارسه على مدار العام.

أحياناً أتساءلُ إلى أي مدى كنتُ أقومُ بالطواف لمجرَّد متعة صحبة زميلي في الطواف ولمتعة المُطاردة وإلى أي مدى كان ذلك في الواقع للتكرار الجميل للعمل نفسه ولتحقيق الإشباع السطحي. أعلم أني كنتُ سأعرف مشاعر الحب لاحقاً في " عالم اللواط "، وهذا يرقى بالممارسة ويتجاوزها. وقد عرفتُ شباناً كثيرين يعيشون فقط ليمارسوا ذلك " الجحيم المتمرِّد " الذي يلحُّ حتى سن الكهولة وما بعد، ويتبدَّى بقسوة على وجوههم بل وينعكس منكسِراً في نظراتهم الضارية. وأعتقدُ أنَّ ما أنقذني من ذلك هو أنَّ التزامي الأول كان دائماً لعملي. نعم، حتى عندما جاء الحب، ظلَّ العمل هو همِّي الأول.

* * *

خلال صيف عام ١٩٤٠، في الشهر الأول منه، وفي بروفانستاون، عند الطرف العابث من منطقة " كيب " قابلتُ الفتى الأشقر على شرفة نُزُل خشبي. وثمة سحر يحيطُ بنُزُل خشبي ذي شُرفة فيها أرجوحة، سواء أكان ذلك في الشمال أم في الجنوب. وللـ l'heure blue، جاذبيتها القوية عند الشُفق.

جلستُ إلى جوار الفتى الأشقر على الأرجوحة الأمامية. ونور الغسق يُعمي الحَدَقَة القزحية المُعتمة لعيني اليسرى، ولا أعتقد أنه استغرقَ مني أكثر من عشر دقائق لإقناعه، على الرغم من احتجاجاته بأنه " مستقيم "، بأنَّ حياته لن تكتمل إلا إذا أمضى ليلة بين أحضاني.

(هناك سطرٌ في مسرحية " عربة اسمها الرغبة " تقوله بلانش، ويكون ميتش قد قال لها إنه أعتقد أنها " مستقيمة "، فتجيبه: " وما الاستقامة؟ إنَّ خطاً يمكنُ أن يكونَ مستقيماً، أو شارعاً، أما القلب الإنساني، آه، لا، إنه منحنٍ مثل دربٍ بين الجبال! ")

لقد انغمستُ في الفُسق، وكنتُ لا أزالُ تحت الثلاثين من العمر، في ذلك الصيف من عام ١٩٤٠. وكان الأمرُ يقتربُ من ذروته.

كانت علاقتي بالفتى الأشقر هي مضاجعة ليلة واحدة، مقطع صغير عابر من موسيقى تافهة.

ولكن...

أعتقدُ أني بعد ذلك بيومين فقط أو ثلاثة أيام قابلتُ " كيب " على رصيف مرفأ الكابتن جاك في بلدة – ب.

فذات ظهيرة، صافية السماء زرقاؤها، صحبني أحدُ معارفي إلى الرصيف. وعند مدفأة في كوخٍ صغيرٍ من طابقين مقام على هذا الرصيف بُنِيَ على ركائز فوق حركاتِ المدّ والجزر جلسَ الشابُ الذي أهديتُ مجموعتي القصصية القصيرة الأولى له. كان ظهره لي، لدى دخولي عليه، بما أنه كان يواجه المدفأة، متكبِّراً، يُعِدُّ حساء سمك بطلينوس، على طريقة منطقةِ نيو إنغلند وهو الصنف الذي كان هو وصديقه (الأفلوطوني) الشاب جو يقتاتان عليه خلال ذاك الصيف لدواعي الحاجة الاقتصادية. وكان يرتدي ملابس من قماش خشن ملتصقٍ بجسمه، وعلِقَتْ نظراتي المُستهامة به كسمكة. وكان هو شديدُ الانهماك بطبخِ حساء السمك بحيث لم يولِني إلا نظرةً واحدةً سريعةً ويقولُ " مرحباً ". والقاطنُ الثاني للكوخ كان شاباً اسمه جو يحبُ الرقص الشرقي. وكان " كيب " يحبُّ الرقص الحديث. وحين أبعدَ نظرَه عن المدفأة، كان يمكن أن أظنّ، لو أني كنتُ أكثرَ جنوناً قليلاً، أني أنظرُ إلى الشاب نيجنسكي. وقد أخبرني فيما بعد بافتخار نرجسيّ فاتن، إنه يتمتَّعُ بالمقاييس الجسدية نفسها التي لنجينسكي،

بالإضافة إلى شبَهٍ استثنائي في الوجه. وكان قد أدارَ نحوي قليلاً عينين خضراوَين بلون الخسّ، ووجنتين عاليَتيَ العظام، وفماً لذيذاً. لكني إنْ نسيتُ لن أنسى النظرةَ الأولى التي ألقيتُها عليه، وهو واقفٌ يُديرُ لي ظهرَهُ عند المدفأة ذات الشُعلَتين، والكتفَين القويتين العريضتين والمؤخِّرة الجميلة التكوين التي لم أكُن قد شاهدتُ مثيلاً لها قط! ولم يتكلَّمُ كثيراً. أعتقد أنه شعر بذبذباتي المنبعثة وارتعبَ من قوَّتها.

بعد ذلك بأيام قليلة فقط دعاني ذلك الجو والكيب لمشاركتهما كوخهما ذي الطابقَين الكائن على رصيف الكابتن جاك في بلدة - ب. وأمَّنا لي سريراً نقَّالاً وَضَعاه في الطابق السُفلي، بمحاذاة سرير جو.

كان الرصيف مكتظَّاً على آخره. وعلى مبعدةِ بضعة أبواب منا كانت هناك فتاة جذابة في أواخر عشرينات عمرها دعتنا ذات أُمسيةٍ على العشاء. وكان جهاز الراديو عندها يصدحُ بأغنية " ليلاني الحلوة "، وطار صوابي. ولا أزالُ أذكُرُ تلك الأغنية الهاوائية المغوية المبتذلة - وبعد قليل وجدتُني وكيب وحدنا في الطابق السُفلي من الكوخ ذي الطابقين - وأنا أُعلِن له، بفصاحةٍ مجنونة، عن رغبتي. فصَمَتَ بضع لحظات ومن ثم قال " توم، هيا بنا إلى غرفة نومي "

كانت غرفة النوم علِّيةً صغيرةً فيها نافذةٌ كبيرةٌ تضمُّ داخلها نصفَ سماءِ الليل.

حين أخذ كيب ينزعُ ملابسَه لم يُضأ أي نورٍ أو يُطفَأ. ووقفَ وسطَ العتمةِ عارياً مُديراً ظهرَه لي.

بعد ذلك، صرنا نتضاجع في كل ليلة في السرير المزدوَج الكائن في العلِّية، وقد كانت شهوتي إلى الفتى غليمة[١٩] حتى أني كنتُ أوقظه مراراً أثناء الليل طلباً لمزيدٍ من المضاجعة. وأعترفُ بأني في تلك الأيام - والليالي - كنتُ مُجرَّداً من إدراك مبلغِ ما يمكنُ للشهوةِ العارمة أن تُهلِك حتى الشريك السلبي.

في تلك الفترة بالضبط عادتْ إليَّ عادتي القديمة في الاحمرار خجلاً كلما قابلتْ عينايَ عينيَّ شخصٍ آخر، وكانت عذاباً حوَّلَ أيامي جحيماً؛ لكنَّ الليالي المُعتمة بالضباب التي أُمضيها في علِّية غرفةِ النوم طهَّرَتْها.

أذكرُ أننا، كيب وأنا، في اليوم الأول بعد الليلة الأولى، عندما كنا نعبُر كثبان الرمل إلى كابين قائم على شاطئ المحيط يخصّ ناقداً لفن الرقص، تخلَّفتُ أنا وكيب

عن المجموعة وقال لي كيب " لقد جعلتني في الليلة الفائتة أعرفُ معنى الألم الجميل "
في تلك العلِّية كتبتُ مسرحيتي الشعرية الوحيدة " التطهُّر "، وكنتُ قد وضعتُ طاولةَ كتابة صغيرة، وصندوقاً خشبياً وضعتُ عليه آلتي الكاتبة المحمولة، وفي تلك المسرحية وجدتُ متنفَّساً، بالكلمات، عن نشوة تلك العلاقة، وأيضاً إحساساً مُسبقاً بنهايتها.

فجأةً وبدون مبرر أصبح كيب مزاجياً بشكلٍ غريب. فنذهبُ معاً مثلاً إلى أماكن مُعيَّنة ومن ثم إذا به فجأةً يختفي، وعندما يأتي إلى السرير، بعد غياب بضع ساعات، يُبرر ذلك برقَّة " كنتُ مُصاباً بصداع يا تن "

تلقَّيتُ برقيةً تستدعيني للعودة إلى مانهاتن مدة أسبوع في تموز. وعدتُ إلى النزول في شقة صغيرة اقتسمتُها مع دونالد ويندام وفريد ميلتُن، خلال ذلك الأسبوع، ورحت أكتبُ لكيب قصيدة بعد أخرى. وبعد انتهاء شؤون العمل في آخر ذلك الأسبوع، عدتُ أدراجي إلى بلدة - ب.

الآن، وأنا أستعيدُ هذه الذكرى، يبدو لي أنَّ كيب قد ناقشَ معي بحياء ما يقابله من مصاعب في تدبير أمورِ حياته في أميركا، بما أنه كان كندياً متهرِّباً من الخدمة العسكرية ولا يجرؤ على الكشف عن هويته لأي مستخدم فيما عدا لنحَّات متعاطف كان يستخدمه كموديل لتلامذته. ويبدو أني أخطأتُ فطمأنتُه إلى أنه ربما أتاحَ لي وضعي الاقتصادي - في الخريف - أن أريحه من كل مصادر قلقه تلك. وقد كان ذلك هو مستوى التفاهم القائم بيننا.

أعرفُ أنَّ كيب أحبَّني، على طريقته المرتبكة. وأعرفُ أيضاً أنه لم يكن سهلاً عليه على الإطلاق أن يستيقظ أربع مرات أو خمساً في الليلة لتلبية طلبات شهوتي المُتكرِّرة.

أعرفُ أنَّ هذا ليسَ الأسلوب الأمثل لكتابة قصة حب.

مع اقتراب نهاية شهر آب دخلتْ فتاة على الخط. ولم أعتبرها مصدر خطر. ومن ثم ذات يوم كنتُ مع المجموعة بين الكُثبان، وكانت تضمُّ الرسَّام التجريدي الذي لم يكن بعد معروفاً، أو مشهوراً، جاكسُن بولوك. وفيما بعد سوف يصبح رجلاً " غامضاً "، خارج مجال عمله، لكني في ذلك الصيف أذكُرُه صخَّاباً، وعلى قدرٍ من الميل إلى

السُكر. وكان عندئذٍ شاباً قوياً، متين البُنية، لكني وجدته يميل إلى الكآبة بسبب إفراطه في شُرب البيرة أكثر من كونه جذاباً، وكانَ يحملني عادة إلى الماء على كتفيه ونلهو ببراءة.

آه، كم كان وقتاً رائعاً، ذلك الصيف، حيثُ بدا الكلُّ خليَّ البال على الرغم من الحرب الناشبة!

وفي بعد ظهر أحد الأيام من أواخر ذلك الصيف كنتُ بين الكُثبان مع المجموعة، فإذا بكيب يظهر، بسيماء شديدة الكآبة.

" يجب أن أتحدَّث إليك يا تن "

انتقلنا إلى داخل بلدة - ب على متن دراجة هوائية، وفي الطريق إلى هناك أخبرني، بحرصٍ ورقَّةٍ شديدين، أنَّ الفتاة التي كانت قد دخلتُ على الخط قد حذَّرته من أني أعملُ على تحويله إلى شاذ جنسياً وأنه قد لفَّ العالمَ بقدرٍ كافٍ ليجعله يعرفُ أنَّ عليه أن يقاوم ذلك، وأنَّ هذا ينتهك كيانه بشكلٍ لا يمكن أن يقبله.

لم يعُد الكوخ ذو الطابقين صالحاً للسكنى - الآن بعد أنْ كفَّ كيب عن مشاركتي العلِّية. وهكذا انتقلنا إلى منزل أكبر ذي طابقين لم يكن مفروشاً إلا بثلاثة أسرَّة نقَّالة خفيفة وطاولة وعدد من الكراسي.

كنتُ أعاني من أصابتي بالصدمة. وقد لاحظَ كيب هيمنة الصمت ونشوء نأي مضطرب بيننا.

قرَّرتُ أن أتَّخذ إجراءً عملياً وأطير إلى مكسيكو. وفي تلك الأيام كانت هناك خدمة دعائية يمكن للمرء الذي يرغبُ في السفر بالسيارة إلى مدينة أخرى - في هذه الحالة، إلى بلدٍ آخر - أن يتَّصل عبرها بسائقٍ يقصد تلك الجهة ويتَّفقا على أن يتقاسما تكاليف الرحلة. ولجأتُ إلى تلك الخدمة، حين عدتُ إلى مانهاتن وأنا في حالةِ صدمة، وقدَّموني بسرعة إلى شابٍ مكسيكي كان قد قَدِمَ إلى نيويورك بالسيارة لمشاهدة المعرض العالمي لعام ١٩٤٠ وكان قد تزوَّجَ من عاهرةٍ في مانهاتن وهو الآن يصحبها إلى وطنه لتُقابل عائلتَه الثرية في مكسيكو سيتي. وكان عائق اللغة تاماً بين هذه الصَبيَّة وعريسها المكسيكي. وكانت من النوع الشهواني، وهو أيضاً كان شهوانياً، وعندما تقول عن رجلٍ، وعريسٍ، إنه شهواني فهذا ليس تقريظاً.

كان سَفَراً رائعاً باتجاه الجنوب. وكان معنا أيضاً ثلاثةٌ من الرجال المكسيكيين وقد تناوبوا على القيادة. وأحياناً كانوا ينشرون خريطةً للطريق لكنَّهم لم يعرفوا كيف يتبعونها. ورحنا نقوم بالتفافات وانعطافات لا إراديّة بعيداً عن طريقنا، بعضها أخَذَنا مسافةَ مئات الأميال عن طريقنا. وانتابني سُعالٌ فظيع ثم بدأتُ أبصق دماً بين وقتٍ وآخر لكني لم آبه كثيراً بتلك الأعراض التي هي في المعتاد غير مُقلقة، ولم أُفكِّر إلا في الطقس أو في أنه لن تكون هناك أية رسالة في انتظاري من كيب في ويلز فارغو في مكسيكو سيتي.

مع اقترابنا تدريجياً من الحدود المكسيكية، أخذتْ العاهرةُ- العروس تزدادُ توتُّراً لفكرة دخولها المُرتَقَب إلى منزل زوجها وسرعان ما فهمتُ أنَّ الأمورَ لم تكن تسيرُ على أحسن ما يرام بين الزوجين المرتبطين. فقد كانت تزدادُ كآبةً وابتعاداً عن زوجها الجديد وعن أصدقائه العُزَّاب مع مرور كل يوم وبدأتْ ترميني بنظراتٍ عصبيّة وتهمسُ لي بملاحظات تنمُّ عن الخوف.

(لم أكن أخشى المكسيكيين قط، لكنَّ أمي كانت ترتعبُ منهم. وذات مرة أثناء مكوثها معي في فندق لاجوليا، في كاليفورنيا، قرَّرتُ أنا وصديقٌ قديمٌ لي أن نعبرَ بها الحدود إلى تيجوانا. ولم أبُح بنيَّتي تلك إلى أن وصلَتْ السيارة إلى نقطة الجمارك الدولية. عندئذٍ لاحظتْ أنها كانت تدخلُ، أو على وشك أن تدخل، المكسيك، فأثارتْ ضجيجاً عظيماً" أوه، لا، أوه، لا، أوه، مستحيل! "، وكأنها قد اغتُصِبَتْ، وكأنها بطلةُ مسرحية ميلودرامية قديمة، لكننا تجاهلنا هذه الاحتجاجات وواصلنا المسير. وحين أنزلناها من السيارة في تيجوانا، كانت تلتصقُ بالجدار كلما اقتربَ منها مكسيكيٌ بالغٌ، واضطررنا إلى أن نُدخِلَها أقرب مطعمٍ ومن ثم أن نعود إلى الولايات المتحدة بعد تناول طعام العشاء مباشرة)

فلنعُد من " تلك " النزهة الصغيرة إلى الوضع القائم في رحلة شهر العسل إلى مكسيكو، في آب عام ١٩٤٠. كنا قد توقَّفنا في فندقٍ على الطريق في مونتيري. وكنتُ قد استقرّيتُ في غرفة نومٍ صغيرة حارَّةٍ مع كتابٍ على سريرٍ تُحيطُ بي من كل جانب ناموسية حين تناهى إلى سمعي طرقٌ على الباب: إنها العروس.

كانت في حالةٍ تقتربُ من الهستيريا. " لا أدري يا عزيزي ما الذي أوقعتُ نفسي فيه. أتفهمُ ما أعني؟ "

قلتُ لها إني لا أفهم.

حينئذٍ اعترفَتْ بأنَّ الزواجَ لم يكتمل بعد بالدخول عليها بالإضافة إلى اعترافاتٍ أخرى وعويلٍ وارتعاشاتٍ استمرَّتْ ساعةً من الزمن. وكانت تستقرُّ على سريري في وضعٍ كان يتَّخذُ باطِّرادٍ طابع الدوام، وأخيراً وجدتُ أنَّ من الأفضل أن أُبلغُها بأني غير مؤهَّل تماماً لأكونَ بديلاً لعريسها. وأخبرتُها السبب. فهزَّتْ رأسها بحزنٍ وسادت برهةٌ من الصمت، لعلَّ بذرة قصة " مملكة الأرض " قد أخصبَتْ خلالها في مخزني الدرامي. وأخيراً تنهَّدَتْ ونهضَتْ.

" أعتقدُ أنكَ محظوظٌ يا عزيزي. إنَّ عادات الإناث الصحِّية أعقدُ بكثير منها عند الرجال... "

حين وصلنا مكسيكو سيتي أنزلَتني الجماعةُ عند مقرّ منظمة الشبيبة المسيحية. وكانت لامبالاتي كبيرةً بالمسائل الماديّة إلى درجةِ أني تركتُ الكثيرَ من ملابسي في صندوقِ السيارة وأعتقدُ أنه مرَّتْ خمس سنوات أو ست بعد ذلك قبل أن تُعيدها إليَّ العروس بالبريد من مكسيكو سيتي، مع رسالةٍ عبَّرَتْ فيها عن ذكرياتها السعيدة حول الرحلة التي استمتعنا بها معاً.

لقد تلقَّيتُ في حياتي الكثيرَ جداً من نفحات الرِقَّة لم أعمل قط على مُقابلتها بالشُكر المناسب.

أمضيتُ أسبوعاً موحشاً، في شهر آب ذاك من عام ١٩٤٠، في جمعية الشبيبة المسيحية المكسيكية. ولا أَذكُرُ عن الأسبوع إلا حادثةً واحدةً. فقد كنتُ ذات يوم أهبطُ الدرجَ وإذا بي أُقابلُ لوطياً أميركياً عجوزاً متبرِّجاً فحيّاني وكأني صديقٌ حميمٌ له من قديم العهد وسرعان ما دعاني إلى زيارة غرفته لأتفرَّجَ على ألبوم صوره التذكارية. (مجموعةُ صورٍ من النوع الذي يُسمَّى بألبوم العَلَقَة[٢٠]) وكان يحتوي صورةً أذكرها بوضوح. كانت صورةً فوتوغرافيةً لغلنواي ويسكوت وهو في ريعان شبابه، يسبحُ وهو عارٍ تماماً في بحيرةٍ جبليةٍ ذات مياهٍ رقراقة جداً.

بعد تمضية أسبوعٍ في العاصمة، تابعتُ طريقي بالحافلة إلى مدينة تاكسكو. وهناك انضممتُ إلى مجموعةٍ من الطلبة الأميركيين أوصلوني بسيارتهم إلى أكابولكو. وعند الغسق بلغنا منتجعاً يقعُ على شاطئ البحر يُدعى منتجع تود. كان بدائياً بشكلٍ

رائع وأمواجُ شاطئه عاتية. ذهبنا لنسبحَ في تلك الليلة والأمواجُ تهدرُ. ورحتُ أحتالُ مراراً لتجرفني الأمواجُ نحو أشد أفراد المجموعة جاذبيةً. وأعتقدُ أنه فهمَ الفكرة العامة لكنه لم يتمكّنُ من الانفصال عن الفريق.

بعد ذلك وصلتُ إلى فندق كوستا فيرده الذي يُشرِفُ على غابةِ المطر والشاطئ ذي المياه الرائقة والذي شكّلَ الخلفية المسرحية لمسرحية " ليلة الإغوانا ". وخلال ذلك الصيف اجتاحَ الألمانُ النازيين مُعظم المكسيك. ووصلتْ فرقةُ منهم إلى كوستا فيرده، وكانوا مبتهجين لأنَّ قصف لندن كان يحدثُ عندئذٍ. وكانت هناك فتاةٌ جذابة في الحفلة فحيَّيتُها ذات صباح قائلاً " مرحباً "، فحدَّجتني بنظرةٍ حانقة وزمجرَتْ " آسفة لا أتكلم لغة البيديش ". وكان جلياً أنها تعتبرُ الأميركيين كلهم يهوداً.

هناك في أكابولكو في ذلك الصيف قابلتُ جين وبول باولز(٢١). وكانا يقطنان دارةً في البلدة وكان بول، كعهده دائماً، قلقاً حول الحِمية ومعدته. وقد انقضَتْ الأمسية الوحيدة التي اجتمعنا فيها معاً في ذلك الصيف كلها تقريباً على قضية ماذا في إمكانه أن يأكلَ في أكابولكو ويستطيعُ أن يهضمه، وظلَّتْ المسكينة جين تردِّدُ " أوه، هراء، ليتك فقط تلتزم برقائق الذرة والفاكهة الطازجة! "، وما إلى ذلك. ولا تنجحُ أيٌّ من اقتراحاتها في تهدئة حالته الهضمية.

لقد وجدتُ فيهما زوجاً غايةً في غرابة الأطوار والطرافة.

خلال ذلك الصيف كنتُ بالإضافةِ إلى السباحة أعملُ على إعداد مُسوَّدةِ مسرحيةٍ اسمها " درجٌ يوصلُ إلى السطح "، واستمتعتُ بالانخراط في أحاديث مطوَّلةٍ مع كاتبٍ شابٍ آخر كان قد اضطرَّ إلى أن يتخلَّى عن مقرِّ إقامته في تاهيتي لدواعي ظروفِ الحرب. وتمدَّدنا على أرجوحتين شَبَكيَّتَين متجاورتين على طول الشُرفة المُخصَّصة للنوم، نشربُ كاكاو الرَمْ ونتحدث إلى أن أضحَتْ المهاجعُ المرقَّمةُ باردةً إلى درجةٍ توجَّبَ بعدها أن ندخل لننام.

ثم أمسكَ بعضُ الفتيةِ المكسيكيين حيوان إغوانا وربطوه تحت الشرفة، استعداداً لتسمينه ليغدو صالحاً للأكل - لكنَّ أحداً لم يُحرِّره.

تأخَّرَ إرسالُ الشيك (قيمة جُعالات مستحقَّة مُقدَّماً) من نقابة الكُتَّاب المسرحيين كثيراً جداً وبصورةٍ مبهمة. وأعتقدُ أنَّ صاحبةِ فندق كوستا فيرده كانت على وشك أن

تطردني شرَّ طردة حين وصلَ الشيكُ بدون إرفاقِ أي كلمة تعليق. ولم ألاحظ إلا بعد أن استقللت الحافلة في طريق عودتي عبر الحدود، في العمود الصحفي المُخصَّص للمسرح من صحيفة نيويورك تايمز، أنَّ الآنسة ميريام هوبكنز تقوم ببطولة مسرحية " معركة الملائكة "، وأنَّ البروفات توشك أن تبدأ.

* * *

توفي كيب وهو في عمر السادسة والعشرين. حدث ذلك بُعيدَ إنهائي علاقتي المِهنيّة المُخفِقَة مع شركة مترو غولدن ماير، ومن ثم عرَّجتُ على سينت لويس لأحضَرَ وفاة جدي في يوم عيد الغطاس، وكنتُ قد وصلتُ لتوي عائداً إلى نيويورك .

ذات يوم رُنَّ جرسُ الهاتف وإذا بسيدةٍ تقول بهستريا " لم يبقَ لكيب غير عشرة أيام من الحياة ". وقبل ذلك بعام كان قد بلغَني أنَّ كيب قد أجرى عمليةً جراحيةً ناجحةً لاستئصال ورمٍ دماغيّ غير خطر، لذا وجدتني أستقبلُ تقريرها بتصديقٍ مصعوق.

كان موجوداً في مستشفى عام يقعُ بالقرب من ساحة تايمز.

أنت تعلمُ كيف يتفجَّرُ الحبُ عائداً إلى قلبك حين تسمع أن محبوبك يحتضر.

رافقني دونالد ويندام إلى المستشفى للقيام بزيارتي، كنتُ أخشى أن أذهب وحدي. حين دخلتُ غرفة كيب كانت هناك ممرِّضة تُطعمه حلوى المشمش المُسكِر. لم أكن قد رأيته قط أجمل منه حينئذٍ، على الرغم من أن سائل السُكَّر المُركَّز كان يقطرُ من فمه. وزوجته أيضاً كانت هناك كانا يتناقشان بهدوء حول القيام برحلةٍ إلى الساحل الغربي في مقصورة قطار.

بدا ذهن كيب صافياً كزُرقةِ عينيه السلافيَّتَين.

لكنَّ قُدرته على الرؤية كانت محدودة.

" اجلس هناك، يا تن، في الزاوية حتى أستطيع أن أراك "

(أعتقد أنه حين تصل حالة الإصابة بورمٍ دماغي إلى مراحلها الأخيرة يصبح دائماً مدى الرؤية محدوداً جداً)

جلست هناك وأخذ يسألني عن حياتي على الشاطئ.

حثَّني الشوق لأثِبَ من مكاني في الزاوية وأعانقه، لكني لاحظتُ عليه طقوسَ المرحِ الكاذب.

" يبدو أنهم حين استأصلوا ذلك الورم في العام الفائت نسوا بعض الخيوط في دماغي، لهذا تراني أُصبتُ بهذه الانتكاسة "

قالت زوجته، وكأنها تؤيِّد مقولة طفل صغير " هذا صحيح "

قال كيب " سأكونُ على ما يرام بعد أن يُخرجوا الخيوط "

لكنَّ عينيه ظلَّتا تُفصحان لي عن أمورٍ تُناقضُ الهذر المبتذَل.

" كان كلّ شيء على ما يرام إلى أن بدأتُ أتعثَّرُ وأنا أسيرُ في الشارع "

قالت الزوجة " لن تتعثَّر بعد الآن "

قالت الممرضة " إنَّ كيب مُتعَب "

نهضتُ ومدَدتُ يدي إلى يده فلم يتمكَّن من رؤيتها، وكان عليَّ أن أُمسِك يده.

بعد أن غادرتُ مع دوني المكانَ، توجَّهنا مباشرة إلى أقرب حانة.

بعد أن شربتُ عدة كؤوس ذهبتُ إلى محل ياباني واشتريتُ لكيب رداء شانتونغ بلون الكريم جميلاً وفي اليوم التالي أحضرته له.

رأيتُ مكتوباً على بابه " ممنوع الزيارة ". وكان الداخل ساكناً سكون الموت.

" هل لي أن أترك هذا له؟ "

هزَّتْ الزوجةُ رأسَها، وكانت بدورها قد أُبعدَتْ عن غرفة الموت، وتناولتْ اللفافة مني.

أرسلَ لي أخو كيب من كندا صوراً فوتوغرافيّة لكيب يتَّخذ وقفةً لنحَّات وبقيتْ مُستقرَّة في مِحفظتي أكثر من عشرين عاماً. وخلال الستينات اختفت مني في ظروفٍ غامضة.

أنتّ يا كيب تعيشُ في بقايا قلبي. كم كنتَ لطيفاً ورقيقاً عندما انطلقت بي إلى الشاطئ في بلدة - ب، وطلبَتْ مني أن أجلس على مقود الدراجة وتركتُكَ توصلني إلى بيتي ثم تابعتُ أنت طريقك، كم كنتَ لطيفاً وصادقاً، حين أعلمْتَني أنَّ حبَّنا قد انتهى، لأنه يُحوِّلك إلى شاذ.

هل أخبرتُكَ كيف أني، حين وصلتْ أُخت إلين (تايتن) دَنْدي لتأخذ كيب في ذلك الصيف في بلدة - ب، بينما كنتُ في الشُرفة أحزم ملابسي استعداداً للرحيل، أقول هل أخبرتُكَ كيف أطحتُ بإحدى فردَتيّ حذاء الركوب باتجاه السيدة: وأخطأتُها، ولكن ليس عن قصد...؟

* * *

قابلتُ تالولا بانكهيد[٢٢] للمرة الأولى في ذلك الصيف نفسه في بروفنستاون، قُبيل سفري بالطائرة إلى مكسيكو. كانت الممثلة الأولى التي أفكِّر فيها لمسرحيتي " معركة الملائكة "، وعندئذٍ كنتُ أتمنى أن تُقدَّم على خشبة المسرح، وأعتقد أنها كانت تُمثِّل في إحدى مسرحيات باينيرو[٢٣]. في مسرح دنيسورت. امتطيتُ دراجةً وانطلقتُ من بروفنستاون لأشاهدها وهي تمثِّل في المسرحية وكانت رائعة فيها، غاية في الجمال، واقتنعت أكثر من ذي قبل بأنَّ عليها أن تؤدي الدور النسائي الأول في " معركة... ". فوَلجتُ خلفية الكواليس وقدَّموني إليها. كانت تشع فتنة وقالت إنه يُسعدها أن تقرأ المسرحية. إلا أني بعد ذلك لم أعرف أي شيء من تالولا عن رأيها في المسرحية. وأنا سعيد، لصالح تالولا، لأنها لم تقبل العمل في " معركة... "، لكني آسف من أجل المسكينة ميريام هوبكنز لأنها قَبِلَتْ. طبعاً كانت النتيجة كارثيّة، لأنه كان على المسكينة ميريام أن تتحمَّل كلَّ الهجوم، كما تحمَّلتُه أنا.

حين عرفتُ تالولا عن قُربٍ فيما بعد أضحت دائماً تثيرُ إعجابي بصدقها وشهامتها وافتقارها إلى الإحساس بالخجل. وهي ميزةٌ اكتشفتُها عند نوعيةٍ معيَّنةٍ من النساء الجنوبيات. فثمة نوعية معيَّنة من سيدات الجنوب لا يمكنُ أن تُطلق عليهن لقَبْ عاهرات، بالمعنى الأنيق للكلمة، إذا أردتَ أن تُخاطبهنّ بلغةٍ بذيئة. وأذكرُ أنها لم ترغب قط في أن تقاطع حديثاً من أجل أن تقوم بأعمال جسدية، وإذا كانت منهمكةً في حديث يضجُّ بالحيوية معي ومن ثم اضطرَّت إلى تلبيةِ نداء الطبيعة، فسوفَ تطلبُ مني أنْ أُرافقها إلى الحمّام وأجلس على طرف المغطس بينما هي تعملُ على إنهاء قصَّتها ونداء طبيعتها. وهذا لم يُفاجئني، بل إنه في الواقع أسعدني بما تتَّصف به من صراحة وخُلوّ من الإحراج. وهذه الميزة تتَّصِفُ بها آنّا مانياني أيضاً. وأعتقدُ أنه في الإمكان القول إنَّ آنّا كانت بدورها سيدةً جنوبيّةً، إلا أنها سيدة إيطالية جنوبيّة. في الواقع لا تُعجبني السيدات المُفرِطات في الاحتشام، وأستثني منهنَّ أمي وأختي. فقد كانتا كلتاهما ضحية الاحتشام المفرط ولكن من الطبيعي أني وجدتُ من الأسهل أن أتعاملَ مع سيداتٍ لسنَ فقط يحتملنَ بل ويبدا أنهنَّ يتعاملنَ بشكلٍ أفضل مع أسلوب الحياة الحُر جداً، باستثناء، طبعاً، أختي.

لا أحد عرفَ تالولا بانكهيد أبداً. على الأقلّ لم يكتبوا أبداً عنها بصورةٍ تكشفُ عن فهمٍ حقيقي لطبيعتها. فتالولا لم تكن حيواناً شبِقاً جنسياً. وأعتقدُ أنَّ الجنسَ لم يكن له أي أهميةٍ خاصة عندها. لقد كانت نرجسية، وإحدى أعظم ظرفاء عصرنا، وكانت دائماً إحدى أذكى مَنْ عرفتُ من الناس.

* * *

الآن سأحكي لكَ عن إيقاف عرض مسرحيةٍ في منطقة برودواي في بوسطن وعن سخاء شركة إنتاج في نيويورك، كانت، حينئذٍ، الأكثر ازدهاراً في المسرح الأميركي والأعلى مقاماً... أوه، لِمَ التردُّد في هذا المجال، فالأعضاء الباقون من تلك الشركة ما عادوا يهتمُّون الآن. إنها نقابة المسرح، وطبعاً كانت المسرحية هي " معركة الملائكة "، وكان الوقت هو قُرابة عيد الميلاد من عام ١٩٤٠.

كانت المسرحية بعيدة جداً عن زمنها وتحتوي، بالإضافة إلى أخطاءٍ تكتيكيّةٍ أخرى، مزيجاً من التديُّن المتطرِّف، ونزعةً جنسية هستيرية يتعايشان في شخصيةٍ مركزية. ويبدو أنَّ النُقاد والرقابة البوليسية اعتبرا هذه المسرحية نظيراً مسرحياً للطاعون الدّبلي المتفشّي في مدينتهم.

استُدعيتُ إلى جناحٍ في فندق ريتز-كارلتون في مجلس بلدية بوسطن. وكان كِبار النقابة كلُّهم موجودين بينهم، فيما عدا قارئ المسرحية، جون غاسنر، الذي أقنعهم بتقديم مسرحيتي، وكان غائباً بعُذرٍ مقبول. وكانت بين الحاضرين المُخرجة، الآنسة مارغريت ويبستر من المملكة المتَّحدة، والضئيلة الأنيقة الآنسة تيريزا هلبرن، ذات الشعر الأرجواني الباهت، وكانت المديرةَ المساعدة لنقابة المسرح مع السيد لورانس لانغنر، مؤسسها.

أبلغوني ببرود " سوف نوقف عرضَ المسرحية "

صرختُ " أوه، ولكن لا يمكن أن تفعلوا، لقد وضعتُ قلبي في هذه المسرحية! "

سادَ صمتٌ مُرتبك قليلاً قبل أن تتفوَّه الآنسة ويبستر بفصاحة تامة بتلك الجملة الوحيدة " ينبغي ألاَّ تعرض قلبكَ على الملأ وإلا نَقَرَتهُ الغربان "

قالت الآنسة هلبرن " على الأقلّ أنتَ لم تخرج خسرانَ "

على الأثر سألتُ وكيلتي، أودري وود، بحكمة، " وماذا عن النقود؟ "

أصبحَ الصمتُ بعد تلك الجملة الوحيدة حَذِراً أكثر منه حرجاً.

رحتُ أحدِّق، متمنّياً ألاّ أكون قد بدوتُ مثيراً للشفقة، إلى الآنسة هلبرن أو إلى السيد لانغتر، وحدَّقا للمرة الأولى، أو ربما فقط ألقيا مجرَّد نظرة عجلى، إلى وجه وكيلتي غير الخجِل.

قال السيد لانغتر " الآن سنعطيه مائة دولار لكي يذهب إلى مكان ما ويُعيد كتابة المسرحية، فإذا سلَّمَها إلينا من جديد في الربيع، فسنأخذ بعين الاعتبار إعداد النسخة المُعدَّلة لعرضِها في الموسم القادم "

كان وضعي المالي على النحو التالي: كانت منحة الألف دولار التي تلقَّيتُها من مؤسسة روكفلر قد نفدت مني، ولم تكفِ جُعَالاتي جراء مكوثي أسبوعين في بوسطن لتغطي تلك التي دُفِعَتْ لي مُقدَّماً. وبالكاد كان معي ما يكفي أُجرة طريق العودة بالقطار إلى نيويورك وإلى غرفتي في جمعية الشبان المسيحيين.

بدا مبلغ المائة دولار كبيراً في ذلك الموقف، بما أنَّ الدولار كانت له قيمته في تلك الأيام، وتلك المائة أوصلتني إلى كي ويست، في فلوريدا، وهناك قابلتُ ماريون فاكارو وأقمتُ في كوخ صغير يقع خلف مثوى أمها، ورحت أعملُ كمطارِق جهنَّم على إعادة كتابة " معركة... ".

* * *

في سياق هذا الشيء سوف أذكرُ بعض الحوادث الطريفة التي وقعَتْ أثناء فترة صداقتي الطويلة الأمد مع ماريون فاكارو، وإنْ كانت ربما في وقتٍ ما صديقتي الأوفى وأيضاً أوضح صورة للسيدة الجنوبية. أصل عائلتها من جورجيا. وكانت هي ابنة قسٍ أسقُفي بروتستانتي، المحترم جورج بلاك، الذي كان، كما فهمتُ، مُدمناً قليلاً على شرب الخمر، وكانت حياتهم، لهذا السبب، مُتنقِّلة. فلنقُل إنَّ مدة مكوثه في أبرشية واحدةٍ كانت محدودة نوعاً ما، وكانوا يتنقَّلون من أبرشيةٍ إلى أخرى. طبعاً، الكلُّ يعرفُ قلَّة ما يكسبُه القس. جدّي ديكن، الذي كان قسّاً أسقفياً، كان يكسبُ معاشاً شهرياً قدره مائة دولار. وربما كان والد ماريون يكسبُ مبلغاً مُساوياً له، وهكذا نشأتْ تحت ظروفٍ ماديّةٍ ضيِّقة. وحصلتُ على منحةٍ دراسيّةٍ في كلية سميث، وكانت امرأة جيدة الثقافة وذات ذوق رفيعٍ في الأدب. وزيادةً على ذلك كانت شاعرةً موهوبة جداً.

غير أنها كانت شديدةَ التواضع فيما يخصُّ شعرها حتى أنها لم تكن تضعُ أي شروطٍ لطبعها. وكان أخوها جورج، الذي يقطنُ في كوكونَتْ غروف، قد وَعَدَ بأنْ يُرسِلَ شِعرها إليَّ وكنتُ سأعملُ على نشرِه، لكنه لم يفعل إلا في هذا العام، حين أرسلَ إليَّ مقداراً ضئيلاً من إنجازها المُبكِّر. وكان قبل ذلك قد أعطاني صورةً شخصيةً لماريون مُعلَّقةً في غرفة نومي في كي ويست، وتُبيِّنُ شكلَها حين قابلتُها أول مرة في عام ١٩٤١. وجهٌ على قدرٍ كبير من الجمال، ساحر. لم يكن جمالُها كلاسيكياً لكنها كانت تتَّصف بسحرٍ طاغٍ وحيوية ضافية. وفي عام ١٩٤١ كانت أمها تدير مثوى راقياً جداً في أَحد أفخم منازل كي ويست، مكان يُدعى تريدرويندز. وقابلتُ آل بلاك وماريون في شهر كانون ثاني من ذلك العام حين توجَّهتُ إلى كي ويست للمرة الأولى، بعد كارثة "معركة... " في بوسطن. في الحقيقة، اخترتُ كي ويست لأنَّ السباحةَ كانت بالنسبة إليّ عملياً أسلوباً في الحياة، وبما أنَّ كي ويست كانت أبعد نقطة في جنوب أميركا، تصوَّرتُ أني سأتمكَّن من أن أُمارس السباحة هناك أثناء فترة إعادة كتابتي لـ "معركة... ". وكان لدى صديق صدوق جداً، يُدعى جيم باروت، وهو الفتى الذي كان برفقتي في مزرعة أفراخ الحمام في لانغوا وكان في عام ١٩٤١ يعيشُ في ميامي. كان فتى لطيفاً، وليس شاذاً جنسياً. ويمكنني أن أقول أنه من غير الصحيح أني كلما أتيتُ على ذكر رجلٍ يجب أن يُفهَم أنه شاذ جنسياً. وأؤكِّدُ لك أني عرفتُ رجالاً كثيرين وأُعجِبتُ بهم ولم يكونوا كذلك. على أي حال، قابلتُ جيم أول مرة في ميامي وأوصلني بالسيارة إلى كي ويست، وتوقَّفنا في ذلك المنزل الخشبي الهيكل، الضخم جداً، جداً - المبنى من الماهاغوني الصَلْب - وكانت الشُرُفات تكتنفه من جوانبه الأربعة، وثمة دَرَجٌ هابطٌ وآخرُ صاعدٌ، وكان له ما أعتقدُ أنهم يسمّونه " ممر القبطان " على السطح. بناءٌ رائعُ الجمال. ولسوء الحظ وقعَ ضحيةَ مُحرِقِ مبانٍ بعد أن تخلّى آل بلاك عنه. ولكن في عام ١٩٤١ استقبلتنا السيدة بلاك هناك بكرمٍ مُغدِقٍ، وعندما ذكرتُ لها أني حفيد قسٍّ، قرَّرَتْ أني بدون أدنى شك جنتلمَن، وكانت نتيجةٌ مفاجئة وقبل أوانها. وأنزلَتني عندها. أنزلتنا جيم وأنا أولاً في غرفة نومٍ في الطابق السفلي. وفي صباح اليوم التالي كان على جيم أن يعودَ إلى ميامي - كان يعملُ هناك - وكرهت كرهاً شديداً أن أُغادرَ ذلك المنزل الجميل والسيدة كورا بلاك، التي تتَّسِمُ بسحرٍ

طاغٍ. وقد استشفَّتْ ما أشعر به، فقالت " توم، هناك كوخٌ صغير يقعُ خلف هذا المبنى. ولا أدري كيفَ ستستغلّه، لكنه يتّسعُ لك ". وأرتنيه، فقلتُ " إنه ممتاز، سيدة بلاك، وأنا لا أحبُّ أن أعيشَ في أماكن واسعة "، وهذا صحيح. فأعدَّتهُ لي بشكلٍ رائع. ركَّبَتْ دوشاً، ولم تتقاضَ مني إلا سبعة دولارات وخمسين سنتاً في الأسبوع الواحد. وهناك قمتُ بإعادة تأليف " معركة... ". وتعوَّدتُ على أن أمتطي دراجةً مُستأجَرَة وأتوجَّه بها إلى مطعم كوبيّ وأستيقظ على شرب قهوةٍ كوبيَّةٍ مُرَّة قوية النكهة، ليست حتماً من النوع الذي يمكن للطبيب أن ينصحُ بشُربه رجلاً ذا حالة قلبٍ ليست على ما يرام. ومن ثم أمتطي الدراجة عائداً إلى كوخي لكي أملأ صفحاتٍ وصفحات على عَجَلٍ بكل ما يخطُر على بالي - ليس فقط بـ " معركة... "، وإنما بالشعر وبقصصٍ قصيرة. وكانت تلك القهوة الكوبيّة بحقّ جبَّارة. لم تكن نافعةً بأي حال لقلبي لكني كنتُ أحملُ قلباً غريب الأطوار. أحياناً يبدو لي أنه يتفتَّحُ عندما يُعاقَب.

خلال تلك الأيام التي أمضيتُها في كي ويست كانت هناك عُصبةُ من الفنانين. كان هناك آرنولد بلانش، وصديقته دوريس لي. ثم كانت هناك زوجة الفنان الياباني كونيوشي، وغرانت وود، الذي رسمَ لوحة " الغوطي الأميركي "، كان هناك. وكانت تلك آخر سنة من عمره. كان رجلاً ضئيل الحجم وبديناً يحملُ كثَّةً بيضاء من الشَعر وودوداً جداً، جداً. وكان وجهه في كل الأوقات متضرجاً بشدة، ولكن من الارتباك. وقد تعوَّدنا جميعاً على أن نجتمع في الأمسيات في منتجع هيمنغواي القديم، ويُدعى " جو القذر ". وكان هيمنغواي قد غادرَ لتوِّه لكنَّ زوجته السابقة، بولين بفايفر هيمنغواي، كانت ما تزال هناك، تقطنُ في ذلك المنزل الأسباني العتيق الجميل ذي الطراز الكولونيالي القائم في شارع وايتهيد. وكان لديهم في " جو القذر " فرقةُ تعزفُ الموسيقى الراقصة، فرقة ألحان راقصة وزنجية جيدة حقيقية تعزفُ ألحاناً راقصةً رائعة. وفي تلك الأيام كانت منطقة كي ويست تتمتَّعُ بجوٍ حدوديّ أصيلٍ بكل معنى الكلمة، يشيعُ البهجةَ في النفس. حتى حالة الطقس كانت أفضل. لقد كان " جو القذر " أكثر نبضاً بالألوان والحيوية مما هو الآن. كان فيه بار طويل يمتدُّ من مقدمة المكان إلى آخره، أما الآن ففيه بارٌ على شكل حدوة حصان. وكان أصدقاءُ هيمنغواي المقرَّبون القدامى ما يزالون في عام ١٩٤١ يتواجدون في المكان، وكنا متعوِّدين، ماريون وأنا، على ارتياده في الأمسيات لنرقص.

كان لماريون زوجٌ هو أسوأ مدمن على شرب الخمر عرفتُه في حياتي كلها. وكان إنساناً محبوباً، لكنه كان يسبِّبُ لماريون وللسيدة بلاك قدراً هائلاً من المتاعب. وحين لا يتوفَّرُ لديه الكحول، يشربُ سائل الإتير. كان لابد أن يشربَ من أحدهما، إما الكحول أو الإتير. وفي طفولتي، استؤصِلَتْ زائدتي الأنفيّة ولوزتيَّ وخُتِنتُ في وقتٍ واحد وأنا تحت تأثير الإتير، وأُصِبتُ بصدمةِ الخدار، ما زلتُ تحت تأثيرها حتى الآن.

هذا الرجل كان يدخل المكان وهو يزفرُ أبخرةَ الإتير تلك ويحدِّجني بعينيه الزجاجيتين بنظرةٍ ناريّة. لابد أني كنتُ أطيبَ قلباً بكثير في تلك الأيام لأني لم أحاول قط أن أرميه إلى الخارج بما أنه كان قوي البُنية. كان يشكِّلُ جزءاً من حيوية المكان في ذلك الوقت. لكنه كان يُسبِّبُ لماريون متاعبَ جمَّةً كانت تحتملها بجَلَدٍ عظيم. كان أحد الوَرَثَة الرئيسيين لثروة شركة ستاندارد فروت. ولابدَّ أن ماريون كانت قد تزوَّجَته وهي في منتصف أو أواخر عشرينات عمرها. وأعتقدُ أنها قد تأخَّرَت كثيراً في الزواج لأنها كانت مضطرَّةً إلى أن تكسب رزقها بنفسها بعد أن تخرَّجَت من كلية سميث وقد استخدَمَها فلو زيغفلد(٢٤) كمُعلِّمة خاصة لأطفاله. ظلَّتْ تمارسُ عملَها مع أولئك الأطفال فترةً طويلةً جداً، فقد كانت ماريون شديدة الإخلاص في صداقاتها وبقيتْ حتى النهاية صديقةً مقرَّبةً لأرملة السيد زيغفلد بيلي برك.

خلال فصل الشتاء ذاك كان جيم يقومُ بزيارتي بين وقتٍ وآخر ويمكثُ خلال عطلة الأسبوع في مثوى آل بلاك. وذات مرة تصادفَت زيارته مع نشوءِ أزمةٍ عائليةٍ في مثوى تريدروينذز. وقد دُعينا، جيم وأنا، لتناول طعامَ العشاء، وأثناء تناول الطعام، وبدون أي سابقِ إنذار، خلعَ السيد فاكارو عينه الزجاجية ورمى بها بعنفٍ نحو حماته، فاستقرَّتْ في طاس حسائها. وما كان يمكن إلا لسيدةٍ عظيمةٍ حقاً أن تُعالج الحادثةَ بمثل هدوء الأعصاب ذاك. فقد قامت السيدة كلارا، وبدون أن يتغيَّر تعبيرُ وجهها أو نبرة صوتها، وببساطةٍ بإخراج العين الزجاجية من طاس حسائها، وسلَّمَتْها إلى ماريون وهي تحملُها بملعقةِ الحساء وعلَّقَتْ بشكلٍ عارض " أعتقدُ، يا أختي، أنَّ ريجيس قد أضاعَ هذه "

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية اشتبكَ في شجارٍ مع بعض أفراد عصابةٍ ما كانت تُديرُ مرتعاً للمقامرة في البلدة. وهدَّدوه بالقتل وتقرَّرَ أن يرحلَ فوراً من المنطقة. وكانت وسيلةُ النقل الوحيدة المتوفِّرة لهذا الغرض هي سيارة جيم باروت الفورد جالوبي.

كانت فرقة الهاربين مؤلَّفةً من السيدة كلارا، وماريون، وجيم، وأنا، وكان ريجيس مستقراً تحت الملاءة، على أرضية المقعد الخلفي، وهو غائبٌ عن الوعي.

كان هناك ثقبٌ يتفاقمُ في المشعاع، وكنا كثيراً ما نتوقَّفُ لنملأ ذلك الشيء المتبخِّر بماء البحر الذي كنا نغرُفُ منه على طول الطريق.

وقد قُدِّرَ لي أن أجدِّدَ صداقتي مع ماريون في نيو أورلينز في عام ١٩٤٦. فقد كانت متحمِّسةً كبيرة لأنواع المراهنة كافة، وكثيراً ما رافقتُها وأمها إلى حلبة السباق في نيو - أورلينز. وفي نيو أورلينز كانتا تقطنان في شقةٍ جميلةٍ في أبنيةِ بونتالبا الممتدة على طول ساحة جاكسون. وحين جاء فريقُ تمثيل مسرحية " معرض الحيوانات الزجاجية " إلى المدينة، أقامت ماريون والسيدة كلارا حفلة سخيّة له، بكمياتٍ كبيرةٍ من لحم ديك الحبش ولحم الخنزير، ومشروبات بمقادير غير محدودة، وكل شيء.

بعد ذلك ببضع سنوات اشترت ماريون والسيدة كلارا منزلاً رائعاً في كوكونت غروف. (حينئذٍ كان ريجيس قد توفي) وكان لدى ماريون والسيدة كلارا اهتمام استثنائي بالعقارات وموهبة خاصة في هذا المجال. وفي ذلك الوقت كنتُ أنوي أن أحضرَ الآنسة روز مع ممرِّضةٍ مُلازمةٍ إلى فلوريدا. وقد رأتْ ماريون أنها، أيضاً، فكرةٌ جيدة، وعثرتْ على منزلٍ، بمحاذاة المرفأ في الغروف، واضعةً هذا المشروع في حسبانها. وعندما اشتريته كان مفروشاً فرشاً جميلاً وكان صفقةً حقيقيةً دفعتُ فيها مبلغ أربعين ألف دولار. والمنزلُ بحدّ ذاته لم يكن جميلاً كثيراً. كان مزخرفاً بالجصّ، على شكل حرف U، على طراز الإرسالية الأسبانية، وفيه برجٌ يحوي ناقوس الإرسالية على سطحه. غير أنَّ الأرضَ المحيطةَ به كانت فاتنةً. كانت تواجه المرفأ وترتفع عليها بجلال أشجار نخيلٍ فخمةٍ سامقة.

يؤسفني أن أقولَ إني اضطررتُ إلى التخلّي عن فكرة استقرار أختي في فلوريدا فلجأتُ إلى تأجير المكان. أجَّرتُهُ إلى رجلٍ يعملُ لصالح مجلة " لايف ". وبعد أن استقرَّ فيه مع عائلته بوقتٍ قصير، ضربَ إعصارٌ المرفأ وتبعثَرَ الأثاثُ في كل مكان، ولكن المنزلَ ظلَّ سليماً وكذلك، بشكلٍ رائعٍ، أشجار النخيل الفخمة.

خلال السنوات التي تلَتْ ذلك زادتْ قيمة الملكية في ذلك الموقع بشكلٍ كبير. وآخر عَرض قُدِّمَ للمنزل والأرض المحيطة هو ١٥٠٠٠٠ دولار، لكني رفضتُهُ، متوقِّعاً أن تزدادَ قيمته.

إنني محظوظٌ في مسائل العقارات، ومحظوظٌ في لعب الورق: وأيضاً، أحياناً، في الحب.

لماذا، إذن، أعتبرُ نفسي متأنِّقاً لا نفعَ فيه؟ ربما لأنَّ مغامراتي في مجال المسرح كانت فاشلة في الغالب.

* * *

قبل أن يستولي كاسترو على السلطة في كوبا، كنتُ وماريون نقضي عطلاً أسبوعيةً صاخبةً في هافانا. وكنا نحن الاثنين نستمتعُ أيّما استمتاع بالحياة الليلية المرحة في هافانا، وكنا نتوجَّه إلى الأماكن نفسِها لنحظى بذلك الاستمتاع. بل لقد عدنا إليها حتى بعد تولّي كاسترو الحكم. وفي المرة الأولى التي عدتُ إلى هافانا بعد انتصار كاسترو، قدَّمني إرنست هيمنغواي إليه، وكنتُ قد تعرَّفتُ على إرنست عن طريق كينيث تاينن، الناقد المسرحي البريطاني. فقد اتصل تاينن بي - كنتُ أنزلُ في فندق ناسيونال في هافانا - وقال " أتحب أن تقابل إرنست هيمنغواي؟ "، فقلتُ " لا أعتقدُ أنَّ الفكرةَ صائبةٌ، ما رأيك أنت؟ إنَّ ما أعرفه هو أنه يمكن أن يكون فظاً مع أُناسٍ ذوي مزاجٍ خاصّ مثلي "، فقال تاينن " حسن، سوف أكونُ حاضراً لأمدَّكَ بكلّ ما في وسعي من عونٍ. أعتقدُ أنه يجب أن تقابله لأنه أحد أعظم كُتّاب عصرنا، فقلتُ " لا بأس، سأجازف ". فتوجّهنا إلى " فلوراديتا "، المكان المفضَّل لهيمنغواي ويتواجدُ فيه ليلاً ونهاراً، حين لا يكون في البحر، وكان أكثر من ساحر. كان بالضبط عكس ما توقَّعت. فقد توقَّعتُ أن أرى رجلاً شديدَ الخشونة، مُغالياً في ذكورته، متنمِّراً، وفظَّ الكلام. إنَّ هيمنغواي، على العكس، فاجأني بكونِهِ جنتلماناً يتَّصِفُ بخجلٍ مؤثِّر جداً.

* * *

لقد روى تاينن هذه المقابلةَ الأولى بفكاهةٍ ولكن ليس بدقَّة. كنتُ أخرقَ بطبعي وتلفَّظتُ ببعض الأشياء الـ gauche (الخرقاء)، فعبَّرتُ له، مثلاً، عن حزني الشديد لوفاة زوجته السابقة، بولين، حديثاً، ثم سألتُه " ممَّ توفيت؟ "، ولم يبدُ على هيمنغواي أنه استاءَ، بل قال (وكأنه يصارع) " في الحقيقة، لقد ماتت وهي الآن ميّتة "، ثم واصل الشرب، وأخذنا نتحدث عن مصارعة الثيران. ولم أكن aficionado (مولعاً) بمصارعة الثيران، ولا ممَّن يعرفون التقنية الممتازة، ومَواطن الجمال في مصارعة الثيران،

بل كنتُ فقط أحد الذين يستمتعون بمشاهدتها، وكنتُ في الصيف السابق قد عقدتُ صداقةً متينةً مع أنطونيو أوردونيث، الذي يمكن القول إنه كان معبود إرنستُ هيمنغواي. وقلتُ لهيمنغواي إني أعرفُ أنطونيو أوردونيث وأعتقدُ أنَّ هيمنغواي قد سُرَّ لذلك، وسُرَّ أيضاً لأني كنتُ أشاركه اهتمامه بمصارعة الثيران.

قال هيمنغواي " أنتَ تعلم أنَّ هذه الثورة التي قامت في كوبا هي ثورةٌ جيدة ". في الواقع، كنتُ أعلمُ أنها ثورةٌ جيدة لأني كنت قد ذهبتُ إلى كوبا حين كان باتيستا يقبض على زمام السلطة وكانت لديه عادةٌ فاتنة في تعذيب طلاب المدارس اليافعين. فكان يجعلهم يجلسون على الكراسي المكهربة - أو الموصولة بمصادر الكهرباء حتى يحترقون بشكلٍ فظيع. وكان أحياناً يُخصيهم. لقد كان ساديّاً رهيباً. وفي رأيي إنَّ الولايات المتحدة ارتكبت خطأً فادحاً. ليتها حبَّذَتْ إمكانية حدوث انفراجٍ في العلاقات. فكاسترو، قبل أي شيء، رجلٌ محترمٌ وحَسَنُ الثقافة. وكان من الممكن جذبُ كوبا حُبِّياً إلى مدارنا، الذي هو مُحيطها الطبيعي، لكنَّ وزارة خارجيتنا فَضَّلَتْ أن تنبُذَ السيد كاسترو. والنتيجة، لقد جعلنا من كوبا عدواً لنا واتَّجَهَتْ كوبا إلى روسيا للحصول على الدعم. وعندما قابلتُ هيمنغواي لم يكن ذلك قد حصلَ بعد.

على أي حال، كتبَ هيمنغواي لي رسالةَ تعريفٍ بي إلى كاسترو. وذهبنا أنا وكينيث تاينن إلى القصر. كان كاسترو في ذلك الوقت يعقدُ اجتماعاً. واستمر ترؤسه للاجتماع مدةً طويلة. فانتظرنا، بالجلوس على الدرج خارج غرفة المجلس. وبعد مرور ثلاث ساعات من الانتظار، فُتِحَ البابُ واسعاً ودُعينا إلى الدخول. حيَّانا كاسترو بحرارةٍ غامرة. وعندما قدَّمني تاينن إليه قال القائد العام " أوه، تلك القطة ". وكان يشيرُ بذلك إلى مسرحية " قطة على سطحٍ من الصفيح الساخن "، فدُهشتُ - وفرحتُ، طبعاً. لم أتصوَّر مطلقاً أنَّ القائدَ العام يعرفُ أي شيء عن أي مسرحية لي. ثم انتقلَ إلى تقديمنا إلى كل أعضاء مجلسه من الوزراء. وقُدِّمَتْ القهوة لنا والمشروبات المُعطَّرَة، وكانت مناسبةً سعيدةً، تستحقُ الانتظارَ ثلاث ساعات.

* * *

والآن، أعودُ إلى ماريون. لقد أحببتُها حباً عميقاً، وإنْ لم يكن حبي ربما يضاهي سخاء حبها لي. لقد كان أغلب أصدقائي الأشدّ قُرباً مني هم من النساء وكانت هي

إحداهُنَّ. كانت حبيبةً إلى نفسي وكانت تفرط في شرب الخمر. وقد سافرنا كثيراً معاً.

في إحدى المرات كنا ننزلُ معاً في فندق ناسيونال، وفي عصر أحد الأيام كنا في كوخنا الكائن عند البحيرة نلعبُ الورق فرأينا جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار جالسَين في كوخٍ آخر، فقلتُ " ماريون، أعتقدُ أننا يجب أن نقابلهما "، فلم تعترض وذهبتُ لأقدِّمَ نفسي إلى السيد سارتر. كان شخصاً بشوشاً جداً، وقلت له " هلاّ أتيتَ يا سيدي وشاركتنا شرب كأس ". فانتقلَ مع الآنسة دو بوفوار للانضمام إلينا. وقد كانت الآنسة دو بوفوار سيدةً شديدة البرود، أما جان بول سارتر فكان ودوداً جداً وفاتناً. وتبادلنا حديثاً مطوَّلاً جداً، وذكرتُ في سياق حديثي أنَّ ماريون تقرضُ الشعر. وكانت في الليلة السابقة قد عرضَتْ عليَّ بعض القصائد التي تتَّسِمُ بجماليّةٍ خاصة. قال " أوه، يسعدني كثيراً أن أقرأها! "، فقلتُ " هل تمانعينَ يا ماريون في أن أدعَ السيد سارتر يقرأ شعرك؟ "، فقالت " أوه، أرجوك لا تفعل يا توم. إنها مجردُ خربشات. كنتُ فقط أتسلّى أثناء الليل وأنا أُخربشُ تلك الأشياء ". قلت" نعم، لكنها قصائدُ جميلةٌ في رأيي يا ماريون "، فقال السيد سارتر " أوه، هيا، قُمْ واحضرها ". وهكذا نهضتُ وأحضرتُها. في الواقع لقد كان تأثيرها عميقاً جداً على سارتر. ويجب أن أذكُر أنَّ الآنسة دو بوفوار ظلَّتْ على برودها المفرط. أعتقدُ أنَّ ذلك كان مجرد طابعها الخاص. وكنت ذات مناسبةٍ في باريس توقَّعتُ أن يأتي سارتر إلى حفلٍ أقمتُهُ هناك، لكنه لم يأتِ، ولهذا تراني فوجئتُ أيَّما مفاجأة بمودته في تلك المناسبة اللاحقة.

* * *

وأعودُ إلى ربيع عام ١٩٤١، حين ذهبتُ للمرة الأولى إلى كي ويست. ومع حلولِ فصل الربيع تلقَّيتُ مبلغاً جميلاً مقداره خمسمائة دولار هو مبلغٌ إضافيّ من أصدقائي آل روكفلر. وبمعيَّته عُدتُ إلى مانهاتن حاملاً نسخةً مُعدَّلةً من " معركة... "، وسلَّمتُها إلى النقابة، وبعد بضعة أسابيع من التفكير، اتَّصلَ بي السيد لانغتر. (أقصد أنه " هو " الذي أنصتَ إليَّ حين اتَّصلتُ " أنا " به)

" بخصوص هذه النسخة المُعدَّلة يا تنيسي، لقد فعلتَ كما يفعل " ضفدع مقاطعة كالافيراس النطّاط " في قصة مارك توين المعروفة، أقصد أنكَ أفرطتَ في إعادة كتابتها، تماماً كما نطَّ الضفدع خارجاً من المقاطعة "

وهنا انتهتْ المكالمة.

بعد أن علّقَ سماعة الهاتف، رحتُ أُفكِّرُ بكآبةٍ بلقائي الأول بالسيد لانغنر، الذي لا زلتُ أحبه وأكنُّ له ذكرى حميمة. كانت لديه طاولة مكتب بحجم طاولة مكتب رئيس الجمهورية وكانت في ذلك اليوم مُغطّاة بعددٍ من المخطوطات فاقَ كل ما تخيَّلتُ وجوده في العالم. وبحركةٍ واحدةٍ شاملةٍ أزالَ كلَّ المخطوطات عن الطاولة ماعدا مخطوطتي، وقال " إنَّ اهتمامي لا ينصبُّ إلا على عبقري ، فاجلس، أرجوك "

(منذ ذلك اليوم، كلما حدَّثني أحدهُم عن عبقريّ أمُدُّ يدي إلى جيبي الداخلي لأتحسَّسه وأطمئن إلى أنَّ محفظتي ما تزال في مكانها)

العمل في تشغيل المصاعدِ في مانهاتن: إنَّ أشدّ فترات عملي في مثل هذا المجال إمتاعاً كانت في النوبة الليلية في فندق سان ياتشنتو، الكائن في جادّة ماديسون في الخمسينات، وقد هُدِمَ بناؤه الآن. وذلك الفندق كان بحقّ أشبه بدار تقاعُد العجائز والأرامل من أرقى المستويات الذين تلاشت ثرواتهم وينفقون آخر ما تبقّى لديهم من نقود في مكانٍ لائق. وليس كلهم ينسجم بعضهم مع بعض. بل لقد كان هناك في الواقع اثنتان منهم، عانس تحملُ اسماً فخيماً هو أوتشتكلوس كانت تنتابها نوبات من جنون كلما ألْفَتْ نفسها مصادفةً داخل مصعد مع عانسٍ أخرى تحملُ اسماً يُعادلُ اسمها في فخامته.

كان هناك شاعرٌ شاب يعملُ في النوبة الليلية معي. كان عامل هاتف وقد حذَّرني من أنَّ عليَّ ألاّ أسمح، حتى ولو اندلعت النيران في الفندق، لهاتين العجوزين أن تشغلا المصعد في وقتٍ واحد.

ولكن، حصل المحظور، وتقابلتا. وكان المشهد الذي جرى في المصعَد أشبه بذروة قتال بين الدِيَكة. ثم (صدِّق أو لا تُصدِّق) علِقَ المصعد بين طابقَين! وحاولتُ أن أُعيدَه إلى الطابق الذي تسكن فيه أوتشنكلوس، فزعقتْ العجوز الأخرى " إياك أن تعودَ إلى فوق، بل إلى تحت، تحت! "، وشدَدتُ ذراع التدوير فإذا بالمصعد يتوقَّف ما بين الطابقَين التاسع والعاشر ولابدَّ أنّ الاضطراب قد أيقظَ كلَّ مَنْ يسكن البناء في منتصف تلك الليلة. (إنني الآن مُقتنِع بأنَّ العجائز من السيدات مُحصَّنات ضد السكتات الدماغيّة، على الرغم من العديد من التقارير التي تقول عكس ذلك).

أذكرُ أنَّ الفندقَ كان أيضاً يضمُّ ممثِّلةً عجوزاً رائعةً تُدعى كورا ويذرسبون. وأعتقدُ أنَّ من الأسلم لي أن أقول إنَّ تلك السيدة الفاتنة، التي رحلتْ الآن عنا، كانت مدمنة على تناول المورفين وأنَّه كان علينا أنا والشاعر أن نصرِف لها وصفاتها الطبيَّة من الصيدلية التي تفتح أبوابها طوال الليل.

من المفروض أن يكون المورفين " مُهدِّئاً "، لكنَّه كان دائماً يجعلُ الآنسة ويذرسبون " منتعشة ".

كانت متعوِّدة على أن تثرثر معنا أنا والشاعر حتى اقتراب بزوغ الفجر في بهو فندق سان ياتشنتو. ولا تستنفد " جُرعتها " حتى يصيح الديك صيحته الأولى. وعندئذ نقوم أنا والشاعر بجُرُّها إلى المصعد، ثم يفتح الشاعر باب غرفة نومها وأضعها على حافة سريرها وأتركها لتنهار عليه.

وتُغمغم " ماذا سأفعل من دونكما أيها الشابان؟ ". بتلك النبرة الحكيمة الحزينة والعذبة لامرأةٍ تعرفُ أنَّ " كل شيء زائل ".

(هل استطاعَ أحدٌ أبداً أن يفهم كياسة النساء والعجائز وسحرهنَّ الآسرين، وهنَّ يدخلنَ ويخرجنَ من المسرح، بقدر فهم جيرودو الكامل لهنَّ في " مجنونة شيلو "؟ إنَّ كيت هيبورن لم تكن عجوزاً كثيراً أو مجنونة بما يكفي لتوحي بسحر جنونهن).

قُرابة نهاية عام ١٩٤١ كنتُ رفيقاً لرسامٍ تجريدي في منطقة المستودعات من ويست فيليج. وهذا الصديق، أقولها بعصبيّة، كان حالةً سَلّيَة[٢٥] : a basket case أقصد أنه كان غريب أطوار حقيقياً وذلك قبل أن تصبح غرابة الأطوار موضةً تُحتذى.

خلال تلك الفترة عملت فترة وجيزة في مقهى صغير يُدعى " حانة المتسوِّل "، تملكها لاجئة رائعة من ألمانيا النازية اسمها فاليسكا غرت.

كانت راقصةً إيمائيّةً، وتلك لم تكُن بأي حال كل مواهبها. كنتُ أعملُ فقط لأحصل على الإكراميّة. وكان مسموحاً لها فقط بتقديم البيرة لكنَّها وسَّعَتْ مجال السماح ليشمَلَ بعض التسهيلات. وكانت الأطعمة على شاكلة سجق الناكوورست وطبق الشوكروت. وكان هناك مُغنٍ هو إما ذكَر أو أنثى يرتدي ملابس الجنس الآخر، ولم اعرف قط إنْ كان ذاك أو تلك، وأخيراً كانت هناك دائماً فاليسكا التي لا نظيرَ لها.

أحياناً كنتُ ألحقُ ما أناله من إكراميّة بوصفي نادلاً بإلقاء بعضٍ من قصائدي الخفيفة. كان شِعري شديد الفجاجة بالنسبة إلى تلك الأيام وأصبحتُ مركزَ جذب. وكانت الإكراميات ضخمة.

ذات ليلة جمعتْ المدام النُدُل وأعلنتْ تغيُّراً في السياسة.

قالت إنَّ على النُدُل (وكنا ثلاثة) أن يضمُّوا إكرامياتهم معاً ومن ثم يتقاسموها مع الإدارة، أي معها.

في تلك الأمسية ذاتها كان في الحانة عددٌ من الأصدقاء المُقرَّبين والمعارف، وبينهم الرسّام التجريدي. وكان حاضراً حين أعلَنَتْ فاليسكا عن سياستها الجديدة، بُعيد وقت الإغلاق، في مطبخ " حانة المتسوِّل ".

قلتُ للسيدة إنني لا أنوي بأيّ حال من الأحوال أن أضمَّ إكرامياتي إلى ما يخصُّ بقية النُدُل لكي أتقاسمها مع الإدارة. وكانت هذه المواجهة الصاخبة قد جذَبَتْ الفنان التجريدي إلى المطبخ. وكان هناك بجوار باب المطبخ صندوقٌ من زجاجات الصودا سِعة ربع غالون وحالما دخل بدأ ينهالُ بتلك الزجاجات على الراقصة الإيمائيّة الشهيرة. وقد قَذَفها بما لا يقلّ عن دزينةٍ منها قبل أن تُصيبها إحداها. وتمَّ استدعاء الشرطة وعربة الإسعاف، وتلقَّت السيدة عدة قُطَب في جمجمتها، ولا حاجة إلى أن أقول إني طُرِدتُ من عملي في تلك الليلة بالذات.

بعد ذلك بوقتٍ قصير وفي يوم جمعة قارس البرودة، لم يكن " عظيماً "(٢٦)، وفي مُستهلّ العام الجديد، عام ١٩٤٣، طُرِدتُ بدون سابق إنذار من شقة صديقي المُتقلّب المزاج. وكان صديقي الرسام التجريدي قد لجأ إلى سريره إثر إصابته بوعكةٍ صحية ذات منشأ عصبي غير أنه ظلّ يرغبُ في أن يكونَ بصُحبته أحد، وكان في كل مساء يُرسلني كي أجوب شوارع غرينتش فيليج لأُحضِر له أنواعاً مُنتقاة بعناية من الزوار. فقد كنتُ راغباً في أن أتفضَّل عليه وهكذا حصلنا على صديقٍ آخر. أطلقنا عليه لقَب " سمكة الزامور "، وأمضى الرسام الشاب المتوتِّر الأعصاب خلال مُعظم أماسي ذلك الفصل من العام أوقاتاً مُسلّية مُحبَّبة ولكن ذات ليلة أحضرنا أنا و " سمكة الزامور " إلى الشقة بعضَ الضيوف من لمشردين المحتالين، وفي صباح اليوم التالي وجدَ الرسَّام أنَّ بعضَ الأغراض الثمينة مفقودة. وبعد أن قامَ بعمليّةِ جردٍ قرَّرَ وهو حزينٍ أنْ يستغني

عن صُحبتي وخدماتي: لقد طُردتُ، وكانت معي بطاقة استعادة غسيلي من محل تنظيف " الصيني " ولكنه ليس معي مال وبالكاد كان معي أجرة المواصلات.

بعد ذلك بيومَين من اليأس، ولأول مرة وآخر مرة في حياتي، وجَّهتُ نداءً مباشراً وشخصياً طلباً لمعونةٍ اقتصادية: كانت مخابرة هاتفية إلى فرع الكُتَّاب المسرحيين لاتحادٍ مُكرَّسٍ للعناية بالكُتَّاب وإطعامهم. وأقرضوني، نعم، أقرضوني مبلغاً قدره بالضبط عشرة دولارات لإبعادي عن الشوارع الزلاّقة ريثما يبدأ ذوبان الربيع، بعد ذلك بفصلٍ كامل...

إنني، بطريقتي المُشوَّشة، مخلوقٌ مُبدِع، بالإضافة إلى كوني صريحاً، وفي تلك الأيام كنتُ أُثيرُ لدى أشخاصٍ مُعيَّنين إعجاباً ممزوجاً بالشَفَقة، فبعد أن نفدَتْ الدولارات العشرة نزلتُ في غرفةٍ فوق السطح في جادة ماديسون تخصُّ مؤلِّفاً شهيراً جداً لموسيقى " البوب "، ولم أمكث هناك فقط على الغداء بل على مدى الأشهر الأربعة التي تلَتْ، وحتى حلول فصل الربيع.

بعد ذلك، جاء فصل الصيف وحصلت على صديقٍ آخر، أقلَّ ملاءمة من السابق بكثير لكنَّه لم يكن يقلّ عنه في طيبة القلب. وعندما عَلِمَ بمشاكل وضعي في مانهاتن، بعثَ لي برسالةٍ من ماكون، بولاية جورجيا، يدعوني فيها إلى قضاء فصل الصيف معه.

وصلتُ إلى تلك البلدة القابعة في عمق الجنوب فوجدتُ أنه يشغُلُ غرفةَ علِّيَة وكان عليَّ أن أحتلَّ القسم الآخر منها.

كنا في عزِّ الصيف وفي قلب ولاية جورجيا. كان لغرفتي الكائنة في العلِّيَّة نافذتان بحجمِ وشكلِ لجافتَين(٢٧). فلنقُل إنه كان فصل صيف شديد الرطوبة على الرغم من أنه لم يهطل المطر.

كان عند صديقي مروحة كهربائية دوّارة ولم يكن يستطيع أن ينام بدونها، بسبب إصابةٍ مؤلمةٍ في عظام فكِّه. أما أنا فلم يكن لدي أي آلة كهربائية للتبريد وكنتُ أُمضي ساعات طوالاً من الليل أُحدِّقُ عبر القاعة التي يغمرها السكون بين غُرَف العلِّيّة هذه وصديقي مستلقٍ في السرير وتلك المروحة تُشوِّشُ شَعرَه وهو يقهقه على الكاريكاتير في صحيفة " النيويوركر "، وهي صحيفةٌ ممتازة، لا زال مجرَّد مرآها يجعلُ العَرَقَ الغزيرَ يتصبَّبُ مني.

وسط أيام شهر آب الشديدة القيظ وصلَ نزيلٌ آخر إلى تلك العلّيّة الجورجية، وكان شاباً مُعاقاً بصورةٍ ما ويعملُ في الـ A & P وكان ذلك النزيل يتعرَّقُ حتى الموت من عمليّة الزموهة[٢٨]، لكنه لم يكن قط، وأعني هذا حرفياً، يستحمُّ أو يُغيِّرُ جواربه ويجب أن أذكرَ أنَّ الرائحة التي كانت تنبعثُ من ذلك الفتى القرويّ اللطيف أخذت تخترقُ جوَّ العلّيّة مثل إحساس يوجين أونيل بالموت. فإذا أردتُ أن أتوسَّعَ حتى التوهُّم في هذه النقطة أُضيفُ أنه في أواخر شهر آب تسلَّلَ ابن عرس ذات ليلة إلى العلّيّة ثم خرجَ قبل بزوغ الفجر هرباً من رائحة الموت تلك.

أعتقدُ أنه نحو ذلك الوقت، ولا نزال في بداية حقبة الأربعينات، مررتُ بتجربة العمل فترة وجيزة في الفرع الجنوبي لنقابة المُهندسين الأميركيين. وربما يتذكَّر البعضُ النقصَ الرهيبَ في الطاقة البشريّة في تلك الأيام، خلال سنوات الحرب تلك، حتى أني أثرتُ إعجابَ مدير المُستَخدَمين بكوني قابلاً للاستخدام، فوضعني في نوبة المقبرة، وهي تُمثِّلُ الفترة ما بين الساعة ١١ مساءً والساعة ٧ صباحاً وفي تلك النوبة لم يكن هناك غيرنا نحن الاثنين في غرفة المكتب، شابٌ ضخمُ الجثة خرجَ من مصحِ الأمراض العقلية قبل الأوان وأنا الذي لم أكن في ذلك الوقت قد تورَّطتُ مع أحد. وكان عملنا هو أن نتلقَّى رسائل مُشفَّرةً ونشعر باستلامها. وكانت تردُ على فتراتٍ في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل على المِبرَقة الكاتبة. وكان شريكي في العمل من النوع الصامت، المنعزل، كان بين حين وآخر يرمقني بنظراتٍ ملؤها الريبة النزّاعة إلى القتل. ولم يُفزعني ذلك قط، فقد كنتُ دائماً أشعرُ بالألفةِ مع أمثاله. وكانت هناك فسحةٌ كبيرةٌ من وقت الفراغ أمضيتُها في تأليف مسرحياتٍ قصيرةٍ وفي التجول على متن دراجة، ونزلتُ في جمعية الشبان المسيحيين، وشاركني الغرفةَ مراهقٌ كان يعملُ كنادلٍ في فندقٍ كبير. وكنا نعودُ إلى غرفتنا في الجمعية في وقتٍ واحدٍ تقريباً، وفي صباح كل يوم كان يُقلِّبُ جيوبه ويُغطي الأرضَ بأوراقٍ ماليةٍ تلقَّاها كإكراميات، من فئات الخمسات، والعشرات، والعشرينات - وبدا أنَّ سياسة زمن الحرب الاقتصادية كانت ناجحة في تلك الأيام، خاصةً بالنسبة إلى العاملين في الفنادق التي تجذب المؤتمرات.

ولكن في نقابة المهندسين الأميركيين تدهورت الأمورُ في نوبة المقبرة. وكنت أنا من جهة وشريكي في العمل من جهةٍ أخرى يغرق كلٌ منا في عالم أحلامه الخاصة.

وأخذ رئيسنا في العمل يتوسَّلُ إلينا كي لا نُرغمه على طردنا، واستمرت هذه الحال مدة ثلاثة أشهر إلى أن تلقينا رسالةً على جانب كبير من الأهمية على المبرقَة الكاتبة وأفسدناها بشكلٍ كامل، فارتأى رئيسنا أنه من الأفضل أن أذهب وأرعى خدمات المجانين جنوناً مطبقاً.

* * *

سأتحدَّثُ الآن عن العمليات الجراحية التي كنت أجريها لعيني بين حينٍ وآخر منذ سن التاسعة والعشرين وحتى الرابعة والثلاثين. لم يكن لديَّ Blue Shield ولا ضمان صحي ولكن كان هناك في نيويورك طبيب عيون يوافق عن طيب خاطر على أن يُجري عمليات إعتام عدسة العين هذه بالدَين. القوانين كانت تقول إنَّ تكاليف العملية الجراحية الواحدة تكلّفُ مائة دولار. لكنَّ هذا الطبيب الطيِّب لم يضغط عليَّ في الدفع ولم أدفع له إلا بعد أن أصبتُ نجاحاً واسعاً في عام ١٩٤٥.

الأمر الغريب هو أن أُصابَ بإعتام عدسة العين - أصاب عيني اليُسرى ولم أولِه أي انتباه إلى أن ناداني أحدهم في إحدى الحفلات بـ " يا ذا العين البيضاء " - وأنا ما أزال في عشرينات عمري! غير أنَّ أموراً غريبةً وفريدةً من نوعها كانت تقعُ لي طوال سنيَّ حياتي، في شبابي كما في " شيخوختي " التي تحثُّ خطاها.

كانت عمليات إعتام عدسة العين تُجرى في تلك الأيام باستخدام إبرةٍ وبوضع مُخدِّرٍ موضعي، بعد شدِّ الرأس وكامل الجسم بثباتٍ إلى طاولة، والمُخاطرة الكبرى هي أنك سوف تتقيَّأ بعنفٍ أثناء إجراء هذه العملية، وهكذا تهتزُّ الإبرةُ وهي مُخترقةٌ القَزَحية وتدخلُ العدسةَ، وهي مادةٌ مائعة في العين الصحيحة لكنها تتقسَّى مع تفشِّي الإعتام. وهذا التقسِّي المُستفحِل هو ما يجعلُ عدسة العين تتَّخذُ طيفاً من لونٍ مائلٍ إلى الرمادي يُصبحُ أخيراً أقربَ إلى اللون الأبيض، ولسوء الحظ، في حالتي، كانت عينايَ دائماً هما القَسَمَة الأشد تأثيراً عندي.

قال طبيبُ العيون إنه لابدَّ أني قد أُصِبتُ في طفولتي بجُرحٍ في عيني اليُسرى، التي تُبدي الآن ردَّة فعلٍ من خلال هذا الإعتام في العدسة، وقد كنتُ بالفعل قد تلقَّيتُ جُرحاً أثناء لعبة طفوليةٍ تتَّسِمُ بالخشونة الشديدة. حدث ذلك في ميسيسيبي حين كنا نلعبُ لعبة الهنود والمستوطنين البيض الأوائل. وكان الهنودُ الحُمرُ يُحاصرون المستوطنين

البيض الموجودين داخل الكوخ. وكنتُ طفلاً عدوانياً وتولَّيتُ أمرَ إخراج المجموعة من الكوخ فنلتُ ضربةً على عيني اليُسرى على يدِ " هنديّ " يحملُ عصا، وكانت ضربةً عنيفة. وظلّتْ عيني متورِّمةً عدة أيام، ولكن لم تظهر أية دلالة على وجود تلفٍ دائمٍ في العين حتى أواخر عشرينات عمري.

في حالتي، النادرة والخاصة، طبعاً، استغرقَت إزالة عدسة عيني اليُسرى ثلاث عمليات جراحية بالإبرة، وفي كل مرة كنتُ أتقيَّأ أثناء إجراء العملية الجراحية. وأكادُ أختنقُ عند التقيُّؤ، ولم يكن أمامي خيارٌ غير أن أبتلعه. وأسوأ تلك العمليات الجراحية أُجريَتْ لي في كلية الطب مجاناً. لم يُكلِّفوني أي شيء لأني وافقتُ على أن تُجرى لي أمام فصلٍ من طلاب طب العيون، الذين تحلّقوا جميعاً حول طاولة العمليات، بينما ألقى الأستاذ الجرّاحُ محاضرةً حول ما كان يفعله، عن كل الإجراءات المسرحية.

" إنَّ المريضَ الآن هو في الوضعيةِ الصحيحة. نشُدُّ الأربطةَ، أكثر، أكثر، لأنَّ لديه تاريخاً طويلاً من التقيُّؤ أثناء إجراء العملية. لقد ضمنَّا أنَّ العينين لن تطرفا، والبؤبؤ مُخدَّرٌ الآن. الإبرةُ توشكُ الآن أن تخترقَ القَزَحيّة. إنها الآن داخل القَزَحية وقد اخترَقَتْ الآن العَدَسَة. أوه، أوه، إنه يتقيَّأ، أيتها المرضة، حالةُ اختناق، أنبوب داخل المري. يا إلهي، يا له من مريض. أقصد أنها حالةٌ جيدةٌ جداً، طبعاً، لكنَّها غريبةٌ من نوعها ".

(أنا طبعاً لا أنقلُ عنه حرفياً، ولكن يمكنك أن تفهم الفكرةَ إذا أردتَ)

لقد كنتُ شاباً، وموهوباً، ومُعدَماً، ومُصاباً بإعتام عدسة العين اليُسرى، وبمعدةٍ حسّاسة. أه، حسنٌ، لا تزالُ عينايَ تُشكّلان قَسَمَةً مميَّزة...

* * *

ذات مساء كنتُ أشعرُ بالنشاط، فانطلقنا نجوبُ الشوارع، هنا في نيو أورلينز. وهمستُ لرفيقي أني " مهتاج "، فذهبنا من جديد إلى ذلك المربّعْ الليلي الشائن بشكلٍ بهيج في شارع بوربون والذي يُقدِّمُ عرضَ الفتية الخليعين العرايا - وكلهم متحرِّشون وبعضهم جميل حقاً. والفتى الذي جذبني أكثر من غيره كان يخدم طاولتنا - والفتية الخليعون يعملون كنُدُلٍ وكمُتحرِّشين. وعلى الفور سألته عن اسمه. إنه لايل. بدا مفتقراً قليلاً إلى التغذية - ولكن تناسق جسمه جميل، وله وجه حلو، واضح القسمات، ومؤخَّرة ملساء، حَسَنة التكوين. والفتيةُ لا يرتدون غير الزيّ الخيطي(٢٩) - بحيث

يستطيع المرء أن يتأكَّد مما سيحصل عليه. إلا أني أنصحُ بتجنُّب الولوج، لأنهم في الغالب مُصابون بالسيلان في شرجهم. وأنصحُ أيضاً بأن تدفعهم إلى الاستحمام بما أنَّ ساعات عملهم طويلة ويتعرَّقون كثيراً. وأنصحُ بأن تستعمل مُبيداً حَشَرياً خاصاً بالعانة مثل ٢٠٠ - A.

هذا الشابُ المدعو لايل ضربَ لي موعداً في الساعة الخامسة صباحاً ووصلَ ووقفَ تحت الشُرفة قُبيلَ بدء عملي في الرابعة والنصف. رنَّ الجرسَ وولجَ من البوابة، لكني خرجتُ إلى الشُرفة وخاطبتُه وهو في الأسفل قائلاً إني قد استيقظت لتوي ورجوتُه أن يعودَ بعد ثلاث ساعات بداعي العمل. وسألته إن كان بحاجةٍ إلى نقود فأجابَ بالنفي وانطلقَ بكل لطفٍ مختفياً داخل غَبَش قُبيل الفجر في منطقة دومين، بعد أن وَعَدَ بأن يعودَ في نحو الساعة الثامنة صباحاً.

كان يبدو صالحاً للزواج الهادئ وله صوت رخيٌ ذو لكنةٍ جنوبيّة - ولم أنوِ أن أتمادى في علاقتنا الحميمة لأكثر من حدّ اللمس - وأقصد بذلك المعرفة الطاهرة نسبياً لسطح بشرته بأصابعي. وهذا الحصر مُتعقِّل بشكلٍ واضحٍ بما أني شديد الحساسية للبنسلين وآخر ما أرغبُ فيه هو أن أُصابَ بالسيلان.

* * *

استُخدمَ صديقٌ لي في عام ١٩٤٣ في دار مسرح أولد ستراند الكائن في برودواي كمُرشد للنظّارة، ولما علِمَ أني أتنقَّلُ بين ارتباطات مُجزية أخبرني أنَّ مسرحَ الستراند يحتاجُ إلى مُرشِدٍ جديدٍ وأنَّ في إمكاني أن أحصلَ على العمل إذا كانت بزَّة سَلَفي الرسمية تناسبني. ولحُسن الحظ تصادَفَ أن كان طول ذلك المُرشِد السابق يقترب من طولي ولنا البُنية ذاتها. وأعطوني العمل. والذي جذبني إلى العمل في الستراند كان فيلم الحرب العالمية الثانية الكلاسيكي " كازابلانكا "، والذي وضعَ كُلاً من انغريد برغمَن وهمفري بوغارد على أول سُلَّم الشهرة، وكلاهما أبدعَ. وكان من بين الممثلين أيضاً ذلك " السمين " الفاتن والرائع سيدني غرينستريت وبيتر لور وبول هنرايد، وكانت هناك دولي ويلسن التي تعزفُ وتغني تلك الأغنية القديمة الخالدة " مع مرور الزمن ". وفي تلك الأيام، ومع وجود عنصر جذبٍ كذاك، كانت دور السينما في برودواي تزدحمُ بكل معنى الكلمة ويضطر المرشدون إلى المقاعِد إلى أن يُحدِّدوا ممرات

ما بين الكراسي بحبلٍ لكي يكبحَ الروادَ ريثما يستقرُّون في مقاعدهم. في أول الأمر كان عملي أن أحرسَ المدخلَ إلى أحد تلك الممرات، وفي إحدى الحفلات المسائية اقتحمتْ سيدةٌ بدينةٌ بشكلٍ هائل حبلَ المخمل وبدأتْ تندفعُ على الممر، وكان واضحاً أنها تريدُ أن تحتلَّ مقعداً أمام الشاشة، وحين حاولتُ أن أمنعها ضربتني على رأسي بحقيبة يدها التي بدت وكأنها تحتوي قوالب ذهب. والأمرُ الآخرُ الذي أتذكّره هو أني بقيتُ مُستخدَماً في الستراند غير أنَّ موقعي تبدَّلَ فأصبحَ عند المدخل، تحت بقعةٍ من الضوء، أُوجِّه حركةَ المرور وأنا أرتدي قفازاً أبيض. " من هنا، أيتها السيدات والسادة، من هنا، من فضلكم " و " ستكون هناك فترةُ انتظارٍ قصيرةٍ بالنسبةِ إلى كل المقاعد ". وخلال فترة عرض فيلم " كازابلانكا " التي امتدَّتْ عدة أشهرٍ، كنتُ، بصورةٍ ما، قادراً دائماً على أن أسمعَ أغنية دولي ويلسن " مع مرور الزمن ".

كان أجري هو سبعة عشر دولاراً في الأسبوع، وكان يُغطي أجرةَ غُرفتي في جمعية الشبان المسيحيين، ويتبقَّى معي سبعة دولارات للطعام، لكني أحببتُ عملي...

وذات يوم استدعتني الآنسة وود إلى مكتبها وأبلغتني بأنه قد تمَّ بيعي إلى شركة مترو غولدن ماير. وكانت صفقةً شاملة. وهذه الصفقة الإنسانية كانت تتضمَّنُ لميول أيرز وراقصاً شاباً، اسمه يوجين لورينغ، وهو أول مَنْ ابتدعَ نسخةَ الباليه من دور بيلي الفتى.

قالت أودري " سوف تحصل على مائتين وخمسين دولاراً "

هتفتُ، وقد جحظَتْ عيناي للربح المُرتَقَبْ " مائتان وخمسون في الشهر! "، فقالت" كلا، بل مائتان وخمسون في الأسبوع ". ثم شعرتُ أنَّ في الأمرِ تحايُلاً، وكنتُ مُحقاً، لقد كان هناك الكثير من التحايلات. فقد كان عليَّ أن أقومَ بكتابة سيناريو روايةٍ فظيعةٍ لكي تُحوِّل بسحرِ ساحر إلى وسيلةٍ لرفع نجمِ سيدةٍ شابة عجزَتْ عن أنْ تشُقَّ طريقها بخلع ثوبها الكشمير الملتصقِ بجسمها إلا أنها كانت صديقةً حميمةً للمنتج الذي ورَّطني وسرعان ما أخبروني أنَّ الحوارَ الذي وضَعتُهُ يفوقُ فهمَ السيدة الشابة على الرغم من أني تجنَّبتُ أسلوبَ الكتابةِ الذي يتَّسمُ بأي قدرٍ من الاصطفاء أو بالكلمات المتعددة المقاطع: ثم طُلِبَ مني أم أكتبَ نصاً يرفعُ طفلةً إلى مصافِّ النجوم فرضخت.

ثم علمتُ، وأنا غير مُصدِّقٍ بأي حال - على الرغم من أنه صحيحٌ تماماً - أنَّ لديَّ فترةَ خيار(٢٠) ستة أشهر سواء أكنتُ قد عُيِّنتُ أم لا.

اشتريتُ دراجةً ناريةً خفيفةً مستعملةً على الرغم من احتجاجات صديقي الجديد، كريستوفر إشروود، القلقة. وكنتُ قد قابلتُ كريس بُعيدَ وصولي إلى هوليوود، وكنتُ أحملُ رسالةَ تعريفٍ له أعطانيها أحدُ أوائل المناصرين لي، واسمه لينكولن كيرستاين. واكتشفت أن كريستوفر كان ينزلُ في ديرٍ في هوليوود. فتوجَّهتُ إلى هناك وقرعتُ البابَ ففتحَ لي وقلتُ " أريدُ أن أُقابلَ كريستوفر إشروود "، فوضعَ أحدهم إصبعه على فمه وقامَ بإشارةٍ تفيدُ بأنْ أنتظر ومن ثم خرج كريستوفر إليّ. قال " إننا نقومُ بجلسة تأمُّل. تعالَ وتأمَّلْ معنا ". دخلتُ وجلست. لم أجد نفسي أتأمَّلُ، لكني اكتفيتُ بالجلوس. ورأيتُ أنَّ هذا اللقاء يؤسَفُ له بالنسبة إلى رجلٍ كنتُ أكنُّ له أشد الإعجاب. وفيما بعد اتصلَ هاتفياً بي وأصبحنا صديقين حميمين. وكنا نخرجُ إلى رصيف ميناء سانتا مونيكا لنتناولَ وجبةً من السمك. حدثَ ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية حين كان كلُ شيء مُعتماً. لقد كان يربطُ بيننا رباطٌ عاطفيٌّ لكنَّ الأمرَ لم يصل إلى حد علاقة الحب العنيف: بدل ذلك تحوَّلتْ إلى صداقةٍ عظيمة، وكانت إحدى علاقات الصداقة الدائمة في حياتي، ومن أهمّها.

* * *

بعد أن وصلتُ إلى كاليفورنيا بفترةٍ قصيرةٍ لأباشرَ عملي في طاحونة السينما، وجدتُ في انتظاري ما يُعتَبَرُ في سانتا مونيكا بالمسكن المثالي. كان عبارةً عن شقةٍ من غرفتَين تطلُّ على جادَّة أوشن تقعُ في مبنى خشبيَ كبير يُدعى " الجنة "، تديره امرأةٌ رائعةٌ، نصفُ غجرية، مغلولةٌ بعلاقة زواجٍ من رجلٍ ضئيل، بغيض، ينهشه مرضُ السرطان. ويمكنك أن تجدَ وصفاً لها، ولزوجها الحقير والغاضب، في إحدى أفضل قصصي القصيرة المعنونة " حشيَّةٌ بالقُربِ من البقعة المزروعة بالبندورة "، أما بالنسبة إلى ذلك الصيف فلم يكن يقلّ بهاءً عن أوقات صيفٍ تاليةٍ أمضيتُها في روما.

كما كنتُ قد ذكرتُ في موقعٍ سابقٍ سرعان ما تحرَّرتُ من عملي في مشاريع غير مناسبةٍ في شركة مترو غولدن ماير، غير أني بقيتُ في جدولِ الرواتب على امتداد خيار الأشهر الستة بأكملها.

كانت شقَّتي الصغيرة شديدة القُربِ من أجراف سانتا مونيكا، تلك النتوءات الصخرية الشاهقة التي تطلُّ على شاطئ المحيط الهادئ المُرصَّعِ بالمنازل الفخمة التي تخصُّ نجوم السينما الساطعة من أمثال ماريون ديفيز.

في ذلك الوقت قمت بتصرُّفٍ عاقل فأبدلتُ دراجتي النارية الخفيفة بأخرى عادية، وكنتُ في مساء كل يوم وبعد تناول طعام العشاء أمتطي دراجتي فوق الأجراف، التي كانت عبارةً عن فُسحةِ أرضٍ مزروعةٍ بأشجار النخيل المَلَكي ويواجهها حاجزٌ حجريٌ طويلٌ، ومُنحنٍ: أحياناً كان يوجدُ على طولِ هذا الدرب تعريشاتٌ صغيرةٌ ومُعتزلاتٌ ظليلةٌ. وفي ذلك الصيف كان ساحلُ كاليفورنيا يُعتَّمُ ليلاً، على امتداد سبعةِ أميالٍ داخل اليابسة، خوفاً من الغارات الجوية اليابانية. وكانت الأجرافُ تعجُّ بالجنود الشُبان، ويجب أن أقولَ إنهم كانوا يَغيرونَ عليَّ إيجابياً، وحين كنتُ أمرُّ بدراجتي بِمَنْ يروق لعيني الداعرة، أدورُ بدراجتي حوله وأقتربُ منه لأنضمَّ إلى افتتانه الكاذب بالمشهد الطبيعي.

للتو أقدحُ عودَ ثقابٍ لأُشعلَ لُفافة. فإذا أكَّدَ ضوءُ عودِ الثقاب انطباعي الأول عن مفاتنه، أُخبره بأنَّ لديَّ غرفةً لا تبعد كثيراً، وغالباً ما يقبل دعوتي. وإذا لم يُرضني أولُ وثاني مَنْ أقابلهم، أخرجُ سعياً وراء ثالث. وكان بينهم مَنْ لا أنساهم، خاصةً جنديٌ شاذٌ من البحرية. ولم أكن لأصدِّق ما فعلتُ لو لمْ أُدوِّنه في يومياتي عن ذلك الصيف، لكني خرقتُهُ سبع مراتٍ في تلك الليلة.

كنتُ أذهبُ إلى هوليوود في ليالٍ عِدة لأشاهدَ فيلماً سينمائياً. وكنتُ أعودُ بالحافلة، وقبل أن تنطفئ الأضواء الداخلية ألمحُ أحدهم في الحافلة وإلى جواره مقعدٌ خال: حين كانت تُطفأ الأضواء تَقيُّداً بإجراء التعتيم، أجلسُ في المقعد الشاغر السالف الذِكر إلى جانبه. وبعد هنيهات تسمحُ ركبتي اليُمنى لنفسها بالارتطام بركبته اليسرى. فإذا سمحَ للاحتكاك بالاستمرار أعلمُ أنه لن يكونَ ضرورياً، حين أتوجَّه إلى سانتا مونيكا، أنْ ألجأ إلى الأجراف.

كانت صاحبة المنزل الغجرية راضيةً كُلياً عن مغامراتي هذه، بل إنها في الواقع كانت تمزحُ حولها بإحساسٍ عظيم بالفكاهة. وكانت أصلاً قد استبدلتْ زوجها الحقير الكريه في السرير بملاكمٍ شاب، وكانت آخر اهتماماتها المبادئ الأخلاقية في ممارسة الجنس.

كنتُ في الصباح الباكر من كل يوم أُعِدُّ لنفسي قهوةً مُركَّزةً جداً ومُرَّةً في مكانٍ هو غرفةُ جلوسٍ ومطبخ معاً مُلاصِق لغرفة النوم المُطهَّرة. وتأتي صاحبةُ المنزل لتشاركني

شُربَ القهوة. كانت مشتركةً في صحيفة " الديلي ووكر "، فتقرأ لي أخباراً منها وهي تهزأ وتضحكُ ضحكاً صاخباً حول " La Vie horizantale" (الحياة المتوافقة)، حياتها وحياتي. ولحسن الحظ أنَّ النظامَ الشيوعي لم يجذبني إليه قط ولذلك لم يؤثِّر بي ذلك الجانب من طبيعتها الرحبة. وكنتُ حالما أشربُ الكوبَ الثاني من القهوة، أصرفها عني وأنكبُّ مثل الجحيم المُستعِر على العمل الصباحي. وفي تلك الأيام لم يكن من المُستغرَب أن أعملَ مدة ست ساعات أو ثمانية متواصلة: في نهايتها كنتُ أتناولُ وجبةً من السمك على رصيف المرفأ، وأعاينُ شبّانَ شاطئ تربية العضلات ثم أمتطي دراجتي إلى أحد النوادي التي انتسبتُ إليها، ويقعُ في منتصف الطريق إلى البندقية (Venice) والذي يحتوي بركةَ سباحةٍ كبيرة.

لقد كان صعباً عليَّ أن أبتكرَ صيفاً أشدَّ إشباعاً لي من صيف ذلك العام، خاصةً مع وجودِ أصدقاء مثل إشروود، ووليم أيرز ويوجين لوبينغ. وقد وصلتْ مارغو جونز في وقتٍ لاحق لكي تُنتِجَ مسرحية " لقد لمستَني! " على مسرح باسادينا. وكثيراً ما كنتُ أقضي الليلَ في كوخها في باسادينا. لم يكن يحتوي إلا على سريرين، وعندما وصل ناشرٌ شاب جذَّاب ينشرُ الشعرَ، أعطته الأريكة لينامَ عليها ذات ليلة.

بعد أن أُطفأتُ الأنوار، اقتربتُ من باب غرفة الجلوس ودعوتُه لكي يأخذ سريري أو ليشاركني فيه: فرفضَ الشرفَ بلطفٍ غامر.

لم أكن دائماً أرفضُ بذلك الشكل المهذَّب، وأذكرُ أني كنتُ ذات ليلة موجوداً في حانة في هوليوود، ورحتُ أحدِّقُ إلى بحَّار شاب جذَّاب وأخيراً لم يعُد في إمكانه أن يتجاهل المعنى المُتضمَّن، فحطَّ كأس البيرة وانهالَ عليَّ قائلاً " إن شعوري هذه الليلة هو أنَّ في وسعي أن أنيكَ حيَّة "

إنني فخور إذ أقول إني أخبرتُه أن يذهب ويتصيَّد الحيَّات...

* * *

سوف أدوِّن بعض الملاحظات عن الأمسية الأخيرة، بينما أستعرضُ الماضي وأجلبُ إلى سطح " حواسّي المتوحشة " بعض المواد الأكثر أهمية بالنسبة إلى حياتي.

دعاني مُنتج لمسارح خارج برودواي للانضمام إليه لتناول العشاء في فاير آيلند. كان يُحسِن صُنع أطيب الأطباق المعكرونة التي أكلتُها في الولايات المتحدة. وقد

طمأنني إلى توفُّر تسالٍ أخرى، من بينها رقصة كبرى يؤديها الشبان مع بعضهم، وأنا أستمتعَ بالرقص مع الشبان منذ ذلك الصيف الغابر في عام ١٩٤٥ في مكسيكو سيتي حين تعلّمت الخطوات وأصبحت، لذلك السبب، بمثابة جميلة حفلات الرقص وشُرب التكيلا في نهاية الأسبوع -وسأتحدَّث عن هذا أكثر لاحقاً.

ولكن بينما كنت أستعدُّ لقصف تلك الليلة الواحدة في فاير آيلند، ذكّرني اتصال هاتفي بأنَّ عليَّ أن أستمع إلى ممثلين شابين على قدرٍ فائق من الموهبة. أحدهما ذكَرٌ والأخرى أنثى، وكلاهما حائز على جائزة كلارتس دروينت في مسكن بيتر غلنفيل المُترف.

كانت تلك إحدى القراءات الكثيرة جداً لمسرحية " صرخة "، على الرغم من أنَّ الممثلة الشابة كانت موهوبة تماماً. وأخيراً أدركنا، وكيل أعمالي بيل بارنز وأنا، أنَّ هذه المسرحية لن تُعرَض أبداً على مسارح برودواي ولا في ويست إند في لندن بدون توفُّر " نجمين " يمثّلان دَورَيّ فيليس وكلير، إذ مهما كانت جودة قراءة الشُبان والموهوبين الذين يفتقرون إلى حضور النجوم، فإنَّ المسرحية لا تصعد. صحيح أنها رائعة في بعض الأجزاء، لكنها لا تستمرّ هكذا حتى النهاية. لماذا؟ لأنه، جزئياً، لا يوجد إلا ممثِّلين اثنين في العمل الطويل كله. كما تذكُر كلير لأخيها فيليس: " إنَّ هذا تدريب على عرض يؤديه نجمان من الممثلين " - إنني، في الواقع، أعجزُ أحياناً عن أن أكونَ صادقاً صدقاً تاماً بشأن عملي، وحتى الآن بعد أن جعلَ مرورُ السنين هذا الصدق مؤلماً.

مع ذلك لستُ متشائماً بشأن المسرحية. لقد أعادَ غلنفيل الكثير من المواد التي كنتُ قد استأصلتُها ببراعة متميِّزة خلال حفلة شيكاغو الصاخبة. والآن يجب أن أقتطع منها مرةً أخرى سواء أوافقَ بيتر أم لم يوافق.

٥

أعتقد أنَّ أوراق الشجر لا تعرفُ أنها سوف تتحوَّل إلى طعامٍ للَّهب وكذلك الأمر بالنسبة إلى أي إنسان آخر اشترك في بروفات مسرحية " مجموعة الحيوانات الزجاجية " التي عُرِضَتْ في شيكاغو. وفي الحقيقة إنَّ هذا الكلام ينطبق على الجميع ماعدا على جولي هيدن، التي كانت دائماً في حالةٍ ذهنيةٍ وروحيّةٍ منتشية، على الأقلّ هذا ما بدا لي.

المسرحية أخرجها إيدي داولينغ ولعبَ فيها أيضاً دور توم، كانت تساعده في عمله المرحومة مارغو جونز، وقد موَّلَ المسرحية شخصية غامضة تُدعى لويس. ج سينغر كان يمتلك سلسلة من الفنادق المنحطَّة المُربحة. وهو لم يكن يحملُ توظيفه لأمواله في المسرحية على محمل الجدِّية الكاملة - ولم يكن مبلغاً كبيراً جداً إذا ما قورنَ بما يوظِّفه في سلسلة الفنادق المُنحطَّة - ولكن حين كان يحضر البروفات، وقد فعلَ ذلك مرة واحدة فقط، كادَ يموتُ بالسكتة الدماغية حين رأى ما رأى وسمعَ ما سمع في قاعة البروفات تلك.

لم يبدُ أنَّ لوريت تيلر تحفظ دورها كأماندا وينغفيلد، لم تحفظ إلا جزءاً صغيراً منه والجزء الذي لم تحفظه كانت ما تزال تُلقيه باللكنة الجنوبية التي اكتسبتْها من خادمةٍ منزلية منذ زمن بعيد. وكان انتباهها الفاتن للعروض الأخرى يبدو وكأنه من أعراض الجنون، وكذا كان سلوك العزيزة جولي المنتشي، والتي لعبتْ دور لورا.

كنتُ جالساً في إحدى الزوايا أتساءلُ أي عملٍ حقيرٍ آخر ينتظرني حين سمعتُ أحدهم يصرخُ فجأةً. كان الغامضُ السيد سنغر. " إيدي، إيدي، كيف تفعل هذا بي! "

يبدو أنه شعرَ أنَّ العرضَ برمَّتِه ليس إلا مزحة سمجة كان إيدي داولينغ يُحضِّرها له.

طبعاً هذه الصرخة اليائسة أوقفَتْ البروفات مؤقتاً. ولم يُسبِّب هذا أي ذُعر للوريت، ولا أدهشني كثيراً.

خرجنا، لوريت ومارغو وأنا، لنتناول غداءً مُبكِّراً في مكانٍ مجاورٍ وقد دُهِشنا مارغو وأنا لمرح لوريت. فلم تكن قط قد بدت بمثل ذلك المزاج الحَسَن، على الرغم من أني لا أتذكَّر أني رأيتُها مرةً غارقةً في الحزن، مهما كان ذلك مُلائماً للمناسبة. إنَّ لوريت، في الواقع، كانت تعلمُ أنها ليست مضطرَّةً إلى أن تُلقي دورها إلا بعد أن يُرفَع الستار عن المسرحية، وهكذا كانت تُراقبُ الآخرين، وتلاحظُ، وتنتظر. لكننا في ذلك الوقت لم نكن نعلم ذلك، وحَسِبتُ أنها لم تحفظ دورها، وكذا اعتقدَ الجميع. (قال داولينغ: " آه، يا للمسكينة، يا للسيدة المسكينة. ذهنها رخو، لا تستطيع أن تحفظ دورها ")

كانت جولي مُغرمةً بالمرحوم جورج جين ناثان وهكذا أخذَ السيد ناثان يولي مسرحية" مجموعة الحيوانات... " اهتماماً خاصاً، مُقدِّراً تفانيها في العمل، وفي تلك الليلة انضمَّ إلى إيدي وألَّفا معاً من أجل إيدي مشهداً لسكِّير اعتبرا أنه وسيلةُ الإنقاذ الوحيدة الممكنة للمسرحية. وهذا المشهد كان يضمُّ أشياءَ مثل قوارير حمراء وبيضاء وزرقاء، وأغنيةً لإيدي - " حبيبتي الحزينة " - وأشياء أخرى لا يصُّحُ ذكرُها.

"مشهد السكِّير " هذا، الذي من الواضح أنه وضِعَ في حالةٍ شبيهةٍ بالتي يُعبِّر عنها، أُعطِيَ إليَّ في اليوم التالي، عندما تسلَّلتُ لحضورِ البروفات، كأمرٍ واقع fait accompli.

قلتُ لنفسي " هذه نهاية الأحياء والأموات "

دخلتُ في جولةِ تداول مع مارغو. واتَّفَقَتْ معي بشأن مشهد السكِّير. وزيادة على ذلك قالت إنها سوف تواجه السيد سينغر الذي لم يعُد غامضاً والمسكين إيدي باحتجاجٍ من النوع الذي أكسبَها لقبَ " إعصار تكساس ".

كالمعتاد في مثل تلك الحالات، تمَّ التوصُّل إلى تسويةٍ. فقلتُ إنهم سيحصلون على مشهد السكِّير الذي يريدون لكني لن أقبل بأي اشتراك في تأليفه من أحد.

وكتبتُهُ ولا يزالُ موجوداً في المخطوط وأعتقدُ بصدقٍ أنه قد أضرَّ قليلاً بالمسرحية. بعد ذلك بيومٍ أو بيومين دعونا فريقَ التمثيل في مسرحية " النصر المُجنَّح" لحضور

عرضٍ تمهيدي، وذلك حين اكتشفنا ما تنوي لوريت أن تفعله. فهذه السيدة كانت تحفظُ الدورَ كاملاً - وزيادة عليه. كانت تُضيفُ أسطُراً إلى المسرحية يجب حذفُها، لأنها ببساطةٍ من اختراع لوريت. كانت إنسانة عظيمة، عظيمة. لم يعُد يوجد مثيلات لها. مورين سْتبلتُن قريبة منها، وآنّا مانياني كانت كذلك. وقد قُدِّمَ عرضٌ رائعٌ في أوروبا لمسرحية " عصفور عذب " من بطولة إدفيغ فويّيه، الممثلة الفرنسية العظيمة التي تلقَّتْ تدريبها في الكوميدي فرانسيز، وكانت أفضل حتى من جيرالدين بيج.

إنَّ فويّيه، وآنّا مانياني، ولوريت تيلر هنَّ ثلاثٌ من أعظم النساء اللواتي مثَّلنَ في مسرحياتي. ومن بين الممثلين الذكور، مارلون براندو هو الأروع. إني أعتقد أنه ربما أعظم الممثلين الأحياء قاطبة، أعتقدُ أنه أعظم من أوليفييه. لقد شاهدتُ فيلم " آخر تانغو في باريس " على مضض، لأني سمعتُ أنه إباحي. إنه ليس إباحياً، وأعتقدُ أن براندو قدَّمَ فيه أعظم ما رأيتُ له من أداء. وبول نيومن أيضاً جيد جداً؛ إنه يستوعبُ دوره ببطْء، لكنه حين يتوصَّلُ إلى الإحاطة به يؤدّيه بشكلٍ رائع.

* * *

والآن من الواضح أنَّ هذا " الشيء " قد تعاملَ حتى الآن في الغالب مع تقلُّبات سنوات السذاجة وقلَّة الخِبرة من عمري ككاتب وآمل في ألاّ يبدو أنَّ من ميزاتي أن أحذفَ الكثيرَ من طَبيعتي الأكثر مَرَحاً. إنني بحقّ لستُ كارهاً للبشر أو وعاءً مملوءاً بالكآبة. إنني في الحقيقة شديد الشبه جداً بمُهرِّج، وأكادُ أكونُ هزلياً بالإكراه، في سلوكي الاجتماعي. قد تكون الفكاهة أحياناً قاتمة، لكنَّها تظلُّ فكاهة. وهذه الحقيقة استغلَّها (لا أدري إنْ كان ذلك لمصلحتي أو لإيذائي) مُحقِّقون صحفيون كُثُر خلال السنوات الأخيرة. ربما ما كان يجب أن أستخدم كلمة " استغلّوا " لأصفَ بها كل الأمثلة. وأشكُّ في أنه كان دائماً أمرٌ غريزيٌ بالنسبةِ إليّ، عند إجراء مقابلة صحفية معي، أن أبالغ في سلوكي وأبدو شائناً لكي أوفِّر " موضوعاً جيداً للكلام ". والسبب؟ أعتقد أنه حاجتي إلى إقناع العالم بأني لا أزالُ فعلاً موجوداً ولكي أجعل هذه الحقيقة موضع اهتمامِ الرأي العام وتسليته.

ذات مرة قابلتُ أستاذاً جليلاً في جامعة هارفرد وكنيتُهُ لانيير. وحين ذكرتُ له أني أنا أيضاً مُنحدِر من أول سلالة آل لانيير في الولايات المتحدة، والتي ربما ينبثقُ

منهـا آل لانيـيـر كلّهم الموجودين الآن، نظرَ إليّ نظرةً باردة وألقى على مسـمـعي هذه العبارة المُذلّة: " إنّ تفرُّعات عائلة لانيير مدهشةٌ وفظيعة "

لا مانعَ عندي في أن أتعرَّض للإذلال إذا صيغَ بهذا الشكل البارع.

كنتُ قد أنهيتُ كتابة مسرحية " مجموعة الحيوانات... " في منامة مدرسة القانون التابعة لجامعة هارفرد في شقة فتى جامح كنتُ قد قابلتُه في بروفنستاون في صيف عام ١٩٤٤. ذلك الفتى كان أحد " المتمرِّدين[٢١] " البدائيين - أقصد أنه كان متمرِّداً قبل أن يكون هناك " متمردون "، كان فتى بهيميَّ الشكلِ والحركات، جميلاً، ذا شعرٍ أسود وعينين فاتحتيّ اللون وفأفأةٍ في النُطق. وقد ظهرَ الفتى في بلدة. ب، وقيلَ إنه مستقيم جنسياً. لكنني أحضرتُهُ مرةً إلى مقصورتي - لا أستطيعُ أن أقولَ إنه أبدى استجابةً مباشرة لكنه أثبتَ أنه يتمتَّعُ بطبيعةٍ عابثةٍ لعوب ودِّية. كان الصيف يقتربُ من نهايته ولم أكن قد انتهيتُ بعد من وضع آخر نسخةٍ من " مجموعة الحيوانات... " ولم أكن على أتمّ الاستعداد للعودة بها إلى مانهاتن. وهذا الفتى، بيل، كان لديه شلّةُ أصدقاء في هارفرد وكانوا جميعاً من الشواذ بكل المعاني، وبدرجاتٍ مختلفة. فقد حاولَ أحدهم أن يحزَّ شرايين رسغيه قبل ذلك ببضعة أيام - لا أزالُ أذكرُ كيف جعلتْ منه هذه المحاولة للانتحار مشهوراً بين جماعته وكيف كان يعرضُ بفخرٍ حيّيّ ندوبه بعد فك الأربطة عن رسغيه.

في الفترة التي تعرَّفتُ خلالها على بيل كان يُمارسُ التلصُّصَ المختلس - كانت تلك عادته الجنسية السيئة، أو ممارسته إذا شئت. شيء مُضحك. لقد كان يملُكُ خريطةً لبلدة كامبريدج، وقد وضعَ فيها علامة x على كلّ ظلّة نافذة يمكن أن تكشفَ عن مشهدٍ مثيرٍ للتلصُّص. كان ينطلقُ بالضبط عند منتصف الليل في جولته المُحدَّدة بعنايةٍ على الخريطة ويعودُ، وهو يتأرجحُ، قرابة الساعة الثانية صباحاً - أحياناً حاملاً تقارير جذلةٍ عن المشاهد الحميمة التي يكونُ قد رآها عبر تلك النوافذ المُسعدَة.

أعتقدُ أنَّ بيل أخذَ بعد ذلك بعام أو اثنين يقومُ بزيارتي في أجنحة فنادق مختلفة من نيويورك، قبل أن أتَّخذ لي شقَّةً في مانهاتن وأسكنها مع فرانكي مرلو وربما بعد ذلك - وفي نحو تلك الفترة كان بيل قد خرجَ من قُمقمه منذ وقت طويل وكنتَ تجده دائماً ثملاً، لكنه ثمِلٌ جيد، أقصد أنه سكّيرٌ يفيضُ بالحيوية والمرح، وكان مُضاجِعاً جيداً.

ماتَ بصورةٍ صاعقة. كان يميلُ من قطارٍ نَفَقيٍّ في نيويورك، وكان يتدلّى كثيراً وشديد السُكر، وهو يصرخُ مودِّعاً أصدقاءه الواقفين على الرصيف، وإذا بالقطار يندفعُ منطلقاً.

قُطِعَ رأسه بعامود مُقامٍ داخل النفق.

* * *

في ليلة افتتاح " مجموعة الحيوانات... " في برودواي، أخذ الممثلون ينحنون للجمهور مراراً وتكراراً، وأخيراً حاولوا أن يدفعوا بي إلى الظهور على خشبة المسرح. كنتُ جالساً في الصف الرابع من الصالة، فمدَّ أحدهم يده لي وصعدتُ إلى الخشبة . تولاني الارتباك، وأعتقد أني لم أشعر بأي إحساسٍ عظيم بالانتصار. أعتقد أنَّ الكتابةَ هي على الدوام سعيٌ وراءَ طريدةٍ مُتملِّصةٍ، ولا تتوصَّل أبداً إلى اصطيادها.

في المقالة المُرافقة لإحدى طبعات مسرحية " قطة على سطحٍ من الصفيح الساخن " تحدثتُ بصدقٍ شديدٍ عن هدفي من الكتابة، وما أريد أن أفعله. ذلك الهدف هو بصورةٍ ما أن أقبضَ على خاصيّة الوجود السريعة الزوال دائماً. وحين أفعلُ ذلك، أكون قد أنجزتُ شيئاً ذا قيمة، لكني أعتقد أني حقَّقتُ ذلك عدداً قليلاً نسبياً من المرات بالمقارنة مع المحاولات التي قمتُ بها. وأنا ليس لديَ أي حسٍ بأني فنان أُنجَزَ ذاتَه. وحين كنتُ أكتبُ مسرحية " مجموعة الحيوانات... " لم أكن أعلم أني إنما كنتُ أتصيَّدها، وأنا أيضاً لم أكن أشعر حينئذٍ أنها كذلك، والحمد لله أنهم في النسخة التي أُعِدَّتْ للتلفزيون في عام ١٩٧٣ منها، اختصروا المقاطع السرديّة. كان عددها كبيراً. والمَسرحية ذاتها تستطيعُ أن تصمدَ بدون الكثير من السرد.

قد أكون آلة، أو آلة كاتبة. لعلّي طابعٌ على آلة كاتبة وكاتبٌ مُكرَه. ولكنَّ هذه هي حياتي، وما تحتويه هذه المذكرات ليس في الغالب أكثر من السطح الخارجي لحياتي الغنية، لأنَّ حياتي الغنية هي عملي.

* * *

قدِمَتْ أمي إلى شيكاغو لتحضر العرضَ الافتتاحي لمسرحية " مجموعة الحيوانات... " هناك في أواخر شهر كانون أول من عام ١٩٤٤. ولا أذكرُ ردَّة فعلها الدقيقة على المسرحية، ولكنَّ المُحتمَل أنها أعجبتها، لأنَّ أمي كانت شديدة القلق على

نجاحي الذي طال انتظاره. أتذكَّرُها وهي تدخل الكواليس بعد انتهاء العرض الذي كانت تشهده ثم تُعبِّر عن احترامها للوريت.

قالت لوريت، وهي تُلقي نظرةً مُدقَّقة قصيرة إلى إدوينا ويليامز من خلال مرآة غرفة ملابسها " حسن، سيدة ويليامز، ما رأيك بنفسك؟ "

قالت أمي ببراءة " بنفسي؟ "

كانت لوريت لطيفة كعهدي بها حين عرفتُها في مسرح تسوده أغلبيةٌ من وحوشِ الغاب ولكن حتى هي، الأيرلندية، لم تكن لتفوِّتُ على نفسها فرصة التخابُث.

" أترين هذه الخُصَلَ من الشعر على جبيني؟ إنها ضرورية من أجل هذا الدور لأنها تُشكِّلُ جزءاً من شخصيةٍ حمقاء وأنا أتمتَّعُ بجبينٍ عالٍ، يدلُ على الذكاء "

لم تفهم المس إدوينا أيضاً هذه. تركتْها تنطلي عليها بدون أن تبدو عليها أدنى علامة على التأذِّي. لعلها ذُهِلَتْ بسِمة لوريت الخارقة نوعاً ما وهي على خشبة المسرح.

في سياق ما أقول يمكنني أن أتكلّم كثيراً عن المس إدوينا. أما الآن فسوفَ أكتفي بالقول إنها كانت سيدةً محترمة وإنها لا تزال سيدة محترمة وهي في سن التاسعة والثمانين أو التسعين. وقد قالت لي صديقتي العزيزة ماريون فاكارو ذات مرة، في معرض حديثها عن أختي " إنَّ الآنسة روز سيدةٌ محترمةٌ، أما أمك فهي مجرَّد سيدة ". ولم أتوصَّل أبداً إلى فهم ما عَنته بكلامها عن المس إدوينا. أعتقدُ أنها ربما شعرتْ أنَّ المس إدوينا لم تكن تماماً مُتفهِّمةً لحالة الآنسة روز ولعلَّ هذا صحيح، لكنني أشعرُ أنَّ أمي كانت دائماً تقومُ بما ترتأي أنه صحيح وأنها كانت دائماً تؤمن بما تفعلُ على الرغم من أنَّ كلَّ ما تفعل أحياناً يكونُ خطأً قاتلاً.

في ليلة الافتتاح في شيكاغو لم يعرف أحدٌ كيف يتقبَّلُ المسرحيةَ، فقد كانت أقرب إلى التجديد في مجال المسرح على الرغم من أنَّ لوريت قد أدَّتْ أداءً قوي التأثير، وواضحاً بشكلٍ لا يُصدَّق، وقد لاحظَ الجمهور ذلك. لكنَّ الجمهور لا يتغيَّر، ومعظمه يعودُ إلى البيت بعد العرض ليستمدَّ متعةً مُعادلة على الأقل من تساليه المعتادة. لقد استغرقَ من تلك السيدة اللذيذة، كلوديا كاسيدي، ناقدة الدراما في صحيفة تريبيون في شيكاغو، الكثير من الوقت لتُحبِّبها إليهم، لكي تُقنعهم بأنها استثنائية.

قالت إنَّ لوريت تُصنِّفَ في مرتبة ديوز[٣٢].

مع ذلك، حقَّقَتْ مسرحية " مجموعة الحيوانات... "، أخيراً، نجاحاً مذهلاً، والفضل في ذلك أُرجِعُهُ إلى حد بعيد إلى لوريت. وكما قلتُ مرات عديدة، لقد كانت ممثلةً نبيلة، ولا زلتُ أَعتبرها أعظم فنانة عرفتُها في مجال مهنتها. وقد كتبتُ تأبيناً لها، إبَّان وفاتها، قلتُ فيه إنَّ خسارتنا الفادحة تكمنُ في أنَّ عروضَ لوريت المسرحية لم تُحفَظ في السينما المعاصرة، وهذا الكلام ينطبقُ أيضاً على ديوز وبرنار[٣٣]، اللتين ينتمي اسم لوريت إليهما.

كتبتُ أيضاً أقول إنَّ هناك أحياناً إشارات خفيّة إلى شيء يقعُ خارج الجسد وفنائيَّته. أعتقدُ أنَّ هذه الحدوس تردُ للكثير من الناس من خلال النداء الديني الباطني، لكني شعرتُ بها بصفاء متساوٍ في إنجاز الفنانين وبصفاء أقصى في فن لوريت. وقد كان يُجلِّلُ فنّها بهاءٌ لا أستطيعُ أن أُقارنه إلا بأعظم ما كُتبَ من شعر، والذي كان يمنحني صدمةَ الرؤيا وكأنما اخترقَ الهواءَ المحيطَ بنا ضوءٌ مُنبعثٌ من فضاءٍ صافٍ بعيد عنا.

لطالما كنتُ أخرقَ وحييّاً في علاقتي بالممثلين بحيثُ أنَّ ذلك كان يُشكِّلُ حاجزاً بيننا لا يمكنُ اجتيازه. وفي حالة لوريت تيلر، لا أستطيعُ أن أقولُ إني تمكَّنتُ قط من التغلُّب على الارتباك والخوف اللذين كانا موجودين عندي أصلاً، لكنها لم تكن تسمح لهذا أن يقف حائلاً بيننا. كان دفءُ قلبها الصافي لا يخبو وأصبحنا صديقين حميمين. وأخشى أنَّ تلك كانت إحدى الصداقات الحميمة القليلة التي عقدتها مع ممثل. وعندما توفيتْ قلتُ إنَّ تاريخاً كاملاً من الكتابة للمسرح قد كوفئ بسخاء بإبداعه دوراً جيداً واحداً لممثلةٍ عظيمة. إنَّ ابتكاري دور أماندا وينغفيلد لأجل لوريت تيلر لهو مكافأةٌ كافيةٌ لكلِّ الجهود التي بُذِلَتْ من قبل وللكثير الذي جاء من بعد (وهذا لا يعني أني سأقبلُ بذلك!)

بعد البدء ببروفات مسرحية " مجموعة الحيوانات... " مباشرةً تقريباً باشرتُ تأليف مسرحية عنوانها الأوليّ كان " كرسي بلانش في ضوء القمر ". لكني لم أكتب إلا مشهداً وحيداً لها في ذلك الشتاء لعام ١٩٤٤ - ٤٥ في شيكاغو وفي ذلك المشهد تكون بلانش في بلدةٍ جنوبية، شديدة الحرارة، جالسةً وحدها على كرسي وضوءُ القمر ينتشرُ عليها متسرِّباً من إحدى النوافذ، وهي تنتظرُ فارسَ الأحلام الجميل الذي

لا يظهرُ أبداً. وقد تخلّيتُ عن ذلك العمل لأنَّ إحساساً غامضاً بالانقباض والوهن استولى عليَّ، وأنت تعلم مبلغ صعوبة العمل في مثل تلك الحالة. وقرَّرتُ أن أكفَّ عن شُرب القهوة المُركَّزة وأنْ أتوقَّفَ عن العمل عدة أشهرٍ وقد التزمتُ بذلك الوعد بصرامة. وفي تلك الأيام كنتُ أتمتَّعُ بقوةِ إرادة، وقد تلاشَتْ الآن. إلا أنه كان زمناً سعيداً، هناك في شيكاغو.

أمضيتُ وقتاً مفعماً بالمرح مع توني روس، الذي توفي الآن، ولعبَ دور السيد كالر في " مجموعة الحيوانات... ". وكانت لوريت مولعةً بنا نحن الاثنين وكانت تُطلقُ علينا اسميّ " المتشرِّد الكبير والمتشرِّد الصغير ". وكنا، هو وأنا، نخرجُ معاً في كل ليلة تقريباً، بعد إسدال الستارة على المسرحية في شيكاغو، ونجوبُ الشوارع. كنتُ محظوظاً أكثر من توني لأنَّ توني كان يسكر، والسكارى غالباً لا يُحسنون التسكُّع في شوارع شيكاغو أو في أي مكانٍ آخر. كان سكيراً مُحبَّباً، لكنَّ شيئاً في توني انكسرَ والأداء التمثيلي الرائع الذي كان يقومُ به في كل ليلة كان إنجازاً خارقاً بالنسبة إلى رجلٍ ينطوي على الكثير من العذاب.

في نحو ذلك الوقت بدأتُ أنشدُ إقامة علاقاتٍ أطولَ أمداً، أقصد نسبياً أطول أمداً، مع شبان. وكنتُ آمل في أن أُقيمَ علاقةً مع شابٍ أيرلندي كان يظهرُ في دورٍ صغيرٍ في مسرحية " النصر المُجنَّح "، والتي كانت عندئذٍ تُعرَضُ في شيكاغو وفي البناء نفسه الذي تُقدَّمُ فيه مسرحية " مجموعة الحيوانات... ". طبعاً، لن أذكُر اسمه، غير أنَّ وسامته كانت فائقة وكان يتمتَّعُ بموهبةٍ عاليةٍ بعيداً عن المسرح. وكنتُ أقطنُ في محيط مدينة شيكاغو، في فندق " شرمن "، وكان هذا الشاب الأيرلندي يقضي الليالي معي في غرفتي العزوبيّة والعنادل تغرِّد وتغرِّد. أذكرُ أننا ذات صباح قمنا بزيارةٍ مفاجئةٍ لتوني، وكان يمرُّ بفترةِ شفاءٍ من إحدى آثار السُكر الملحميّة البغيضة، وقد ارتكبنا خطأً بفعلتنا تلك، لأنَّ توني، على الرغم من شغَفه بي، أربكه بوضوحٍ تام مرأى رفيقي الشاب. وكانت يدا توني في المعتاد دائماً ترتعشان وكان يتصبَّبُ عرقاً بغزارة بلا انقطاع لكنه في صباح ذلك اليوم كادَ ينهارُ كليّاً وهو يُعاينُ رفيقي.

ثم غادرتْ مسرحية " النصر المُجنَّح " المدينةَ وكذا فعلَ الأيرلندي، فعاشرتُ طالباً في جامعة الينويز، كان أشقرَ طويل القامة، سبحَ معي في مقر جمعية الشبان

المسيحيين في شيكاغو، وأمضى الليل معي في غرفتي العزوبية في فندق " شرمن " ذاك، وظلّتْ العنادلُ تُغرِّدُ من أعماق قلوبها.

يؤسفني أن يكونَ الجزء الأعظم من هذا " الشيء " مُكرَّس لنشاطاتي الغرامية، لأني تأخَّرتُ في الإعلان عنها، ولكن عندما فعلتُ أحدثَ ذلك ضجَّةً مُدوّية.

* * *

في أواخر فصل الشتاء الأخير اتَّصلتْ بي باربرا باكسلي، وهو صديقةٌ وممثلةٌ لامعة في اثنتين من مسرحياتي، لكي تُخبرني أنَّ ويليم إنج[٣٤]، الذي كانت ترتبط معه بعلاقة حب رقيقة، وكانت ربما أقرب إنسان إليه خارج نِطاق عائلته، غارقٌ في وضعٍ يبعثُ على اليأس.

بقيَتْ مشاعرها نحوه تتَّسِمُ بالاهتمام الرقيق كعهدها دائماً.

قالت لي بصوتها الحميم " إنه ينهار. إنه يلزم السكون التام ليلاً ونهاراً، ولا ينهض إلا عندما يرغب في الشرب ومن ثم يعودُ إلى سكونه "

" أوه، إذن فهو يتبع مساراً انتحارياً: يجب أن نفعلَ شيئاً "

" ولكن ماذا نفعلُ؟ إنه يلتزم طوعاً مدة يومين ومن ثم يعودُ فيطلق العِنان لنفسه"

" أليست أخته معه؟ "

" نعم، إنَّ هيلين معه وقد تولاّها اليأسُ "

" أخبريها أن تسهر بنفسها على التزامه بحيث يعجز عن التراجع وإلى أن يجتاز الأزمة الحاضرة "

" اتصل أنت بها، يا تن "

" إنني لا أعرفها، يا باربرا "

" قَدِّمْ نفسك إليها هاتفياً وانفحها تلك النصيحة قبل أن يفوت الأوان. لقد حاولتُ ولكن يبدو أنَّ الفزع يشُلُّ حركتَها "

أعطتني باربرا رقم هاتف كاليفورنيا. لكني قبل أن أُجري اتصالي اتَّصلتُ بمورين ستابلتُن وتشاورتُ معها حول استصواب إجراء الاتصال المُقترح مع أُخت بيل.

كانت مورين لا تقلُّ عني قلقاً. وبما أنها هي نفسها كانت قد نجتْ من أزمات عصبيّة، فقد استطاعت أن تتعاطف مع ورطة بيل وأخته.

عندئذٍ اتَّصلتُ برقم هوليوود، فردَّتْ عليّ أُخت بيل، السيدة هيلين كونل. قدَّمتُ نفسي إليها فأخفضتْ صوتها حتى درجة الهمس، قائلةً إنها لم تتأكد قط من أنَّ بيل يتنصَّتُ على مكالماتها الهاتفية. وأعطتني مزيداً من التفاصيل عن الحالة السائدة. فقالت إنه قد دخلَ في مرحلة الانهيار وإنه قبل بضع ليالٍ وقع أثناء الاستحمام وأُصيبَ بجروح عميقة في فروة الرأس وساعدته على العودة إلى سريره. وأخبرتني أنه كان يحتفظُ تحت فراشه بأقراصٍ مُهدِّئ قوية المفعول، وكان يتناولُ سبعةً منها في كل ليلة، وصدَّقتْ على تقرير باربرا بأنه قد نهضَ لتوِّه ليشربَ الخمر وأنَّ النظامَ الذي يتَّبِعه هو أن يلتزم بالمصح مدة يومين ومن ثم يُطلِق العنان لنفسه.

من خلال معرفتي بعض الأمور عن بيل، من طول علاقتنا معاً، أدركتُ أنه من نوع المدمنين على الخمر الذين لا يتساهلون بكأسٍ واحدة، وأنه أبدى مقاومةً ناجحةً جداً وشُجاعةً جداً لتحقيق امتناع كامل عن الخمر، وأنه أحد أعضاء جمعية " السكارى المجهولين "، وأنه يُعاني من حالة متطرِّفة من رهاب الاحتجاز يُفسِّرُ عجزَه عن قبول احتجاز المستشفى له أكثر من يومين.

اقترحتُ على السيدة كونل، بما أنها أقرب أقربائه إليه، أن تقومَ بنفسها بإيداعه أفضل مستشفيات العلاج النفسي، كمستشفى مننغز في مسقط رأسه في ولاية كنساس، وأن تتأكّد من حصوله على غرفةٍ رحبةٍ وجميلةٍ هناك، وتسهر على أن يمكثَ حتى يستعيد عافيته.

فجأةً قَطَعَتْ المكالمة الهاتفية، وهمست أنها سمعته يتحرَّكُ في أرجاء المنزل وأنه شديد الارتياب بالمكالمات الهاتفية. ثم طمأنتني بأنها سوف تأخذ بنصيحتي.

كنتُ منهمكاً في بروفات أصعب مسرحية كتبتُها ولم أُجرِ أي اتِّصال هاتفيّ آخر ولم أعُد أسمع أي خبر من أخت بيل.

قبل يومين فتحتُ صحيفة دايلي أميركان التي تصدُر في مدينة روم فرأيتُ صورةَ وجهه المكروب: ثم العنوان الذي يُعلِن أنه انتحر.

كنتُ قد قابلت بيل إنج في شهر كانون أول من عام ١٩٤٤، لدى عودتي إلى المنزل فترة وجيزة في سينت لويس. في ذلك الوقت كان يكتبُ لصحيفة " ستار-تايم " (التي ماتت)، فيقومُ بتقديم نقدٍ مسرحيّ ومقابلاتٍ صحفية وأعتقدُ أيضاً أنه كان يعملُ كناقدٍ موسيقي.

حدثَ ذلك خلال عرض " مجموعة الحيوانات... " في شيكاغو، وجاء بيل إلى منزلنا الكائن في الضواحي ليُجري مقابلةً صحفيةً معي. كان " مُعجباً " بصورةٍ أخجلتني بمساري المهني المزدهر ككاتبٍ مسرحيّ. بتُّ الآن أشعرُ دائماً بالوحشة وأنا في مسقط رأسي: لقد تفرَّقَ أصدقائي كلهم. صرَّحتُ بهذا لبيل فدعاني بكل ودٍ إلى زيارةِ شقَّته الكائنة بالقرب من النهر. وأمضينا أمسيةً احتفاليّة بين أصدقائه. وبعد ذلك حضرنا معاً حفلاً موسيقياً في سينت لويس، وجعلَ من عودتي إلى الوطن متعةً استثنائيّة.

بعد عودتي إلى مسرحيتي المعروضة في شيكاغو بوقتٍ قصير وصلَ بيل لكي يشاهد المسرحيةَ ويكتب عنها، وأعتقدُ أنه كان مبهوراً بصدقٍ بالمسرحية وبلوريت المذهلة، وهي تُقدِّمُ آخر وأعظمَ عرضٍ لها.

بعد ذلك بعامٍ أو اثنين عدتُ إلى سينت لويس وتقابلنا من جديد. كان حينئذٍ قد تقاعدَ من عمله كصحفي وباشرَ تدريس اللغة الإنكليزية في جامعة واشنطن، التي لم تكن تبعد كثيراً عن منزلنا، وأقامَ في منزلٍ خشبيّ أبيض ذي طرازٍ فيكتوري مستحدَث. لابدَّ أنه كان يُذكِّره بمسقط رأسه كنساس. وهناك، ذات ليلة، عرضَ عليَّ بحياء مسرحيةً من تأليفه " عودي، يا سبأ الصغيرة ". قرأها على مسمعي بصوته المُعبِّر، الهادئ، الجميل، وقد هزَّتني المسرحية بعمقٍ فأبرقتُ على الفور لأودري وود حولها وحثثتُهُ على أن يُسلِّمها إليها.

لم يكن تأثُّرها يقلُّ عن تأثُّري بها، وعلى الفور تقريباً أصبح بيل زبوناً عندها.

أثناء إجراء البروفات على تلك المسرحية، التي كانت من تمثيل شيرلي بوث والمرحوم سيدني بلاكمر، أُصيبَ بيل بأزمته العصبيّة الأولى. وقد كانت شدَّةُ التوتُّر تفوقُ طاقته، فخفَّفَ من وطأتها بالإفراط في شرب الخمر. وقد تولّى الأسطوري بول بيغلو أمر العناية به وأودعه المستشفى ولا أعتقدُ أنَّ بيل حضرَ حتى العرض الافتتاحي.

كان عملُ بيل مفعماً بنورِ الإنسانيّةِ في أبهى صورة. وفي كل مسرحيةٍ له يكون هناك مشهدٌ قاتمٌ هو دائماً أقوى المشاهد في المسرحية: لكنه كان يحبُّ شخصياته، وكان يكتبُ عنها وهو يولي أذناً مُرهَفَةً حتى الكمال لكلامها المألوف، ويراها من خلال مصاعبها بالحنان الذي يُعالجُ به الأبوان معاناة أطفالهما: كان عادةً يرسمها بشكلٍ جيد.

كان بيل غامضاً كإنسانٍ، وبقيَ كذلك. فمنذ أن قدمَ إلى نيويورك، وحتى قبل ذلك، كان صعباً عليه أن يكونَ منفتحاً مع الناس، خاصةً في التجمُّعات المختَلَطَة. كان يميلُ إلى الصمت. كان وجهه محفوراً قبل الأوان بهمومٍ مُستترة : لم يكن يحتملُ أن يبقى ضمنَ مجموعةٍ أكثر من نصف ساعة: بعد ذلك يقول بهدوء " أعتقدُ أنَّ من الأفضل أن أذهبَ الآن "

ألأنَّ البقية يشربون وهو لا يشرب؟ أم لأنَّ هناك حياءً، أو إحساساً بالوحشة يفوقُ التصوُّر ينتابه فيما عدا نحو قلَّةٍ قليلة من الأشخاص مثل باربرا باكسلي، وإيليا كازان والآنسة وود، كان متجذِّراً بقوةٍ في كيانه، على الرغم من سنين عديدةٍ من التحليل ومن الشُهرة والنجاح اللذين يستحقّهما ؟

إنَّ حياءه لم يكن قط أخرقَ: كان يتَّصفُ بوقارٍ حقيقي وبذوقٍ مُرهَفٍ، نادراً ما يُقرَنُ بـ " أميركا الوسطى: شقَّتُهُ الكائنة في إيست ريفر تحتوي لوحات جميلة رسمها رسامون مشهورون، لكنَّها تعكسُ ذوقَه الخاص. والمقابلات الصحفية التي يجريها لا تحتوي على أي لمسةٍ سوقيّةٍ: قد تكونُ موضوعيةً، غير أنها مُراعيةٌ لمشاعر الآخرين وتتَّسِمُ بتواضُعٍ جمّ.

* * *

بقيتْ مسرحيةُ " مجموعة الحيوانات... " تُعرَض حتى منتصف شهر آذار في مدينة شيكاغو ومع وصولها إلى نيويورك عرَّجَ الكثيرون من رواد المسرح لمشاهدة لوريت فيها وقبل أن نصلَ إلى نيويورك كانت قد أضحَتْ أسطورة.

كان من المؤكَّد بحقّ أنَّ الجميعَ سيتحدثُ عن المسرحية في الصحف لكنَّ خصمي اللدود، الناقد جورج جين ناثان، الذي قال إنها لولا لوريت لما كان لها أي أهمية تُذكَرْ، ولستُ متأكِّداً من أنَّ شعوره اتجاه لوريت كان صادقاً، لأنه أرسلَ إليها زجاجةَ خمرٍ كهديةٍ في ليلة الافتتاح في نيويورك.

لا أدري إنْ كانت لوريت تشربُ الخمر أم لا، ولم آبه لذلك قط، غير أنها بعثتْ بعبارةٍ شكر لناثان تقول " شكراً لك على ثقتك بي ".

أحمدُ اللهَ على أنه في ذلك الربيع لم يبدُ أنها كانت تُدركُ أنها تحتضر.

في إحدى المقابلات الصحفية قالت " إنني أُبدِّدُ السُحُبَ "

بقيتْ مع فريق المسرحية مدة عام ونصف، مُضحِّيةً بالكثير من راحتها الشخصية ومن صحتها، وقد مكثَتْ في الدور تلك المدة الطويلة بقوةِ مثابرةٍ بطوليّةٍ وجدتُها عظيمةً كفنِّها نفسه. توفيتْ في شهر كانون أول من عام ١٩٤٦.

كنتُ في منزل ديك أورم في شارع القديس بطرس في نيو أورلينز، في شقةٍ كائنةٍ في الطابق الثاني. وبينما كنتُ أعملُ في صباح أحد الأيام، صرَّحَ بقوة " تنيسي، لقد أُذيعَ في الراديو للتو أنَّ لوريت تيلر قد ماتت "

لم أقوَ على الردّ.

بعد بضع هنيهات أطلقَ تلك الجملة الفظيعة " كنتُ أعرفُ أنَّ أمَلَكَ سيخيب "

٦

بعد نجاح مسرحية " مجموعة الحيوانات... "، كما قلتُ آنفاً، شعرتُ بانقباضٍ شديد، ربما لأني لم أصدِّق قط أنَّ أي شيء سوف يستمرُ، سوف يصمد. لم يخطرُ ببالي أنَّ تقدُّمي سوف يتواصلُ. لطالما حسبتُ أنه سيتبعُ التقدُّم انهيارٌ فوريّ. ثم إني كنتُ قد أنفقتُ الكثيرَ من طاقتي في ارتقاء سُلَّمَ النجاح، بحيث أني عندما حقَّقتُ ذلك وأصبحتْ مسرحيتي هي " أفضل عرضٍ في المدينة " لم أشعر بأي رضا.

أذكرُ أنني كنتُ ذلت ليلة في غرفتي في ألغونكوين، في حضور أودري وود، وبيل ليبلينغ، وأمي وشعرتُ بتعبٍ شديد فتمدَّدتُ على الأريكة. وفجأةً أحسستُ بالغثيان واندفعتُ إلى الحمّام لأتقيَّأ.

قالت أمي " توم، أنت بحاجةٍ إلى الراحة، تعالَ إلى المنزل وامكث بعض الوقت "

غير أن قلبي لم يهفُ إلى المنزل. وقررتُ أن أذهب إلى المكسيك، وقد استمتعتُ بمقامي فيها أيَّما استمتاع خلال صيف عام ١٩٤٠ ذاك. وتوجَّهتُ إلى هناك عبر ولاية دالاس، حيثُ كانت صديقتي العزيزة مارغو جونز، " المرحومة " أيضاً، تُمثِّلُ في النسخة المُبكِّرة لمسرحية " صيف ودخان " في مسرحها المدوَّر. في الواقع، لقد رأيتُ أنَّ العرضَ كان رديئاً جداً لكني أُعجِبتُ بمارغو وتظاهرتُ بأنَّ العرضَ أعجبني. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ انطلقتُ إلى مدينة مكسيكو بالقطار، عبر جبال سييرا مادره التي كانت في تلك الأيام غايةً في الجمال، وفي مدينة مكسيكو اتَّخذتُ لي مسكناً في المبنى المُلحَق بفندق ريفورما الضخم.

في بادئ الأمر شعرتُ بالوحشَة. لكني سُرعانَ ما قابلتُ ليونارد برنشتاين[٣٥]، الذي عاملني بودٍ ضاف. ثم قابلتُ رجلاً ثرياً يُقيمُ حفلاتٍ تقتصرُ بشكلٍ صارم على الذكور في شقَّتِه في ليلة كل يوم سبت. وبعدئذٍ لم أعد أشعر بالوحشة. وتلك الحفلات

كانت في الواقع حفلات رقص، وفي ليالي أيام السبت تلك تعلّمتُ كيف " أتبع ". فالمكسيكيون لديهم دائماً، كما هو معروف، عقدة " الذكورة " تلك، وكنتُ أيضاً شاباً أميلُ إلى قِصَرِ القامة ومن غير المعقول أن أغوي الشبان، لذا تعلّمتُ جيداً كيف أتبع. وقد قضيتُ فترةً سعيدةً هناك، لكني لم أكن قط إنساناً متعدِّد العلاقات إذا كان الخيارُ لي، وأسعدني أن أقابلَ طالباً شاباً، هندياً جزئياً، يتَّصفُ بجمالٍ فائق في الجسد وفي الروح، وذلك على إحدى جادّات العاصمة. فبينما كنتُ أسيرُ في طريقي سمعتُ وقْعَ خُطى أقدامٍ خلفي تحافظُ على مسافةٍ قريبةٍ مني، فعمدتُ في الحال إلى النظر خلفي ورأيتُ ذلك الفتى الأسمر الوسيم. وكانت هناك مقاعدُ حجريةٌ مرصوفةٌ على طولِ طريق ريفورما، فجلستُ على أحد تلك المقاعد وتوقَّفَ الفتى وجلسَ إلى جواري. لم أكن أعرفُ أي شيءٍ من اللغة الأسبانية، وكان هو لا يعرفُ إلا القليل من اللغة الإنكليزية، لكننا أمضينا تلك الليلة في غرفتي في ملحق فندق ريفورما، وهو فندقٌ صغيرٌ يُدعى لنكولن، ولم يكونوا يُمانعون في إحضار الضيوف.

لقد منحني ارتفاع مستوى مدينة مكسيكو عن سطح الأرض ما يشبه الحيوية الزائفة وقد كتبت كثيراً بما في ذلك قصة قصيرة عنوانها " ذو الذراع الواحدة، وربما أيضاً المزيد عن بلانش، وكنتُ في منتهى السعادة وأنا مع الطالب. ولم أكن أحب مطلقاً الأجساد الكثيفة الشعر، وبما أنه كان نصفَ هندي كانت بشرته ناعمةً جداً ولو لم أكن متحرِّقاً - مَنْ يدري؟

ولكن في عهد الشباب تكون الحياة ملآى بعلاقات الحب العابرة، وإنْ كان المرءُ قد يتوقُ إلى رخاء الصُحبة الدائمة.

أذكرُ أني استقلتُ حافلةً متوجِّهةً إلى كويرنافاكا وتوقَّفتُ في فندقٍ كبيرٍ هناك يحتوي حمام سباحة، لكني بعد أن سبحتُ، وتمشَّيتُ في البلدة قليلاً شعرتُ بكراهيةٍ غريبةٍ قويةٍ لها حتى أني حين عُدتُ إلى فندقي سألتهم متى تغادرُ الحافلة التالية إلى مدينة مكسيكو. ولما قيل لي إنه لا توجدُ أي حافلة مغادرة حتى صباح اليوم التالي، ارتكبتُ أولَ عملٍ متهوِّرٍ كبيرٍ في حياتي: استأجرتُ سيارةً لتُعيدني إلى هناك. وأذكرُ كم كان الهواءُ المندفعُ إليَّ من خلال نافذة السيارة المفتوحة مُنعشاً ولذيذاً ومُعطَّراً برائحةِ خشبِ الصنوبر، وكم كانت سرعتها كبيرةً وكم اشتقتُ إلى معاودةِ علاقتي الحميمةَ مع الطالب نصف الهندي، وإلى حفلات رقص ليالي أيام السبت!

ما زلتُ أؤمنُ بأنَّ الريفَ المكسيكي المفتوح هو أجمل ما شاهدتُ في العالم، وقد شاهدتُ جزءاً كبيراً من العالم.

فيما يلي حكايةٌ ليست على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية:

ذات يوم دعانا لوطيان أميركيان واهنان جداً أنا وليونارد برنشتاين على وجبة غداء. وقد عاملهما برنشتاين بقسوةٍ شديدةٍ وشعرتُ بالحرجِ من أسلوبه في إهانتهما

أعلن قائلاً " عندما ستندلع الثورة سوف تُسنَدان إلى الجدار وتُطلَقُ النارُ عليكما "

منذ ذلك الحين وبرنشتاين يُتَّهَمُ بما يُسمّى " المتأنّق الراديكالي ". ولكن حين أعودُ بذاكرتي إلى ذلك الغداء أتساءلُ إنْ لم يكن ثورياً حقيقياً مثلي، والفرق بيننا هو أني لستُ مهتماً بإطلاق الإهانات على اللوطيين الوسيمين أو على غيرهم، وكلُّ ما يهمُّني هو اكتشاف نظامٍ اجتماعيّ جديد - ليس شيوعياً طبعاً، وإنما أعتقد أنه شكلٌ أكثر تنويراً من الاشتراكية.

بعد انصرام ذلك الصيف، عدتُ إلى نيويورك، حيثُ كانت التدريبات توشكُ أن تبدأ على العمل المشترك مع دونالد ويندام، وهو مسرحيةٌ عنوانها "لقد لمستني!"، قائمةٌ على أساس قصةٍ قصيرةٍ بالعنوان نفسه، كتبها أحدُ أفضل الكُتّاب في رأيي وهو د. هـ. لورانس، الذي منحتنا أرملتُه حقوقَ تحويلها إلى مسرحيةٍ قبل ذلك ببضع سنوات.

* * *

أشعرُ الآن بشيءٍ من التعبِ وسوفَ أعودُ إلى السرير، هنا في شارع دومين في الحي الفرنسي من نيو أورلينز.

إنني أسيرُ عكسَ الزمن، ولا أرى من داعٍ لتجنُّب هذه القضية، أي أن أتجاهلَ مسألةَ المرورِ السريعِ جداً للزمن.

عند هذه النقطة في وسعي أن أنتحلَ ما يُشبه الموقف البطولي، لكنَّ ذلك لن يكونَ إلا إرضاءً للذات من النوعِ الذي أمقتُهُ، ويمكنُ عزوه إلى الشفقة على الذات، وهي خاصيَّةٌ أجدها بغيضةً جداً. إنَّ موقفي من نفسي لم يكن قط نابعاً من الشفقة، والحمد لله. إنني، وكما تقول ليونا دوسن في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، أحملُ في طبيعتي إحساساً عالياً بالكبرياء: فإذا كان المرءُ، سواء أكان أخصائية تجميل أضناها الحبُ كليونا أم لا، ينطوي على كبرياءٍ فطريةٍ، فليس من المتوقَّع أن ينغمسَ في ممارسة الإشفاق على الذات المُهينة.

بمناسبة الحديث عن الممارسات المُهينة، فقد وصلت إلى مسكني في شارع دومين في صباح هذا اليوم شركةٌ أخرى من تلك الشركات التلفزيونية، مع طاقَمٍ كاملٍ ومُعلِّقٍ، واستقرَّتْ في الفناء من أجل إجراء مقابلةٍ معي. وهذه المرة كانت مع تلفزيون ألماني. وكان الطاقمُ يُقادُ بتشدُّدٍ فاغنيري[٣٦] على يد سيدةٍ ألمانيّةٍ مفرطة الطول اسمُها إنغريد. وجلسَ المُعلِّقُ تحت شجرةِ موزٍ منتشرة الأوراق حَمَتْهُ من المطر الهاطل بينما كان عليَّ أن أجلسَ في العراء لأُنقَعَ وأجيبَ عن كل تلك الأسئلة الحميدة وأتظاهرَ بالجهلِ التامِّ لسببِ قدومهم إلى هنا، وهو، طبعاً، رغبتهم في أن يُصوِّروا شريطاً حول الكاتب المسرحي الأميركي السيئ السمعة، الشاذ، الذي سرعان ما سيُتيحُ له موته فترةً من البروز في وسائل الإعلام. أتعلم ماذا تفعل مثل هذه الأمور في الناس؟ حسنٌ، إنْ كنتَ لا تعلم، سأخبرك. إنهم يحبونها. إنها تُسَرِّعُ جريانَ الدماء في عروقهم، وتجعلهم يشعرون بأنهم خالدون.

في الواقع، إنَّ هذه سِمةٌ إنسانيةٌ، ولكن لا أظنني سأستمرُّ في تقديم عروضٍ لفرقِ التلفزيون الزائرة هذه إلا إذا خرجوا بأسئلةٍ أكثر إثارةً للاهتمام.

قبل بضعة أسابيع حين كنتُ في منزلي في نيو أورلينز، بعثتْ شركة الإرسال الكندية مُعلِّقاً وطاقمَ عملٍ إلى هناك. في الأساس، كان السببُ هو نفسه، أي الحصول على شريطٍ مُصوَّرٍ للكاتب المسرحي السيئ السُمعة، المدمن على تعاطي المخدرات وخِلافه. كان المُعلِّقُ هو هاري راسكي وكانت صِلتي به جيدة على الرغم من أنه لم يُلمِّح مباشرةً إلى دوره في الهدف من رحلته الطويلة. ولم يكن شعوري عندئذٍ أفضل مما هو الآن، وكان الجوُ حينئذٍ حاراً كما هو الآن وكان علينا أن نجوبَ شوارع الحيِّ بينما هاري يستجوبني وفي تلك المناسبة نُقِعتُ بالعرقِ بدل المطر. ولكن كذلك كان حالُ هاري. ولم يجلس في فيء شجرة موز.

ثم كانت هناك الشركةُ النمساوية في الربيع الفائت في كي ويست. كانوا غايةً في اللطف الضافي، ولم أضطر إلى أن أغادرَ جوار بركتي وفنائي. كانت " مثولا فايدت " موجودةً هناك. وهي تتكلم الألمانية بطلاقة، بما أنها ابنة المرحوم كونراد فايدت[٣٧]. وطلبوا مني أن أقولَ شيئاً باللغة الألمانية (بما أني جزئياً من سلالة الهَنْ) لكنني لا أعرفُ شيئاً من تلك اللغة غير auf weiderehen (إلى اللقاء) ولم يكن قد حانَ بعدُ

الوقتُ لقولِ إلى اللقاء، فهمسَتْ فيولا في أذني قائلةً "قُلْ (Ficken ist gesund)" ، وتعني "النكاح صحّيّ ". فقُلتُها لهم وتسلُّوا كثيراً، لأنها كانت من الملاحظات التي يُتوَقَّعُ أن تصدرَ عني. وقالوا إنَّ النمساويين لا يستخدمون مثل تلك العبارة، ولكنْ إذا ما عُرِضَ البرنامجُ في النمسا فإنَّ العبارةَ سوف تُترَكُ في السياق.

كان واضحاً أنَّ مُعلّق الأمس القادم من هامبورغ قد ارتبكَ عندما قطعتُ مسارَ الأسئلة المُعدَّة لكي أتحدَّث عن وحشية التورُّط الأميركي في فيتنام، وعن افتقار نيكسون التام إلى الصِدق والحس الأخلاقي، وعن إخلاصي لقضية السيناتور ماكغفرن.

* * *

بمناسبة الحديث عن العروض التلفزيونيّة، أذكرُ أني كنتُ، في وقتٍ ما في الستينات، أسكنُ في مُجمَّعٍ سَكَنيّ شاهقٍ مجاورٍ لشُقق داكوتا في الشارع الثاني والسبعين الغربي، في مدينة نيويورك. في ذلك الوقت كنتُ منغمساً انغماساً فادحاً في تعاطي المخدرات، وحين أفقتُ من نومي في صباح أحد الأيام لم أدرِ أني كنتُ قد وافقتُ سابقاً، ربما على مضض، على طلبِ المُعلّق التلفزيوني مايك والاس لإجراء مقابلةٍ معي في شقتي في صباح ذلك اليوم.

خرجتُ وأنا أرتدي بنطالاً قصيراً أتعثَّرُ من غرفة نومي ذات السريرين، أحدهما لم يُستعمَل أبداً. وولجتُ وهجَ كاميرات التلفزيون في الغرفة الأمامية الكبيرة في الشقة الكائنة في الطابق الثالث والثلاثين. وكان طاقمٌ تلفزيونيٌّ كامل على أهبة الاستعداد، وأخذ مايك والاس، صديقي القديم، يُحدِّقُ إليَّ بمزيجٍ من الفزع والحُزن ويعلمُ الله ماذا أيضاً. وانبطحتُ انبطاحاً كاملاً على وجهي، وكنتُ متعوِّداً على فعل ذلك في الستينات، فأنهضوني، ولفعني أحدهم برداء. ثم بدأ مايك والاس يطرحُ أسئلته عليّ. لم أعد أذكر ما سألني. لا أذكرُ إلا أني جلستُ هناك ألزم الصمت وأنَّ مايك التفتَ بعد مرور ما يُقاربُ الخمس عشرة دقيقة وقد سربله الحزن إلى طاقمه، وقال " كفي، لن نستطيع أن نحصل على أي شيء ".

* * *

في أوائل خريف عام ١٩٤٦ سارَ عرضُ مسرحية " لقد لمستني! "، التي أعدَّها غثري ماكلنتيك مع وجودِ مجموعةٍ رائعةٍ من الممثلين، سيراً حسناً وكانت المجموعةُ

تضمُّ الشابَ مونتي كليفت[٢٨]، وفي ذلك الوقت كان الممثل الشاب الأشدّ موهبةً في مسارح برودواي، أي قبل مجيء براندو المدهش بسنتين، الذي أعتقدُ أنه كانت له علاقةٌ وثيقةٌ بالانهيار النفسي الرهيب والطويل الأمد للعزيز مونتي. إنني لم أشاهد أو أقرأ " لقد لمستني! " منذ عام ١٩٤٦، وبقَدَر ما أعلم فإنها لم تُعرَض ثانيةً في أي مكانٍ آخر، وهو أمرٌ يؤسَفُ له لأنها تحتوي بعضَ المشاهد المضحكة جداً وأيضاً المؤثِّرة جداً. وفي المسرحية يحكي ذلك الممثل إدموند غوين، الذي يقومُ بدور العجوز الرائع، حكايةً مسليّةً جداً عن إقامته علاقة جنسية مع أنثى خنزير البحر. وكان بين مجموعةِ الممثلين أيضاً ممثلٌ أيرلندي من الزُمرةِ نفسها، هو نيل فيتزجيرالد ويقومُ بدور قس. وكان هناك مشهدٌ مضحكٌ جداً يتقدَّمُ فيه لطلبِ يد صاحبة مصنع الفخَّار العانس للزواج.

في خلفيّة دار المسرح، عندما أُسدِلَ الستار في ليلة الافتتاح على تصفيقٍ غير حار، كانت الضئيلة أودري وود ليبلنغ تقف. ولدى خروجي من المسرح مع معاوني الخائب الأمل، ويندام، قالت بنوعٍ من الهمس بفمٍ ملتوٍ " الآراء متضاربةٌ يا عزيزي ". وحقاً قالت، فقد كانت الآراءُ متضاربةً كثيراً.

ولكن في تلك الأيام كان يمكن لمسرحيةٍ ما أن تُعرَض على مدى أشهرٍ عديدةٍ وتظلُّ الآراء حولها متضاربة، ويبدو لي أنَّ مسرحية " لقد لمستني! " قد استمرَّ عرضُها طيلة فصل الخريف.

* * *

في عام ١٩٣٩ كان هارولد فينال، مُحرِّر صحيفة " أصوات " قد عرَّفني إلى اثنين من العشاق. وكان ينزل في فندق وينسلو في ساحة ماديسون. ودعاني إلى غرفته الصغيرة ذات السرير بطابقين، بما أنه كان قد نشرَ لي سلسلةً من قصائدي الغنائية.

دعاني إلى مقابلة اثنين من " فتيان جورجيا البهيجين " كانا يقطنان في الشارع الثاني والخمسين في حالةٍ تقتربُ من الفقر المدقع.

أعجبني ما ينتظرني فانطلقنا إلى الشارع الثاني والخمسين الغربي، وكان المُجمَّعُ السكني هناك يدعى في تلك الأيام " شارع الموسيقيين الشعبيين ". وكان ضجيجُ الشارعُ يصمُّ الآذان لكنَّ غرفة " الفتيان " كانت رثَّةَ الأثاث تقعُ في الطابق الثاني، ولا يوجد مصعدٌ إليه.

ما أنْ وقعَ بصري على أحد الفتيان، بعينيه النجلاوين الحالمتين وقدِّه المشوق، حتى قلتُ في نفسي، يا ولد، هذا الفتى لك.

انخرطنا جميعاً في الرقص على موسيقى فرقةٍ موسيقيةٍ كانت تعزفُ تحت غرفتهما مباشرةً وحالما ضممتُهُ بين ذراعيّ ظاهرياً بداعي الرقص حتى أخذتُ أُقبِّله وأُلصقُ حوضي إلى حوضِه.

أما رفيقه فجلسَ في الركن بسيماءٍ كئيبةٍ مُهدِّدة. وكان هناك فتى من تشيروكي أو تشوكتاو قاطعنا أنا وشريكي وحلَّ محلَّه، قال لي إنَّ عليَّ أن أتخلى عن مغازلتي لـ " ذي العينين الحالمتين " على الفور، لأنَّ رفيقه غيور غيرةً عمياء وخطرة.

عندئذٍ لم أكن قد تعمَّقتُ كثيراً في تقلُّبات علاقات الشاذين جنسياً. كنتُ لوطياً شاباً محترماً لذا أوليتُ انتباهي على الفور للهندي.

انفرطَ عقد المُحتفلين وعَرَضَ الهنديُ عليَّ أن يصحبني إلى حيثُ أنزل في جمعية الشبان المسيحيين.

قلتُ " أوه، شكراً. إنني جديد في البلدة ولا أستطيعُ أن أتجول فيها وحدي "

صعَّدتُ انجذابي إلى ذي العينين الحالمتين وأصبحنا صديقين حميمين. وسرعان ما أخذنا نتجوَّلُ معاً في أرجاء ساحة تايمز. وذات ليلةٍ تقدَّمَ منا بحَّاران خارج نُزُل كروس رودز بُعيدَ منتصف الليل وحدثَ أنْ كان صديقي قد حجزَ غرفةً في فندق كلاريدج لأنَّ الرسَّامَ الذي كان يسكنُ معه كان لديه ضيفُ سيبيتُ عنده.

يا الله! كانت ليلةً لا تُنسى، ولكنْ ليس بالنسبةِ إلى الرومانسيين من الناس. وقد انتابني شيء من الريبة ولم يعجبني إصرار البحارين على أن ندخلَ كلٌ على حِدة، أي أنْ ندخلَ أنا وصديقي إلى الغرفة أولاً ثم يتبعنا البحاران لاحقاً.

لم يعجبني على الإطلاق الجزءُ الوحشيُّ المتعلق بالجنس. وبعد أن انتهى الأمر، أسرعَ البحَّاران بانتزاع سلك الهاتف عن الجدار، ثم أسنداني إلى الجدار بينما أخذا يضربان صديقي، وكسرا عدداً من أسنانه. ثم أسندوه بدوره إلى الحائط وهما يهدِّدانه بمطواة وأخذا يضرباني.

وانغرزتْ أسناني بشفتي السفلى.

أفقدني العنفُ، والرعبُ، وعيي. وأعادني صديقي إلى مقرِّي في الجمعية لكني كنتُ في حالةٍ خيالية، وغائباً تماماً عن الوعي.

في الجمعية قطَبَ طبيبٌ شابٌ متعاطفٌ شفتي.

هكذا توقَّفتْ جولاتنا معاً في ساحة تايمز فترةً طويلة. وأتساءلُ إنْ لم يكن عنصر الجذب فيها هو روح الصُحبة، هو وجودنا معاً؟

لن أتراجع عن تقريري حول حبي المُصعَّد لهذا الصديق، ولِمَ أفعلُ؟ إنَّ الزمنَ لا يؤثِّرُ في الصداقة الحقيقية، ولا الفِراق.

* * *

أذكرُ " لعبة الحقيقة " التي جرَتْ في شقة تالولا الفخمة في كوكونت غروف، خلال حقبة الخمسينات، حيث كانت تُعدُّ لشنِّ هجومها على دور شخصية بلانش. وأثناء لعبة الحقيقة هذه، وحين جاء دور صديقٍ لصديقي الحميم ذي العينين الحالمتين لكي يسألَ عن الحقيقة حول حَلَقَة اللاعبين، سألني عن سبب توقُّفي عن الاهتمام بذلك الفتى.

قلتُ له " يا عزيزي، إنَّ كُلاً منا وجدَ لنفسه عشّاقاً آخرين. هو عثرَ عليكَ وأنا عثرتُ على فرانكي - وكلانا انغمسَ في حبه إلى درجة أننا أهملنا صداقتنا .

* * *

أثناء فترة افتتاح مسرحية " لقد لمستَني! " في برودواي في عام ١٩٤٦ بدأتُ أشعرُ كما لو أنَّ حالتي الجسدية تتدهور، وهذا ما اتَّضحَ فعلاً. إلا أني كنتُ أستمتعُ بحياتي الاجتماعية والجنسية. كنتُ أحجزُ جناحاً في الطابق الثامن عشر من فندق شلتون. وكانت غرفتي تُشرِفُ على منطقة إيست ريفر وكانت هناك بركةٌ جيدةٌ للسباحة وحمَّامٌ على البخار في الطابق السفلي. وهكذا رحتُ أمارسُ رياضتي المفضَّلة، السباحة، وتوصَّلتُ أيضاً إلى أنْ أعقدَ العديد من الصداقات العابرة الممتعة التي حصلتْ في الغالب في حمَّام البخار. فقد كانت أجواءُ سُحُب البخار المحيطة بي دائماً تُثيرني جنسياً. إنني الآن أجدها شيئاً بغيضاً ولكن في تلك الأيام كنتُ ما أزالُ وسيماً وأنا عارٍ وكان كثيرٌ من مُرتادي حوض سباحة فندق شلتون وحمَّامه البُخاري يخلقونَ جواً ممتعاً جداً. كانت التسالي متواصلةً، نهاراً وليلاً. وفي تلك الفترة كان في نيويورك صديق قديم لي وكانت نشاطاته الناجحة في الحمَّام البخاري استثنائية. فقد كان بعد

كل جلسة في ذلك المُعتَزَل من بخار الماء يأتيني في جناحي بصحبة شابٍ مناسب وكان الأمرُ مريباً إلى حد أنَّ رجلَ الأمنَ الخاص بالفندق كان يتبعه حتى الجناح لكي يعرف إلى أين هو ذاهب، ويدوِّنَ الملاحظات حول ذلك.

أخيراً لاحظتُ أني قد بدأتُ أتلقَّى نظراتٍ بغيضةٍ ومُهينةٍ من مدير الفندق، لكنَّ ذلك لم يزعجني كثيراً لأنَّ علاقتي بالمديرين وصاحبات المنازل لم تكن قط حَسَنَة، أقصد أنها لم تكن كذلك خلال سنوات انعتاقي.

وهكذا سارت الأمورُ سيراً ممتعاً حتى أوائل شهر كانون أول حين بدا بشكلٍ لا يرقى إليه الشك أنَّ صحتي تتدهور. فتركتُ جناحي في فندق شلتون وغادرتُ إلى نيو أورلينز قبل موسم عيد الميلاد، لكي أعيشَ حياةً هادئةً، كما أوصى الطبيب. وفي ذلك الوقت كنتُ ما أزالُ نسبياً ثرياً ونزلتُ في فندقٍ مُترفٍ، هو البونتشرترين، عند حافة غاردن ديستريكت. وأذكرُ أني كتبتُ إحدى المسرحيات ذات الفصل الواحد المُفضَّلة لدي هناك. كان اسمها " العشاء الهزيل "، ولا أدري لماذا لا تُعرَضُ إلا لِماماً فهي مسلِّيةٌ جداً.

لكني كنتُ وحيداً هناك وأشعرُ بالوحشَة وبدأتُ أفتِّشُ في الإعلانات التجارية عن شققٍ مفروشةٍ في فيو كاريه كنتُ قد أقمتُ فيها في زياراتٍ سابقةٍ لنيو أورلينز. وكنتُ محظوظاً جداً إذ عثرتُ على شقَّةٍ جميلة الأثاث في شارع أورلينز قريبة من خلفية كاتدرائية القديس لويس. كان فيها شرفةٌ خارجية وعندما كنتُ أجلسُ في تلك الشرفة كان في وسعي أن أشاهدَ في الحديقةِ الخلفيةِ للكاتدرائية التمثال الحجري الضخم للمسيح وقد مدَّ ذراعيه واسعاً وكأنه يدعو العالمَ المتألِّم إليه.

في ذلك الفصل الذي أمضيته في نيو أورلينز لم أعِش وحدي وإنما مع صديق. (نظراً إلى طبيعة هذه المذكرات الصريحة وغير المُهاوِدة، ولعلَّها ميزتُها الأساسية، يُفضِّلُ عددٌ من الأصدقاء ألاَّ تُقرَن أسماؤهم باسمي في سياق قصة حياتي هذه. إنني أفهمُ هذا التفضيل وأحترمه. وكان يمكن أن أُلفِّقُها كما أُلفِّقُ الشخصيات الأدبية، فأجعلها مختلفةً عن حقيقتها، لكنَّ هذا ينتهكُ الفَرَضيَّةَ الأولى لهذا الكتاب، لذا أُفضِّلُ أن أحذفها كلها، على الرغم من الفراغ الذي سيُخلِّفه هذا في عملٍ هو مسرحٌ لكافة الـ dramatis personae (الشخصيات المسرحية) لحياتي الماضية التي تهمُّني.

ولعلَّ بعضهم سيفرح بحذف تفاصيل معيَّنةٍ وجدتها نابضةً بحيويةٍ مُحبَّبة لكنها تؤذي حساسياتهم الحالية. ومن ناحيتي، سوف أحذف اسمَ الصديق الذي أكتبُ عنه الآن)

بالنسبة إلى هذا الصديق بالذات والذي احتلَّ مركز حياتي منذ أواخر عام ١٩٤٦ وحتى على الأقلّ منتصف العام التالي، والذي لا يزالُ من بين أقرب أصدقائي المُقرَّبين، سأقولُ فقط الآن، إنه خلَّصَني، خلال تلك الفترة، من بلواي الكبرى، والتي هي ربما الموضوع الرئيسي لكتاباتي، بلوى الوحشة التي تلاحقني كظلِّي، وهو ظلٌّ ثقيلٌ جداً لا أقوى على جَرِّهِ ورائي على امتدادِ أيامي ولياليَّ...

* * *

في أول الأمر عشتُ حياةً منعزلةً بالنسبةِ إلى ساكنٍ في نيو أورلينز، تلك المدينة الاجتماعية. واختزلت نشاطاتي في الغالب إلى ممارسة الكتابة. كان الأمرُ صعباً في البدْ، إذ بدا أنَّ العملَ لم يعُد له الزخم القديم. شعرتُ وكأنَّ سُمّاً ضعيفاً يتغلغلُ في جهازي الحي. وكان لابد لي أن أحافظَ على طاقتي.

أخيراً توصَّلتُ في ذلك الفصل إلى أن أستمدَّ قدْراً كبيراً من التسليةِ من مجتمعِ النخبة في نيو أورلينز الذي كان في تلك الأيام متمركزاً بشكلٍ أساسي، وليسَ كُلِّياً، على الجانب الأبعد من شارع القنال، فيما يُسمَّى بمنطقة الحديقة (غاردن ديستريكت).

ذات مساء قرَّرتُ أنَّ صحتي جيدة بما يكفي لأُقيمَ حفلةً لأصدقائي المُنتَخَبين اجتماعياً في شقتي الصغيرة في شارع أورلينز. وربما لم تكن بعضُ الفتيات اللواتي يُلبِّينَ دعوتهنَّ الاجتماعية الأولى قد دخلنَ قط شقتي الكائنة في فيو كاريه، اللهم إلا إذا كان ذلك قد حدثَ في أبنية بونتالبو الموجودة في ساحة جاكسن، وهي المساكنُ " المحترمة " الوحيدة في ذلك الحي. أقصد برأي أمهات منطقة غاردن ديستريكت.

وكانت حفلتي مناسبةً جداً.

أذكرُ زائرةً شابةً مُستجدّةً طلبَتْ أن ترى غُرفة نومي.

" ولم لا؟ إنها جميلة جداً "

هتفَتْ السيدة الصغيرة " سيُرينا غرفة نومه! "

واحتشدَ الحفلُ كله.

بدا أنها أعجبتهُم. ومَنْ لا تُعجبه؟ إنَّ غرفة النوم إما تكون أجمل غرفةٍ في المنزل أو أبغضها: هذه كانت تنتمي إلى الفئة الأولى.

ثم التفتَ أحدهم إلى رفيقي في الشقة.

" والآن أرِنا غرفتكَ أنت "

" أوه، أنا - "

لعلَّه كان يعلمُ أنَّ ثمة فضيحةً يُعَدُّ لها وأرادَ أن يتفاداها لكني وجدتُ أنَّ من الطبيعي تماماً أن أقولَ " إننا نشتركُ في هذه "

أعتقدُ أنَّ الصمتَ الذي رانَ إثرَ تصريحي لم يكن طبيعياً على الإطلاق.

الحقيقة هي أنَّ السريرَ كان وَسَطاً ما بين المفرد والمزدوج...

بدأتْ الزائرات الجديدات تتهامسُ مع مرافقيهن، ودارَت بينهم أحاديثُ سرِّية صغيرةٌ وسرعان ما بدءوا يشكروننا على تلك الأمسية الرائعة والممتعة ويغادرون وكأنَّ عاصفةً توشكُ أن تهبَّ.

أعتقدُ أنَّ ذلك كان أفضل. إنَّ موقعي في المجتمع كان عندئذٍ، وربما ظلَّ دائماً منذ ذلك الحين، بين البوهيميين. وبين وقتٍ وآخر أُحبُّ أن أقومَ بزيارةِ الجانب الآخر، ولكن على جواز سفري الاجتماعي يوجدُ ختمُ دنيا البوهيميين الذي لا يُمحى، ولا أندمُ عليه.

لقد تجاهلتُ ذِكرَ حادثةٍ غير عاديةٍ وقعَتْ بُعيدَ الدمار المفاجئ للحفل.

فبعدَ نصف ساعة من إطلاق الزائرات الجديدات ومُرافقيهنَّ سيقانهم للريح وهَمَمنا أنا وصديقي أن نأوي إلى الفراش، سمعنا طرقاً قصيراً، وعصبياً، على الباب. ارتديتُ مبذلي وفتحتُ البابَ لأرى أمامي أوسم الشبان الذين حضروا حفلي. لم يكن يرتدي غير معطفٍ واقٍ من المطر، وحالما فتحتُ له البابَ خلعَ عنه معطفه، واندفعَ إلى غُرفة النوم وانطرَحَ على السرير وأخذَ يجهشُ بالبكاء.

ظلَّ يردِّدُ القول " أخيراً قيلَ شيءٌ من الحقيقة وهاهم لا يستطيعون تقبُّلها "، إلى أن دفعنَاه إلى النوم.

في الصباح شرحَ لنا قائلاً إنه، ولسببٍ ما مبهم له ولنا طبعاً، خلعَ ملابسه وهو في سيارته وعادَ إلى شقتنا لا يسترُ جسَدَه غير المعطف الواقي من المطر.

هاهي الزهورُ المُسمَّاة خالدة

خُلِقَتْ لتُحفَظ تحت أجراسٍ زجاجية.

خلال ذلك الفصل أخذَ الكسلُ الجسَدي الذي كان قد بدأ يُثيرُ قلقي يؤثِّرُ باطِّراد على كتابتي، فقد بدا لي أنَّ العملَ لم يكن يسيرُ بـ elan vital (الحيوية النشطة) المعتادة. كنتُ أعاني من تعب غريبٍ من نوعه. كنتُ أستيقظُ في الصباح وأشربُ قهوتي المُرَّة المُركَّزة كعهدي في السابق لكنَّ قوايَ لم تكن تستجيب. وكل ما أذكره مما كتبتُهُ في تلك الفترة في الحي الفرنسي مسرحيةً صغيرةً تُدعى " عشرة أبنيةٍ على طريق كامينوريل ". أرسلتُها إلى أودري وود وانتظرتُ بضعة أسابيع قبل أن أحصلَ منها على اعترافٍ بأنها قد استلَمَتها. وكان الاعترافُ ذا طبيعةٍ غريبة. فقد كنتُ أتناولُ طعامَ العشاء في أحد المطاعم حين تلقَّيتُ مكالمةً هاتفية. إنها أودري تكلِّمني من نيويورك.

قالت بحدَّة " بخصوص المسرحية التي أرسلتَها إليَّ، ارمها، ولا تُريها لأحدْ "

أعتقدُ أَنَّ أودري لم تُدرك قط إلى أي مدى كنتُ خاضعاً للاكتئاب فيما يخصُّ عملي وإلا لاشك في أنها ما كانت لتتلقَّى المسرحية بذاك الشكل الغريب. لكنَّ الوكلاء يعيشون في عالم مختلفٍ بعيدٍ عن الفنانين الذين يمثِّلونهم. وهم في الغالب يُتقنون عقد الصفقات لكنَّهم أحياناً شديدو البلادة في تقديرهم لعملٍ فنيِّ أصيلٍ ومُذهلٍ في مراحله المُبكِّرة. وأخشى أنه ربما عَملَتْ مكالمتها الهاتفية على منعي من أن أجعلَ من مسرحية " كامينوريل " مسرحيةً غايةً في الجمال بدلَ تلك القطعة الفنية المذهلة ولكن الناقصة التي آلتْ إليها بعد ذلك بعدَّة سنوات.

أرجو أن تتذكَّر أيها القارئ عند هذه النقطة أني قادرٌ تماماً على أن أكونَ مُجحفاً. إنني لستُ مُجحفاً عن عمد. لكن أعتقدُ أنه لا أحدَ عرفَ قط، باستثناء إيليا كازان، كم كان عملي مُهمّاً بالنسبةِ إليَّ وأني تعاملتُ معه على هذا الأساس - أم هل أقول مع مؤلِّفه - بالتعاطُف الوجداني اللازم.

في ربيع عام ١٩٤٦ وقعَتْ لي أحداثُ كثيرةٌ ذات طبيعةٍ مزعجةٍ جداً، سوف أتعرَّضُ لها مباشرة وببساطة.

كان الطقس في شهر أيار يتحوَّلُ إلى حارٍّ ثقيلِ الوطأة في نيو أورلينز. وبدأتُ أفكرُ في نجد نيو مكسيكو البارد الذي كنتُ قد قابلتُ فيه فريدا لورانس ودوروثي بريت وسبدز جونستن وويتر باينر، وحيثُ كنتُ قد باشرتُ بتأليف مسرحيةٍ عن

لورانس، وأنا أقرأ رسائله الكاملة، التي نشرها ألدوس هكسلي. وأعتقدُ أنَّ تلك الرسائل هي أعظم أعمال لورانس ولن أنسى دهري الرسالةَ الأخيرة. كانت مؤلَّفة من سطرٍ واحدٍ ويُشيرُ فيها إلى المصحِّ الذي مات فيه: " إنَّ هذا المكان سيئ ". وكان من فرط الضعف بحيث لم يكتب أكثر من ذلك. وأذكرُ روايةَ فريدا لاحتضاره في سياق مذكَّراتها الجميلة، والموضوعية، عن حياتها معه. فبينما هو يحتضر، قال أخيراً " أعتقدُ أنه حان الوقت لأخذ المورفين ".

قـرَّرتُ أن أعـودَ إلى المنبع الأسـاسي وأقـابلَ من جـديدٍ آل لورانس أولئك وأن أستنشقَ هواءَ الجبالِ النقيّ. ولكن، ويا للأسف، قرَّرتُ أن أتوجَّه إلى هناك بالسيارة في حين أنَّ صديقي سبقَني بالقطار. فذهبتُ إلى موقف السيارات المُستعمَلَة فباعني بائعٌ ذو نظراتٍ ماكرةٍ، لعلَّه كان قريباً لرئيس جمهوريةٍ كان مؤخَّراً في السلطة، بضاعةٍ مضروبة. كانت سيارة باكارد دُهِنَتْ حديثاً باللون الأسود وذات غِطاءٍ قابلٍ للطيِّ. بدتْ رائعة. لكني ما أن قطعتُ نصفَ الطريق إلى دلتا نهر الميسيسيبي، وقد نويتُ أن أمرَّ خلال سينت لويس لأقومَ بزيارةٍ قصيرةٍ لعائلتي، حتى تعطَّلَتْ للمرة الأولى. أخذَ الماءُ يغلي ويتدفَّقُ من المشعاع وتوقَّفَتْ السيارة على الطريق العامة. أصلحتُ المشعاع وتابعتُ طريقي إلى سينت لويس. وأذكرُ أنَّ والدي خرجَ لكي يُلقي نظرةً إلى سيارتي الرياضية فهزَّ رأسَه بارتيابٍ، وعلَّقَ قائلاً " لا تبدو لي بضاعةً متينة " وكان على حق. لكنَّ ما حصلَ في سينت لويس هو أنه في وقتٍ متأخِّر ذات ليلة، وبعد إصابتي بحالةِ إسهالٍ، شعرتُ بألمٍ ممضٍ في بطني.

انتـبني رعبٌ حقـيقي، لكني صمَّمتُ على أن أواصل رحلتي إلى أرض المنبع في صباح اليوم التالي، ولم آتي على ذكر الألم الحادّ وانطلقتُ في طريقي بعد تناول طعام الإفطار.

تواصلَ الألمُ، بدرجاتٍ متفاوتة من الشّدة، طوال اليوم الذي تلا والليل. ثم، عندما أصبحتُ خارج مدينة أوكلاهوما، بدأ شيءٌ تحت غطاء السيارة يقرقعُ بضجيجٍ متصاعد وتباطأت السيارة حتى وقفتْ ورفضَتْ أن تُقلِع من جديد.

أوقفتُ إحدى السيارات المتوجِّهة إلى المدينة وذهبتُ إلى مرآبٍ وهناك طلبتُ من ميكانيكي أن يُحضِرُ السيارة لإصلاحها.

ثم حجزتُ غرفةً في أحد الفنادق. عندئذٍ كان ألمي قد خفَّتْ حدَّته وتقلَّص. وكنتُ كلما خطوتُ خطوةً أشعرُ بطعنةِ ألم في أسفلِ مجرى البول، وكان أمضُّ ألم عانيته قاطبة. وعثرتُ على طبيبٍ محلِّي قال لي إنني ربما كنتُ مُصاباً بحالةِ التهابٍ حادٍّ في الزائدة الدودية وإنه ربما كانت الزائدة الدودية في وضعٍ غير عادي ولهذا أتألَّمُ عندما أقذفُ خلال مجرى البول. وقال إنه ينبغي أن أتوجَّهُ من فوري إلى مستشفى في ويتشيتا، في ولاية كنساس.

في صباح اليوم التالي عملتُ بنصيحته وذهبتُ إلى ويتشيتا في حافلةٍ نهاريةٍ وحجزتُ غرفةً في مستشفى حيث خضعتُ لمحنةٍ حقيقية. وقد شخَّصوا لي التهابَ الزائدة الدودية أيضاً، لكنَّهم احتفظوا بي في المستشفى عدة أيام، وأجروا لي فحوصاً بالأشعة السينيّة. لاحظتُ أنَّ الأطباء يتهامسون. وحالما اقتربُ منهم وأنا برداء المستشفى، في انتظار الفحص التالي، يسكتون. قالوا إني ربما مُصابٌ بهياجٍ مُزمن في الزائدة الدودية. وبعد مرور ما يُقاربُ الثلاثة أيام أطلقوا سراحي. عدتُ إلى مدينة أوكلاهوما، حيث باتت السيارة الآن متوقفة إلى الأبد في المرآب. وصاحبه - الذي كان أحقر ابن حرام عرفتُهُ في حياتي، وقد عرفتُ خلالها عدداً كبيراً من أولاد الحرام الحقيرين السَفَلَة - قال لي إنَّ الحوامل قد احترقَتْ وإنه لا يعرفُ متى سيتمُّ إصلاحها.

وهكذا انطلقَتُ في صباح اليوم التالي أبغي أرضَ المنبع بواسطة القطار.

وصلتُ إلى هناك ووصلَ معي الألم. والحقيقة هي أنه حينئذٍ كان قد استفحلَ كثيراً. وكان صديقي قد استأجرَ لنا منزلاً لكنَّ النوم جافاني ولم يكن معي عقار قاتل للألم أو أقراص مُسكِّنة.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى مستشفى صغير كان قد أُنشئ في أرض المنبع على يد ميبل دودج لوان ويُديرها طبيبان وسيمان. وكانت الراهبات كاثوليكيات. كان مستشفى صغيراً رائعاً بصورةٍ ما. وكان الطبيبان حكيمَين بحيث أجريا لي تعداداً للدم. وقد صُعِقا جراء كمية خلايا الدم البيضاء، وقالا إنَّ تعليل ذلك هو أنَّ لديَّ زائدة دودية مثقوبة وأنه يجب أن أُجري عملية جراحية فوريّة إذا كنتُ أتوقَّعُ أن أبقى على قيد الحياة.

حدث ذلك في المساء. مكثَ صديقي معي في المستشفى وأبديتُ رغبتي الأخيرة وكتبتُ وصيَّتي وحَلَقَ الطبيبان شعر عانتي استعداداً لإجراء العملية الجراحية. ولم يكن لديّ ما أُخلِّفه غير مخطوطة مسرحية " معركة الملائكة " فتركتُها لصديقي. أخذَ الوصية ومزَّقها إرباً. (كان دائماً يمرُّ بلحظاتٍ فخمةٍ وكانت هذه إحداها). حملوني إلى غرفة العمليات. وبينما كنتُ أخضعُ لتأثير المُخدِّرِ انتابني إحساسٌ بالموت، فخرجتُ وأنا أحاولُ أن أُمزِّقُ قناع التخدير عن وجهي وأنا أصرخ " إنني أموت، إنني أموت! "

حين أفقتُ كنتُ في غرفتي في المستشفى، والراهبة التي تعملُ أخصائيّة علم الأمراض في المستشفى كانت تتنقَّلُ بنشاطٍ ومرحٍ في أرجاء الغرفة. قالت لي إني مكثتُ على طاولة العمليات مدة سبع ساعات.

ثم أبلغتني قائلة " سوف تتحسَّنُ حالك ربما بعض الوقت. طبعاً كلنا سنموتُ في وقتٍ من الأوقات "

حين جاء الطبيبان الشابان إلى غرفتي في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم أخبرتهما بما قالته لي أخصائية علم الأمراض، وبأني أعتقد أني سأموت. فانتابهما اضطرابٌ عظيم، وكانا حانقَين من أخصائية علم الأمراض وأنزلوا بها توبيخاً عنيفاً. وسرعان ما اندفعتْ إلى غرفتي وقالت " لا يهمني ما تعاني منه، لا يعني لي أي شيء "

أبلغني الطبيبان أنهما أزالا ما سمّياه بـ Maecles Diverticulum من المعي الدقيق (وهي حالةٌ مَرَضيَّةٌ نادرة)، وكان يحتوي نسيجاً من البنكرياس وأنه كادَ ينفجر وهو ما يُعلِّل وجود عددٍ هائلٍ من خلايا الدم البيضاء.

خرجتُ من المستشفى في غضون بضعة أيام، وقد تخلَّصتُ من الألم، واتَّصلتُ بفريدا لورانس.

أبدتْ رغبتها في أن تأخذني إلى مزرعة لورانس في الجبال، وانطلقنا. ولسببٍ ما، لعلَّه الارتفاع، شعرتُ بانتعاشٍ عارم. وكنا قد توقَّفنا في حانةٍ على جانب الطريق وابتعنا إبريقاً كبيراً من النبيذ وشربنا وضحكنا أثناء متابعة طريقنا مُرتقين الجبل، وفجأةً وجدتُني عاجزاً عن التنفُّس. قلت " أرجوك أوقفي السيارة، لا أستطيع أن أتنفَّس! "، فخرجت ووقفتُ تحت شجرةِ صنوبر لكنَّ انحباس التنفُّس ظلَّ على حاله. لابد أننا كنا على علوّ ثمانية آلاف قدم بين الجبال فباشرنا رحلةَ الهبوط بسرعةٍ

جنونية. كان الأمرُ لأشبه بمشهدِ سباق في فيلمٍ سينمائيّ. وقد قادت فريدا تلك السيارة وكأنها عربة حريقٍ وظللتُ أشربُ النبيذ وأكافح لأتنفَّس. عدنا مباشرةً إلى المستشفى. قال لي أحد الأطباء " طبعاً ما كان في استطاعتك أن تصعد إلى علوّ ثمانية آلاف قدم بقلبك الذي تحمَّلَ عمليةً جراحيةً استمرَّتْ سبع ساعات.

لم يسبق لي أن أسهبتُ في الكلام عن تلك التجربة التي وقعت في ربيع عام ١٩٤٦. لقد كانت بمثابة بداية فترةٍ ما يُقاربُ ثلاث سنوات حسبتُ خلالها أني أحتضر. كنتُ من شدَّة الاقتناع بأني رجل يحتضر بحيث أني حين طلبَ بيل ليبلنغ، في نيويورك، أن أشتري بذلة جديدةً، فعلتُ ذلك على مضض لأني كنتُ أعتقد أني لن أعيشَ حتى أُسوِّغ شراءها.

بمجرَّد عودتي إلى مانهاتن في أواخر ذلك الربيع أعدَّ صديقي العزيز البروفيسور أوليفر إيفنز العدَّة لي كي أقطن مع سيدةٍ عجوز كانت تعيشُ وحدها في شقةٍ من طابقين. وكانت السيدة العجوز التي مكثتُ معها تنتمي إلى طبقةٍ اجتماعية راقية وثرية لكنها كانت مريضة ووحيدة، لا يحيط بها إلا الخدم. تسليتُها الغريبة، أو هوايتها، كانت أن تقصَّ من الصحف والدوريات كل ما تعثر عليه عن السيناتور جوزيف مكارثي من أخبارٍ قيِّمة، إذ كانت تعتبره صليبيّاً مقدساً يشنُّ حرباً على الرعب البولشفي في الولايات المتحدة. وتسلياتها الأخرى كانت الرقص بعد العشاء في غرفة جلوسها أو تناول طعام الغداء أو العشاء في نادٍ فاخر. وكنا نحبُّ أن نتناول طعام العشاء والغداء معها لكننا كنا نشعرُ بشيءٍ من الإحراج حين تقترح قائلةً: " هلاّ رقصنا ؟ "، فقد كانت من شدة المرض والنحول بحيث أن الرقص معها كان أشبه بالرقص مع هيكلٍ عظميّ يرتدي ثوباً من الحرير. وكانت تصرُّ على القول إنَّ أطباءها يعجزون عن أن يجدوا أي خلل عندها فيما عدا " بعض الالتحامات جرّاء العملية التي أُجريَت لها ". لقد كانت طريفةً بشكل مؤثِّر جداً.

في نحو ذلك الوقت عثرتُ على رفيقٍ جديد، بعد أن تخلَّى عني ذاك الذي يُفضِّلُ ألاّ يُطلَقَ عليه أي اسمٍ في هذا الكتاب.

الرفيق الجديد قَبلَتْهُ مضيفتنا بكل هدوء. وقَبلَ أن يرقص معها بكل سرور. وعملَ كموديلٍ لها لكي تنفِّذَ تلك الصور الشخصية العالية التقنية، ولكن التقليدية.

ذات يوم قالت لي العجوز الغريبة الأطوار بشكلٍ فاتن: " أريدُ أن أقيم حفلةً على شرفك. انتقِ بعض الأصدقاء من هذا الكتاب "

الكتاب الذي ناولتنيه كان "السجل الاجتماعي" لمدينة نيويورك، والصديق الوحيد الذي استطعتُ أن أعثر عليه فيه، وهو أحد أقربائي البعيدين، كان السيدة إنْمَنْ، سليلةُ آل كوفن، وهي سيدةٌ من طبقةٍ راقية ولكنها ابتُليَتْ بفتراتٍ من الكآبة الشديدة. كانت قبل ذلك ببضعة أشهر قد عادت من أوروبا وبحوزتها نصف مليون دولار مربوطةً بشريطٍ مُخرَّمٍ بلجيكي. ثم صَعَقَتها كآبةٌ عميقةٌ، وأُهمِلَ الرباط المُخرَّم ولم يوضع في شروطٍ تحميه من أن يناله العثّ، فأكله العث. أه، أي أهميةٍ لهذا tant pis. لقد كانت مع ذلك تُحرِزُ تقدُّماً في التخلُّص من أعراض اضطرابها النفسي وحَضَرَتْ الحفلة، يلُفُّها صمتٌ مُطبِق، لكنَّ حضورها كان كريماً. وكان لابد لي من أن أعترف لمضيفتي أنَّ تلك القريبة كانت الوحيدة التي عثرتُ على اسمها في السجل.

حين سمعتْ السيدة هذه المعلومة بدتْ وكأنها تكادُ تسقطُ ميتةً، لكنها سرعان ما تماسكتْ بلباقة.

قالت " آه منكم أيها الفنانون! "

ثم سمحتْ لي أن أدعو أصدقائي من وَسَطي الاجتماعي في نيويورك. ويسعدني أن أقولَ إنها قضتْ وقتاً ممتعاً في ذلك الحفل.

* * *

الآن يجب عليَّ أن أُلفِّقَ، وكم أكره التلفيق في سياق هذه المذكرات، اسماً لرفيقي الجديد الذي قابلته في نيويورك. كان أشبه بقديسٍ غير عادي، لذا سأسمّيه سانتو. والجانب السيئ منه (وقد تغلَّبَ عليه) كان عادة الإدمان على شرب الخمر التي كانت أحياناً تجعلُ سلوكَه مُتقلِّباً بشكلٍ يُثير القلقَ ومذهلاً.

لم يفهم أنَّ لديَّ عدداً من الأصدقاء الشبان الأفلوطونيين في نيويورك، كان يعتقد أنَّ كل ما يشغلني هو ارتباطات العمل والعشاق، وأنهما غالباً مترابطان. والحال حتماً لم يكن كذلك.

ذات مساء في مانهاتن كنتُ جالساً في بهو فندق ألغونكوين أتبادلُ الحديث الشيِّق مع صديقٍ قديمٍ وعشيقته، وإذا بسانتو يندفعُ إلى بهو الألغونكوين، المزدحم

بأنماطٍ من سكان الضواحي، يشبهون كثيراً العجائز اللواتي يظهرنَ في الرسوم الكاريكاتيرية لصحيفة نيويوركر. وفي عاصفةٍ من الحنق صرخَ في ضيفيَّ الشابين الفخيمين " أنتما أيضاً أكبر عاهرتين في برودواي ".

خلا البهو من كل سيدات الضواحي في سرعة البرق بينما كان سانتو يصُبُّ سيل شتائمه. وأخيراً التفَتَ إليَّ وقال " اذهب إلى الرويالتن، وانظر ماذا فعلتُ! "

(كنا ننزل في فندق الرويالتن، الذي يقعُ مباشرةً أمام فندق الغونكوين عبر الشارع الرابع والأربعين)

وهكذا، توجَّهتُ إلى هناك واكتشفتُ أنه، وبدون مبالغة، قد مزَّقَ ملابسي إرباً، ودمَّرَ آلتي الكاتبة وحقيبتي. إلا أنه، ولسببٍ مجهول، لم يمسّ بأذى مخطوطاتي.

لاشك في أنه كان يجب أن أقطع صلتي بسانتو، لكنه كان مسحوقَ الفؤاد يُثيرُ الشفقة. وكنتُ قد أعددتُ العدَّةَ للذهاب إلى جزيرة نانتكت، التي ازدهرَ فيها ذات يوم فرعُ آل كوفن من عائلتي، ولم أرغب بالذهاب وحدي، فسمحتُ لسانتو بمرافقتي. وعلى جزيرة نانتكت استأجرنا منزلاً خشبياً رمادي اللون يقعُ بعيداً قليلاً عن الأماكن المأهولة ولا أدري لماذا لا أزالُ أذكرُ عنوانه بوضوح: ٣١، شارع الصنوبر.

في تلك الفترة كتبتُ رسالةً إلى كارسُن ماكَلَر[٢٩]، وهي كاتبةٌ لم أكن أعرفها، ملأتُها بتقريظٍ صادق لروايتها الجديدة، " عضوٌ في حفل الزفاف "، وفي الرسالة أخبرتُها أني شديد الاشتياق إلى لقائها.

لابد أنها كانت رسالةً مُقنِعةً لأنها بعد مرور بضعة أيام جاءتْ إلى نانتكت. ترجَّلتْ من المعدِّية وبدتْ مفرطة الطول وهي ترتدي بنطالاً فضفاضاً وتعتمرُ قبعة لاعب بيسبول، وترسمُ ابتسامتها البهيجة التي تكشفُ عن أسنانٍ منحنية.

بعد أن تبادلنا التحيات الودِّية، عبَّرَتُ عن رغبتي في أن أذهب إلى الشاطئ لأسبحَ، فقالت إنَّ ذلك يناسبها تماماً. وتوجَّهنا إلى الشاطئ، وكان سانتو شديد السُكر لكنه رافقنا.

على الشاطئ حدثَ أمرٌ أجده مضحكاً حين أستعيده. فقد بدّلنا، كارسن وأنا، ملابسنا بثوب السباحة لكنَّ سانتو كان ما يزالُ في غرفة الحمَّام، وفجأةً صدرتْ ضجَّةٌ عظيمة من الداخل، ثم خرجَ سانتو مندفعاً إلى الشرفة الأمامية. وكان في تلك الشرفة

الأمامية صفٌ طويلٌ من الكراسي الهزّازة جلسَتْ على كل كرسي منها سيدةٌ عجوز. ولسببٍ ما لم تُعجبه نظرتهن إليه وحوّلَ جامَ غضبه عليهن.

صرخَ بأعلى صوته، مُخاطباً أولئك العجائز " علامَ تنظرنَ؟ ما أنتنَّ إلا حفنة من مصّاصات الأير العجائز "

في الحقيقة، أعتقدُ أنَّ مثل هذا الموقف لن يخلقَ أي تأثيرٍ مدوٍ هذه الأيام، لكني مُندهش لأنَّ السيدات العجائز عندئذٍ، أي في عام ١٩٤٦، لم يسقطنَ عن كراسيهن الهزّازة مغشياً عليهن.

ابتهجتْ كارسن، وقالت " عزيزي تنيسي، إنَّ ذلك الفتى رائع، وأنتَ محظوظ لاحتفاظك به! "

لم أقتنع بأي حال بكلامها، لكننا ذهبنا إلى هناك وقمنا بشؤون منزل ٣١ شارع الصنوبر، وذلك قبل أن تمرض كارسن. كانت طبّاخةً جيدةً وكانت تقوم بترتيب المنزل أثناء إعدادها للوجبات. وسارَ كل شيء على أحسن ما يرام فترةً من الزمن. وقد شغلَتْ هي غرفة الضيوف في الطابق السفلي ونمنا أنا وسانتو في الطابق العلوي. وحافظَ سانتو مؤقتاً على هدوئه. وكانت كارسن تعزفُ على البيانو وتخلقُ جواً من التناغم في المكان.

ذات ليلة قصفَ رعدٌ عظيم وتكسَّرَ زجاجُ جانب واحد من المنزل كله ولم يُصلَح أبداً.

تسلّلَتْ قطةٌ حبلى من خلال إحدى النوافذ وولدتْ عدداً كبيراً من القطيطات على سرير كارسن. وقام سانتو بدور القابلة، وسقى القطة، بما يتَّصفُ من رقَّةٍ، وحدسٍ حيوانيّ خاص، أثناء ولادتها، ملاعق صغيرةً من الويسكي ليُحافظَ على طاقتها. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أرى فيها حيواناً يشربُ الويسكي لكنه فعل فعلهُ وزوَّدتنا القطةُ بثماني قطيطات أو تسع. إلا أنه كان للقطة عادة سيئة هي إحضار رؤوس سمك بائتة إلى المنزل، من خلال النوافذ المحطَّمَة الزجاج. ولم تنزعج كارسن لذلك، وفي الحقيقة كانت تتسامحُ مع كل شيء وأي شيء. وفي ذلك الصيف جلسنا قبالة بعضنا على الطاولة وعملنا معاً، هي على النسخة المسرحة من رواية " عضو في حفل الزفاف "، وأنا على مسرحية " صيفٌ ودخان "، وكنا في الأمسيات يقرأ كلٌ منا للآخر ما أنجزه خلال النهار.

في وقتٍ لاحق من ذلك الصيف حضرَ زوجها، ريفز ماكلر، وانضمَّ إلينا. كان جندياً سابقاً في سلاح البحرية وفي ذلك الوقت لم أجد فيه ما يُثيرُ الإعجاب. ولم تكن صحبته ممتعة. بدا لي كئيباً ومنطوياً وكذا كنتُ أنا، وقد قاطعَ صحبتي السعيدة مع كارسن.

لم تكن صحتي قد تحسَّنت، بل كانت من السوء بحيث لم أتمكن من الاحتفاظ بالطعام في جوفي، فكنتُ أتقيَّأ تقريباً كل ما آكله، وهكذا انتهى فصلُ الصيف بعودتي إلى نيويورك ودخولي من جديد إلى المستشفى. وبقيتُ هناك مدة أسبوع تناولتُ خلالها أدويةً مختلفة وسرعان ما أصبحَ في إمكاني أن أعود إلى نيو أورلينز.

بعد ذلك الصيف بقيتُ أنا وكارسن صديقين، وأخذتْ الذكريات تتراكمُ مع مرور السنين. وأذكر ثلاث مناسبات هامة في حياتي كانت كارسن أثناءها حاضرةً، وفي عمليات الخروج تلك كان لكارسن ولي دور: كانت ثلاثاً من أطول ما أذكُر من عمليات الخروج وأشدَّها إيلاماً.

إحداها كانت الخروج من حفل عيد ميلاد أقامه ناشرو كتبي لديلن توماس، وكانوا أيضاً ناشري كتبه. وعندما قدَّموني إليه كلّ ما قاله على سبيل الاعتراف بي كان ما يلي: " كيف تشعر وأنتَ تكسب كل ذاك المال من هوليوود ؟ "

حين أستعيد ذكرى ذلك أرى أنه كان مفهوماً تماماً وممكناً غفرانه، غير أنه آلمني بشدَّة. لقد تجاهلَ وجود كارسن. وبعد بضع هنيهات، قالت لي " عزيزي تن، هيا نخرج من هنا! " - حدثَ ذلك بعد إصابتها بالسكتة الدماغية، وبينما كنتُ أقودها خارج الاحتفال بعيد الميلاد، كانت ترتجفُ وهي تعتمدُ على ذراعي وبدا الخروج كأنه لن ينتهي.

كان هناك خروج آخر أكثر إيلاماً.

كانت كارسن قد أخطأت وحضرت حفل ليلة افتتاح مسرحيتها " الجذر التربيعي للروعة " وأخطأت أكثر عندما مكثت إلى أن خرجت كلّ المقالات النقدية.

لقد كانت بكل بساطة فظيعة.

مرةً أخرى قالت لي كارسن " ساعدني يا تن لأخرج من هنا "، وقد كان خروجاً أطول أمداً وأشدَّ إيلاماً.

الخروج الثالث الذي قمنا به معاً كان أيضاً من حفل ليلة افتتاح: الافتتاح الذي جرى في نيويورك عام ١٩٤٨ للمسرحية التي أنتجَتْها مارغو جونز وهي " صيف ودخان ". في تلك المناسبة كنتُ أنا الذي قال لكارسن: " هيا نخرج من هنا "، وكان أيضاً خروجاً طويل الأمد ومؤلماً، وكان الجميع يُحدِّقون إلينا، والتعليقات تتناثر... ولم تكن تلك التعليقات مُهذَّبة جداً. آنذاك كنتُ أعيش في شقة صمَّمها توني سميث في الشارع الثامن والخمسين الشرقي. وعندما استيقظتُ في الصباح كان ذلك على صوت موسيقى موتسارت. فقد كانت كارسن قد وصلت لتوها إلى الشقة وأدارت الأسطوانة لكي تُهدْهدْ لحظات استيقاظي.

في الحَقيقة لم أكن في مزاجٍ يجعلني أتأثَّر بالمواساة أو بالشفقة، وهذا الإقرار في الحقيقة لا يعزِّي كثيراً... فقلتُ لفرانك مرلو (الذي سيظهر في موقعٍ لاحق من هذا الكتاب، وقد ساكنته فترة طويلة، طويلة) أن يضع موسيقى موتسارت وأن يصحب كارسن إلى سيارة الأجرة قبل أن أغادر سريري.

كنتُ أريدُ أن أعاود عملي؛ وحدي، فوراً.

* * *

في نيو أورلينز، في خريف عام ١٩٤٧، حصلتُ على أجمل شقة شغلتُها في حياتي. كانت تقع في الطابق الأرضي من مقرّ ديك أورم القائم بالقرب من منعطف كنيسة القديس بطرس والرويال، ولما كان ديك يعملُ في مخزن للعاديات ويتمتَّع بذوق راقٍ، فقد كانت الشقة جميلة الفرش. وأكثر ما أعجبني فيها طاولة ضيِّقة طويلة موضوعة تحت منوَر يُزوِّدني بظروفٍ مثاليّة للعمل في أوقات الصباح. إنني لا أعرف مدينة من الأفضل الحصول فيها على منور غير نيو أورلينز. واعلمْ أنَّ نيو أورلينز تقع أخفض قليلاً من مستوى سطح البحر ولهذا ربما تبدو السُحُب والسماء قريبة جداً. وفي نيو أورلينز تبدو السحُب دائماً وكأنها مُعلَّقة فوق الرؤوس مباشرة. وأعتقد أنها بحقّ بخار يتصاعدُ من نهر الميسيسيبي وليست غيوماً حقيقية، وكانت من خلال كُوَّة ذلك المنوَر تبدو شديدة القُرب بحيث أنه لو لمْ يكن المنوَر مصنوعاً من الزجاج لاستطعتَ أن تلمسها بيدك. كانت شبيهة بالندف، وفي حالةِ حركةٍ متواصلة. كنتُ أبقى وحيداً طوال النهار، وأستيقظُ في الصباح الباكر، وأنا متناغَم مع عادتي، التي ما زالت جارية حتى هذا اليوم، وأتناول قهوتي السادة وأباشرُ العمل على الفور.

في ذلك الوقت كنتُ أواصلُ كتابة مسرحية " صيف ودخان "، لكنَّ المسرحية كانت شاقة. ولعلّ شخصية مس ألما وينملر هي أفضل شخصية نسائية ابتكرتُها في أي مسرحية. كانت ببساطة تبدو وكأنها موجودة في مكانٍ ما من كياني وكان من السهولة بمكان أن أُدوِّنها على الورق. غير أنَّ الفتى الذي تعشقه طوال فترة شبابها، جوني بيوكانن، لم يبدُ لي قط حقيقياً وإنما كان دائماً شخصيةً كرتونيّةً وكنتُ أدرك ذلك ويُكربني لكني بقيتُ أعملُ على المسرحية مدة شهرين، وأخرجتُ عدة مسوَّدات منها. وذات أمسية، بعد أن اعتقدتُ أنها قد اكتملت، قرأتها بصوت عالٍ على مسمعٍ من شابٍ كان يودُّني. فظلَّ يتثاءبَ وأنا أقرأ فكانت قراءتي رديئة، وعندما انتهيتُ أدلى بتصريحه المُدمِّر: " كيف يمكن لمؤلِّف مجموعة الحيوانات الزجاجية أن يكتب مسرحية رديئة كهذه؟ "

بقيتُ أشعرُ بانهزام ساحقٍ بضعة أيام، لكنني سرعان ما باشرت من حيثُ توقَّفَت في" عربة اسمها الرغبة "، التي كنتُ أُسمِّيها عندئذٍ " ليلة لعبة البوكر ". كتبتُ فيها بهوَس. فعلى الرغم من اعتقادي أني أحتضر، أو ربما بسبب ذلك، تملّكني حماس عظيم للعمل. كنتُ أعملُ من الصباح الباكر وحتى أوائل المساء، ومن ثم، وبعد أن تُستنفَد حمَّى الخلق، أذهب إلى حانة قريبة هي حانة فيكتور وأنعشُ قوايَ بمشروب رائعٍ يُدعى براندي ألكسندر، والذي كان من اختصاص تلك الحانة. وكنتُ دائماً أديرُ أسطوانة " لو لم أكن أحبك " على صندوق الموسيقى وأنا أرشف مشروب ألكسندر. ثم آكلُ شطيرةً ومن ثم أذهبُ إلى النادي الرياضي في شارع شمال رامبارت. كان يحتوي بركةَ سباحة تُغذَّى من تحت الأرض من مياهٍ ارتوازية وباردة بسبب قدومها من الأسفل وكانت تغريني.

بقيتُ على ظني بأني أحتضر من تأثير سرطان البنكرياس. لكنَّ جدّي، المحترم والتر إدوين ديكن، جاءَ بعدئذٍ ليعيشَ معي. كان مُصاباً بالإعتام في عينيه كلتيهما وتقريباً أصم. ولطالما كانت جدتي وجدّي بالنسبة إليَّ منبعاً عظيماً للدعم واللطف طوال حياتي. آنذاك كانت جدتي قد توفيت، لكنني أذكرُ وقارها الجمّ، خاصةً خلال الصيف الذي تلا حصولي على الشهادة من جامعة أيوا، وكانت جدتي وجدّي يقطنان معنا في سينت لويس. وكانت جدّتي قد دخلت المرحلة الأخيرة من ورمها الخبيث وأجبرت على أن تتخلّى عن بيتها الصغير في ممفيس.

حتى في ذلك الوقت كان جدّي تقريباً أصم تماماً وكان عليه أن يجلس القرفصاء أمام جهاز الراديو ليسمع نشرة الأخبار، التي كانت الشيء الوحيد الذي يحظى باهتمامه بين البرامج. كانت جدّتي تقفُ مفرطة الطول والنحول كطائر اللقلق خلف ستائر الواجهة الأمامية، وعندما يتقدم والدي بسيارته على طول الممشى تلتفت وقد تولاّها الفزع إلى جدّي وتهتفُ: " والتر، والتر، كورنيليوس قادم، اصعد إلى فوق بسرعة، لا تدعه يراك وأنت هنا في الأسفل! "

لكنَّ جدي المسكين كان يستغرقُ وقتاً طويلاً في ارتقاء ذلك الدَرَج وكان دائماً يُباغَتُ أثناء بذله الجهد للهرب من خلال مدخل C.Cذات الباب الذي يُغلَقُ بعُنفٍ.

يغمغمُ والدي " هاهو كلب الصيد العجوز ". لكنه كان دائماً يلتفتُ إلى الجدَّة ويقول" مساء الخير، سيدة ديكن "، فتردُّ عليه " مساء الخير، كورنيليوس ".

ثم تتقدَّم، غريزياً، من آلة البيانو وتعزف " دراسة " مُهَدْهِدَة لشوبان لكي تُخفِّفُ من وطأة الحادثة قدر الإمكان.

ويُقدَّمُ طعام العشاء على الفور تقريباً إبَّان عودة والدي إلى المنزل من المكتب، بعد مروره على حانته المُفضَّلة. ولا تبدو عليه أي دلالة جسدية على السُكر خِلاف الاحمرار الملتهب لعينيه الزرقاوين الصغيرتين النفّاذتين.

إنَّ كلّ ما ليس أسوأ مما اتَّصَفَ به اكتسبتُهُ بدون أدنى شك من جدَّتي، ماعدا ما يُميِّزُ آل ويليامز من غضبٍ وقوة تحمُّلٍ، إذا اعتبرناهما من الفضائل. وكل ما أنطوي عليه من رقةٍ، واستجابتي للمعاملة الرقيقة كبيرة بالفعل، انتقلَ إليَّ من قلب جدتي، وكذا الصفاء ونقاء القلب الحقيقيين اللذين يخصَّان " الوردة " الأخرى في حياتي، أختي.

لاحقاً، في عام ١٩٤٦، وصلتْ مارغو جونز وصديقتها جوانا ألبوس إلى نيو أورلينز، حيث كنتُ أعيشُ مع جدي، وقرأتُ على مسمعهما المسوَّدة الأولى لـ " عربة... " بصوتٍ عالٍ. وأعتقد أنهما صُعِقتا بها. وكذا أنا. فقد بدت بلانش تقدُّميَةً أكثر مما ينبغي. ويمكن أن تقول إنها غائبة عن الأنظار. ولكن بعد أن غادرت مارغو وجوانا، قررتُ أن أتوجَّه إلى كي ويست مع جدي. كنتُ سائقاً ممتازاً، وكانت سيارة البونتياك طَيِّعةً. عبَرنا نهر سواني وقطعنا المسافةَ ما بين الشاطئ الغربي لفلوريدا وشاطئها الشرقي. كان جدّي رفيقَ سفرٍ رائعاً؛ كل شيءٍ يسرُّه؛ ويتظاهرُ بأنه يُبصِرُ

بوضوح على الرغم مما به من إعتامٍ في عينيه، وكان يكفيني أن أنضمَّ إليه حتى ينتعشُ استمتاعي بكوني حيّاً.

وصلنا إلى كي ويست وشغلنا جناحاً مؤلَّفاً من غرفتين في أعلى فندق لاكونشا وهناك بدأتُ فعلاً أصوغُ مسرحية " عربة... ". وسارَ الأمرُ كمنزلٍ تلتهمه النيران، لأني كنتُ سعيداً وأنا مع جدي.

في كل مساء وبعد أن أنتهي من العمل كنا ننطلقُ إلى الشاطئ الجنوبي، وفي تلك الأيام كان ما يزالُ جميلاً، وذلك قبل إقامة الفنادق على الطُرُق العامة ومواقف السيارات. وكنتُ أسبحُ وأسبحُ ويجلسُ جدّي عند حافة المياه ويترك الأمواج تغسله.

كان هناك الكثير من الأناس المضيافين والمُسلِّين. كانت بولين بفايفر هيمنغواي تشغلُ المنزلَ الكولونيالي الأسبانيّ الطراز حيثُ تركها إرنست عندما غادرَ إلى كوبا وقد وفَّرتْ بولين وسائلَ الترفيه لي ولجدّي. ثم وصلتْ ميريام هوبكنز إلى المكان وأشاعتْ فيه المزيد من الحيوية بفيضِ ظُرفها وسحرها.

أنهيتُ العملَ في " عربة... " وأرسلتُها بالبريد إلى أودري وود وفي هذه المرة تلقَّيتُ من تلك السيدة الضئيلة ردَّةَ فعلٍ أكثر إيجابيّةٍ وتشجيعاً بكثير.

ثم قابلتُ آيرين سلزنيك للمرة الأولى. ولقائي معها رتَّبَتْهُ أودري في جوٍ تجسُّسي مشحون. فقد تلقَّيتُ برقيةً تطلبُ مني فيها أن أحضر فوراً إلى تشارلستن، في كارولاينا الجنوبية، إلى أفضل فندق هناك، لكي أقابل آيرين وأودري ,وتوجَّهتُ إلى هناك بأقصى سرعةَ. فتحتْ آيرين باب جناحَها بعنفٍ وعيناها تتلظيان وقد تقرَّرَ في تلك الأمسية نفسها أن تقوم هي بإنتاج مسرحية " عربة... ". وبقيَ جوُ الغموض سارياً. وأبرقتْ آيرين إلى المكتب الذي كانت قد أسَّسته في نيويورك: كانت رسالةً مُشفَّرةً موجَّهةً إلى مساعدها، وتقول: " بلانش قادمة لتمكث معنا ". كل هذا كان مفرحاً جداً لي. غادرتُ تشارلستُن لأنضمَ إلى جدي في كي ويست، وكانت السيدة هيمنغواي وأصدقاء آخرون هناك يعتنون بأمره.

كان موعد احتفال ماردي غرا يقترب في نيو أورلينز، وصمَّمَ جدي على ألاّ يفوته حضوره، لذا ذهبَ هو مباشرةً بالطائرة، وقدتُ أنا سيارة البونتياك المستعملة ذات اللون الأبيض الناصع والغطاء القابل للطيّ على الشاطئ الشرقي لفلوريدا. وسارَ كلّ شيءٍ

على ما يُرام إلى أن اقتربتُ من مدينة جاكسونفيل. وكنتُ قد أقلتُ معي شاباً أحمرَ الشعر، يتنقَّلُ سيراً على قدميه، وكنا قد بدأنا مناقشة نقطة النزول في فندقٍ على الطريق لقضاء الليلة، عندما اقتربَتْ فجأةً سيارةُ دورية الطرُق العامة منا وهي تزعقُ وأُمِرنا أن نقفَ على جانب الطريق. قال ضابط دورية الطرق العامة إنه ليسَ في سيارتي أضواء خلفيّة ثم طلبَ أن يرى أوراقي الثبوتيّة ورخصة القيادة، ولم يكن معي هذه ولا تلك. ولم أكُن حازماً قط فيما يخصُّ مقتضيات القيادة، أم هل كنتُ فقط لا مبالياً بها؟ على أي حال، كبَّلَ ضابط الدوريّة اللعين يدي اليمنى بكاحل قدمي اليسرى وأمرني أن أخرج من السيارة. فسألتُهُ كيف يمكنني أن أخرج من السيارة ورسغ يدي اليمنى مُكبَّلٌ بكاحل قدمي اليسرى فنترَني إلى الخارج وأمرَني أن أزحفَ حتى سيارة الدورية. وبصورةٍ ما نجحتُ في القيام بذلك بينما قادَ هو المسافر المتطفِّل ذا الشعر الأحمر إلى السيارة الواقفة خلفي، وساقونا إلى السجن في جاكسونفيل. كان الوقتُ يقترب من منتصف الليل. رموا بنا إلى زريبة ثيران، هي حبسٌ صغيرٌ محاطٌ بقضبانٍ حديديةٍ يضمُّ سكارى ومدمنين وشاذين جنسياً. ولطالما كنتُ أعاني من رهاب الأماكن المغلقة وقد أمضيتُ وقتاً عصيباً وأنا أحاولُ أن أتحكَّم في أعصابي. وفي تلك الليلة كان رجال الشرطة قد داهموا بعض المواخير القذرة، والوحشيّة التي عاملوا بها الفتيات المسكينات لا تكادُ تُصَدَّق. فقد كانوا يرفسوهُنَّ أثناء صعود الدرج وهبوطه ويضربوهن على الرؤوس بهراواتهم. وعند الفجر جاء ضامنٌ ليقابلني. قال إنه سيتولى شرح قضيتي، حين تُعرَض، مقابل ثلاثمائة دولار. وتصادفَ أن كان بحوزتي بعض الشيكات السياحية تغطي قيمتها ذلك الطلب الغريب.

عند نحو منتصف نهار اليوم التالي أُطلِقَ سراحي من زريبة الثيران وقيل لي إنه ينبغي قبل أن تُسلَّم السيارة إليّ وقبلَ أن يُسمَحَ لي بمواصلة رحلتي إلى نيو أورلينز، أن يُجرَى لي اختبار إجازة قيادة. فأعطوني مجموعةَ أوراق امتحان لكي أدرسها وأعتقد أني لم أدرس دهري شيئاً بتلك الصعوبة. وحدثت المعجزة، واجتزتُ الامتحان وأُطلِقَ سراحي قانونياً.

ولسببٍ ما لم يسمحوا لي بدفع كفالة المسافر الشاب المتطفِّل واضطررتُ إلى تركه في حبس جاكسونفيل ويعلمُ الله ما الذي عاناه هناك.

واصلتُ رحلتي إلى نيو أورلينز، مع تصريحٍ قيادة وأضواء خلفية تعملُ، إلى حيث كان جدّي يستمتعُ باحتفال ماردي غرا، الذي لم يكن يجد هوى عندي لكنه كان مصدر مرحٍ غامر لجدّي بما أنَّ عربات الموكب كانت تمرُّ مباشرةً من زاويتنا. وقد أذهله العَرضُ الذي نجحَ في مشاهدته على الرغم من أنه كان يسيرُ نحو العمى الكامل.

* * *

كم من أشياء تافهة يجب تدوينها في سجلّ الحياة: لابد أنَّ هناك الكثير فيما بين السطور مما هو أجدرُ بأنْ يُحفَظ في الذاكرة، لكنه ولسببٍ مبهم يبقى في حالةٍ ضبابيّة في حين يعودُ السطحُ الخارجي للتاريخ بوضوح - أعني بوضوحٍ نسبيّ - إلى الذهن.

٧

هذا المساء أعلِنَ أني سأظهرُ في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، واستُبدِلَتْ هيلينا كارول بممثلةٍ موهوبةٍ جداً اسمها بغ مَري، كان بيل هيكي يقول عنها إنها الأفضل في مجال التمثيل، على الرغم من أنها ليست مشهورةً خارج المهنة.

سيكونُ من المُفرحِ أن أرى ممثلةً موهوبةً تقومُ، بعد فترةِ إعدادٍ قصيرةٍ جداً، بأداء دور ليونا وأنْ نرى أنفسنا جميعاً على خشبة المسرح نُساهمُ في دعمها، والتغطية على " الهنَّات " التي تقريباً لا مفرّ منها قدر ما في وسعنا، وحبُّها، كما يجدر بالممثلين أن يُحب أحدهم الآخر في مثل تلك المناسبات الحرجة، إنْ كان هناك حبٌ في هذا العالم، وأعتقدُ أنه موجود. إنني مؤمنٌ بأنَّ هناك حباً في هذا العالم وحتى في مهنة التمثيل، حبٌ قد يلفظُ أنفاسه خلف الكواليس لكني أعتقدُ أنه حاضرٌ دائماً، في شكل تعاونٍ، على خشبة المسرح عندما تتعرَّضُ المسرحيةُ للخطر بسبب الأداء الافتتاحي لنجمةٍ جديدةٍ لم يُتَح لها الوقت الكافي للقيام بالتدريبات اللازمة لتأخذ دورها على عاتقها.

سوفَ يكونُ أمراً مُثيراً وقد يكونُ جميلاً.

أذكُرُ رسالةً وصلتني من بروكس أتكنسن حين تقاعدَ كناقدٍ دراميّ لصحيفة نيويورك تايمز.

كنتُ موجوداً في منطقة الشاطئ وكتبتُ أقول له " أعتقدُ أنه حانَ الوقتُ بالنسبة إليّ، وليس إليك يا بروكس، كي أتقاعد "

فردَّ عليَّ قائلاً " عليكَ أن تواصلَ عملَكَ المُرمَّز ". في ذلك الوقت لم أكن متأكداً من أنَّ عملي كان ما يزالُ مُرمَّزاً ولكن لاشكَّ في أنه يُحبُّ أن يكونَ كذلك وأنَّ النصيحة كانت وِدِّية وحَسَنَة النيَّة.

بالأمس وقَعَت حادثتان على جانبٍ من الأهمية: واحدة شخصيّة، والأخرى سياسية وشهيرة جداً، جداً.

الحادثة الشخصية كانت تناولَ وجبة عشاءٍ مع الآنسة روز ورفيقتها النزقة والُمثيرة للأعصاب باطِّراد. ولكي يكتملَ الجمعُ، أحضرتُ معي صديقاً شاباً، هو رسام موهوبٌ، وعارض أزياء وأحياناً ممثل.

قررَت الآنسة المجهولة أن تحجزَ لنا مائدةً في محل لوتشو، وهو مطعمٌ جميلٌ بافاريُ الطراز، عمره يبلغُ نصفَ عمر الزمن. وقد خُصِّصَ لنا مكانٌ جميلٌ يقعُ تحت موقع الفرقة الموسيقية. وبدأ أفراد الفرقة الموسيقية، وهم يرتدون زيَّهم البافاري أو التيرولي[٤٠] بدون أن يليقَ هذا الزيّ بأيٍ منهم، بدءوا العزفَ في السابعة مساءً بُعَيدَ وصولنا بخمسَ عشرة دقيقة.

أشدُّ ما فتتنني هناك كان منوَراً قريباً من مائدتنا، رأيتُ من خلاله أوائل العتمة وهي تتدرَّجُ إلى الظُلمة الحالكة مع تقدُّم وجبة العشاء - يجب أن أقولَ تحلُّلَها، لأنَّ المرأةَ المجهولةَ أظهرتْ وجهها الأيرلندي وأخذتْ على الفور تحطُّ من قدر صديقي الشاب المسكين - ولا أفهمُ كيفَ استطاعَ أن يلجُمَ غَضَبَه مع تلك الدجاجة الأيرلندية، الغارقة في السُكر والوضيعة كأفعى الأجراس. لابد أنه كان شبه ملاك.

بدأتْ الآنسة المجهولة بأنْ اعتَبَرَتْ " الشبان " في العموم حِفنةً من المتطفّلين والطفيليين والُمنحطّين اجتماعياً.

أعلنتْ أنَّ الأيام الخوالي الطيبة قد ولّتْ إلى غير رجعة، ولم يبقَ في العالم أي أثرٍ للوقار والاستقامة.

اتَّفقنا أنا وصديقي مُقدَّماً على أننا حالما تبدأ هذه السيدة بعرض ألوانها العاهرة، سيقولُ كلٌّ منا للآخر أننا قد شاهدنا اليوم طائرَ أبا الحِنَّاء في سنترال بارك، وأنه من الغريب أنْ يظهرَ أبو الحِنَّاْء في مثل ذلك الوقت المتأخِّر من الصيف.

في الواقع لا أستطيعُ أن أُخبرك كم من مرةٍ اضطررنا إلى أن نُشيرَ إلى ذلك الظهور المتأخِّر في الصيف لذاك الطائر وإلى جوانب محبَّبة أخرى للسنترال بارك لكي نُحافظَ على الجو العام رائقاً معقولاً على المائدة.

لكن أخشى أني فقدتُ السيطرةَ على هدوئي والتفتُّ إلى المرأةَ المجهولة وقلت "فلنكن صريحين، لقد تحولتِ إلى رجعيَّةٍ وأنا إنسانٌ ثوريّ "

ثم بدأتْ تتكلَّمُ عن الهُجُنْ، تقصد الشاب وأنا. لقد كانت أيرلنديةً قلباً وقالباً وتعتبر كلَّ مَنْ ليس أيرلندياً من رأسِهِ إلى أخمص قدميه هجيناً. والمؤسِف هو أنها لم تكن تتمتَّعُ بالحسِّ الفكاهي الأيرلندي حول هذا الموضوع.

طبعاً، بعد أن انتهتْ الأمسية، أخذتُ أشعرُ بالرثاء للسيدة المجهولة. لقد أضحتْ شديدةَ القسوة تحت وطأة وحدتِها، وعنوستها و " مبادئها " البائدة، المُرائية كشأن " مبادئ " كل مَنْ كان في مثل سنِّها.

* * *

بدأت مأساة أختي روز قبل أن يبدأ انفصالي الذي استمرَّ ثلاث سنوات عن الكلِّية لكي أعمل لصالح شركة " الحذَّائين القاريين " التابعة لشركة الأحذية العالمية.

كنتُ قد ذكرتُ أنَّ روز ظلَّتْ تُعاني عدة أعوام من اضطرابات معَديَّة غامضة. وقد عولجتْ في المستشفى مراتٍ عِدَّة بسبب ذلك الاضطراب الهضمي ولكن لم يُكشَف عن وجودِ قرحةٍ، أو أي سببٍ جسدي لذاك المرض. وأخيراً أوصوا أن تُجرى لها " عمليةٌ جراحيةٌ استكشافيّة ".

لحُسن الحظ تدخَّلَ طبيب العائلة، وهو طبيبٌ لامعٌ، عند تلك المرحلة وقال لوالدتي، التي تولاّها الرعب، أنَّ رأيه (وكان صحيحاً) هو أنَّ روز تحتاجُ إلى الخضوع لعناية طبيبٍ نفسيّ، لأنَّ الاضطراب الهضمي الغامض مرجعه، في رأيه، إلى أسبابٍ نفسيّةٍ أو سايكوسوماتيّة لا يمكنُ تحديدها إلا من خلال سياق التحليل.

يمكنكَ أن تتصوَّر مدى صدمة المس إدوينا. وأخشى أنَّ أمي العزيزة كانت تبدو لي أحياناً أنها كانت طوال حياتها مُصابةً بهستريا مكبوتة نوعاً ما - وأنه كان في شجرة عائلتها (بطرفيها - آل ديكن وآل أوت) حوادث مفزعةٌ من الانهيارات العقلية والعصبية.

في الحقيقة، حين وقعتْ المس إدوينا في المأزق ذاته، في وقتٍ ما خلال فترة أوائل الخمسينات، واتَّصلَتْ بي هاتفياً وأنا في سينت توماس في جزر فيرجن، حيث كنتُ أُمضي فترة عطلة قصيرة كنتُ في أمسِّ الحاجة إليها، قالت " أتعرفُ أين أنا؟ "

" ألستِ في المنزل، يا أماه؟ "

" كلا، يا بُنيّ. لقد وقعَ خطأٌ فظيعٌ. لقد وضعوني في قسم الأمراض النفسية. أرجوك احضَرْ حالاً واخرجني من هنا "

وحضرتُ في الحال. كانت تُشرِفُ على حالتها طبيبةٌ نفسيّةٌ. أجريتُ استشارةً خاصة مع تلك السيدة فقالت لي " لعلَّكَ تعلمُ يا سيد ويليامز أو تشكُّ في أن أمك كانت طوال حياتها مُصابةً بعُقدة الاضطهاد "

ثم قالت لي أنَّ أمي " متكلِّفة وسطحيّة تماماً ".

شعرتُ بسخطٍ مُبرَّر، على الرغم من ذرَّة الحقيقة التي ربما كانت تشوبُ هذا التشخيص الذي صيغَ بكلماتٍ قاسية.

" ليكن، لا أظنُّ أنك مرجعٌ موثوقٌ لتحديد شخصية أمي بما أنكِ قلتِ إنها رفضتْ أنَّ تتحدَّث إليك - إنني أطلب إطلاقَ سراحها فوراً "

وانتشلتُ أمي بلا أي تردُّد.

والآن، لنعُد إلى المس روز.

في أوائل عشرينات عمرها أُرسِلَتْ روز إلى نوكسفيل مع حزمةٍ من ملابس السهرة الرخيصة من أجل " ظهورها الأول في المجتمع ". وأعدَّت العمةُ " بل " (السيدة ويليامز. ج براونلو) حفلةَ تعارفٍ رسميّةٍ، لكنَّ وفاةَ حماتها، السيدة براونلو الكبرى، اعترضتها وتحولَت الحفلةُ إلى " غير رسمية ". وأُقيمَ حفلٌ في النادي الريفي في نوكسفيل، من أجل تقديم روز غير الرسمي إلى المجتمع. وكان على العمة " بل " أن تبتاعَ لروز عدداً كبيراً من الأثواب الأخرى خلال فصل التعارُف ذاك: ومع ذلك لم تكن الحفلة ناجحةً كثيراً. وأعتقدُ أنَّ المسّ روز وقعَتْ في غرام شابٍ لم يستجِب لها على الإطلاق، ولم تعُد روز أبداً كما كانت. لقد سقطَ عليها ظلٌ من قتامةٍ كانت تزدادُ حِلكةً باطِّرادٍ على امتداد السنوات الأربع أو الخمس التي تلت.

لدى عودة روز من حفلة نوكسفيل، قلتُ لها " كيفَ كانت زيارتكِ يا روز؟ "

" إنَّ عمتي إيلا وعمتي بِلْ لا تحبان إلا الفاتنين من الناس وأنا لستُ فاتنة "

* * *

خلال فصل صيفٍ سابقٍ لذلك، صيف عام ١٩٢٦، وبعد أن قمنا جميعاً بزياراتنا في مدينة نوكسفيل، توجَّهنا إلى النادي الأبالاشي، الذي كانت العمةُ بِلْ والعم ويل ينتسبان إليه. في ذلك الصيف تعلَّمتُ السباحة، أقصد عمتي هي التي علَّمَتني، في جدولٍ جبَليّ صافٍ، في بركةٍ من المياه الصافية والباردة بشكلٍ رائع، تشكَّلَتْ بفعلِ

السدّ مما أنتجَ شلالاً متلألئاً، يصبُّ فوق الصخورِ البيضاء الناصعة. لكنَّ العمةَ بِلْ حاولتْ أن تدعمني بوضع يدها تحت بطني وأنا في البركة، وحين قلتُ لها " أُفضِّلُ يا عمَّتي بِلْ أن أعتمدَ على نفسي "، خرَجَتْ بهذه المُصادقَةَ على الاختيار " أوه، توم، عزيزي توم، إنك حين تعتمد على نفسك إنما تعتمدُ على قصبةٍ مكسورة ".

لقد كانت في واقع الأمر تتحدَّثُ عن نفسها وعن اعتمادها على الله. كانت مُصابةً بتضخُّمٍ داخليّ جعَلَها تميلُ إلى أن تُغالي في كلامها وطبعاً إلى الإفراط في التفكير في الله.

إنني، في الواقع، لا أقلُّ هستيريَّةً عن عمتي بِلْ، ولا عن بلانش، وقد أجريتُ تعديلاً على وصيَّتي بشأن التخلُّص من جثتي بالشكل التالي: " أن تُخاطَ داخل كيسٍ أبيض نظيفٍ، ويُرمى بها إلى البحر، على مسافة اثني عشرة ساعة إلى الشمال من هافانا، لكي تستقرَّ عظامي بالقُربِ من عظام هارت كرين[٤١]... "

* * *

في ذلك الصيف كان النادي الأبالاشي مملوءاً بالفتيان الذين لم أقوَ على إبعاد بصري عنهم وهم مستلقون يتشمَّسون على الصخور في الجدول. اشترت عمتي بِلْ لي أول بنطالٍ طويل، وملابس داخلية، واشترتْ لروز مزيداً من الثياب الجميلة.

نزلنا في كوخٍ صغير. وكان أخي ديكن في الطريق قد رسمَ على وجهه تعبير انزعاجٍ شديد، ربما بسبب شرب ماءٍ غير صالحٍ للشرب، فأعدَّتْ جدَّتي له، وكانت بصُحبتنا، مخيضَ اللبن في المخضة لأنه الشيء الوحيد الذي كان في استطاعة " دنكي " أن يأكله.

أصبح لروز مُحبِّين. كانت جميلةً بأثوابها الصينية، وكنا نرقصُ في كل ليلة. وكانت فترة رواج رقصة التشارلستن. وكانت هناك راهبتان في النادي، وأذكُرُ أنَّ إحداهما انتحرتْ في العام التالي بسبب علاقة حبٍ فاشلة.

أذكرُ أننا كنا أنا وروز والراهبتان نتمشَّى على طول الدرب الجبلية، فمرَّ بنا بعضُ الفتية الجبليين، وهتفوا " نيكوا! "

لم يُعلِّق أحدٌ منا على ما سمعناه، وواصلنا سيرنا بدون أن نُبدي أي دلالة على سماع الكلمة البذيئة.

وأذكرُ فترةَ بعد الظهر ونحن نسيرُ من النادي الأبالاشي إلى غالنبرغ، الذي هو الآن مكانُ اجتماع الـ Seviers. وكنا مع شابّين مراهقَين، مُخلصٌ كلٌ منهما للآخر لكنهما كانا يلاطفاننا. وفي الطريق هبَّتْ عاصفةٌ هوجاء من المطر والرعد ونُقِعنا.

انسحبَتْ الفتياتُ لُيغيِّرن ملابسهن في مكان وذهبت أنا مع المراهقين إلى مكانٍ آخر للغرضِ نفسه. وتعرَّى الصبيَّان تماماً أمامي وبقيتُ في ملابسي المبتلة إلى أن قاما بتعريتي. لم يحدث أي أمر مشين، لكنَّ جمالهما لا يغيبُ عن ذهني الشَبِق، وأيضاً معاملتهما اللطيفة لي.

ثمة ذكرى أخيرة. ذات ليلة من ذاك الصيف، صيف عصر الجاز الجامح ذاك، تجمَّعنا نحن الشبان في مقصورةِ سيدةٍ في منتصفِ العمرِ كانت مُصابةً بمرضٍ عُضال. وكانت قد لجأتْ إلى السرير باكراً لكنَّ النوم جافانا. وأخذنا نحن الشبان نتحدثُ عن الجنس، اللغز الأكبر الذي كنا قد بدأنا نكتشفه.

هتفتْ مضيفتنا، من غرفة نومها، قائلة " ما أنتم إلا أطفال... "

قالت ذلك بكل عذوبة وحبٍ حتى أننا سكتنا وسرعان ما تفرَّقَ شملنا وذهبَ معنا لغز الحب الجديد الكبير في حياتنا، أقصد الجنس المُراهق في حياتنا.

وقد رافقنا لدى مغادرتنا للسيدة المُصابة.

* * *

كانت روز محبوبةً في المدرسة لكنَّ ذلك لم يدُم طويلاً. كان جمالها متمركزاً أساساً في عينيها الخضراوين والمُعبِّرتين وفي شعرها الأصحر المتموج. كان كتفاها ضيقتين جداً وكانت حالةُ القلق التي تنتابها وهي في صُحبة أحد الذكور تجعلها تُحدِّبهما فتبدوان أشدّ ضيقاً، وتبدو تقاسيمها أقوي، فيظهرُ رأسها الذي ورثتُهُ عن آل ويليامز كبيراً جداً بالنسبة إلى جسمها النحيل، وصدرها الضامر. وهي أيضاً كانت عندما تخرج مع شابٍ تتكلَّمُ بحيويةٍ تكادُ تكون هستيرية. قليلٌ من الشبّان يعرفون كيف يتقبَّلونها.

ظهرَ الانهيار الحقيقي الأول بُعَيد مُعاناتي من نوبة قلبية أنهتْ عملي كصبي مهمَّات في شركة الأحذية.

في ليلتي الأولى بعد عودتي من مستشفى سينت فينسنت، كما ذكرتُ، جاءت روز وهي تسيرُ كالمُسرنمة إلى غرفة نومي الصغيرة وقالت " يجب أن نموت جميعاً معاً "

أؤكِّدُ لك أنَّ الفكرةَ لم تُقدِّم لي إغراءً لا يُقاوَم. فبعد أن تحرَّرتُ أخيراً من عملي مدةَ ثلاث سنوات كموظَّف طابع على الآلة الكاتبة في الشركة القاريّة، يعلمُ الله أني لم أكن في مزاجٍ يجعلني أتقبَّلُ فكرة الانتحار الجماعي مع العائلة، ولا حتى نزولاً عند اقتراح من روز - ومهما كان الاقتراح مناسباً.

ظلَّتْ روز مجنونة بضعة أيام. وذات مساء وضعَتْ سكين مطبخ في حقيبة يدها وهمَّتْ بالتوجُّه إلى مكتب طبيبها النفسي مع نيَّة مُبيَّتة لارتكاب جريمة قتل.

لاحظتْ أمي وجود السكين فأخذتْها وأخفَتْها.

ثم بعد ذلك بيوم أو يومين تلاشَتْ تلك النوبة الأولى من الجنون المُبكِّرْ وعادت روز، على الأقلّ ظاهرياً، إلى سابق عهدها (وقد استعادت هدوءها التام).

بعد مرور بضعة أيام غادرتُ إلى ممفيس لأستردَّ عافيتي في منزل جدي الصغير في جادَّة سنودَنْ بالقرب من جامعة ساوثوسترن في ممفيس.

في تلك الفترة تقريباً أخبر طبيبُ العائلة العجوز الحكيم أمي بأنَّ صحةَ روز الجسدية والعقلية متوقِّفة على ما اعتبرتْه مس إدوينا شيئاً رهيباً - على تدبير ما يُشبه الزواج" العِلاجي ". ولا شك في أنَّ الطبيبَ العجوزَ ألكسندر قد ضَرَبَ على الوتر الحسَّاس لمرض روز. لقد كانت فتاةً طبيعية جداً - لكنها تملكُ غريزةً جنسيةً قوية جداً - تتمزَّق عقلياً وجسدياً بفعل تلك الضغوط التي فرضَتها عليها نزعة المسّ إدوينا التطهُّريَّة الصَلبة.

قد أكونُ حذفتُ عن عمدٍ قدْراً كبيراً من الكلام عن العلاقة الوثيقة بدرجةٍ غير عاديّة التي ربطتني بروز. وقد علَّقَ ناقدٌ مسرحيٌّ مُتبصِّرٌ قائلاً إنَّ الموضوع الرئيسي لأعمالي هو " سِفاح القُربى ". لقد كانت علاقتي بأختي وثيقةً، لا يُلطِّخها أي وِصال جسَديّ. وفي الواقع، كان كلُّ منا يشعرُ بالخجل من الآخر، جسدياً، ولم يكن بيننا أي أُلفةٍ جسدية عارضة من النوع الذي يلاحظه المرءُ بين شُعوب حوض البحر المتوسط في علاقاتهم الأُسَريَّة. ومع ذلك كان حبُّنا، وبقيَ، أعمقَ ما في حياتنا، وربما كانت له علاقة مباشرة بانسحابنا من الصِلات العائلية القويّة.

خلال سنوات عملي في شركة الأحذية وفصول الصيف التي كنتُ خلالها مُلتحقاً كطالبٍ بجامعة ستيت في ميسوري كنتُ أنا وأختي نُمضي أمسياتنا كلها تقريباً معاً، اللهم إلا تلك التي أمضيتُها بصُحبة هيزل.

ماذا كنا نفعل، أنا وروز، في تلك الأمسيات؟ كنا ببساطة نتمشّى في الشوارع التجارية ليونيفرسيتي سيتي. كان الأمرُ أشبه بطقسٍ ممزوجٍ بلمسةٍ شفقة أؤكِّدُ لك أنه لا وجود لها في " مجموعة الحيوانات... " ولا في أقصوصة " صورة فتاة بالزجاج " التي على أساسها تقوم مسرحية " مجموعة الحيوانات... ".

أعتقد أنه كان شارع دلمار - ذلك الشارع الطويل، الطويل الذي كان ربما يبدأ بالقرب من نهر الميسيسيبي في قلب مدينة سينت لويس ويخترقُ يونيفرسيتي سيتي ويتابعُ طريقه إلى عمق الولاية - هو الشارع الذي كنا نتمشى فيه أنا وروز في الأمسيات. وكان هناك كشك لبيع بيرة الجذور كنا دائماً نتوقف عنده. وكانت روز شديدة الولع بشرب بيرة الجذور، خاصة في أمسيات الصيف الدافئة. وكنا، قبل توقفنا لشرب البيرة وبعده، نتفرَّج على واجهات المحال التجارية. كان شغف روز، وبلانش أيضاً، هو بالملابس. وعلى امتداد ذلك الجزء من شارع دلمار الذي يخترق منطقة يونيفرسيتي سيتي كانت تتوزع محالُ تجاريةٌ صغيرة ذات واجهات تُضاءُ ليلاً تُعرَضُ فيها أثوابٌ وأدوات للزينة للمرأة. ولم تكن خزانة ملابس روز عامرة ولذلك كان استعراضها للواجهات في شارع دلمار أشبه بتحديق طفلة جائعة إلى واجهات المطاعم الأمامية. وكان ذوقها في الملابس ممتازاً.

" ما رأيكِ في ذلك الثوب، يا روز؟ "

" أوه، كلا، إنه مبتذل جداً. أما ذاك هناك فجميلٌ جداً "

كانت نزهات المساء تستغرقُ ساعةً من الزمن ونصفاً، وكنت ألاحظُ أنه على الرغم من خجل كلٍ منا من الآخر جسدياً، إذ لم تكن أيدينا تتلامسُ إلا عندما نرقصُ معاً في شقة إنرايت، كنتُ عادةً أتبعها إلى غرفة نومها لدى عودتها إلى المنزل لكي نصل ما انقطع من حديثنا الحميم. كنت أشدّ ما أشعر بالدفء في تلك الغرفة، المفروشة بأثاثِ غرفةِ نومٍ من العاج الأبيض حصلنا عليه مع " الشقة المفروشة " الكائنة في ويستمنستر بليس حين انتقلنا للمرة الأولى إلى سينت لويس في عام ١٩١٨.

لقد كانت الغرفة الجذابة الوحيدة في الشقة - أم هل تبدو لي هكذا لأنها غرفة أختي؟

ذكرتُ أننا كنت نرقصُ معاً.

لقد علَّمَتني الرقص على موسيقى جهاز الفيكترولا(٤٢) الذي يكاد يكون أثرياً (وبدون بوق) وحصلنا عليه في ميسيسيبي وشُحِنَ إلى سينت لويس خلال الانتقال المُدَمِّر للعائلة إلى هناك.

* * *

كان والدي قد استأجر من الباطن أول مُستقرٍ حقيقيّ لنا في سينت لويس، وهو منزل مؤلفٌ من طابقين فائق الجمال مُصمَّمٌ على الطراز الجورجي ويقع في ضاحية كليتون، بالقرب من جامعة واشنطن. كان اسم الشارع برشينغ، وكان مقابل منزلنا بوجد منزل فيرجينيا مور، الشاعرة ذات الوسامة المذهلة في ذلك الوقت؛ كان لها أخ أبدى اهتماماً بمس روز وخرج معها مرات عدِّة. وأذكُرُ أني خرجتُ لأوزِّع منشوراتٍ سياسية خلال حملته الانتخابية المُدمِّرة تلك. فقد خسر الانتخابات وفجأةً إذا به يودَع المصح العقلي بداعي إصابته بانهيارٍ عصبي. وبعد خروج ذلك المسكين من المصح انتحر، وخسرت المس روز حبيباً.

في ذلك الصيف عَرَضتُ قصائدي الصبيانية على فيرجينيا مور، وكم كانت كريمة حين أطْرَتْ إحداها بلباقة.

في المنزل المُستأجَر في شارع برشينغ أخذ عقل المس روز يعتلّ. ليس بشكلٍ عنيف ولكن تدريجياً.

أذكرُ أننا كنا نتنزَّه بالسيارة مع بعض الأصدقاء الشبّان، وبدأنا، أنا والشباب، نضحك بسخريةٍ من السلوك الشائن لأحد معارفنا فَقَدَ عقلَه، فإذا بالمس روز تتجهَّم بشدَّة وتنقبض وهي في المقعد الخلفي من السيارة.

قالت تؤنِّبنا " لا يجوز أبداً أن تسخروا من الجنون؛ إنه أفدح من الموت "

وهذا بالضبط ما قالته أمي حين علِمَتْ أنَّ المسّ روز مصابة بالجنون المُبكِّر. حدث ذلك في المصحة الكاثوليكية في ضواحي سينت لويس، قُبيل إرسال روز إلى بيمارستان الولاية في عام ١٩٣٧. يؤلمني كثيراً أن أعود بذاكرتي إلى ذلك العام وأنْ

أعلم أنَّ روز كانت تعرف أنها تنحدرُ نحو الجنون وأنا أعلم أيضاً أني لم أُعامل أختي برقَّة كافية. في الحقيقة، لقد كان قد تمَّ قبولي، وللمرة الأولى في حياتي، كعضوٍ في مجموعةٍ من الأصدقاء الشُبّان وكانت علاقاتي البهيجة معهم قد شغلتني إلى درجةٍ أني فشلتُ في أن ألاحظ كما ينبغي الظلَّ الذي كان يمتدُ على روز. وكان قد بدأ يظهر على سلوكها بعض المظاهر الشاذة. فقد أضحتْ شديدة الهدوء في المنزل وأعتقد أنها كانت تُعاني من الأرق. وكانت لها عادة غريبة هي أن تضع إبريقاً من الماء المثلج عند باب غرفتها من الخارج في كل ليلة عندما تأوي إلى سريرها.

بينما كنتُ أبتعدُ عن أختي خلال تلك الفترة، كانت هي تزدادُ اقتراباً من كلبنا الصغير المُسمَّى جيغز. كانت دائماً تحمله وتحضُنُه وكانت مس إدوينا تقول لها بين حين وآخر:

" اتركي جيغز يا روز؛ إنه يريد أن يلعب "

ثم كانت عطلة نهاية الأسبوع الرعناء تلك التي ذهبتْ فيها أمي وأبي إلى منطقة أوزاركس، أعتقد، وبقينا أنا وروز وحدنا في منزل برشبنغ وأثناء تلك العطلة رحتُ أُسلِّي مجموعةَ أصدقائي الشُبّان التي شكّلتها حديثاً. وأصبح أحدهم ثملاً جداً - وربما كلهم - لكنَّ هذا بالذات كان أشد سُكراً منا جميعاً وصعدَ إلى منبسط الدرَج، حيث كان موقع الهاتف، وأخذ يجري مكالمات هاتفية بذيئة مع أشخاصٍ غرباء.

حين عادَ والدانا من أوزاركس، أخبرتْهما المسّ روز عن الحفلة الرعناء والمكالمات الهاتفية البذيئة وعن السُكر.

أبلغتني المس إدوينا أنه سيُمنَع على أيٍ من هذه المجموعة أن تدخل المنزل مرة أخرى.

كان ذلك، بالنسبة إليَّ، بمثابة أمرٍ عالٍ ساحق، بما أنَّ تلك المجموعة كانت تضمُّ أول أعزّ صديقٍ لي في سينت لويس، هو ذو الموهبة اللامعة الشاعر الوسيم كلارك ميلز (ماكبرني).

بعد أن بربرتْ حول حفلتي الرعناء، التي أقمناها أثناء قضاء والديَّ عطلتهما في أوزاركس، وبعدما أعلنتْ منعي من استضافة حلقتي الأولى من الأصدقاء في المنزل - هبطتُ الدرَج في الوقت الذي كانت روز ترتقيه. تلاقينا عند منبسط الدرج فالتفتُّ إليها ورميتها بنظرة قطٍ بريّ وهمستُ قائلاً:

" إنني أكره مرأى وجهكِ العجوز القبيح! "

بقيَتْ واقفةً في مكانها عند منعطف الدرج صامتةً، مصدومةً، ورابضةً خوفاً، واندفعتُ أنا خارجاً من المنزل.

أعتقد أن ذلك كان أقسى عمل قمتُ به في حياتي كلها، ولا يمكنني أبداً أن أُكفِّرَ عنه كما ينبغي.

(يا للزمن كيف يُنتظَّم في هذا " الشيء " بكل ردحِهِ الطويل ذاك)

الزمنُ دفقٌ، عَرْضٌ مستمرٌ

اذهبوا، تقولُ العصافير، فلنذهب.

مما سبقَ تستطيع أن تفهم لماذا لم أنجح في أن أجعلَ من نفسي شاعراً مُجيداً.

هل سبقَ لي أن أخبرتُكَ أنه كان لدينا في جامعة واشنطن نادٍ صغير للشعر؟ لم يكن يضمُّ إلا ثلاثة أعضاء من الذكور. أما الباقون فكانوا فتيات جميلات، عائلاتهن تملك بيوتات أنيقة في المقاطعة.

الشعراء الذكور الثلاثة كانوا، حسب ترتيب مواهبهم، كلارك ميلز، ويليام جيه سميث، وصاحب هذه المذكرات.

من بين الفتيات الجميلات اللواتي كُنَّ يوفِّرن المرطبات اللذيذة ويُشكِّلن زخرفةً في المكان، لا أذكُر إلا اسم بيتي لويز، التي أقلَّتنا جميعاً في سيارةِ العائلة الليموزين ذات ليلة لحضور عرض باليه.

كان بيل سميث الأكثر وسامة بيننا نحن الفتيان الثلاثة وقد أصبح " شاعراً بارزاً"، والآن له علاقة بتدريس ذلك الفن المحظور مسّه في جامعة كولومبيا.

في تلك السنوات المبكِّرة كانت موهبة كلارك تسطعُ بتوهُّجٍ شديد. وقد نشر ديوان شعر بطبعةٍ شعبيةٍ عنوانه " كانون ثاني يمرّ "، وهو مجموعة مرصَّعة بالأخيلة الرائعة وتتَّسِم بالذوق الرفيع. وكان أيضاً عالماً بالأدب الفرنسي وقد تلقَّى فيما بعد منحةً دراسيةً في جامعة السوربون في باريس، وكتبَ دراسةً عن litterateur (أدب) جول رومان، الذي لم أستطع أن أقرأ أعماله باللغة الفرنسية أو بغيرها. كنتُ أتمنى لو أنَّ كلارك سخَّرَ نفسَه حصراً لأعماله هو. إذ على الفنانين أن يكونوا أنانيين في هذا المجال. ولكن يمكن بلا ريب أن أُقدِّم له العُذر لأنه أنجزَ أفضل ترجمة (في رأيي غير

المتحيِّز) لقصيدة رامبو Bateau Ivre (القارب السكران). إنَّ ترجمته للأبيات الأخيرة من أعظم قصيدة غنائية لرامبو كانت تسير تقريباً، ولا أقول تماماً، كما يلي:

الآن لا أريدُ من مياهِ أوروبا غير
الخندقِ الموحلِ، البارد،
حيثُ يجثمُ طفلٌ مترعٌ بالحُزنِ عند الغسقِ
ليُطلقَ من أصابعه قارباً وَرَقيّاً
هشّاً كجناحِ فراشة.

غير أنَّ كلارك أولى كل اهتمامٍ جدِّيّ بجهودي في مجال كتابةِ الشِعر. كان ذوقه معصوماً لكنَّه كان يفرضه برفقٍ جمّ. وحين لا أبدي انغماساً في المُغالاة في غروري الثقافي يقولُ لي " يعجبني هذا يا توم "، ولكن حين أُنَمِّقُ في كتابتي يقولُ لي " هذا سطحي جداً يا توم ".

عند غسق أحد الأيام من أوائل الستينات كنتُ أهُمُّ بدخول شقَّتي في مانهاتن الكائنة في الشارع الخامس والستين الشرقي وإذا بكلارك يظهرُ كشبحٍ على الممشى فتوقَّفَ وحيَّاني. كان الوقت شتاءً وبدا وهو في معطفهِ القاتم اللون ذا هيبة أكاديمية رزينة. كان فرانكي يحتضر[٤٣] أو أنه كان قد توفي وعجزتُ عن إبداء أي استجابةٍ طبيعيةٍ أو تلقائيّة. وكل ما خطر في بالي عندئذٍ هو: " يجب أن يعرف أني أصبحتُ شاذاً ". وكان حديثنا مُقتضَباً بشكلٍ مُحزِنٍ ومُسربلاً بالارتباك.

" مرحبا توم "

" - أهذا أنت يا كلارك؟ "

" نعـم "

" ماذا تفعلُ الآن؟ "

قال لي إنه التحقَ الآن بكُلِّيـة هنتر. وظلَّ واقفاً حيث كان، بصبرٍ رقيقٍ، بضع لحظاتٍ أخرى، لكني لم أقوَ على أنْ أقول " ادخُل يا كلارك ". وهكذا، أومأ لي، وكأنه شبح شبابنا، في الغسق الشتائي وتابعَ طريقَه.

أنا واثقٌ من أنه قد فهِم.

ربما سيعودُ، ذات يوم، إلى النهوض كشاعرٍ ممّا بدا بوضوحٍ أنه فترة سُباتٍ طويلة.

موهبة بيل سميث نَضَجَتْ بمسارات منهجيّةٍ بصورةٍ أو بأخرى: كانت تعجبني لأني كنتُ مُعجباً ببيل لكنَّها، للأسف، لم تكن تُثيرني.

* * *

أعودُ إلى سينت لويس وإلى عقد الثلاثينات.

حصلتْ روز على مُعجَب "جَدِّي" من سينت لويس. كان موظَّفاً إدارياً شاباً في الشركة العالمية، شاباً ذا مظهرٍ جذّابٍ جداً، وقبولٍ اجتماعي ومن الواضح أنه كان ذا طموحٍ مندفعٍ معدوم الضمير. وظلَّ فترة بضعة أشهرٍ يُعاملُ روز بلطفٍ غامر. وأعتقدُ أنهما كانا يخرجان معاً عدة مرات في الأسبوع، بل يمكن القول إنَّ علاقتهما كانت "تترسَّخ" وكانت روز ترتعشُ كلما رنَّ جرس الهاتف، تتلهَّفُ إلى أن تكون المكالمة لها منه.

حدث ذلك أثناء ما كان موقعُ والدي كمدير مبيعات لفرع فريدمن- شيلبي للشركة العالمية، إنْ لمْ يكن يرتقي، على الأقلِّ موقعاً كان واضحاً أنه دائمٌ ويُبشِّرُ بنجاحٍ متواصل.

غير أنَّ والدي كان يعبثُ بتهوُّرٍ بموقعه. كان على الدوام يُشيعُ الرعبَ في "المؤسسة" والشركة العالمية بعاداته في عطلة الأسبوع. ولهذا السبب لم يُنتَخَب لرئاسة "مجلس الموظفين الإداريين" على الرغم من أنه كان أفضل مدير مبيعات وأكثرهم شعبيةً في الشركة العالمية، والوحيد الذي كان يُلقي الخطابات. كانت خطاباته مفوَّهة - ولاذعة. لم يكن يتكلَّم كثيراً عن نجاحه في خطبة ولكن أعتقد أنَّ ذلك كان يُشيعُ فيه سروراً وأيّ سرور. كان يشمخُ هناك فوق المنصَّة أمام جمع البائعين على طريقة أسلافه من السياسيين الذين يسعون لتبوُّء مناصب عالية في شرق تنيسي.

" إننا جميعاً يا شباب نذكرُ كيف كنا نذهبُ إلى مكانٍ قريبٍ وندخِّن سيجارة كبديلٍ لوجبة الإفطار... "

أقصد أنه كان يتكلَّم بهذه الطريقة - وكانوا يحبّونها.

لكنَّ الفضيحة ظهرتْ - الحادثة التي وقعَتْ في حفل لعبة البوكر المستمرَّة طوال الليل في فندق جيفرسُن التي خسرَ فيها والدي أذناً اضطرَّ على الأثَر أن يجري عملية تجميلية. وكان ذلك بداية النهاية لإمكانيّة ارتقاء والدي لمنصب " رئيس مجلس " الشركة العالمية.

وقد شكَّلَ هذا أيضاً نهاية خروج روز مع " صاحبها " الوسيم الذي لم يعُد الزوج المُرتَقَب.

عندئذٍ تحطَّمَ قلبُها، وبعد ذلك بدأتْ تنتابها الاضطرابات الغامضة في معدتها.

لكنك لا تعرف المس روز ولن تعرفها أبداً إلا إذا عرفتَها من خلال هذا " الشيء"، لأنَّ لورا في " مجموعة الحيوانات... " كانت تشبه مسّ روز فقط في " اختلاقها " الذي لا مفرّ منه، وما كانت تلك الوشَق المؤنَّث العجوز أماندا لتُصدِّق وجوده. وكما ذكرتُ سابقاً، ربما تستطيعُ أن تعرفَ عنها قدراً ضئيلاً آخر من خلال أقصوصة " صورة فتاة بالزجاج ".

إنَّ الوقتَ الحاضرَ مُضاءٌ، حقاً، بومضِ البرقِ، وضَرَبَ الوباءُ العثٌّ، وبلانش "وُضِعَتْ على الرف... "

* * *

ذات أمسية كان أبي جالساً حزيناً في " الغرفة الشمسية "[٤٤] الصغيرة في إنرايت، فنادى على روز " أختاه، تعالي إلى هنا، أريد أن أناقشك في موضوع "

قال لها إنه يتهدَّده خطرُ فقدانه لعمله في الشركة العالمية - وكان ذلك بعد وقوع حادثة أذنه - وأنَّ عليها أن تستعد لتُعيلَ نفسها بنفسها.

وقد نجحتْ بصورةٍ ما - لا أذكرُ بالضبط كيف - في أن تحصل على عملٍ كموظَّفةِ استقبال في مكتب لبعض أطباء الأسنان الشبّان. ولم تستمرّ في عملَها إلا يوماً واحداً وانتهى نهايةً مُفجِعة. إذ لم تكن قادرةً على أن تكتب العناوين على المظاريف كما ينبغي فصرفها الأطباء الشبّان وهرعَتْ تبكي إلى المرحاض وأغلقَتْ على نفسها من الداخل.

اتَّصلوا بنا في المنزل فحضرنا إلى المكتب لكي نُقنعها بتركِ مكانِ اعتزالها.

في عام ١٩٣٧ نقلتُ روز إلى بيمارستان الولاية في فارمنتغتُن، ميسوري. وكنا نزورها.

" دعني أريك الجناح الذي أُقيمُ فيه يا توم "

واكبَتني خلاله: كان فظيعاً بصورة لا تُصدَّق، بكل تلك الأسرَّة الجدارية الصغيرة والضيِّقة والمقاعد الخشبيّة القاسية، وتحت إحدى تلك المقاعد كانت فتاةً صغيرةً جاثمةً في وضعية الإغماء التخشُّبي.

" روز! ماذا ألمَّ بها! "

(يا إلهي، يا له من سؤال!)

أجابتْ روز، بدون أي قلق ظاهر، وهي تبتسم: " إنها تُمارسُ عادتها السيئة اليوم، هذا كل شيء "

بعد مرور سنين عديدة، في نحو عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠، كانت روز تعيشُ مع زوجٍ من العجائز في مزرعةٍ قريبةٍ من البيمارستان - بعد أن هدأتْ بطريقةٍ مأساويةٍ جراء إجراء جراحة فصِّية(٤٥) في الجبهة، تمَّتْ في أواخر الثلاثينات.

أعددتُ لها العدَّة لتقوم بزيارةٍ كي ويست، بصحبة ناظرة المزرعة. وكان جدِّي معي.

لدى وصول السيارة أخذَ يتعثَّرُ مُسرِعاً خارج المنزل.

" روز، هاهو جدِّي! "

صَرَخَتْ " لا، لا، لا! إنه مُحتالٌ عجوز! "

لم تدُم الزيارة المشؤومة إلا أربعة أيام وخلال تلك الفترة رفضَتْ أن تأكُل أي شيءٍ من منزل كي ويست فيما عدا شوربة مُعلَّبة ولحماً مُعلَّباً مع الفلفل الحارّ، وفقط بعد أن فَتَحَت العُلبتَين بنفسي.

في تلك الأثناء كانت روز مُصابةً بما سمَّتْهُ " بهائم الجريمة ". فإذا ما لَمَسَتْ أي شيءٍ يمكن أن يرتعشَ تهزُّه لكي تُزيل عنه " بهائم الجريمة ". ورزَحَ المنزل تحت وطأةِ ظلٍ قاتمٍ رهيبٍ على الرغم من الطقس البهيّ لأوائل الربيع السائد في كي ويست. وتمَّ التخلِّي عن المغامرة، وعادت روز مع رفيقتها الشبيهة بالبقرة إلى مزرعة ميسوري...

في تلك الأثناء كانت المسّ روز تكتبُ رسائل تقريباً يومياً.

أذكرُ واحدةً كانت تبدأ بالعبارة التالية: " اليوم أشرقتْ الشمس مثل قطعةِ خمس دولارات ذهبيّة! "

كانت تُكرِّسُ نفسَها من أجل أطفال المزرعة الصغار وبشكلٍ خاص لعصفور الكناري وكل رسالةٍ من وسائلها الصغيرة الصبيانية كانت تحتوي سرداً لما يفعلونه، كأنْ تقول " إنَّ التشي-تشي (تقصد الكناري) يبدو سعيداً اليوم "

" اليوم انطلقنا إلى البلدة واشتريتُ شامبو بالموليف من أجل المجد الذي يُتوِّجني"

سرعان ما نقلتُها إلى مصحٍّ فخمٍ يُدعى " مؤسسة الحياة " في هارتفورد، كونكتيكت. وحين قمتُ بزيارتها هناك، بعد ذلك ببضعة أشهر، صُعِقتُ رُعباً وغضَباً

حين علمتُ أنَّ مس روز أودعَتْ جناحَ الأشخاص المُتَّسِمين بالعُنف. وأخبروني بأنها قد طَرَحَتْ سيدةً عجوزاً أرضاً. وطلبتُ أن أرى روز فوراً.

قالت روز لي - التي لم تكذب قط - " إنني لم أطرحها أرضاً؛ أنا فقط دفعتُها فوقعَت. لقد ظلَّتْ تتردَّدُ على غرفتي ليلاً ولم أستطع أن أنام "

للتو أخبرتُ مدير " مؤسَّسة الحياة " هذه أنَّ المس روز ستغادر.

بقينا نمشي بالسيارة ساعات طوال متوجِّهين إلى ستوني لودج في أوسينغ، حيث كانت ستستقرُّ الآن، وهو مُنتَجَعٌ جميلٌ كانت لها فيه غرفةٌ مريحةٌ، ذات ورق جدران مُزيَّنٍ بالأزهار. ويقعُ منتجع لودج فوقَ جرفٍ عالٍ يطلُّ على أعالي نهر هدسن، والأرض المحيطة به كانت تُشكِّلُ منظراً طبيعياً جميلاً.

لعلَّ هذا أفضل عمل قمتُ به في حياتي كلها، بالإضافة إلى أعمالٍ صغيرة.

أعطيتُ روز ببغاءً، واضعاً في حسباني تكريسها نفسها للعناية بعصفور الكناري في المزرعة. وأصبحَ أثيراً لديها.

كنتُ كلما أعدتُها إلى لودج بعد الذهاب في نزهةٍ، تقول لي، وهي تخرجُ من السيارة، " ألا تريد يا توم أن تصعد وترى ببغائي؟ "

وبقيَ يزدهرُ سنين عديدة.

ثم وبينما كنا نتنزَّه ذات مرة بدتْ روز مضطربةً على غير عادتها وحين خرجتُ من السيارة معها أمام اللودج لم تدعُني إلى زيارة الطائر الصغير.

" ألن نزورَ الببغاء يا روز؟ "

قالت " لا، ليس هذه المرة؛ إنه ليس على ما يرام "

ألححتُ على الصعود إلى غرفتها، وهناك رأيتُ الببغاء مُلقى ميتاً في أرض القفص: قالت الممرضة التي تعتني بروز في اللودج إنه ميت منذ أيام عديدة لكنَّ المس روز ترفض أن تسمح بإزالته.

في مناسباتٍ كثيرة بعد وقوع هذه الوفاة المأساوية حاولتُ أن أُقنعها بقبول ببغاءٍ آخر، لكنها كانت دائماً ترفض.

ظلَّتْ روز دائماً وأبداً ترفضُ أن تعترفَ صراحةً بأنَّ ثمة وفاةً قد وقَعتْ. إلا أنها قالت ذات مرة " لقد أمطرَتْ في الليلة الفائتة. الموتى يهطلون مع المطر "

" تقصدين أصواتهم؟ "

" نعم، طبعاً، أصواتهم "

* * *

كلما ذكرَتْ صديقتي ماريا مس روز في رسائلها، تُشيرُ إلى عينيها الجميلتين، اللتين تسحقان القلوب.

ومع ذلك فإنَّ ماريا الآن ترفضُ أن تردَّ على مكالماتي الهاتفية. يبدو أنَّ تناقضات أعزّ أصدقاء المرء لا حدودَ لها أبداً...

أو تقريباً.

أعتقدُ أن سببَ غضبِ ماريا قد يكونُ أنَّ وكيلي، بيل بارنز، شعرَ عن حقّ بأنه لم يعُد في استطاعتنا أن نؤجِّلَ إنتاجَ مسرحية " الصرخة " ريثما يجدُ بول سكوفيلد نفسَه مُستعداً لتقديم تعهُّدٍ رسميّ وتحديد وقتٍ معيَّنٍ لإنتاجها في إنكلترا. ورضختُ لهذا الرأي نادماً، وبعد فترةٍ قصيرةٍ انتقلتْ " الملكية " إلى ديفيد ميريك، وعُيِّنَ بيتر غرانفل مُخرجاً.

إنَّ ماريا، ليدي سينت جوست، امرأةٌ تتمسَّكُ بولاءاتٍ قوية. كانت تشعرُ بأنَّ صديقنا" تشك " بودن قد خُدِعَ، وبما أنها تنزعُ إلى الرومانسية، لم تفهم مُقتضيات توقيعَ التعهُّدات وختمها في مجال المسرح.

لا أحدَ أشدُّ حنقاً على تردُّدي، وجُبني، وضعفي، مني - ماعدا ماريا، فلطالما شعرتُ أني أخدعُ نفسي بتلك الصِفات، وبالتالي أخدعُ نفسي كفنان.

لقد كفَّتْ فجأةً عن الإجابة على رسائلي. ثم أضحتْ " لا تردُّ " على اتِّصالاتي الهاتفية عبر المحيط إلى مقرِّها في جيرالد رود، في لندن وإلى ويلبري.

لا حاجة بي إلى أن أُخبركَ كم يُكرِبُني هذا، بما أنَّ ماريا وأختي روز وبيلي، هم الآن الأشخاص الوحيدون القريبون مني والأعزاء على قلبي.

سأبقى في نيويورك يومين أو ثلاثة أيام أخرى، ومن ثم، بعد أن أشاهدَ الأداءَ الافتتاحي لبغ مَري لمسرحية " محاذير المهنة الصغيرة " سأغادر إلى شقَّتي المفروشة حديثاً في نيو أورلينز. إلا إذا قال لي طبيبُ أمي أنَّ حالتها الصحية مُستعصية أو حرِجةٌ إلى درجة أنْ أُضطرَّ إلى الذهاب إلى مدينة سينت لويس المُرعبة.

إنَّ اصطحابي بيل بارنز، في نهاية شهر آب، إلى مهرجان البندقية السينمائي يتوقَّفُ على موافقة ماريا بوصفها ضيفتي في الليدو.

فيما عدا ذلك سأبقى في نيو أورلينز لأمضي فترة راحة طويلة وطيِّبة أنا في أمسّ الحاجة إليها قبل البدء بإنتاج المسرحية التالية " الصرخة "، التي أعتقد أنَّ التدريبات عليها ستبدأ في أواخر الشهر القادم.

في ليلة الافتتاح في نيويورك سوف أطيرُ إلى إيطاليا وسأبقى مدةً غير محدودة بين أولئك الناس الطيبين، لعلّني أعثرُ على المزرعة الصغيرة التي طالما حلمتُ بامتلاكها، لكي أربي فيها الإوز والماعز. وأستخدمُ بستانياً - سائقاً شاباً وجذاباً، ثم أسبحُ وأسبحُ.

بالأمس أُصبتُ بالرعب من حالة الفوضى التي سربلتني في النيو ثياتر. أُقسِمُ بالله أني لم أستطع أن أُميِّز فترة الاستراحة من نهاية العرض الأول. أقصد أني خرجتُ من غرفة ملابس الرجال وإذا بي أسمعُ التصفيق إيذاناً بانتهاء الفصل الأول. وأخطائي الفاضحة في الأداء مُرعبةٌ أيضاً. ولو أنَّ خلفيّة الصالة كانت ممتلئة - وهو ما لم يحدث في أي عَرضٍ - فأشكُّ في أني كنتُ سأكونُ مسموعاً في أي لحظة.

المشكلةُ معي كانت في النَفَس. فقد كنتُ أدعُ نهاية الجملة تتلاشى لأنَّ نَفَسي كان ينقطعُ.

ومع ذلك كنتُ أتمتَّعُ بيدين جيّدتين. أعتقدُ أنه يُحيطُ بي شيءٌ يمكنُ تمييزه في شخصية " دوك " - بغضّ النظر عمّا إذا كان كلّ ما قلتُه قد سُمِعَ.

من المؤكَّد أنَّ العرضَ سيستمرُّ طوال فترة الصيف. بل يجب أن يستمرّ، وسيستمرّ. أعتقد أنَّ تقديم مسرحية " الصرخة " قد يعتمد على ما لديّ من أسباب لأُعيدَ رسم عرضٍ تلقَّى " آراءً متضاربةً " وأُحافظُ على استمرار عَرضِه طوال خمسة أشهر، وهذا، أقصد أتمنَّى أن يكونَ إنجازاً ضخماً وعنصراً مُساعِداً لإنجاز عملٍ أكبر.

٨

في أواخر ربيع عام ١٩٤٧، وبعد أن أعدتُ جدّي إلى مقرِّه المعتاد في فندق غيوسو في ممفيس، تابعتُ طريقي بالسيارة قاصداً نيويورك، حيث كانت الاستعدادات تجري لإنتاج مسرحية " عربة اسمها الرغبة ".

في نيويورك، عدتُ إلى الاجتماع بسانتو، وكانت إقامتنا في نيويورك وجيزةً. شاهدتُ إنتاج إيليا كازان لمسرحية آرثر ميللر " كلهم أبنائي "، وقد أثَّرَ بي كثيراً إخراجه لتلك الرسالة الدرامية، وبالحيوية التي استطاعَ أن يبُثُّها فيها، حتى أني توسَّلتُ إلى أودري وود وآيرين سلزنيك كي تبذلا أقصى جهدهما للاتِّفاق معه على إخراج مسرحية " عربة... ". وكانت زوجته، مولي داي ثاتشر كازان، وهي صديقة قديمة لي، هي أول مَنْ قرأ المسرحية. وقد قاوَمَ هو فكرة تولّي إنتاجها، لكنَّها أقنعته ووقَّعنا العقد.

تمَّ إنجاز العمل الهامّ، وذهبنا أنا وسانتو إلى كيب كود. استأجرنا بيتاً ريفياً ذا سقفٍ خشبيّ يطلُّ على الشاطئ مباشرة ويقعُ في مكانٍ ما بين شمال ترورو وبروفنستاون. (سمَّيناه رانشو سانتو ووضعنا لوحةً تحمله وعلَّقناها على الباب). وسرعان ما جاءنا زائرون، فقد جاءت مارغو جونز وصديقتها الحميمة جوانا ألبوس لتشاركانا البيت الريفي. وكان هناك سريران جداريان بطابقين على كِلا جانبيّ الغرفة الرئيسية: تقاسمَتْ السيدتان واحداً، وأخذنا سانتو وأنا الآخر، وقد استهلكنا قدراً كبيراً من الشراب الناري. في تلك الأيام لم أكن قد أصبحتُ بعد مُدمِناً، لكنَّ مارغو (" إعصار تكساس ") كانت مولعة بشرب الخمر بقدر ما كان سانتو. وكنا قد جئنا مبكِّرين كثيراً إلى كيب بالنسبة إلى موسم السباحة في مياه المحيط، فقد كان البردُ ما يزالُ قارساً. لكني واصلتُ العملَ في " عربة... ". وفي ذلك الكوخ عثرتُ على مقولة

بلانش الأخيرة، التي أضحت شهيرةً بشكلٍ أو بآخر: " لطالما اعتمدتُ على لطف الغرباء ".

في الواقع كان هذا حقيقياً؛ أنا فعلتُ ذلك، وبدون أن ينالني الكثير من خيبة الأمل. في الحقيقة، كنتُ أُخمِّنُ أنَّ معارفَ المصادفة، أو الغرباء، هم في المعتاد ألطف معي من أصدقائي - وهذا لا يُعبِّرُ بالضبط عني. فلكي تعرفني ليس معناه أن تُحبَّني. في أحسن الأحوال يعني أن تحتملني، وعن النقاد المسرحيين أقولُ إنه يبدو الآن أنهم قد تجرَّدوا من التسامح.

لسببٍ ما تعطَّلَتْ الكهرباء والتمديدات الصحية كلها دفعةً واحدة. والأمسيات كانت تُضاءُ بالشموع، وبالنسبة إلى التغوُّط كان على شاغليّ الكوخ أن يخرجوا إلى الأدغال.

قُرابة تلك الفترة تلقَّيتُ برقيةً من كازان يُبلِغُني فيها أنه سيُرسِلُ ممثِّلاً شاباً يتوسَّمُ فيه الموهبة إلى الكيب، ويُريد منه أن يقرأ على مسمعي دور ستانلي. وانتظرنا وصوله مدة يومين أو ثلاثة أيام، لكنَّ الممثل الشاب، واسمه مارلون براندو، لم يظهر. وكنتُ قد تخلَّيتُ عن توقُّع مجيئه عندما وصلَ ذات مساء مع صبيَّةٍ، من النوع الذي يُقال عنه هذه الأيام " أمُّورة "

سألَ لماذا أطفأنا الأنوار فأخبرناه أنَّ الكهرباء معطَّلة. وسرعان ما قام بإصلاحها لنا - أعتقدُ أنَّ كل ما فعله هو أنه أقحَمَ قطعةَ نقدٍ صغيرة في صمَّامة النور.

ثم اكتشفَ العطل في التمديدات الصحية وأصلحه أيضاً.

كان أجمل شابٍ رأته عيناي، فيما عدا استثناءٍ أو اثنين؛ غير أني لا أعبثُ أبداً مع الممثلين؛ إنها سِمةُ أخلاقيةُ عندي، وعلى أي حال لم يكن براندو من النوع الذي يعملُ على أن يحظى بدورٍ تمثيليّ بهذه الطريقة.

بعد أن أعادَ الكوخَ إلى أحسن حالاته عن طريق إصلاح الأنوار والتمديدات الصحية، جلس في إحدى الزوايا وأخذَ يقرأ دور ستانلي. وكنتُ أرنو بنظري إليه. وبعد أقلّ من عشر دقائق، قفزَتْ مارغو جونز وأطلَقَتْ هتافَ " إعصار تكساس ":

" اتَّصِلْ بإيليا كازان فوراً! إنَّ هذه أعظم قراءة سمعتُها في حياتي - في تكساس أو خارجها! "

ربما رسمَ براندو ابتسامةً صغيرة غير أنه لم يُظهِر أي ابتهاجٍ خاص، كالابتهاج الذي شعرنا به جميعاً.

كان دور كوالسكي هو أول دورٍ هامّ أدَّاهُ على خشبة المسرح، وكل الأدوار الباقية أدَّاها على شاشة السينما. وأعتقدُ أنَّ هذا أمرٌ مؤسفٌ، لأنَّ براندو كان يتمتَّعُ بسحرٍ خاصٍ وهو على خشبة المسرح يُعادلُ سحر لوريت تيلر وهي في أوج قوتها وتألُّقها.

في تلك الليلة تناولنا طعامَ العشاء في المنزل وقرأنا الشعر. أقصد أني أنا قرأتُ بعض الشِعر. ثم أوينا إلى الفراش. لم يكن هناك سرير لبراندو فالتفَّ بملاءةٍ واستقرَّ على الأرض.

لسببٍ ما بقيَ براندو دائماً حييَّاً معي. وفي صباح اليوم التالي طلبَ مني أن يتمشَّى معي على الشاطئ، وفعلنا - بصمت. ثم عدنا أدراجنا - بصمت...

بعد أن وجدنا مَنْ يُمثِّل دور كوالسكي، باتَ علينا أن نجد مَنْ تُمثِّل دور بلانش. واستُدعيتُ للعودة إلى نيويورك لأستمعَ إلى قراءة مارغريت سليفان للدور. لم تبدُ لي مناسبة، وبقيتُ أتخيَّلُها ممسكةً بمضرب تنس بيدها وكنتُ أشكُّ في أن بلانش لعبت تنس دهرها. وقرأتْ من جديد. كانت مارغريت سليفان إنسانة طيبة، ممثلة مجرَّدة من الذات المميَّزة. وحين أبلغناها أنَّ القراءة الأولى لم تكن مُرضية، طلبتْ أن تُعيد القراءة. وأستمعنا إليها مرة ثانية. ولسببٍ ما ظلَّ مضرب التنس حاضراً حضوراً خفيَّاً لكنَّه ملموس. وانتُدِبَتْ آيرين كي تبلغها أننا ممتنُّون غاية الامتنان لها لكنها لا تصلح للعرض.

ثم سمعنا أنَّ ثمة ممثلة لم أسمع باسمها من قبل، سيدةٌ اسمها جيسيكا تاندي، كانت تُحقِّقُ نجاحاً فائقاً في المنطقة الساحلية في أداء مسرحية قصيرة لي تُدعى " صورة العذراء ". وقرَّرنا، آيرين، وأودري، وسانتو وأنا أن نأخذ الريِّس الأعلى إلى الشاطئ لكي نشاهد أداءها.

وتجلَّى لي فوراً أنَّ جيسيكا هي بلانش.

تمَّ انتقاء صاحبيَ الدورَين الأكثر أهميّة، وقلتُ لكازان أنَّ عليه أن يُعيِّنُ ممثلين لباقي الأدوار كما يشاء ثم عدتُ إلى كوخ رانشو سانتو في الكيب. كان الجو عندئذٍ قد باتَ دافئاً بشكلٍ يسمحُ بالسباحة، وفي تلك الأيام كانت منطقة الكيب منتجعاً صيفياً

جميلاً. وظلّ سلوك صديقي غريب الأطوار إذا استخدمنا التعبير المُعتدل. وكانت مارغو ما تزال موجودة هناك وتطلَّبَ منا ما يُشبه السيطرة عليه كلّ جهودنا المتكاتفة. كنتُ قد تعودّتُ على مزاجه الناريّ وقسَّمتُ وقتي خلال ذلك الصيف بين قضاء أوقات الصباح في الكتابة وفترات بعد الظهر على الكثبان المُشمِسة خارج مدينة بروفنستاون.

ثم بدأ أناسٌ يُثيرون الاهتمام يظهرون في بروفنستاون. كان الشاعرُ الغنائيّ جون لاتوش، الذي كتبَ " كوخ في السماء " وأغانٍ أخرى، موجوداً بينهم، وكان في صُحبته شابٌ سيُصبِحُ لاحقاً أقرب صاحب لي وأبقاهم معي، شابٌ من أصلٍ صقيلّي اسمه فرانك مرلو.

كان فرانك أقصر قامةً مني بمقدار إنش لكنّه منحوتٌ على يد براكسيتيليس[٤٦]؛ عيناه بُنِّيتان نجلاوان ووجهه كوجه حصان، مما جلبَ له بعد ذلك بسنتين لَقَبَ " الحصان الصغير ".

كان لاتوش يمرُّ بما يُشبه الأزمة العصيبة لها علاقة، أظنُّ، بأمِّه، وفجأةً رحلَ وتركَ فرانكي مرلو في الكيب.

لقاؤنا الأول كان حادثةً شبه مسرحية.

كنتُ أنا وسانتو قد ذهبنا إلى أحد المرابع الليلية في بروفنستاون يُدعى أتلانتيك هاوس. وفنانة السهرة كانت ستيلا بروكس وهي من أوائل مُغنّي الجاز العِظام، وكنتُ شديد الإعجاب بها، وهو أمرٌ كان يزعج سانتو. وأثناء غنائها هتف في وجهها ببعض الكلمات البذيئة ثم اندفع خارجاً إلى وِجهةٍ مجهولةٍ ولمّا وجدتُني وحدي بعد انتهاء ستيلا من أدائها خرجَتُ لأتمشّى على الشُرفة الخشبيّة لأتلانتيك هاوس. بعد بضع لحظات خرجَ فرانك مرلو بدوره، وحده، ومالَ مُتّكئاً على درابزين الشُرفة وهو يُدخِّن، وكان يرتدي بنطال جينز ورحتُ أنظرُ إليه وأُطيلُ النظر. ولابد أن تحديقي المتواصِل والمُدقِّق كان يحرقُ كتفيه، إذ بعد قليل التفتَ نحوي ورسمَ ابتسامة.

لا أدري ماذا قلتُ لكننا بعد مُضيّ دقيقتين من الزمن كنا معاً في سيارتي البونتياك ذات الغطاء القابل للطيّ في طريقنا إلى الكُثبان خارج البلدة.

لا أريدُ أن أُحمِّل هذا الشيء أكثر من طاقته من صفحات الأدب الجنسي المِثلي، ولكن لنقُل إنها كانت بالنسبة إليّ ساعةً رائعةً أمضيناها بين الكُثبان في تلك الأمسية

على الرغم من أني لم أكُن أعتبرُ قط أنَّ الرمال هي الوسط الأمثل أو المُفضَّل لأقومَ بعبادة ذلك الإله الصغير. على أي حال، أدَّيتُ لذاك الإله الصغير صلاةً خاشعةً بحيث أنه لابد يبتسمُ حتى الآن -

بعد أن أوصَلتُ فرانكي إلى مكان سُكناه، ركَنتُ سيارتي ورحتُ أتسكَّعُ بخُطى حالمة في أنحاء البلدة. وبينما كنتُ أشُقُّ طريقي وسط ضبابِ ليلِ برفانستاون الكثيف، أخذَ سانتو سيارتي وذهبَ بها أولاً إلى منزل ستيلا بروكس، ظناً منه أنها استدرجتني إلى سريرها. مسكينةٌ ستيلا، إنها تعرفني حقَّ المعرفة بحيث لا يمكن أن تفعل ذلك. وسَدَّدَ سانتو ضربةً إلى عينها وتركَ منزلها بعد أن جعلَهُ خراباً.

ولما عدتُ إلى مربع أتلانتيك هاوس أثناء وقوع هذه الحادثة ووجدتُ أنَّ السيارة مفقودة توجَّهتُ إلى المنزل سيراً على قدميَّ. أخذت أرتقي المنحدر، وأنا مُستنزَف من فرط التعب، متَّجهاً إلى نورث ترورو وإذا بضوئين أماميَّين لسيارةٍ تنعطفُ بجموحٍ يظهران عند أعلى التل، ثم تهبطُ بسرعةٍ فائقة. وخمَّنتُ، بما أتَّصِفُ به من غريزة الوقاية، أنَّ سائقَ تلك السيارة هو سانتو. بدتْ السيارة مُتَّجهةً مباشرةً نحوي فخطوتُ إلى جانب الطريق. وشقَّ سانتو طريقَه إلى حقل الحشائش المُستنقعيّة بما بدا أنه نيَّة في دهسي. لم أبقَ في مكاني لكي أتفكَّرَ بارتياب مجنون في ذلك الاحتمال بل أسلمتُ ساقيَّ للريح، منطلقاً عبر المستنقع عندئذٍ اندفعَ سانتو يلاحقني، على قدميه هذه المرة، وهو يصرخ بالسباب بالإنكليزية والأسبانية.

وصلتُ إلى المحيط بدون أن يتمكَّنَ من اللحاق بي - فقد كان الليلُ حالكاً لا يُضيئه قمر. شاهدتُ رصيفاً خشبيّاً للقوارب فواصلتُ الركضَ عليه وتدلَّيتُ من تكوينه السُفلي، فوق مستوى الماء مباشرة. وبقيتُ هناك إلى أنْ فقَدَ سانتو، بما أنه ليس دمَّوما[٤٧]، كل أثر لي، وابتعد وهو يزعقُ في اتجاه آخر، بعد ذلك صعدتُ إلى الرصيف، وأنا مستبرد ومُبلَّل، وقطعتُ من جديد أرضَ المستنقع المالحة - وبدون أن أتذكَّر قصيدة سَلَفي وقريبي " مستنقعات غلين ".

عدتُ، بدون أي تردُّد إلى مربَعْ أتلانتيك هاوس. وكانوا هناك يؤجِّرون غُرَفاً تقعُ فوقَ البار فاستأجرتُ واحدةً وأزلجتُ الباب ودفعتُ كلَّ قِطَع الأثاث فيما عدا السرير عليه.

ثم نمتُ.

عندما استيقظتُ، اتّصلتُ هاتفياً بمارغو وجوانا في الرانشو. فقالتا إنهما هما أيضاً أمضيتا ليلةً مُرعبة. واتّفقنا جميعاً على أن نُقنِع سانتو بالرحيل.

عَمِلَتْ مارغو كوسيطٍ بيننا.

ورافقَتْهُ جوانا عند رحيله إلى الحافلة.

عدتُ إلى المنزل الصغير الذي كان ما يزالُ يحملُ على واجهته عبارة " رانشو سانتو " وكأنها نبوءة!

في تلك الأمسية كنتُ والسيدتين التكساسيتين في طريقنا لتناول طعام العشاء يَشيعُ بيننا المرح وإذا بسانتو يندفع نحونا. بدا كأنه عادَ إلى بروفانستاون سيراً على قدميه.

كان في أفضل مزاج - وكأنما لم يحدث أي إخفاق في حياتنا نحن الثلاثة.

يبدو أنَّ المرءَ يقبلُ المحتومَ فوراً.

أكلنا الكركند على العشاء وواصلنا حياتنا المعتادة في الرانشو. استمرَّ هذا الوضع إلى أنْ حانَ وقت عودتي إلى نيويورك من أجل مباشرةِ التدريبات في أوائل الخريف على مسرحية " عربة... "

تطلَّبَ منا دفعُ سانتو إلى الرحيل بعض الجهد. وربما تم إحراز هذا الإنجاز الاستثنائي على يد آيرين سلزنيك، التي نادراً ما تجد نفسها في موقف لا تنجح في التعامُل معه، ولا حتى في موقف تخليصي من سانتو. بعد ذلك صرتُ وبكل سرور وحدي في نيويورك، وأخذتُ شقَّةً مؤلَّفةً من غرفةٍ واحدةٍ مع مطبخ صغير في منطقة تشيلسي، هي الطابق الأول الأمامي من مبنى من حجرٍ بُني اللون.

تواصلَتْ التدريبات في أمستردام روف. وحسبتُ أنَّ المسرحية مُقدَّرٌ لها الإخفاق التام. ومرةً أخرى تيقَّنتُ من أني فنان يحتضر بل لم أكن متأكِّداً بأي قدْر أني فنان.

لقد فهمني كازان فهماً مُذهلاً بالنسبة إلى رجلٍ مثله تختلفُ طبيعتُه على طول الخط مع طبيعتي. لقد كان أحد أولئك المُخرجين النادرين الذين يريدون من الكاتب أن يكونَ متواجداً طوال فترة التدريبات، حتى أثناء تلك التي يُجمَّد فيها العمل. وبين حينٍ وآخر كان يدعوني إلى الصعود إلى خشبة المسرح لكي أُبيِّن إحساسي بالطريقة التي

يجب بها أداءُ جزءٍ ما. وأعتقدُ أنه كان يفعلُ ذلك فقط ليتملّقني لأنه حالما يبدأ في عمله لا يعودُ لديه أدنى شك فيه.

أذكرُ أنه طلبَ مني أن أعرضَ تصوُّري للمرأة المكسيكية العجوز التي تمرُّ في الشارع وهي تبيعُ أزهاراً اصطناعية زاهية الألوان لتوضَع على القبور، وهي تنادي وتغني:

"Flores para los muertos, corons para los muertos " (أزهارٌ للموتى، تيجانٌ للموتى)

صعدْتُ إلى خشبة المسرح حيثُ تجري التدريبات وتقدَّمتُ إلى باب مسكن كوالسكي وأنا أحمل الأزهار الاصطناعية... فتحتْ جيسيكا البابَ وصرخَتْ لدى مرآيَ:

" ليس الآن، ليس الآن! "

قال كازان " هذا هو المطلوب، أدِّها كما فعلتَ الآن "

كنتُ ما أزال أعيش وحدي في شقة تشيلسي، متوقعاً الموتَ والفشل. ثم بينما كنت أعمل ذات ظهيرة سمعتُ طرقاً هادراً على الباب، وكان موصداً لحسن الحظ.

" يا إلهي، لقد عاد سانتو! "

لَّما لمْ يتمكن من كسر الباب قفز إلى العتبات الأسمنتية للنوافذ ذات الجَمَلون. فهرعَتُ إليها في الوقت المناسب لكي أغلقها. وفي ذلك الوقت كان قد تجمُّع خارج البناء حشد كبير من الناس. كان سانتو واقفاً على عتبة النافذة، وهو يضرب بقوة عليها، إلى أن هشَّمَ الزجاج. ثم تدخَّلَ رجال الشرطة. ولم يُلقوا القبض على سانتو لكنهم أمروه بالابتعاد. فالتفتْ إليّ. كان وجهه مُخضَّلاً بالدموع. وأخذت أبكي بدوري، وهو أمرٌ نادراً ما أفعله.

كانت واقعةً مُحزنة، وآمل في أن تكون قد تفهَّمتَ سلوكي.

انتقلتُ، بناءً على نصيحةٍ من أودري وآيرين، من شقة حي تشيلسي مؤقَّتاً، ولجأتُ إلى فندقٍ قديمٍ كنتُ قد أقمتُ فيه قبلها بسنين عديدة، فندق رخيص قذر يُدعى فندق ويندسور ويقعُ في الحي الغربي. بقيتُ هناك إلى أن تمَّ إقناع سانتو بأنه لا يمكن إغوائي بالسُكنى معه ثانية أو برغبتي في رؤيته من جديد.

* * *

افتُتِحَتْ مسرحية " عربة... " في نيوهيفن في أوائل شهر تشرين ثاني من عام ١٩٤٧، ولم يبدُ أنَّ أحداً كان يعرفُ ما هي الآراء النقدية حولها ولا أحد كان يهتم بذلك. بعد ليلة الافتتاح في نيوهيفن دُعينا إلى مسكن السيد ثونتون وايلدر، حيث كان يُقيم، وكأننا كنا في مجلس البابا، فقد تحلّقنا جميعاً حول ذلك السيد الأكاديمي وهو يحطُّ المسرحية أمامه وكأنه يُسلِّمُ بياناً بابوياً رسمياً. قال إنها تقومُ على أساس فَرَضيَّةٍ خاطئةٍ بشكلٍ قاتل. إذ لا يمكنُ لأي امرأةٍ محترمةٍ (كان يُشيرُ بذلك إلى شخصية ستيلا) أن تتزوَّج من سوقيّ كستانلي.

جلسنا هناك وأخذنا نستمعُ إليه بأدب. قلت، في سرِّي، هذا الشخصية البارزة لم يحظَ قط بمضاجعةٍ جيدة. وقد رَدَدْتُ له الصاعَ صاعَين بعد ذلك بسنين عديدةٍ حين دُعيتْ مجموعةٌ من العاملين في مجال المسرح، خلال فترة رئاسة كينيدي، إلى وليمةٍ أُقيمَتْ في البيت الأبيض. وطُلِبَ منا نحن أهل المسرح أن نقفَ صفاً واحداً حسبَ ترتيب الأحرُف الأبجدية في غُرفةٍ تُغطِّي جدرانها مرايا بَرّاقة. ووقفنا بشكلٍ أو بآخر في صف واحد. وأوشكَ الرئيس وجاكي[٤٨] وضيف شرفهما، أندريه مالرو، أن يظهروا. وإذا بثورنتون وايلدر يتنقَّلُ على عجلٍ مثل مارشال عَيَّنَ نفسَه بنفسه، ليرى إن كنا نقفُ كما ينبغي ضمن رتلٍ وحسب ترتيب الأحرف الأبجدية. وكنتُ مُنهمكاً في حديثٍ مع المس شيللي وينترز - وكلانا كان يبدأ لقبُهُ بحرف الواو.

اندفعَ السيد وايلدر متقدِّماً نحوي تشعُّ على وجهه ابتسامةُ حانوتي وزعَقَ " يا سيد ويليامز، إنك تقفُ في غير مكانك، تعال ورائي "

حسنٌ، لقد جمدتُ في مكاني إلى درجةٍ أني قلتُ له " إذا صرتُ وراءكَ ستكون تلك أول وآخر مرة أفعلُ ذلك في حياتي "

حين أوشكَ الرتلُ المُرتَّبُ أبجدياً أن يمُرَّ كله من أمام الرئيس والسيدة الأولى وتمَّ تقديمه إلى المسيو مالرو، حان دوري لأقابله ولم أكن في الحقيقة قد سمعتُ به من قبل. فقلتُ له "Enchante[٤٩]، Monsieur Mourois-" مما دفعَ جاكي إلى الابتسام لكنْ يبدو أنَّ المسيو مالرو لم يستسغ ذلك.

في وقتٍ متأخِّر من إحدى الأمسيات وبينما كانت مسرحية " عربة... " تُعرَض في بوسطن تلقّيتُ زيارة أخرى مُفاجئة من العزيز سانتو. ولم أكن أوصدُ بابي قط وأنا في

فندق ريتز - كرلتون - ومَنْ يفعل؟ - وفجأةً إذا بهذا الصاحب السابق والشجاع دائماً يندفعُ إلى داخل غرفة نومي وجلوسي. وأخذَ يصُبُّ كلمات الأسف العميق، والتحبُّب، وكلمات لم أولها أذناً رومانسية. ثم كُسِرَتْ بعض الأشياء، مزهريةٌ أو اثنتان كانتا على رف المدفأة. غير أنَّ غرفة السيدة سلزنيك كانت تقعُ قِبالة غرفتي، فسمعتْ الضجيج وبتصرُّفٍ غير حكيم - لا أتصوَّرُ آيرين تقومُ بأي عملٍ غير حكيم! - فتحتْ باب غرفتها على الرواق. وعلى الفور انتهزَ سانتو هذه الفرصةَ ليوجِّه جام حنقه المخمور إلى تلك السيدة التي لا ذنبَ لها. وكان تعدِّيه عليها لفظياً بأكمله وأعتقدُ أنها عالجت الموقفَ ببراعتها وسرعتها المعتادتين.

مرَّتْ سنونٌ كثيرةٌ قبل أن أقابل سانتو ثانية، ومنذ ذلك الحين - منذ تحوُّله إلى نكرةٍ مُدمنٍ على الكحول وانعطافِ روحِهِ الجميل نحو التديُّن - أصبحتْ لقاءاتنا تتَّسِمُ بالصفاء والدماثة...

* * *

حين وصلَتْ مسرحية " عربة... " إلى بوسطن بدأنا نتلقَّى تقاريرَ نقديةٍ جيدةٍ عنها. لم يظهر إلا تقريرٌ واحد سلبي في الصُحُف، ومع ذلك كان الرواج ممتازاً. ولكن لم يتَّضِح إلا حين وصلنا إلى فيلادلفيا أنَّ المسرحية ستُحقِّق نجاحاً أكيداً.

كنتُ وكازان واقفين في بهو دار مسرح فيلادلفيا قبل رفع الستار وكان الحشد يتدافعُ مثل aficionados (متحمِّسين) لمصارعة الثيران مُقبلين على مشاهدة المُصارع العظيم أوردو نييث. ابتسمَ كازان لي وقال " إنَّ هذا يُنبئ بنجاحٍ ساحق "

أذكرُ أني ابتعتُ لنفسي معطفاً من الجوخ الغالي جداً في فيلادلفيا بناءً على ما كانَ يردُ من تعليقاتٍ مؤيِّدةٍ هناك. ودعاني براندو لتناول طعام العشاء معه ذات أمسية وصحِبَني إلى مطعمٍ يوناني مغمور وكان من المستحيل أن أجرَّه إلى الانخراط في حديث ومن المستحيل تقريباً أن أتناولَ الأطعمة المُشبَّعَة بالزيت.

حقَّقتْ ليلة افتتاح المسرحية في نيويورك نجاحاً ساحقاً.

استُدعيتُ لأظهرَ على خشبة المسرح في ليلة الافتتاح وأنحني، كما فعلتُ في عرض مسرحية " مجموعة الحيوانات... "، وفي كلتيّ المناسبتين كنتُ أخرقَ. أعتقدُ أني انحنيتُ للممثِّلين بدل أن أنحني للجمهور.

كنتُ ما أزالُ أسكنُ وحدي في تلك الشقّة المؤلّفة من غرفةٍ واحدةٍ في حي تشيلسي ذات الحجارة السمراء. كان الوقتُ أواخر شهر كانون أول وقد ضَرَبَتْ البلدةَ عاصفةٌ ثلجيّةٌ عنيفة. هطلَ ثلجٌ كثيفٌ سبَّبَ عملياً وقوف حركة السير عدة أيام. وفَرَغَ البناءُ من الوقود فاضطررتُ إلى الاعتماد على موقد النار لأستمدَّ الدفء. وكان في مقدوري أن أشتري الحطبَ من مكانٍ قريب. وذات ليلةٍ من ليالي تلك العاصفة الثلجية المُطوَّلة تَصَادَفَ أن كنتُ ماراً بسيارة أجرة على طول ساحة تايمز فلاحظتُ شاباً يربضُ أمامَ أحد الأبواب. كان مُراهقاً أشقر، يرتدي ملابس غير مناسبة لنوعية الطقس، فتأثَّرتُ بشدة إلى درجة أني هتفتُ للسائق " قف "

قفزتُ خارجاً من سيارة الأجرة وهرعتُ إلى الفتى المكوَّم عند مدخل الباب.

" هيه، هيا معي، تبدو بارداً "

اتَّضحَ أنَّ الفتى كان عاملاً صغيراً في سيرك. أخذته معي إلى شقة الغرفة الواحدة في تشيلسي فأضرمنا النار لكي نُشبعَ قدْراً من الدفْ وما كادت النارُ تتلظَّى حتى سمعتُ طرقاً على الباب.

بعد بعض التردُّد الغامض فتحتُ البابَ فإذا أمامي صديقٌ لي في مجال المسرح ومعه صديقة عرفتُها لكني لن أذكر اسمها، غير أني سأقولُ إنها لم تكن زوجته.

قال مُعلِّقاً " يا إلهي، إنَّ الجوَ عندكم بارد "، وتوجَّه هو والسيدة الشابة فوراً إلى السرير - لغرضٍ وحيدٍ هو، فيما أعتقد، التدفئة. وجلسنا أنا وصبي السيرك عند الموقد وكأننا في حالةِ تأمُّلٍ وسرعان ما امتلأت الغرفة بصرخاتِ الإثارة الهستيرية صادرةٍ عن السيدة الشابة التي لن أذكر اسمها. بعد ذلك جلسنا جميعاً أمام النار وشربنا وتلاشى كل إحراج كان سائداً بيننا.

بعد رحيل الاثنين، أخذنا أنا والفتى مكانهما في السرير ويجب أن أؤكِّد أننا كنا أشد هدوءاً على الرغم من أني أعتقدُ أنَّ أحاسيسي لم تكن أقلَّ هياجاً من أحاسيسهما. ومكثَ الفتى معي يومين وليلتين، ثم غادرَ السيركُ الذي يعملُ فيه البلدةَ وعدتُ وحيداً من جديد.

بُعيدَ انتهاء العاصفة الثلجية حجزتُ مكاناً على متن سفينةٍ في طريقها إلى أوروبا اسمها " أميركا "، وكنا في فترة عيد الميلاد فاشتريتُ شجرةً كبيرةً وزيَّنتُها

ووضعتُها في الشقة وأقمتُ حفلةً كبرى. وبالكاد اتَّسَعَتْ الغرفة للضيوف. ولعلَّ اثنتين من النجوم في تلك الأمسية كانتا غريتا غاربو(٥٠) وهيلين هيز.

تركَتْ غاربو أثراً هائلاً بين الحضور، فقد كانت ذات جمالٍ ساطع. وكنتُ قبل ذلك ببضعة أسابيع قد صادفتُها في الشارع، ولم أعرفها. قال لي رفيقي " تلك السيدة التي مررنا بها للتو هي غاربو "، فدرتُ على عقبي وهرعتُ إليها. صحيحٌ أنَّ الوجهَ الجميلَ قد شاخَ، لكنَّ الجمال ذاته كان ما يزالُ موجوداً. والحياء الجمّ أيضاً. كانت دمثةً ولكنْ مذعورة. أبلغتُها أني سأظهرُ في مساء ذلك اليوم في عرضٍ لمسرحيةٍ من تأليفي هي " محاذير المهنة الصغيرة "، ودعوتُها لتكون ضيفتي. كانت دعوةً حمقاء أعرضُها على غاربو لكنَّها رَفَضَتها بكل لطفٍ ورِقَّة. قالت " ما أروع هذا. شكراً لك: لم أعُدْ أخرجُ من بيتي أبداً "

ثم انطلقَتْ تتابعُ سيرها.

أعتقدُ أني اجتمعتُ بغاربو خمس مراتٍ، وإحداها كانت خلال شهر كانون أول من عام ١٩٤٧ بُعَيد افتتاح مسرحية " عربة... " في نيويورك. وكنتُ قد أخبرتُ جورج كيوكر أني كتبتُ نصاً سينمائياً بعنوان " غرفة النوم الوردية ". وكان كيوكر صديقاً عزيزاً لغاربو، فقال " أريدُ منكَ أن تعرضَه على غاربو. سوف أدبِّرُ أمرَ مقابلتها لك "

كم دُهِشتُ حين استقبلَتني السيدة الرائعة وحدي في شقَّتها في برج الريتز.

جلسنا في الصالون نرشفُ الشنابس. شعرتُ أني في السماء السابعة وأخذتُ أحكي لها قصة " غرفة النوم الوردية ". كان يُحيطُ بجمالها الغريب الخنثويّ شيءٌ خَلَّصَني من ذُعري المتأصِّل. حكيتُ لها القصة وكانت تُتمتِم " رائع! " وهي تميلُ نحوي ونظرة الانشداه تطلُّ من عينيها. قلتُ في نفسي، سوف تُمثِّلُها، سوف تعودُ إلى الشاشة. وبعد مرور ساعةٍ من الزمن، وبعد أن انتهيتُ من سرد السيناريو، ظلَّتْ تُردِّدُ " رائع! ". لكنها بعد ذلك تنهَّدَتْ وأسندتْ ظهرها إلى الأريكة وقالت " نعم، إنه رائع، لكنه لا يُناسبني. أعطه لجون كروفورد "

المناسبة الثانية التي اجتمعتُ فيها بغاربو كانت أعتقدُ بعد ذلك بخمس سنوات، حين دُعيتُ إلى حفلٍ صغيرٍ أقامته تلك الممثلة العجوز الفخمة الرائعة كونستانس كولبير. وكانت غاربو موجودة هناك فتقدَّمَتُ منها وقلتُ " أنتِ أعظم ممثلة سينمائية شاهدتُها على الشاشة، ويجب أن تواصلي مسيرتك "

قَفَزَتْ غاربو واقفةً وهتفَتْ " إنَّ جوَّ هذه الغرفة خانق "، واندفعَتْ نحو إحدى النوافذ، وشَرَّعَتْها واسعاً وكأنها تنوي أن تقفزَ منها وبقيَتْ واقفةً عندها عدة دقائق وهي تُديرُ ظهرها لنا.

مالتْ الممثلة الجليلة العجوز نحوي وهي عابسةٌ وهمسَتْ " إياكَ أن تُحدِّثها عن التمثيل مرةً أخرى. إنها دائماً تنفجرُ عندما تسمعُ هذا الاقتراح "

ما أشدَّ حزن الفنان الذي يتخلَّى عن فنه: أعتقد أنه حزنٌ أفدح من ذاك الذي يُثيره الموت...

لابد أنه كان يشوب مسيرتها السينمائية شيء يُثير فيها تمرُّداً عميقاً - أقصد، في هوليوود. وهكذا تحولّتْ إلى أسطورة خالدة وبقينا نحن مع أدوارها مثل " كاميل " و " أنَّا كرنينا "، ومع ارتعاشات ذلك الصوت الرائع الذي حتماً لم يكن يقلّ عَظَمَة عن صوت ديوز.

في نهاية شهر كانون أول، عندما لم يعُد في مقدوري أن أتحمَّل الشُهرة المُطَّردة التي أحرزتها في نيويورك، أبحرتُ إلى أوروبا.

لم أُصَبْ بأي دوار بحر لكنّي شعرتُ بصورةٍ غريبةٍ بأني لستُ على ما يرام وبعجزي عن كتابة أي شيء.

لطالما أقلقني عجزي عن الكتابة وكأنَّ السماء تنهار فوق رأسي.

وصلتُ إلى شيربور ثم إلى باريس.

كنتُ قد سألتُ غاربو أين يمكن أن أنزل في باريس فقالت السيدة العزيزة " جرِّبْ فندق جورج الخامس ". ولم أرَ كيف يمكن لغاربو أن تُخطئ، فذهبتُ إلى هناك. ولم أكره قط أي فندق بقدر ما كرهته وأنا الذي كانت حياتي مملوءة بالغُرَف المُستأجَرَة.

وهكذا انتقلتُ في اليوم التالي إلى فندق يقعُ على الضفة اليسرى يُدعى لوتيتيا. وهذا أعجبني أكثر، على الرغم من أنه يفتقر تماماً تقريباً إلى وسائل التدفئة. وكانت الصحافة ما تزال تلاحقني. وكانت حالتي تتدهور باطراد، بسبب افتقار أوروبا للطعام الجيد خلال السنوات الأولى بعد انتهاء الحرب. إلا أني كنتُ مسروراً بلا ريب بحياة الليل التي سرعان ما اكتشفتُها. كنتُ أتردَّدُ باستمرار على مربّع " بوف سور لو توا " و " مدام آرتور "، وفي هذا الأخير كان هناك عرضٌ مُسلٍ رائع جداً.

خلال فترة النهار كنتُ أُمضي أغلب الوقت في حوض استحمام هائل الحجم في فندق لوتيتيا. لم يكن في مشعاعاتهم حرارة ولكن لسبب ما كان لديهم الكثير من المياه الحارّة. وكنتُ أستقبلُ الصحافةَ وأنا في حوض الاستحمام. وأعتقد أنَّ جزءاً مني كان دائماً يرغبُ في استقبال الصحافة، تحت أي ظرف من الظروف. وكان رنين جرس الباب لا يتوقف عن جلب طلبات إجراء المقابلات الصحفية. فأخرجُ من حوض الاستحمام، وأنا أرتجفُ متلفِّعاً بإحدى المناشف الكبيرة.

"Montez, sil vous plait, chambre numero -- "

(اصعدْ من فضلك، إلى الغرفة رقم --)

ثم أتركُ البابَ موارباً قليلاً وأعودُ لأغوص في حوض الاستحمام الضخم، المُشبَّع بالبُخار.

أعتقد أني وأنا في باريس تعرَّضتُ لصحافة فظيعة لكني لم أقرأها قط. كنتُ منغمساً في المسرَّات الليلية التي قدَّمَتها إليّ مدينة الأنوار.

مع ذلك، كنتُ في صباح كل يوم أشعر أنَّ حالتي تتدهور. وفي ذلك الوقت لم يكن في وِسع المرء أن يحصل على حليب حقيقي في باريس، لم يكن يتوفَّر غير الحليب المُجفَّف، وكان الطعام بائساً. وكنت أفرط في شرب الكونياك.

فجأةً شعرتُ بتوعُّك شديد فلجأتُ إلى المستشفى الأميركي في نويّه.

أبلغني الأطباء بأني " مُهدَّد بالإصابة بالتهاب الكبد وبزيادة في أُحاديات النواة في الدم ". لم أكن قد سمعتُ قط بأيٍ من هاتين العِلَّتين ولم يُفسِّر لي الأطباء كنههما. وفي يومياتي كتبتُ " بدأتْ اللعبة ".

على متن السفينة المتوجِّهة إلى أوربا قابلتُ فتاةً فاتنة كان والداها عَلَمَين بارزَين من أعلام الصحافة الفرنسية. الأب، مسيو لازاريف، صاحب صحيفَتين باريسيَّتَين، هما " باري جور " و " باري سوار "، والأم، مدام لازاريف، مُحرِّرة بمجلَّة الأزياء ".elle"

عادتني مدام لازاريف في المستشفى الأميركي، حيث كنتُ أنتظرُ وصول الحاصدة.

أمرتني قائلة " انهضْ من السرير فوراً. سآخذكَ إلى المنزل، وأقدِّمُ لك عشاءً دسِماً، ثم أُرافقك حتى القطار المتوجِّه إلى جنوب فرنسا "

أرسلتني إلى نُزُلٍ يُدعى " لاكومب دور "، حيث كانت تمكث ابنتُها. وكان المكان يرتاده في الغالب الفنانون والكُتَّابُ ويقعُ في بلدة فانس، المكان الذي توفي فيه د. هـ.

لورانس. وكانت الحمائم البيضاء كما الثلج ترفرفُ وتهدلُ في سماء المنطقة - وقد أشاعَ في نفسي الانقباض. لم أبقَ هناك أكثر من يومين ومن ثم انتقلتُ إلى إيطاليا. وحالما اجتزتُ الحدود الإيطالية شعرتُ أنَّ صحَّتي وحياتي قد انتعشتا وكأنما بسحر ساحر. فهناك الشمس وهناك الإيطاليون المُبتسمون.

في روما استأجرتُ شقَّةً مفروشةً بغرفتَين في فيا أورورا، لا تبعُد كثيراً عن فيا فينيتو. وكانت تقعُ في أحد تلك الأبنية العتيقة ذات اللون الأسمر المصفرّ والسقوف العالية التي تُميِّز Vecchia Roma (روما الجميلة) على الرغم من أنه لم يكن قائماً في ذلك الجزء من المدينة. كان مجرَّد بناءً واحداً منفصلاً من المدخل وحتى حديقةٍ عامةٍ كبيرةٍ تُسمَّى فيلا بورغيز. وسُرعان ما اكتشفتُ أنَّ كُلاً من الحديقة العامة والجادَّة، فيا فينيتو، كانا مَلجأين مُفضَلَين لعقدِ ما يُشبه الصداقات العابرة التي يمكنُ لشخصٍ أجنبيّ يُعاني من الوحدة أن يسعى إليها. كان هذا يحدثُ في السنوات التي تلَتْ نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرةً، وكان سعر الدولار مرتفعاً جداً.

صحافيٌ أميركي عجوز وساخر قابلتُهُ إبَّان وصولي قال لي " إنَّ روما هي مدينة من اللصوص والمتسوِّلين والعاهرين، من الذكور والإناث ". لاشك في أنَّ الدعارة كانت مُتفشِّية ولصالح الصحافي الساخر الذي كان يُشاركني في اهتماماتي الجنسية لكنه كان أكثر صلابة بكثير في انغماسه في ذلك الولَع.

كان في روما متسوّلون: والمتسولون يوجدون حيثما وُجِدَ قدْرٌ هائلٌ من البؤس الاقتصادي. في الحقيقة، يوجد بينهم الآن في أنحاء معيَّنةٍ من نيويورك أكثر مما كان يوجد في روما قبل خمسٍ وعشرين سنة، وحتماً يوجدُ من اللصوص أكثر من ذلك بكثير في المدن الأميركية. إنني لم أُقابل أي لص في روما في تلك الأيام، ولا قابلتُ عُنفاً ولا تعرَّضتُ لتهديدٍ به. إنَّ الإيطاليين لا يميلون كثيراً إلى السرقة أو العُنف، وأعتقدُ أنَّ هذا يسيرُ ضد طبيعتهم.

أما بالنسبة إلى الدعارة، فهي بحقّ أقدم مهنةٍ في العالم في كل بلدان حوض البحر المتوسط، فيما عدا ربما أسبانيا. وسببُ ذلك يعودُ إلى حدٍ بعيد إلى جمالهم الجسدي وإلى حرارة دمهم، وإلى شبقهم الجنسي الفطري. في روما نادراً ما ترى رجلاً في الشارع ليس لديه قدْرٌ من الانتصاب. وغالباً ما يسيرون على طول شارع فينيتو

وأيديهم في جيوبهم يداعبون أعضاءهم الجنسية بحركةٍ عفويةٍ تماماً، بغضّ النظر عمّا إذا كانوا يتحرَّشون بأحد أو يسعون إلى ذلك. لقد نشأوا بعيداً عن تحفُّظاتنا التطهُّرية حول الجنس. إنَّ الذكور الشبان الأميركيين، حتى عندما يكونون وسيمين، لا يعتبرون أنفسهم مرغوبين جنسياً. أما الشبان الإيطاليون فلا يعتبرون أنفسهم إلا كذلك. ونادراً ما يخطئون. وهذه المسألةُ عالجتُها وأحطتُ بها بشكلٍ كامل في أطول قطعةٍ كتبتُها في أدب الرواية، وهي " الربيع الروماني للسيدة ستون ".

في روما عقدتُ صداقاتٍ كثيرةٍ بسرعةٍ كبيرة: كانت صِلات الصحافي الأميركي الاجتماعية لا حدودَ لها، ضمن الطبقات الراقية والمُتدنّية من المجتمع الروماني. فمن خلاله قابلتُ أغلبَ الجيل المُبكِّر من السينمائيين في الولايات المتحدة. قابلتُ لوتشينو فيسكونتي الذي كان قد انتهى لتوه من إخراج فيلم " Zoo de Vetro مجموعة الحيوانات الزجاجية "، ويوشكُ أن يقومَ بإخراج فيلم Un Tramway che chiamo Desiderio" عربةٌ اسمها الرغبة ". ويظلُّ أحدَ أعظم مُخرجي العالم للمسرح والسينما، وقد أنجزَ صديقُه الحميم ومُساعده في مرحلته الأولى فرانكو زيفيريللي منزِلَةً لا تكادُ تقِلُّ عن منزلته، خاصةً في فيلمه الساحر " روميو وجولييت ".

خلال ذلك الشتاء كان فيسكونتي يُخرِجُ فيلماً في صقلّية يُدعى "La Terra Ter-ma" (الأرض تهتز)، الذي في اعتقادي ما زال عمله الأعظم للسينما، على الرغم من أنه ربما الأقلّ شُهرة. وطِرنا أنا والصحافي الأميركي إلى كاتانيا، حيث كان فيسكونتي يُصوِّرُ بعض المشاهد بالقُربِ منها - والموقع كان ضاحية اسمُها أكيتريتزا. وهناك قابلتُ في وقتٍ واحدٍ فيسكونتي وزيفيريللي، الذي كان في ذلك الوقت شاباً فلورنسياً أشقرَ شديد الوسامة.

على الرغم من أنَّ فيسكونتي كان أرستقراطياً ورَثَ ثروةً طائلةً، إلا أنه كان في تلك الفترة شيوعياً صريحاً. وأعتقدُ أنه فقط في حالةِ بريشت إذا كان المرءُ فناناً تكونُ لآرائه السياسية أهمية خاصة في عمله، وأهمّ شيء هو مستويات حظّه من الموهبة والصفات الإنسانية. وأشعرُ أنَّ ميول الفنان الجنسية وانحرافاته الأخلاقية لا علاقة لها عادةً بقيمة عمله. إذا كان مُثيراً للاهتمام، طبعاً. وما كان يمكن إلا لشاذ جنسياً أن يؤلِّفَ " البحث عن الزمن الضائع ".

كانت شقتي تتألَّفُ من غرفتين، غرفة جلوس ذات أثاث مريح، والجلوس فيها ممتعٌ لسبب رئيسيّ هو أنَّ النوافذ الواسعة تطلُّ على الشارع المغسول بأشعة الشمس، وعلى سور روما العتيق، المحيط بفيلا بورغيز. وخلال فصل الشتاء ذاك أبقيتُ الغرفةَ ملآى بنبات الميموزا. والغرفة الأخرى، غرفة النوم، كان يحتلُّها كلها تقريباً letto matri-moniale (سرير مزدوج للأزواج) ضخم. وكان في الغرفة أيضاً نوافذ ذات مصاريع واسعة تملؤها أثناء النهار صفحة السماء وأشعة الشمس. كان شتاءً ذهبياً، أدفأ شتاء شهدتُهُ وأنا في روما.

حينئذٍ لم تكن في روما مظاهر عَوَزْ بالنسبة إلى سائحٍ غنيّ بقدرٍ معقول. وكان الطعام الذي يُقدَّمُ في أشدّ الـ trattorias (المطاعم) تواضعاً ممتازاً. ونبيذُ روما، الفراسكاتي، يتميَّزُ بعتقٍ فريد: بعد أن تشرب mezzolitro (نصف ليتر) منه تشعرُ وكأنَّ دماً جديداً يجري في عروقك، دمٌ يجرفُ كلَّ قلقٍ وتوتُّرٍ بعض الوقت، وبعض الوقت هذا هو المادة التي تُصنَع منها الأحلام.

الإيطاليون يُخصِّصون ثلاث ساعاتٍ أو أربع لتناول طعام الغداء (ربما بسبب استغراقهم في شرب النبيذ، وبسبب المناخ)، وبعد تناول الطعام يذهبون فوراً لأخذ قيلولة. وإذا كنتَ شاباً، لا تقضي القيلولة وحدك، خاصةً حين تناوم على سريرٍ مزدوج والنوافذ الواسعة مفتوحة وتطلُّ مباشرةً على الشارع، وتتقنُ بضع عباراتٍ مثل: Dave Vai ? (إلى أين أنت ذاهب؟). وقد قالَ لي صديقي الصحافي الأميركي الساخر إنه لا حاجةَ بي إلاّ أن أعرف عبارتين اثنتين بالإيطالية لكي أستمتعَ بالمقام في روما، هما: Dave Vai ? وأيضاً Quanto costa ? (كم سعرُكَ؟).

لكنَّ حِفظي لأغلب مفردات اللغة لم يستغرق وقتاً طويلاً، وأنا لا أستطيع أن أتكلَّم بطلاقة - أقصد، بشيءٍ من الطلاقة - حين أكونُ في إيطاليا. ولطالما تمنَّيتُ لو أمكثُ هناك، ولا أزال أتمنى حتى الآن بعد أن تغيَّرتُ تغيُّراً جذرياً.

في الليلة التالية التي أمضيتُها في روما، تصادفَ أن كنتُ أتمشَّى في فيا فينيتو فمررتُ من أمام واجهات محل دوني، وهو محلّ شهير لبيع المُعجَّنات يقعُ في الطابق الأرضي لفندق إكسيليسيور. فتوقفتُ فجأةً وقد قابلتْ عينايَ عينيّ شابٍ بدل لي وكأنه إله الحقول. كان الشاب يرتدي معطفاً قديماً رثّاً، يجلسُ وحيداً عند إحدى الموائد ويُرسِلُ ابتساماته عبرها إلى الغرباء المارِّين في الشارع.

تبادلنا الابتسام وقمتُ بإيماءةٍ أدعوه بها إلى الخارج، فخرجَ من فوره. لم يكن ثمة داعٍ لقول ? Dave Vai، ولم يكن قد حانَ الوقتُ لأسأله - ? Quanto لكني كنتُ واثقاً من أنه سيحينُ قريباً...

لم أكن قد انتقلتُ بعد إلى الشقة الكائنة في فيا أورورا. كنتُ ما أزالُ أنزلُ في غرفةٍ تقعُ عبر الشارع في فندق أمباسياتوره. كان أحد أبرز الفنادق في روما ولا يزالُ يعملُ على المحافظة على مركزٍ محترم، فحين دخلتُ مع صاحبي المراهق بمعطفه الرثّ وحذائه المربوط إلى قدمه، ذُهِلَ أعضاءُ الإدارة في البهو. أخذتُ الشابَ، الذي سَأسمِّيه رفائيللو، مباشرةً إلى المصعد، وأنا أتساءلُ إنْ كان العاملُ سيسمحُ لنا بالدخول. والحقيقة هي أنه كانت هناك لحظاتٌ طويلةٌ من التردُّد وعلا الشحوبُ رفائيللو وأخذ يرتعشُ، فلم يكن قد دخلَ فندقاً فخماً مرةً خلال سِنيّ عمره السبع عشرة.

أظنُّ أني نفحتُ عاملَ المصعد بضع مئات من الليرات: في الحال تحركَتْ الآلةُ العتيقةُ ووصلنا إلى طابقٍ يقعُ في قمةِ البناء. كان لي غرفةٌ جميلةٌ هناك. وأذكرُ أنه كان فيها مصباح ذو ظِلَّةٍ ورديّةِ اللون موضوع بالقرب من السرير. وكنتُ قد اقتنيتُ قاموساً للجيب إنكليزياً -إيطالياً. وبدأتُ أبحثُ عن الكلمات بغضبٍ بينما جلسَ الشابُ على سريرٍ إفرادي وجلستُ أنا على السرير الآخر. ورحنا نتبادلُ الابتسام مرة بعد مرة، لكنه ظلَّ يهزُّ رأسَه حين نجحتُ، بعونٍ من القاموس، في أن أدعوه إلى تمضية الليل معي في الفندق الفخم الأمباسياتوره. وأخذ يُشيرُ إلى كلمة بابا. إذ يبدو أنَّ أباه كان جندياً يحملُ carabiniere (بندقية) يُعاقبُ الشابَ عندما يسهرُ ليلاً، وذلك بربطِه إلى كرسي في الطابق التحتيّ طوال النهار التالي ويتركه بلا طعامٍ ولا شراب. ثم أومأ رفائيللو إليَّ، بإشارات اعتذار فاتنة جديرة أن تصدر عن فتاةِ الغيشا، إلى كلمة domani والتي تعني " غداً ": فشعرتُ بإحباطٍ شديد. لقد بدا انتظارُ الغدِ مدةً لا حدودَ لها. لم أكن قد قابلتُ فتى سَلَبَ لُبِّي منذ " كيب ". أم هل أقولُ وَجَدَ هوىً عميقاً في نفسي.

وهكذا بدأت دروسي في اللغة الإيطالية. أمضيتُ ليلةً خاليةً، أو تقريباً خاليةً من النوم.

تمَّ الاتفاقُ على لقاء الليلة التالية في المكان نفسه. في محل " دوني ". كنتُ قد عثرتُ لتوِّي على الشقة الكائنة في فيا أورورا، وكنتُ سأنتقلُ إليها في اليوم التالي.

أمِنَ الممكن أن تكونَ عجوزاً قذراً وأنت في منتصف ثلاثينات عمرك؟ يبدو أنَّ هذا هو الانطباع الذي كنتُ أتركه عند الناس.

أعتقدُ أنَّ هذا الكتاب أشبه بتنفيسٍ عن مشاعرَ تطهُّريَّةٍ بالذنب. " كلّ فن جيد هو عملٌ طائش ". في الواقع، لا أستطيعُ أن أؤكّد لك أنّ هذا الكتاب سيكونُ عملاً فنياً، ولكنه حتماً سيكونُ عملاً طائشاً، بما أنه يعالجُ حياتي الراشدة...

طبعاً كان في إمكاني أنْ أكرِّسَ هذا الكتاب بمُجمَلِه لنقاش فن المسرح، ولكن أما كان ذلك ليكونَ أمراً مُضجِراً؟

أخشى أنه كان سيُضجِرَني حتى الموت، وكان سيغدو كتاباً قصيراً، قصيراً، لا تضمُّ كل صفحة منه إلا على ثلاث جُمَلٍ ومساحات هوامش واسعة جداً. إنَّ المسرحيات تتحدَّثُ عن نفسها.

الحياة خلال فصل الشتاء ذاك في روما: كانت حلماً جميلاً، ولا أعني بهذا فقط رفائيللو والميموزا وحرية الحياة المُطلَقَة. توقَّفْ هنا. إنَّ ما أعنيه " حقاً " هو الحرية المُطلَقَة للحياة ولرفائيللو وللميموزا، وللسرير المزدوج ولنبيذ فراسكاتي بعد انتهاء عمل الصباح.

رتَّبتُ أموري على أحسن ما يرام. كان لديَّ زرٌّ صغيرٌ لجرسٍ كهربائيّ بجانب السرير، وحين أستيقظ ويكونُ رفائيللو ما يزالُ نائماً إلى جواري أضغطُ الزرّ، فتقرعُ الـ padrona (صاحبة المنزل)، السيدة الظريفة التي اسمها ماريبلا، على الباب وأطلبُ منها إحضار طعام الفطور، بيض ولحم خنزير وخبز لرفائيللو - أما أنا فأكتفي بـ caffe latte (قهوة مع الحليب).

بعدئذٍ أصبح رفائيللو يرتدي بزّة جديدة، ومعطفاً جديداً، وحذاءً جديداً ولم يعُدْ يعيشُ في منزله ليخضع لسيطرة أبيه المتوحش. كان يقضي ليلةً معي، وفي الليلة التالية ينزلُ في pansione (نُزُل) صغير.

كان أصدقائي يسألونني " أهذه ليلةُ رفائيللو؟ " - أو هل أنوي أن أخرج لأسعى وراءهم...؟

أذكرُ أني في صباح أحد الأيام استقبلتُ صحافيّةً في الوقت الذي كنتُ ورفائيللو قد غادرنا السرير للتو. استقبلتُها بمبذلي في غرفة الجلوس: وجلسَ رفائيللو بهدوءٍ في الركن يتناول البيض ولحم الخنزير المقدَّد والخبز المُحمَّص.

بعد ذلك بيومٍ أو يومين نُشِرَ عنوانٌ رئيسيٌّ في إحدى الصُحُف الرومانية يقول:

"La Primavera Romana di Tennessee Williams " (" الربيع الروماني لتنيسي ويليامز ")، وأتى على ذكر الـ "giovane" (الشاب) الجالس في الركن وهو يتناولُ طعامَ الإفطار - وعلى الفور بدأت بالمرور بفترةٍ طويلةٍ من سوء سُمعة شخصيّة في روما لاشك في أنها لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا(٥١).

صاحبة الدار، ماريبلا، كانت تعتقدُ أني مجنون لأني في تلك الأيام كنتُ أؤلِّفُ الحوار المسرحي بصوت عالٍ، وأتمشَّى في أرض الغرفة وكوبٌ من القهوة في يدي.

إني لا أزالُ أتكلَّمُ بصوتٍ عالٍ عندما أؤلِّفُ حواراً لمسرحية: إنَّ ذلك يساعدني على معرفة كيف سيبدو حين يُلقى على خشبة المسرح.

إليكَ سطراً من مسرحية " كامينوريل ": أقصد سطرين من المسرحية:

كازانوفا لكاميل: " يا عزيزي، يجب أن تتعلَّم كيف تحمل عَلَمَ بوهيميا أثناء اقتحام مُخيَّم العدو "

كاميل لكازانوفا: " بوهيميا ليس لها عَلَمْ؛ إنها تعيشُ على حرية الاختيار "

* * *

الساعةُ الآن الثالثة وعشرون دقيقة، لكني سأواصلُ الكتابةَ حتى يحينُ وقت حلب البقرة، إنْ كانت هناك أبقارٌ في نيو أورلينز.

خلال هذا الأسبوع وحده تلقَّيتُ عِدَّةَ التماساتٍ من أجل تقديم إعاناتٍ ماليّة. واحدٌ جاءَ من عابثٍ شاب جميل في مانهاتن: يريدُ مائتيّ دولار ليرحلَ إلى الخارج.

آخرُ وصلني من صديقٍ يريدُ أن أُرسِلَ له ستينَ دولاراً ليُفجِّرَ صورةً لي مع ديف ديلينجر Dellinger.

في الوقت الحاضر لستُ في وضعٍ اقتصاديّ أو حتى روحيّ، يُخوِّلني أن أُلبِّي طلبات أولئك الذين يعتبرونني فقط كمصدرٍ لدخلٍ إضافيّ.

إنني لم أكن في أي وقتٍ قادراً على أن أحصل على أي نوعٍ من الضمان الطبي، وعليَّ أن أُسدِّدَ فواتيري الطبيّةِ والجراحيةِ كلِّها، ومنذ ثلاثة أشهر واتتني الشجاعة لأكشِفَ عن تقريرِ مُحاسبي الشهري حول وضعي المالي.

إنني بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى أصدقاء ولكنني حتى وأنا في سن الواحد والستين لا أريد أن أشتريهم. أشعر، مؤقتاً على الأقلّ، أنَّ لسان حالي هو ما قالته العجوز فلورا غوفورث:" إنَّ قطار الحليب لم يعُد يتوقفُ هنا "

* * *

في روما خلال فصل شتاء عام ١٩٤٨ لم تكن ترى في الشوارع إلا عدداً ضئيلاً من السيارات الخاصة، وبعد أن استقرّيتُ في شقتي في فيا أوررا اشتريتُ سيارةَ جيبٍ قديمةٍ من جندي متقاعدٍ أُعيدَ إلى الولايات المتحدة. من عيوبها أن كاتم الصوت فيها مُعطّل وبينما كانت تسيرُ في طريق فيا فينيتو، أصدرتْ صوتاً يشبه صوت إقلاع طائرة نفاثة. ولدى مروري في الشارع وأنا أهدرُ كان الناس كلهم يرمونني بنظراتٍ حانقة. وفي الليالي التي يغيبُ فيها رفائيللو تعوَّدتُ أن أسهرَ حتى مطلع الفجر وأنا أركبُ هذه الجيب، حتى استُهلكَتْ. وعند الفجر كنتُ أقودها حتى ساحة القديس بطرس، وأنا molto umbriaco أي سكران طينة وأندفعُ بالجيب بسرعةٍ كبيرةٍ خلال النوافير التي تهبُّ عليها الريحُ لأبرِّدَ رأسي، وأدورُ وأدورُ حول النافورة حتى أُنقَعُ بالماء وبعد ذلك أتوجَّه إلى المنزل.

لو أنَّ حركةَ المرورِ كانت عندئذٍ كما هي الآن في روما لاستغرقتْ مني العودةُ من تلك النزهة المنعشة عند الفجر ساعةً من الزمن. وغالباً لا أكونُ وحدي في سيارة الجيب، ولا يكون رفيقي مستمتعاً جداً بوابل الماء مثلي. ولكن عندئذٍ كان في إمكان الـ Americano أن يفعلَ كل ما يريدُ ولا يجد مَنْ يحاسبه...

في نحو أوائل ربيع عام ١٩٤٨ بدأ يظهرُ في روما أشخاصٌ مشهورون أو سيئو السُمعة.

ذات أمسية في حفلِ عشاءٍ أقامه إمَّا هنري ماك إليني من فيلاديلفيا، راعي الفن الشهير، أو سام باربر، المؤلِّف الموسيقي الشهير، في قسم فن الباروك في الأكاديمية الأميركية - قابلتُ غور فيدال، وكان قد نشرَ لتوِّه كتاباً رائجاً اسمه " المدينة والعمود"، وهو أحد أول الروايات عن الشذوذ الجنسي ذات الأهمية. ولم أكن قد قرأتُهُ لكني علمتُ أنه حقَّقَ مرتبةَ أكثر الكتب رواجاً وأنه يتناولُ " موضوعاً مُحرَّماً ".

كان غور فتىً وسيماً، في نحو الرابعة والعشرين من عمره، وقد أُخذتُ بذكائه وبوسامته، ووجدنا أنَّ بيننا اهتمامات مشتركة وأمضينا وقتاً طويلاً معاً. أرجوك لا

تتخيَّل أني أوحي بأنه كانت بيننا علاقة حب. كنا فقط نستمتعُ بتبادُل أطرافَ الحديث وبالضحك كثيراً معاً وقمنا ببعض الجولات بسيارة الجيب إلى أماكن في الـ Divina Costiera (الشاطئ الإلهي) مثل سورنتو وأمالفي.

أعتقدُ أننا ذهبنا أيضاً إلى فلورنسا في ذلك الفصل وتسلَّينا مع ذلك العجوز الرائع المُحِب للجمال بيرينسون(٥٢).

وذات مساء أخذني غور إلى دير الراهبات الزُرق لكي نقابل الفيلسوف وكاتب المقالات، وعندئذٍ كان في ثمانينات عمره وشبه مريض، سانتايانا. بدا سيداً محترماً وشيخاً جليلاً ومهيباً. كانت عيناه بنِّيَتين دافئتين مُفعمَتَين بفهمٍ لا حدودَ له وفكاهة مرهفةٍ وبدا راضياً بحاله، ويخلو من أوهى إحساسٍ برثاء الذات أو الحزن. لقد جعلني ذلك اللقاء أكثر مصالحة بقليل مع البشرية وحتماً أقل تخوُّفاً من طبيعةِ ختامِ حياةٍ خلاّقة. لقد ذكَّرَني، بقوةِ رقَّةِ حضورِه وعطفهِ الفطريّ، بجدِّي.

قال هاناه جلكس " أحياناً أرى الله في وجوه العجائز ". إنني أتخيَّلُ وجه جَدِّي ووجه سانتايانا – ووجه جدَّتي...

ثم وصلَ في ذلك الربيع صديقٌ قديم ومعه شخصٌ آخر، واصطحبنا نحن الثلاثة، ومعنا رجل أوسترالي وقح، بعض الفتية الرومانيين مِّمَن يبيعون السجائر في السوق السوداء وخرجنا بهم بسيارتي الجيب إلى أحراج فيلا بورغيز. وهناك ركَنَّا الجيب واختفى كلُ واحدٍ منا داخل الأحراج مع أحد الفتية بائعي السجائر.

كانتْ مناسبةَ لهوٍ ومرحٍ أكثر منها مناسبة فسق حقيقي إلا أنها أدَّتْ بي إلى أن أبيتَ في السجن للمرة الثالثة.

مساءَ أمس صعدتُ مرة أخرى إلى " خشبة المسرح " في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، وقد كتبتُ لتوِّي رسالةَ " شكرٍ " إلى مورين ستابلتُن وسوف أبعثُ لها ورداً لأنها دفعَتْ بمسيرتي إلى الأمام في مجال فنون التمثيل. دعوتُها للصعود إلى الخشبة معي، بما أني ببساطةٍ لم أستطع أن أواجه ندوةً أخرى من ندوات النقاش التي كنتُ أديرها بعد انتهاء العروض، وقد سعدتْ الفتاة العزيزة وقرأتْ معي بفتورٍ دورَ بيسي – وقرأتُ أنا دورَ فلورا – في تلك المسرحية الهزلية القصيرة التي تُسمَّى " تحليلٌ ممتاز من ببغاء ".

أصبحَ يرهقني، في حالتي الصحيّة الراهنة، أن أظلَّ أحاول أن أنعش حركة بيع بطاقات الدخول وِفقاً لعرض خارج برودواي هذا. ولكن يجب أن أعترف بأنه إذا لم تنجح خلال فصل الصيف، أو أغلب فترة الصيف، فإنَّ فُرَصي في الحصول على إنتاجٍ ممتازٍ لمسرحية " صرخة " ستتعرَّضُ لمزيدٍ من الخطر. وخلال اليومين الفائتين عملتُ مع بيتر غلينفيل على مراجعة النص الأخير لمسرحية " صرخة ".

* * *

روما، عام ١٩٤٨. سنتي الأولى في المدينة الذهبية. الصيف يقترب، ولدي التزامٌ مهني في لندن، وهو حدثٌ لا يقلُّ شأناً عن الظهور الأول للممثلة هيلين هيز على خشبة مسرح لندن - وفي مسرحية " مجموعة الحيوانات... "

توجَّهتُ إلى هناك لحضور التدريبات التي كان يُديرها جون غيلغود[٥٣]. في أول الأمر بدَتْ الأمورُ واعدة. أعتقد، في رأيي المتواضع، أنَّ الآنسة هيز ليست من أشدّ الممثلين موهبةً في العالم. لابد أنها في شبابها كانت على قدرٍ وافرٍ من الجاذبية بل وبارعةً تماماً. ولكن منذ فترة بعيدة تعود حتى عام ١٩٤٠، حين كنتُ في نيويورك من أجل مسرحية " معركة الملائكة "، وكانت هي تمثِّلُ لصالح نقابة المسرح دور روزالين الشيكسبيري، سمعتُ عَرَضاً من عامل كهرباء يقول " إنك لا تستطيع أن تُشعلَها؛ إنها عصيَّةٌ على الإشعال ". ولكن تُعجبني السيدة كسيدة محترمة ويُعجبني رُقِيِّها بعيداً عن المسرح.بحلول عام ١٩٤٨ كانت عاقلةً بما يكفي بحيث تخلَّتْ عن كل أدوار الفتاة الساذجة وكانت تبلي بلاءً حسناً في أدوار تناسبُ سنَّها. وكان زوجها موجوداً معها في إنكلترا. أعتقدُ أنهما كانا مُتحابَّين. وربما يجب أن أُشدِّد على كلمة " أعتقد "، تأكيداً على أنَّ هذا مجرد حدس. وثمة شيءٌ من الريبة يُغلِّفُ تزامن انحدار تشارلي نحو إدمان الخمر وتقدُّم زوجته الحثيث نحو تبوُّءها مركز " سيدة المسرح الأميركي الأولى ". مهما يكن، يجب أن أُبيِّن أنَّ العظيم غلغود لم يكن مُخرجاً جيداً، وما كان يجدرُ بالمس هيز أن تعمل معه. وخلال الأسبوعَين الأولين من التدريبات، مثَّلتْ بشكلٍ تقليديّ بدون أن يظهر عليها أيٌّ من تلك التكشيرات القُرَديَّة التي أصبحتُ تظهرُ عليها مؤخَّراً. كانت تتقدَّم في التدريبات وتؤدي أداءً صادقاً لدور أماندا وينغفيلد، الأم في مسرحية " مجموعة الحيوانات... "

ذهبنا إلى برايتن، حيث الافتتاح. وفي إحدى آخر التدريبات استدعَتْ المس هيز كُلاً من غلغود وأنا ومجموعة الممثلين الداعمين لها إلى غرفة تغيير ملابسها، وبعد صمتٍ طويل مُنذِر بالسوء أعلنَتْ " عند هذه النقطة في تنفيذ المسرحية، بتُّ أعرفُ إنْ كانت ستنجح أم لا "

صمتٌ طويل.

ثم هزَّتْ المس هيز رأسها الصغير ببطء وأسفٍ، مما كان يعني أنَّ تقدير عنصر الجذب سلبي.

صدَّقتُها. ومكثتُ في برايتُن لحضور ليلة الافتتاح. كان الأداء سطحياً ولم ينفع " السيدة الأولى " كلّ ما لديها من حيل.

أذكُرُ أني التقيتُ بعد العرض في برايتن إ. م فورستر. وجاء إلى غرفة تغيير ملابس المس هيز، فهتفت " أوه، ممر إلى الهند! "

كما قلت قبل قليل، إنَّ المس هيز بعيداً عن خشبة المسرح كانت ولا تزال بدون شك سيدة ذات حضور وقبول.

لما رأيتُ أنَّ المسرحية ستفشل فشلاً ذريعاً، طرتُ عائداً إلى باريس، حيث كان غور ينزلُ في أوتيل دو لونيفرسيته على الضفة اليسرى. احتللتُ فيه جناحاً جميلاً هناك. كان فندقاً خليعاً لكنَّه ناسبَ غور وناسبني بشكلٍ تام بما أنه لم يكن ثمة اعتراض على الزائرين الشبان.

في ذلك الوقت كان مكان ارتيادنا المُفضَّل هو بوف سور لوتوا ونوادٍ ليلية بوهيمية مُعيَّنة تقع على الضفة اليسرى. قابلتُ كوكتو وبيزه بيرار وجان ماريه، وعدداً كبيراً من الفنانين. لكنَّ اللقاء الأشد إمتاعاً كان مع جان بول سارتر، الذي كانت فلسفته الوجودية تستهويني بقوة، وكذا مسرحيته Huis Clos (جلسة سرية).

قرَّرتُ أن أُقيمَ حفلاً كبيراً في غرفتي في أوتيل دو لونيفرسيته.

حضَرَها معظم أصدقائي الجُدُد المشاهير في باريس. لكني انتظرتُ طويلاً جان بول سارتر الذي أرسلتُ له الدعوة برقياً. وكنت بين وقت وآخر خلال تلك الأمسية أتلقَّى أخباراً عنه. كان موجوداً في مكانٍ قريبٍ في حانةٍ في فندق رون -بوان وظلَّ الناس يؤكِّدون لي أنه سيظهر، لكنه لم يظهر أبداً.

أعتقدُ أنه اعتبرني مُفرطاً في بورجوازيتي أو في أمركتي أو يعلم الله ماذا، إلا أنه لم يحضر حفلي.

اقتربَ موعدُ العرض الافتتاحي لـ " مجموعة الحيوانات... "، وقد أعدَّتْ تلك المُضيفة العظيمة، الليدي سيبل، كي تجعل من حفلِ ليلةِ الافتتاح حَدَثاً عظيماً.

كانت أمي حاضرةً مع ديكن، وكل ممثلي لندن البارزين كانوا موجودين.

لم أتوقَّف عن إرسال البرقيات، في أول الأمر لكي أُطمئنهم إلى أني سأكونُ حاضراً. لكنَّ طارئاً حال دون حضوري. ولم أغادر قط باريس لأشهدَ الحَدَث، وعندما أستعيدُ ذكراه أشعرُ بالخجل. وقد أبرقتُ في آخر لحظة لأمي ولغيلغود ولمس هيز بأني قد أُصبتُ بوعكةٍ وأنا في باريس، وإنْ كنتُ في الحقيقة أشعرُ بأني في أحسن حال.

أعتقدُ أني كنتُ أستمتعُ، كالمعتاد بـ affair de coeur (علاقة حب) صغيرة.

حين افترقتُ عن رفائيللو في روما، كنا قد تفاهمنا على أني سأعود في فصل الخريف التالي وأني في تلك الأثناء سأُرسِلُ إليه في كل شهر شيكاً بمبلغ مائة دولار.

وهكذا، وصَلَتني ردودُ الفعل من لندن على عرض " مجموعة الحيوانات... " من سيدةٍ شابةٍ رائعةٍ، هي صديقةٌ تعرَّفتُ إليها خلال التدريبات التي جَرَتْ في لندن، اسمها ماريا بريتنيفا، وهي الآن ليدي سينت جوست. كنتُ قد قابلتُها في منزل جون غيلغود وعلى الفور أصبحنا صديقين، وعندئذٍ كانت ما تزال صغيرة السن، وجذَّابةً جداً، ثلاثة أرباع روسيّة بيضاء، وربع إنكليزية. كانت تعيشُ مع أمها في حالةٍ من الفقر المدقع، على المبالغ الزهيدة التي تكسبها مدموازيل بريتنيفا من ترجمة الأدب الروسي وأيضاً من دخل ماريا القليل من عملها كممثلة بين حينٍ وآخر. أصبحنا صديقين حميمين وما زلنا - وكانت غايةً في التواضُع والجمال، ولا تزال. وظلَّتْ تعمل ممثلةً إلى أن تزوَّجَتْ اللورد سينت جوست، وعندئذٍ أصبحتْ الليدي سينت جوست.

(سأذكرُ المزيدَ عن ماريا لاحقاً)

أرسلَتْ ماريا إليَّ كل ردود فعل لندن وكانت جيدةً جداً بالنسبة إلى مس هيز وسيئة جداً بالنسبة إلى المسرحية. أذكرُ أحدَها كان عنواناً يقول " مسرحيةٌ رديئةٌ مُثِّلَتْ جيداً "

لم أُفاجأ كثيراً، بعد أن شاهدتُ التدريبات والعرض الافتتاحي في برايتن.

بعد افتتاح المسرحية في لندن بأسبوع - وكان عليّ أن أعود سريعاً إلى الولايات المتحدة من أجل إنتاج برودواي لمسرحية " صيف ودخان " - مررتُ بلندن ومكثتُ فترةً وجيزةً، يُرافقني غور. وقد أمضينا وقتاً طيباً على الرغم من الوجوم الذي كان يُخيِّمُ على المسرح. شاهدتُ أحدَ العروض ولم يكن أقلّ رداءةً مما كنتُ أتوقَّعُ. لا يمكنُ خداع " مجموعة الحيوانات... "؛ يجب إخراجها وأداؤها بصدقٍ وبصورةٍ أكثر من كافية.

ترومَن كابوت[٥٤] أيضاً كان موجوداً في إنكلترا. وقد عادَ معي إلى الولايات المتحدة على متن سفينة " كوين ميري " وكانت رحلةً مرحةً إلى أقصى حد. وفي تلك الأيام كان ترومَن هو تقريباً أفضل رفيقٍ يمكنُ أن ترغبَ فيه. لم يكن قد تحوَّلَ إلى عاهر؛ أو فلنقُل، لم يتحوَّل إلى عاهر " بصورةٍ خبيثة ". غير أنه كان مملوءاً بالنزوات وبنزوعٍ إلى الأذى. كنا نسير على طول أروقة الدرجة الأولى للسفينة ونأخذ أحذية الرجال ونضعُها خارج غرفهم الخاصة من أجل تلميعها - وكنا نخلِطُ بينها ونضعها بعيداً عن أماكنها الصحيحة بعدَّة أبواب.

ثم كان هناك أسقفٌ بروتستانتي مُدمن على شرب الخمر.

في صباح هذا اليوم لا أشعرُ بكثيرِ ابتهاجٍ بما أني في الليلة الفائتة استأنفتُ إدارةَ الندوة التي تلي عروض مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة ". قمتُ بمحاولةٍ تعيسةٍ لأجذُبَ انتباهَ الجمهور بقراءة إحدى أفضل مسرحياتي القصيرة " كَفَنُ الزجاجِ المتجمِّد "، والتي حازتْ إعجاب بول باولز. وقد حذَّرتُ الجمهورَ من أنَّ المسرحيةَ تميلُ إلى الكآبةِ بما أنها تُعالجُ مصيرَ مواطنين متقاعدين، مهيبين جداً، يقطنون في فندقٍ يُدعى بونس دو ليون في ميامي. قلتُ لهم إنه إذا لم تُثِر المسرحيةُ اهتمامهم فهم أحرارٌ تماماً في أن يغادروا. وكم كان حُزني شديداً حين فضَّلَ القسمُ الأكبرُ منهم هذا الخَيار.

ولكنْ من بين الذين بقوا صديقي القديم، المخرج خوثيه كوينتيرو، وصديقه الوفيّ نيكي. وتناولنا معاً الطعامَ في مطعم ب. ج كلارك.

* * *

فلأعُدْ إلى قصةٍ ربما مألوفةٍ عن ترومن كابوت والأسقف البروتستانتي السكِّير على متن" كوين ميري "، أثناء عبور المحيط في أواخر صيف عام ١٩٤٨.

ما كدنا نغادرُ ساوثمبتون حتى بدأ ترومن يُلاحظُ أنَّ ثمةَ أُسقُفاً مهيباً وسِكيراً

يظهرُ فجأةً وبلا سابق إنذار تقريباً أينما ذهبَ ترومَن. وبدأتُ بدوري ألاحظُ ذلك. فما إنْ نجلسُ على البار في السفينة حتى يأتي الأسقف، وهو يترنَّحُ بشكلٍ لا تُبرِّره مياه المحيط الساكنة أو السفينة الصامدة في وجه العواصف. كان يرمي نظراتٍ قلقةٍ، زائغة، حول البار. ثم إذا بعينيه تُشرقان حين يقعُ نظرُهُ على ترومَن الرابض أمام البار، أملاً في أن يُفلتَ من انتباه رجل الدين البارز هذا. ولكن عبثاً، مستحيل، لا أمل، ولا بأي حالٍ من الأحوال. ودائماً كان الأسقف يكتشفُ مكاننا، ويختفي الوجومُ عن وجهه المستدير ويغوصُ بارتياحٍ في أقربِ مقعدٍ على البار، قريبٍ من تينك اللذين نشغلهما، ترومَن وأنا. أو إذا كنا جالسَين على مائدة أو على مقعد في قاعة السينما، إذا به يجلسُ معنا (بدون أن يدعوه أحدٌ، طبعاً) أو ينتقلُ إلى مقعدٍ مجاور. واستمرَّ الأمرُ على هذا المنوال حتى منتصف الرحلة.

كان جليّاً أن مواجهةً مخيفةً بين الأسقف وترومَن توشكُ أن تقع، وقد وقعَتْ كوقوعِ صاعقةٍ من السماء.

كنا، ترومن وأنا، جالسَين يواجه أحدنا الآخر على مائدةٍ مُخصَّصة لشخصَين في قاعة الطعام. وبسرعةِ ظهورِ الأشباح إذا بالأسقف يسحبُ كرسياً ويجلسُ بيننا ويبدأ بالانخراط معنا في الحديث. ولم يكن دافعُهُ تبشيرياً. أقصد ليس بالمعنى الاعتيادي للكلمة. فقط كان ترومن قد أعلنَ أنه غير مُهتمٍ بتاتاً بأي كنيسةٍ من أي مِلَّةٍ كانت.

في تلك الأمسية أخذَ ترومن يُحدِّقُ إلى خاتمِ الأسقف الضخم.

قال للأسقف وهو يتشدَّقُ بعذوبةٍ "أتعلم، لطالما رغبتُ في أن أحظى بخاتمِ أُسقف"

قهقه الأسقفُ من أعماق قلبه.

أعتقدُ أنه أجابَ بما يلي " إنَّ خاتمَ الأسقف لا يتوفَّرُ إلا لأسقف "

أجاب ترومن " أوه، لا أدري. يُخيَّلُ إليَّ أنه ربما في إمكاني أن أعثرَ على واحدٍ في مكتب المُسترهِن، يكونُ أحدُ الأساقفة المُجرَّدين من رتبتهم قد رَهَنَه "

قال عبارةَ " أسقف مجرَّد من رُتبتِه " بطريقةٍ لا تدعُ مجالاً لأي شك في ما تتضمَّنُهُ. ازدادتْ حمرةُ وجه الأسقف ثم استأذنَ بمغادرةِ المائدة ولم يعُد إلى مُضايقتنا بإلحاحهِ في لفتِ انتباهنا طوال البقية الباقية من الرحلة البحرية.

* * *

الرحلة البحرية انتهتْ، طبعاً، في ميناء نيويورك. كانت مارغو جونز في استقبالي على الرصيف، وكانت قد عثرَتْ لي على شقة وأعتقدُ أنها كانت أجمل الشُقق الثلاث التي شغلتُها على مدى سنوات استقراري في مدينة نيويورك. كانت تلك التي صمَّمها وزخرفها المثَّال الذي أصبحَ مشهوراً الآن، توني سميث، وكان صديقاً مُقرَّباً إليَّ منذ عام ١٩٤١ - وكنتُ " أفضلَ رجلٍ " في حفل زفافه إلى جين لورانس، المغنّية، في عام ١٩٤٣، حين كنتُ " أعملُ " لصالح مترو غولدن ماير، وكانت هي تُمثِّلُ فيلماً سيئ الطالع أُعطِيَتْ فيه دوراً لا يُلائمها بدرجةٍ قاتلة. اسمها الأوسط كان لانيير؛ يبدو أنه كانت بيننا صِلَة قرابة بعيدة. على أي حال أصبحنا، ولا نزال، صديقين حميمين جداً.

كانت الشقَّةُ تقعُ في الشارع الثامن والخمسين الشرقي بين الجادَّتَين لكسنغتُن والثالثة. هي بناءٌ من ثلاثة طوابق من الحجارة البُنّية، كانت واجهتُه مدهونةً حديثاً باللونين الأبيض والرمادي، وكان الجزءُ الداخلي من الطابق الأول من ابتكار توني، وقد نفَّذَه لصالحِ صديقٍ حميمٍ آخر، هو بَفي جونسُن، الرسام. كانت في الغرفة حُجرةٌ للعملِ فسيحةٌ في الوسط، بعلوِّ طابقَين. وإلى الخلف من ذاك المحترف الهائل الحجم كان هناك فناءٌ مسقوفٌ صغيرٌ مملوءٌ بالنباتات المجلوبة تسقيها نافورةٌ صغيرة. وقد حُفظَتْ في درجةِ حرارةٍ منخفضةٍ بحيث أنَّ الجدران الزجاجية التي تكتنفهُ كانت دائماً مكسوَّةً بالجليد: كان يبدو من المحترف وغرفة النوم خلفه أشبه بحديقةٍ صغيرةٍ تحت البحر. أما غرفة النوم فكانت تُحفةً فاتنةً. كان بَفي من برج الدلو وكانت غرفة النوم مملوءةً بالأشياء المائيّة: حوضٌ مائيٌ مُضاءٌ، وتشكيلةٌ من الأصداف البحرية، وخشب طواف وشبكات قديمة لصيد السمك. كان السرير فسيحاً، ومريحاً بشكلٍ رائعٍ - صُمِّمَ تصميماً مثالياً لاستيعاب نشاطاتٍ كان عليه قريباً أن يدعمها...

في ذلك الوقت كانت مارغو جونز صديقةً عزيزةً وتدبير هذا المكان الشبيه بالأحلام لكي أعيشَ فيه كان أجمل ما يمكن أن تفعله لأجلي خلال فترة حياتها القصيرة قِصَراً مُحزناً.

كانت التدريبات توشكُ أن تبدأ على مسرحية " صيفٌ ودخان "، التي قدَّمتها مارغو على مسرحها المُدوَّر في دالاس. وقد أرجعتُ سبب غياب اللمسة الفنيّة الفادح عن عرض دالاس إلى أنَّ المسرحية، في رأيي في ذلك الوقت، لم تكن جيدة، والأدوار

الرئيسية فيها أُسنِدَتْ إلى غير مَنْ يستأهلها، فدور مس ألما وينمللر لعبَتْه فتاةٌ مفرطةِ الطول، ونحيلةٌ وتتكلَّمُ بلكنةِ حي برونكس، ولها أسنان أمامية ضخمة بشكلٍ فظيع.

إلا أنَّ السيد بروكس أتكنسُن شاهدَ عرضَ دالاس ووجدَ، لسببٍ لا أزالُ لا أفهمه، أنَّ المسرحيةَ فاتنة. وقد كتبَ ذلك في صحيفة نيويورك تايمز. ابتهجتْ مارغو لهذا التعليق السابق لأوانه، وكانت طبعاً دائماً تبدو مبتهجةً لأمرٍ ما، وهذه الحالة كانت أحياناً لها علاقة بولعها بالويسكي.

من أجل عرض نيويورك لجأنا إلى خدمات مارغريت فيليبس وتودْ أندروز للقيام بدورَيّ المسّ ألما والطبيب الشاب. كانت المسّ فيليبس ذات وجهٍ نضرٍ رائعٍ، ساذجةً شابةً ذات أنفٍ مُنحنٍ من أصلٍ ويلزي. وكان السيد أندروز وسيماً وسامةً استثنائيّة ولكن يؤسفني أن أقولَ إنه لم يكن يحظى بالقدْر نفسه من الموهبة.

قد تعتقدُ الآن، ربما عن حق، أني إنسانٌ عاقٌ بكل معنى الكلمة حين أقول إنه في رأيي كان على مارغو جونز أن تُقصِر نشاطها على المسرح المحلّي، والأفضل أن تكونَ في الهيئة التنفيذية أو في قسم جمع الموارد المالية. ولكني أعتقد أنَّ هناك تكمنُ عبقريتها، وليس في اتجاه الممثِّلين أو المسرحيات المُرهفة.

بالكاد كان قد مرَّ الأسبوع الأول على التدريبات عندما انتابتني أو بدأتْ تنتابني هواجسُ مُقبِضةٌ حول المغامرة. كان أي ممثل أو ممثلة يسألُ مارغو المُنتشية بمثل السؤال التالي " كيف تريدينني أنْ أُمثِّلَ هذا الجزء يا آنسة جونز؟ "

" تُمثِّله؟ يا عزيزي، لا تُمثِّله، فقط حسَّه "

طبعاً كان الممثلُ يبتعدُ عن مارغو وهو لا يقلُّ شعوراً بالحيرة عمَّا كان حين واجهها.

لم أعلمْ إلا بعد مرور عام أو عامين أنَّ مارغو قد أبلَغَتْ طاقم الممثلين، بنبرةِ صوتٍ توقيرية، أنَّ هذه المسرحية هي آخر عمل لكاتب مسرحي يحتضر. وكانت الشابة آن جاكسون من بين الممثلين ويبدو أنها حكتْ هذه الحكاية لترومن كابوت. وقد تذكَّرتُها في الصيف الذي تلى في إيطاليا وسبَّبَتْ لي رُعباً فظيعاً. لم أرغبْ في أن يُذكِّرَني أحدُهم بأنَّ صحَّتي الجيدة بجلاءٍ مشكوكٍ بعمقٍ فيها.

حسنٌ، افتُتِحَتْ المسرحيةُ كما تُفتَتَح المسرحيات عادةً في تلك الأيام، وحصلَتْ على هجومٌ هَذَياني آخر من أتكنسن، ولم تحصل على أي كلمة من أي شخصٍ آخر. كان واضحاً أنها قد أُدينَتْ. ولم يكن الممثلون يعيشونها ولا حتى يؤدُّونها أداءً جيداً جداً. وطبعاً كانت المس فيليبس مؤثِّرةً جداً بما وُهِبَتْ من حسٍ بالاتجاه. وكان السيد أندروز وسيماً.

كانت مسرحية " عربةٌ... " ما تزال تُعرَضُ بحفلاتٍ كاملةِ العدد، حتى عروض مسرحية " صيف ودخان " كانت كاملة العدد خلال الأسابيع الأولى. لكنَّ الكلامَ ينتشرُ وسرعان ما انخفضَ عددُ الحضور. وأذكرُ أني كنتُ واقفاً في خلفية المسرح وأنا عاجزٌ عن المراقبة أو الإنصات أكثر من عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة دفعةً واحدة.

وحدها شقتي الجميلة كانت تُبعدني عن اليأس بعض الوقت. بالإضافة طبعاً إلى العمل المتواصل في صباح كل يوم على أي مشروعٍ جديد، أو قصة، أو قصيدة، أو مسرحية.

* * *

لماذا أُصِرُّ على أنْ أكتبَ عن مسرحياتي؟ في الحقيقة لقد كانت مسرحياتي هي أهمَّ عُنصر في حياتي طِوال سنين لا أعرفُ عددها. لكني أشعرُ أنَّ المسرحيات تتحدثُ عن نفسها، وأنَّ حياتي لا تفعلُ، وأنها كانت رائعةً بما يكفي، في صراعها المتواصِل مع الجنون، لكي تستحق أن تُدوَّن على الورق، وأنَّ عاداتي في الكتابة أشدّ خصوصية بكثير من حياتي النهارية والليلية.

* * *

ذات أمسية كنتُ ماراً في جادة ليكسنغتن فإذا بي أقابلُ فتىً في مقتبل العمر، مستنِداً إلى جدارٍ بالقُرب من أحد المنعطفات، ذا شعرٍ أحمر بلون الجزر وتكوينٍ جسديّ جديرٍ بأي مُتحرِّشٍ جنسي أن يتَّصِفُ بهما ولكنْ نادراً ما تُقابلُ مثله، الآن وحينئذٍ. وتوقَّفتُ فجأةً وقلت " مرحبا "، فرسَمَ ابتسامةً ودِّيّةً واستقامَ في وقفَتِه مُبتعِداً عن الجدار، ومدَّ يده لي.

قال " اسمي تومي ويليامز "

وهذا، طبعاً، هو اسمي الحقيقي وقد اعتبرتُ ذلك فوراً من قبيل الفأل الحَسَنْ المُغري، فصحبتُهُ فوراً إلى مسكني في الشقة الجميلة وكانت ليلةً غرَّدَتْ فيها العنادل.

إنَّ ذوي الشعر الأحمر يتَّصِفون ببشرةٍ رائعةٍ تكاد تكون شفَّافة وغنيّة بتدرُّجات اللون اللؤلؤيّ.

يكفي من هـذا.

لم يكن تومي خبيراً كمُتحرِّش ولم يكن، كما يُقال، " يعرِضُ نفسَه ". مهما يكن، ذات أمسية، بعدما تركتُ تلك العلاقة تنقطع بشكلٍ أو بآخر، رأيتُهُ واقفاً عند المنعطف نفسه حيث تقابلنا في المرة الأولى، فابتسمَ لي بارتباكٍ وقال " إذا شئتَ يا سيد ويليامز يمكنك أن تخرقني هذه الليلة "

ربما كان موقفاً مُحزِناً، لكنه كان مُؤثِّراً جداً.

٩

في أوائل خريف عام ١٩٤٨، حدَثَ بشكلٍ مفاجئ تماماً وعَرَضيَ أنْ قابلتُ من جديدٍ فرانك فيليب مرلو.

حدثَ ذلك بالصورة التالية: مرةً أخرى، قُرابة منتصف الليل، كنتُ أتمشّى في المدينة في جادةّ ليكسنغتُن، أستنشقُ هواءَ الليل، فمررتُ بمحلٍ لبيعِ المُعلّبات ما يزالُ يفتحُ أبوابه. وهناك وجدتُ " الحصان الصغير " يشتري أصنافاً من الطعام وبِصُحبتِهِ رفيقُ سلاح.

" يا إلهي، فرانكي، لمَ لمْ تزُرني؟ "

كان جوابه المباشَر والصريح بشكلٍ مُميَّز " لا أحبُّ أن أرتبطَ بالمحظوظين. عندما حقّقتَ نجاحاً ساحقاً مع مسرحية " عربةٌ... " في العام الفائت، تصوَّرتُ أنكَ قد تعتقدُ أنَّ كل ما أريده هو أن أستغلَّ فرصةَ لقاءٍ عابرٍ نعقدُهُ على الشاطئ. لهذا لم أحاولْ قط أن أتَّصِل بك. لكنني شاهدتُ المسرحية وأحببتُها "

اقترحتُ عليه " فلنتنزَّه ونأكل في بيتي ". نظرَ فرانكي إلى رفيقه (ولم يكن شاذاً) فهزَّ رفيقه رأسه موافقاً.

عدنا أدراجنا إلى شقة برج الدلو وأكلنا لحم الخنزير المشوي مع خبز الجودار والمخللات وسَلَطَة البندورة. وكنا أنا وفرانكي لا نكفُّ عن تبادل النظرات.

وسرعان ما قال رفيق سلاح البحرية " لماذا لا تمكث يا فرانكي مع تنيسي وأذهب أنا إلى جيرزي؟ "

حسنٌ، هكذا بدأ الأمرُ يشهدُ نجاحاً. ومكثَ فرانكي مع تنيسي، على ذلك السرير كما على البساط السحري في خلفية الحديقة المائية. وقد سجّلتُ بعد ذلك ببضع سنوات هذا الحدث في قصيدةٍ عنوانها " قصيدةٌ منفصلة ".

في الحقيقة لم أقع صريع حب فرانكي هكذا فوراً، بل إنني في أول الأمر تردَّدتُ في أن أجعلها علاقةً دائمةً. لقد كنتُ شديدَ التعوُّد على الحرية. وذات أمسية أخبرته، بكل رقَّة ممكنة، أنه بدل أن يبقى معي كل ليلةٍ، من الأفضل أن يجعل ذلك مرةً كلَّ ليلتين، وهو ترتيبُ رفائيللو.

لا ريبَ في أن هذا قد لقيَ تفسيراً سلبياً عند فرانكي، وأعتقدُ أنه جرح مشاعره. على أي حال، سرعان ما تحوَّلَ هذا الالتزام الجزئي بالحب إلى علاقةٍ كاملة.

ذهبتُ إلى سينت لويس لأزورَ أمي. وأثناء وجودي هناك تحت سقف المنزل الأبويَّ تأكَّدَ لي بما لا يدعو إلى أي مجال للشك أنَّ قلبي الذي طالما تعوَّدَ على العلاقات العابرة قد وجدَ في الصقلّي الشاب أخيراً موطناً.

بعثتُ إليه برقيةً من سينت لويس تقول: " سأعودُ إلى نيويورك غداً. أرجو أن تنتظرني في الشقة "

عدتُ بُعَيدَ منتصف الليل. وحين ولجتُ الشقةَ بدتْ خاليةً تماماً، ولا أثرَ لفرانكي فيها وشعرتُ بوحشةٍ طاغية. لكنَّ ذلك الشعور دامَ فقط ريثما وصلتُ إلى غرفة نومِ برج الدلو. وهناك، على السرير الفسيح كان صغيري فرانكي دائماً.

هكذا بدأتْ علاقةٌ دامتْ أربعَ عشرةَ سنة.

* * *

الآن سأصفُ الأحداث الجنونية التي وقعتْ ليلة أمس. كنتُ قد خطَّطتُ لأظهرَ مرتين في النيو ثياتر لأعاودَ " ندوتي " بعد انتهاء العرض المسرحي. كان الموعدُ الأولُ هو التاسعة وعشر دقائق بعد انتهاء عرض مساء السبت الأول، والثاني في الثانية عشرة وعشر دقائق بعد انتهاء العرض الثاني. وعمدْتُ، ربما بدافعٍ من جنونٍ محض، إلى قراءة قصتي الجديدة وهي آخر قصة أكتبها، وسمَّيتُها " مخزون فونتانا بل " حسنٌ، لقد وفَّرَ جمهور العرض المُبكِّر ليلة أمس على أنفسهم المرور بتلك التجربة بواسطة مجموعةٍ مضحكةٍ - مبكية من البلايا الصغيرة.

كان لديَّ موعدٌ على العشاء مع روث فورد ودوتسن ريدر حدَّدً الساعة السابعة والنصف. وكنتُ أيضاً في الساعة نفسها أنتظرُ وصولَ صديقي الجديد، الذي كان سينضمُ إلينا على مائدة العشاء. وتركَ لي دوتسن رسائلَ يطلبُ فيها مني أن أتَّصلَ

بروث. وفعلتُ، وكان واضحاً أنها ليست بأي حال متحمِّسة للمجيء إلى الموعد. فقلتُ لها إنني وصديقي سوف نذهب إلى منزل بيل بارنز ونتنزه على شرفة بيته وإنه يمكن لها ولدوتسن أن ينضمَّا إلينا إذا شاءا. ولم يفعلا. وشعرتُ بالإحباط جراًء ذلك. وعلى شُرفة سقيفة بيلي سادَ توتُّرٌ مشؤوم الجوَّ. وكان حاضراً هناك عديدٌ من الشبان الوسيمين أخذوا يختفون معاً، كاختفاء كل ما هو جميل وشاب من الولايات المتحدة. وأصبحَ مظهرُ بيلي يزدادُ اضطراباً باطِّراد. ولم يعُد السيد روبرت فراير العامل في مسرح أهمنسن في لوس أنجلوس، حيث يُخطِّطون لإعادة تقديم " عربةٌ... " في هذا الشتاء احتفالاً بمرور خمسٍ وعشرين سنة على افتتاحها، أقولُ لم يمُد يدَ العون لإنقاذ الموقف. بدا هادئاً جداً ويفتقرُ إلى أقلّ سحرٍ اجتماعيّ ولا يشعرُ بأي استمتاعٍ بجهودي التي بذلتُها لأُشيعَ السرور. وبدأ ينتابني إحساسٌ غريبٌ، جزئياً بسبب الفودكا مارتيني وكأسَين أو ثلاثة من النبيذ الأحمر.

يبدو أني لم أعُد قادراً على السيطرة على شُرب الكحول، والدليل على ذلك ما يحدثُ لكبدي وربما أيضاً لعقلي.

وعندما حان وقت التوجُّه إلى المسرح لعقد ما يُسمَّى بـ " الندوة " تعثَّرتُ بخرطوم مياه الحديقة على الشُرفة ووقعتُ على وجهي على الرصيف، وأُصِبتُ بعددٍ كبيرٍ من الكشوط الدامية. وقد جزعَ صديقي الشاب بحقّ وبدا على بيلي شيءٌ من الهلع بينما كان صديقي يضعُ المُطهِّر على جراحي.

في الواقع لم نكن قد تأخرنا عن الوصول إلى المسرح أكثر من دقيقتين أو ثلاث، لكنَّ الجمهور كان يُغادر؛ فلم يبلِّغهم أحدٌ بأني سأحضر. وأعتقدُ أنهم ظنوا أنَّ ظهوري مرةً واحدةً أكثر من كاف. ولا أدري لماذا انزعجتُ كثيراً جراًء ذلك؛ لقد كانت مسألةً تافهة. لكنَّ صديق كاندي دارلينغ كانت بحوزته سيارةٌ بيضاءُ ذات غطاءٍ يُطوى، وينتظرُ عند الباب وتبرَّعَ بتوصيل مجموعتنا إلى المنزل. قلتُ " يكفي هذا. أرجوك أوصلني إلى الفندق ". وفي الطريق اقترحَ السيد فراير أن أعودَ إلى المسرح وأقرأ قصتي القصيرة على جمهورِ الأمسية الثانية، " قبل " بدء المسرحية. وقد اعتبرتُ ذلك، عن خطأ أو صواب، تشكيكاً في سلامة عقلي وانفجرتُ في نوبةِ حنقٍ أعمى في وجه الرجل. قلت له أن ينسِفَ مسرح الويست كوست والإحياء المُعلَن لتقديم "

عربة..."، وتفوَّهتُ أمامه بأشياءَ مختلفةٍ بعيدةٍ عن التهذيب، ثم طلبتُ منه أن يُنزلني من السيارة عند المنعطف قبل الفندق بمسافة. ولم يَدَعوني أخرج وأوصلوني حتى باب الفندق. وبقيَ بيلي وفراير في السيارة، يرينُ عليهما الصمتُ، وصعدَ الشبان الثلاثة إلى " جناحي الفيكتوري " في الإليزه ليتأكَّدوا، كما أعتقد، من أني لن أرمي بنفسي من النافذة. وسرعان ما تماسكتُ، ورُفِعَتْ المشروبات، ودلَّكَ صديقي ظهري وأخذَ يُكلِّمني بنبرةٍ مُهدِّئةٍ ورقيقةٍ إلى أن رنَّ جرس الهاتف وقال أحدُ المنتجين إنهم لم يتمكَّنوا من إعلان ظهوري من غير قصدٍ وأنهم سيُقِلُّوني من الإليزه من أجل حضور عرض منتصف الليل.

يبدو أني سأفعلُ، الآن، أي شيءٍ تقريباً للمحافظة على استمرارية العرض، أي، بدون رقصة التانغو مع الكنغر. فذهبتُ، ورُفِعَ الستار. كان حجم الصالة معقولاً بالنسبة إلى عرض منتصف الليل. شربتُ كأساً من النبيذ وأعلنتُ للجمهور أني في هذه المناسبة أنوي، أولاً، أن أقرأ عليهم، لمتعتي الخاصة، قصة.

لم تُدهشني الجوانب الغريبة الأطوار للقصة - وعبارةُ غريبة الأطوار هي صفةٌ معتدلةٌ لها - إلا لاحقاً. ويمكنني أن أقولَ إنَّ استقبال القرّاء كان فاتراً. ويبدو مؤخَّراً أنه لا أحدَ يضحكُ على نكاتي على صفحات الجرائد، لعلَّها مفرطةٌ في سوداويتها، لا أدري...

ثم أخذتُ الشبان الثلاثة إلى مطعم ب. ج كلارك فشربنا وأكلنا ومن ثم أخذنا نفكّرُ أكثر فأكثر في نغمة تدمير الذات الكريهة والمرعبة التي كنتُ أنغمسُ فيها مؤخراً.

أخذَ صديقي أحد الفتية: وغادر آخرُ وحيداً وهو يعتمرُ قبعتي الدوبس ويسترن، كنتُ قد أهديتُها إليه - وأوصلني صديقٌ آخر إلى المنزل. إنه فتى طريف وهو الآن نائمٌ في السرير المزدوج بينما أنا أخربشُ هذا السرد المُنافي للعقل لأحداثِ الليلة الفائتة.

افهم ما تشاءَ منها؛ أما أنا فلا أرى فيها إلا إيحاءً بالموت.

* * *

أعودُ إلى عام ١٩٤٨، لأنَّ لديَّ المزيدَ لأسجِّلَه عن ذلك الأوان.

كنا أنا وفرانكي قد خرجنا في وقتٍ متأخِّرٍ ذات أمسية لنسهر، ولدى عودتنا إلى الشقة وجدنا اللجاف[٥٥] فوق الباب الخارجي مفتوحاً وأتانا من الداخل صوتُ ترومَن كابوت، يزعق في ثورةٍ عارمة. ودخلنا.

كان في الشقة ترومَن، وغور فيدال، وشُرطيَّةٌ: في تلك الأيام كانوا يُسمُّون " فرقة بو-بيب ". وبدا أنَّ ترومَن وغـور، ولا يزالُ الودُّ يربط بينهـمـا حتـى هذه اللحظة، قـد سكِرا معاً وتسللا إلى الشقة من خلال اللجاف لكي ينتظرا عودتي مع فرانكي.

تصادف أنْ كانت شرطيّة فرقة البو-بيب مارَّةً في سيارة دورية أثناء تسلُّلهما من خلال اللجاف، فتعقَّبتْهما حتى داخل الشقة وعندما حضَرنا كانت تبحثُ عن فَرَضيَّاتِ اشتباهٍ في تعاطي مخدرات وكانت تقبضُ على غور وترومن بتُهمةِ اقتحامٍ وتسلُّل.

اكـتَشَـفَتْ وجودَ بعض أقراص السـيكونل في غـرفـة النوم وكـانت تعـمل على أن تجعل من ذلك قضيةً كبرى. (في تلك الأيام لم أكن ألجأ إلى الأقراص المنوِّمة إلا لِماماً وفي وقت النوم فقط).

نجحنا أنا وفرانكي في تهدئتها بقدرٍ يُوقِفُ عملية القبض على ترومن وغور. وبما أنها لم تقع إلا على بضعة أقراصٍ من السيكونل في بحثها عن المخدرات، خرجَتْ وهي غاضبة.

كانت مسرحية " صيفٌ ودخان " ما تزال في الميوزيك بوكس في أوائل كانون أول عندما استقلتُ مع فرانكي وبول باولز السفينة الإيطالية " فولكانيا "، وهي أجملُ سفينةٍ سافرتُ على متنها. حيث يوجد خارج كل غرفةٍ خاصةٍ في الدرجة الأولى شُرفة. كنتُ أتناولُ طعام الفطور وأعملُ هناك في أوقات الصباح، بينما يكون فرانكي نائماً في الداخل - كان دائماً يستيقظ في وقتٍ متأخر في سنوات صحته الجيدة.

كان ميلي الجنسي إلى الفتى جامحاً. كنتُ في كل مساء أنتقلُ إلى سريره في غرفته الخاصة. ولما كنتُ مُدركاً لإفراطي الجنسي والنتائج التي يمكن أن تنجُم عنه، بدأتُ أضمرُ ارتياباً في أنَّ ثمة علاقة بين فرانكي وبول باولز. وطبعاً لم يكن بينهما غير الصداقة - ولعلَّهما كانا يشتركان في الاهتمام في أحد مُشتقَّات نبات القنَّب المُخدِّر، كحال العديد من أصحاب النفوذ في تلك الأيام. وطلب باولز مني أن أقرأ قصة قصيرة من تأليفه أصبح اسمها عنواناً لمجموعةٍ قَصصيّة نُشرَتْ بعد ذلك بسنةٍ أو سنتين. وهذه القصة هي " الفريسة الشهية "، وقد صَعَقَتني. أعرفُ أنَّ هذا يبدو غريباً، وأعتقدُ أنَّ بول لم يفهم أبداً كيف تصعقني، أنا الذي نشرَ قصصاً مثل " الرغبة والمُدلِّك الأسود "، قصته " الفريسة الشهيّة ". لقد وجدتُها قطعةً أدبيةً جميلة، لكني نصحتُهُ بألاّ ينشرها في الولايات

المتَّحدة. في الواقع، لقد نُشرَتْ قصصي الفاضحة في طبعاتٍ خاصةٍ غالية الثمن وصدرَتْ عن دار نيو دايريكشن ولم تُعرَض أبداً في واجهات المكتبات.

فيما عدا هذا، كانت الرحلة البحرية ممتعةً إلى أقصى حد وكان يُقدَّم في " فولكانيا " طعامٌ ممتاز. وكان فيها بارٌ صغير فاتن مزيَّن بزخرفةٍ صينية. وقد هبَّتْ عاصفةٌ هوجاء وسط البحر فأُصيبَ فرانكي بدوار البحر لكني وجدت الأمر مثيراً.

وصلنا إلى شاطئ جبل طارق وهناك قابلتُ زوجة بول، جين باولز، للمرة الأولى، التي اعتبرها أفضل كاتبة قصة لدينا في الولايات المتحدة. لعلَّكَ تظن أنَّ هذا رأيٌ مُغالٍ لكني متمسِّكٌ به. لقد كانت أعمالها كلها تتَّصفُ بحساسيةٍ فريدةٍ من نوعها حتى أنها أعجبتني أكثر من أعمال كارسن ماكلر. ثم إنها كانت فتاةً ساحرة - تضجُّ بالفكاهة والعطف وبنوباتٍ صغيرة، مؤثِّرةً، وغريبة من الرعب - والتي حسبتُ للوهلة الأولى أنها مجرَّد حركاتٍ مسرحيةٍ لكني سرعان ما اكتشفتُ أنها حقيقية تماماً. ولا أقصد بقولي هذا - لا سمحَ الله - أنَّ المسرحَ ليس أحياناً أصيلاً.

* * *

عندما استسلمتْ جين باولز لفترةٍ طويلةٍ من المرض في مستشفى أحد الأديرة في مَلَقا، أسبانيا، في عام ١٩٧٣، تركَتْ فراغاً لا يمكنُ ملؤه في حياةٍ كلِّ من حالفهم الحظ الحَسَن بحيث عرفوها، وحين نُشِرَتْ أعمالها الكاملة في مجلدٍ واحدٍ قبل نحو سبع سنوات، كانت تضمُّ روايةً فريدةً في جودتها، عنوانها " سيدتان جادَّتان "، ومجموعةً من القصص القصيرة لا مثيل لها بحقٍّ في حساسيتها في أي عملٍ لأي كاتبٍ آخر في أوانها، ومسرحيةً بُخسَ حقُّها في التقدير بشكلٍ غريب هي " في المنزل الصيفي ". ومن حُسن حظي الكبير أني شاهدتُ أولَ إنتاجٍ أميركي لتلك المسرحية في مسرح الجامعة في آن آربور ميتشيغن، ومن بطولة المرحومة ميريام هوبكنز، التي أدَّتْ أداءً مُذهلاً.

آخر إنتاجٍ لها في برودواي، وهذه المرة كانت من بطولة السيدة جوديث أندرسن والآنسة ملدريد دنوك، استُقبِلَ استقبالاً سأصِفُهُ بأنه مُحيِّر، على الرغم من أنَّ أداءَ الآنسة دنوك كان من أشدِّه تأثيراً في المشاعر.

أشعرُ أني مُكرَهٌ على أن أقول، مهما كانت قيمة ما أقول، إنه عملٌ دراميٌّ ذو حساسيةٍ عميقة، مُضافٌ إليه مزيجُ جين المرهف من الحس الفكاهي والعنصر المُثير للشفقة، حتى أنه يقفُ نسيجُ وحده رائعاً بين أعمال المسرح الأميركي.

أمضينا ليلةً في فندق روك في جبل طارق وفي اليوم التالي عبَرنا بمعدِّيَة كبيرة إلى طنجة مع سيارتنا البويك رودماستر الجميلة، ورفضتُ بعنادٍ أن أقودها بين جبال جنوب أسبانيا، في نزهةٍ كان بول يتوقُ إلى القيامَ بها، وفي تلك الأيام لم أكن أعتقد أنَّ في استطاعة قلبي أن يحتملَ حتى ارتفاعاً معتدلاً، وكنتُ تواقاً إلى الاستقرار.

مكثنا بضعة أيام في طنجة ومن ثم انطلقنا بالسيارة إلى مدينة فاس حيث كان صديقُ بول الفتى أحمد ينتظره. وقد واجهنا صعوبةً جمَّةً أثناء عبور الحدود المغربية الأسبانية. وكان باولز دائماً يسافرُ على الأقلّ مع عددٍ كبير من حقائب السفر. وقد أثارَ ذلك ريبة السلطات الأسبانية عند الحدود. وتوجَّبَ نقلُ حقيبةٍ من المتاع إلى الجمارك لتفتيشها تفتيشاً مهووساً شاملاً. ومررنا بعاصفةٍ رعديةٍ وكان الجوُّ ما يزالُ عاصفاً. وبينما كنا في سقيفة الجمارك، لاحظَ أحدنا فجأةً أنَّ مكابح السيارة لم تكن ثابتة وأخذتْ تسيرُ بسرعة إلى الخلف وتتجه مباشرة نحو الوهد العميق.

خرجَ الفتى فرانكي مندفعاً وأوقفَ السيارة مباشرةً قبل أن تصلَ إلى المنحدر السحيق. وقد كان عرْضاً رائعاً للشجاعة التي لم تكن تنقصُهُ بتاتاً. ومنعونا من متابعة طريقنا وحاولوا أن يُصادروا آلتي الكاتبة وعدداً من حقائب متاع بول. واضطررنا إلى العودة إلى طنجة: إلى فندق رامبرانت.

لحُسن الحظ كان لديَّ بعضُ الأصدقاء من الصحفيين في طنجة، وعلى الفور اتصلوا هاتفياً بكل نقاط الحدود ما بين طنجة وفاس وأبلغوهم بأنَّ مجموعةً من الأميركيين المُهمِّين سيعبرون بالسيارة في اليوم التالي. وانطلقنا من جديد وكانوا عند كل نقطة عبور يلوِّحون لنا بأيديهم بدون أي تفتيش.

وصلنا إلى فندق جاميه في فاس تقريباً عند هبوط الليل وكان بين البريد الذي ينتظرني برقيةٌ أغرقتني في الهمّ؛ علمتُ منها أنَّ مسرحية " صيف ودخان " توشك أن تتوقَّفَ، بسبب انخفاض عدد المشاهدين وهو ما كانت المسرحيات التي تُعرَض في برودواي دائماً تُعاني منه خلال الفترة السابقة لحلول عيد الميلاد. غير أنِّي مع ذلك أدركتُ أنها لا تستطيع أن تصمُدَ أكثر من ذلك، بغضّ النظر عن حجَّة عيد الميلاد.

كان فندق جاميه أحد أجمل الفنادق في العالم. وكان في الأَصل قصراً للسلطان وقد ظلَّ مُحتفظاً بأثاثه كما كان في الأصل. وإلى جواره مباشرةً كانت توجد مئذنةٌ

جامعٍ تُرتّلُ من على شُرفتا آيات من القرآن بهدوءٍ في أوقاتٍ محسوبةٍ آناء الليل.

لكني لم أنجح في نفضِ الغمّ عن نفسي بسبب ما آلَ إليه مصير " صيف ودخان ". وكرهتُ فاس كما كرهتُ طنجة وأصررتُ على أن ننتقلَ إلى الدار البيضاء، أنا وفرانكي، لكي نستقلّ باخرة متوجِّهةً إلى مرسيليا، ومنها ننتقلُ إلى روما.

أصبح فرانكي نكداً متجهِّماً وكدنا نتشاجر أثناء رحلتنا إلى الدار البيضاء. وكانت سفينة مرسيليا بغيضةً، والطعامُ رديئاً والمسافرون مزعجين ويُصدِرون الضجيج.

أعتقدُ أنه استغرقَ منا الوصولُ إلى مرسيليا نحو ثلاثة أيام. وحالما دخلنا إيطاليا انطلقَ مُحيَّانا من جديد.

عندئذٍ كنا في شتاء عام ١٩٤٩، في شهر كانون ثاني، وبدأنا أنا وفرانكي أولَ مقامٍ طويل الأمد لنا في روما.

* * *

ما هي مهنتي إنْ لم تكن أن أحيا وأنْ أُدوِّنَ حياتي على هيئةِ قصصٍ ومسرحياتٍ والآن في هذا الكتاب؟

* * *

بعد النجاح العظيم الذي حَصَدَتْهُ آيرين. م سيلزنيك من إنتاجها لمسرحية " عربة... "، وقد استحقَّته عن جدارة، رفضَتْ أن تُنتِجَ " وشم الوردة "، وسحقَتني بقولها إنها تصلح مادةً لأوبرا، وليس لمسرحية. أما شيريل كروفورد فكان لها رأيٌ آخر: لقد ضمَّتها إلى صدرها بحنان وأنتجتها إنتاجاً رائعاً، عام ١٩٥٠.

كان اختيار إيلي والاش الشاب للعب دور مانجيا كافاللو رائعاً. وكان ذلك الممثل الشاب الرائع دُنْ ماراي موفَّقاً تماماً في لعب دور البحَّار - عشيق ابنة سيرافينا. وقد واجهنا مشقَّةً كبيرةً في اختيار مَنْ تلعب دور سيرافينا. وأنا مَنْ عثَرَ على مورين ستابلتن لتقوم بالدور. لقد اقتنعنا جميعاً بحُسن قراءتها بحيث أنها على الرغم من صغَرِ سنها برعَتْ في أدائه. كانت ما تزالُ صغيرةً جداً في ذلك الوقت إلا أني مع ذلك رأيتُ أنها لَمَعَتْ وحلَّقَتْ في تجسيد الشخصية إلى درجة أنه تمَّ تجاوز عقبة صغَر سنها. وهكذا رحتُ ألحُّ عليها كي تقرأ وتُعيدُ القراءة. وأخيراً قمتُ بمساعدتها في " التبرُّج " استعداداً لبروفة القراءة: جعلتُها تُشعِّثَ شعرها وترتدي ثوباً متَّسِخاً، وأعتقدُ أني حتى

تركتُ خطوطاً على وجهها لتبدو كلُطخٍ قذرةٍ. وتلك القراءة التي أدَّتها جعلتْ الجميعَ يوافقون على أنها الممثلة المطلوبة.

كان كلُ من إيلي وموريِن شُعلة نشاط في استوديو الممثلين وقد استفادا كثيراً من " الأسلوب " الذي كان يُلقِّنه لي ستراسبورغ وأيضاً، في تلك الفترة، إيليا كازان وروبرت لويس. افتتحنا العملَ في شيكاغو. ويبدو أنَّ كلوديا كاسيدي، الناقدة المسرحية في صحيفة تريبيون في شيكاغو، لم تدرِ ماذا تقولُ فيها، ولا أنها المُكمِّلة لـ " مجموعة الحيوانات... " و " عربة... "، لكنها نفحتْنا بتعليقٍ جيدٍ جداً وسارَ العملُ بشكلٍ طيب، فعُرِضَتْ فترةً قاربت الشهرين في ويندي سيتي.

إنَّ " وشم الوردة " هي مسرحيتي العاطفية وهديتي إلى العالم. يتغلغلُ فيها حبي الغض البهيج لفرانكي وقد أهديتها إليه، فقلتُ " إلى فرانكي كبديلٍ لصقلية "

والتصدير، المُقتبَس من ديوان " منفى " للشاعر سان جون بيرس، يجري كما يلي:

" الحياةُ جميلةٌ كرأسِ كبشٍ مدهونٍ باللون الأحمرِ ومُسمَّرٍ فوق باب "

كانت آنَّا مانياني مُبهِرةً في دور سيرافينا في النسخة السينمائية لـ " وشم.. ".

كثيراً ما أتساءلُ كيف نجحتْ آنَّا مانياني في أن تعيشَ داخل مجتمعٍ وفي الوقت نفسه أن تبقى متحرِّرةً تماماً من أعرافه. لقد عرفتُها امرأةً غير تقليدية داخل عالمي المهني كما خارجه، فإذا فهمتَ أي شيء مما قلتُ فقد عرفتَ أني بهذا التقرير إنما أُعبِّرُ عن تقديري الشخصي لصدقها، الذي أشعرُ أنه كامل.

طبعاً أنا أيضاً كنتُ موجوداً خارج المجتمع التقليدي وذلك من خلال محاولتي المحفوفة بالخطر نوعاً ما لكي أبقى على اتصال به. وبالنسبة إليَّ لم يكن الأمرُ فقط خطراً بل مبعَثَ اضطرابٍ غير واعٍ وخفيّ. فكيف كان الأمرُ بالنسبة إلى آنّا؟ بما أنها لم تدوِّن أي مذكرات كالتي أُسجِّلها، أو من أي نوع آخر، فسيبقى السؤال بلا جواب. أستطيع فقط أن أقولَ إنها لم تكشف قط عن أي افتقارٍ للثقة بالنفس، عن أي خوفٍ في علاقاتها مع المجتمع الذي كانت تعيشُ خارج أعرافه بعلانيّةٍ تامة.

كانت تبدو في عينيَّ كل مَنْ يواجهها مستقيمةً كل الاستقامة وأثناء تلك الحقبة الذهبية التي كنا خلالها صديقَين حميمين لم أسمع من فمها كلمة واحدة كاذبة.

أعتقدُ أني قلتُ أكثر مما يمكن أن يُقالَ لصالح سيدة. ومع ذلك، ما زال لديَّ

الكثير أقوله لصالح آنّا والقسم الأكبر منه أعجز عن التعبير عنه الآن، وهو كثيرٌ إلى حد أنَّ هذه الذكريات سوف تبقى مبتورة...

لطالما كان الحياءُ مشكلتي الكبرى مع الناس (على الرغم من أني في أيامنا هذه غالباً ما أُبدي مظهراً من الثقة بالنفس يكون أحياناً زائفاً ومُذهلاً)، وفي أول الأمر كنتُ شديدَ الحياءِ مع آنّا. ولكن مع وجود فرانكي كوسيطٍ بين تحفُّظي وافتقارها الفطري الجميل إليه، سرعان ما زالَ الحياء.

كان مرلو صقلّياً من الجيل الأول. وكانت مانياني رومانيّة. ومع اشتراكهما في المزاج اللاتيني، أو المتوسطيّ، بالإضافة إلى الصراحة، لم يكونا بحاجةٍ إلى أن يمُرّا بفترةٍ تجريبيةٍ قبل أن يتوصّلا إلى التفاهم والحب.

لم تكن آنّا تستيقظ في يومها قبل حلول الظهيرة. وعند الساعة الثانية والنصف أو الثالثة يرن جرسُ الهاتف.

بعد أن تقول " تشاو، تن " تردفُ قائلة " ماذا في البرنامج؟ "

كانت دائماً تُبادرني بهذا السؤال اللطيف، على الرغم من أني أعرفُ أنها تكون قد قرَّرَتْ لتوِّها ماذا سيكون البرنامج. لقد قلتُ قبل قليل إنها أبداً لم تتفوّه بأي كلمة كاذبة، لكنَّ السماحَ لصديقٍ مُقرَّبٍ أن يعتقد أنه يُعدُّ برنامجاً للسهرةِ ليس خداعاً وإنما لفتةٌ مُهذَّبةٌ بسيطة. أنا أيضاً لديَّ العادة نفسها. أنا دائماً أعرفُ جيداً كيف سيكون برنامجي، على الأقلّ بقدرِ ما يمكن معرفته مُقدَّماً عن تنفيذه، ولكن حين اتَّصلُ بصديقٍ، ويكون برنامجي قد تقرَّرَ بشكلٍ أو بآخر، دائماً أقول " أنا لا مشروعَ لديَّ للسهرة، وأنت؟ "

في الساعة الثامنة نصلُ أنا ومرلو إلى شقَّتها الكائنة فوق قمة بلاتزو آلتييري (بالقُرب من البانثيون): تقودنا خادمةٌ تبدو مذهولةً إلى غرفة الجلوس. وعلى المائدة يكون هناك دائماً طاسٌ مملوءٌ بالثلج، وطاسات مملوءةٌ بالبسكويت المملَّح وبالفُستُق، وكأسان طويلان وزجاجة ويسكي جوني ووكر ذو العلامة الحمراء. ونجلس هناك نشرب وننتظر، ونمضي ما يُقاربُ الساعة من الزمن، لكنَّها تمرُّ ممتعة. نكونُ أثناءها قد انهينا ما شربنا وخرجنا نتنزَّه على الشُرفة لنُطلَّ منها على Vacchia Roma (روما الجميلة)، تلمعُ بهدوءٍ من خلال أواخر فترة الغسَق، ومن الغُرَف الخلفية من الشقة نسمعُ آنّا تصرخُ مُصدِرةً أوامرها المُدوِّية لكنها تضجُّ بالودّ والمحبَّة.

غالباً ما يظهرُ صديقها الشاب الحالي قبل ظهورها هي بنصف ساعة. فيحيينا بما يشبه الكياسة المرتابة ثم يتمدّدُ على أريكة أو تشيز[٥٦] بسيماء من الشرود الناعس.

وأخيراً تندفعُ آنّا إلى داخل الغرفة، تتألّقُ بالحيوية وبالمشاعر الفياضة، وقد أضحتْ مستعدةً لكي تنقضّ على " البرنامج ". وقد كان لديها مصعدها الخاص الذي أنزلنا مباشرةً إلى الفناء الظليل الفسيح الذي تحتفظُ فيه بسيارتين أو ثلاث فارهة. وكانت أحياناً، وليس دائماً، تسمح لصديقها الشاب أن يتولى القيادة، لكنّها كانت تُفضِّل أكثر بكثير أن تقودَ بنفسها وقد كانت قائدة سيارة من الدرجة الممتازة. ولم تكن حركة المرور الرومانية موجودة بالنسبة إليها. وكان الشاب عادةً يلزمُ الصمتَ المتجهِّم بينما تنخرطُ هي في حديثٍ مع فرانك كائنين من الأطفال ونحن في طريقنا إلى مهرجانٍ من المرح. ولم نكن قط نسأل أين سنتناولُ العشاء: تلك مسألةٌ قرَّرتها مُسبقاً وكان اختيارُها دائماً ممتازاً. وكان أصحابُ المطاعم والنُدُل يستقبلونها استقبالَ ملكة: يحومون مُشرقين حول المائدة بينما هي تطلبُ أنواع النبيذ، والمعجَّنات، والسَلَطات، وأطباقاً رئيسيةً من دون أن تستشيرَ لائحة الطعام. إنَّ هذا لا يبدو سلوكاً سليماً ومع ذلك كان أفضلَ سلوكٍ ممكن. وكل وجبة كانت وليمةً جديرةً بأن تتطلّبَ استحسان إرنست هيمنغواي الخبير في الطعام والشراب ليصفها بإنصاف.

والأمسية لم تكن تخذل أحداً: كانت تتركَّزُ حول العشاء، ولكن بعد رشف القهوة، تطلب آنّا كيساً كبيراً من بقايا الطعام. ومن ثم نبدأ جولتنا الليلية حول مدينة روما، ونقوم بزيارة كل الأماكن التي تنتظرها فيها القطط الضالّة الجائعة لتُطعِمها: الفوروم، والكولوزيوم، وتحت جسورٍ معيَّنةٍ، وفي تراستيفيره، وفي بعض أنحاء فيلا بورغيز.

بعد إنجاز هذه المهمَّة، تعود إلى البلاتزو لتأخذ " ذئبها " (lupo)، وهو كلب رعي ألماني أسود ضخم كنتُ قد أهديته لها، وذلك حين مات سَلَفُهُ من النسل نفسه عجوزاً. وكان يحتلُّ تقريباً كل المقعد الخلفي للسيارة، وتتجه مباشرةً إلى فيلا بورغيز. وهناك تُطلقُهُ ليُسابق السيارة على ممر سير الجياد إلى أنْ يأخذُ باللهاث، ويستعد ليقفزَ عائداً إلى الداخل.

ثم نذهبُ إلى محل روزاتي في فيا فينيتو، نزولاً، بشكلٍ رئيسيّ، عند رغبتي لشرب كأس قبل النوم. ولم تكن آنّا تشرب أي شيء خلاف النبيذ. أما فرانك مرلو

فكان يشربُ قهوة اكسبريس caffe espresso. ويعدُّ الشابُ المُرافقُ لآنّا ساقيه الطويلتين الأنيقتين ويأخذ يرشف من كأسِه وعيناه شبه مغمضتَين. وتُسدِّدُ آنّا نظراتٍ خاطفةٍ إليه، يتنازعها نوعان متناقضان من الانفعال. وكانت دائماً تُعلّقُ بحزنٍ على حاجتي إلى الويسكي. وعلى الرغم من أنَّ الوقتَ يكونُ عندئذٍ قد تأخَّرَ، فإنَّ منطقةَ فينيتو تكون ما تزالُ مزدحمةً ويُبطئ المتمشُّون على الأرصفة خُطاهم لكي يُلقوا نظرة تعجُّبٍ إلى هذه المرأةَ التي تومضُ بغموض. وطبعاً كانت تتعرَّضُ إلى انقضاضاتٍ مُتكرِّرةً من الـ paparazzi، أولئك الفتية المزوَّدين بكاميرات التصوير الوامضة الذين يحتشدون في أرجاء مدينة روما ليلاً بحثاً عن " الوجوه الشهيرة ". وكانت آنّا تتحمَّلُهم بعض الوقت، ومن ثم تصرخ فيهم ليبتعدوا بطريقةٍ تجعلهم يتفرَّقون فوراً ولكن وهم مبتهجون.

تكون سيارتنا منتظرةً في ذلك الفناء الظليل من بالاتزو آلتيبيري. ونرافقها حتى المصعد الخارجي ذي الجدران الزجاجية.

"Cio , caro , cio , bello , cio , cio , cio "

(إلى اللقاء، يا عزيزي، إلى اللقاء، أيها الوسيم، إلى اللقاء، إلى اللقاء، إلى اللقاء "

وقُبُلات وعناقات. ثم تلجُ المصعدَ يتبعها صديقها الشاب ونراها وهي تُحدِّقُ إلى وجهه المُبهم بعينين واسعتين تشتعلان بالشَبَق والمصعدُ يرتفعُ ويغيبُ عن الأنظار.

لقد كانت فوقَ كلّ عُرفٍ بشكلٍ لم أعرف له مثيلاً عند أي إنسان قابلتُهُ في حياتي كلها، وأعتقدُ أنَّ هذا كان الرباط العظيم الذي ربطَ بيننا وكان أُسّ ثقتها العتيدة في نفسها، بقدر ما كان أُسَّ فقداني لها وإحساسي بالذنب الذي سيظلُّ دائماً يُلقي بظلِّه القاتم على حياتي.

* * *

في أوائل الخمسينات دعاني بيل إنج ذات يوم إلى وجبة عشاء في ألغونكوين. وقد بدا لي كئيباً كآبةً منافقة، إنْ صحَّ التعبير، وأثناء تناول طعام الغداء المُغمّ إذا به بسرعة، وبدون مقدِّمات، يطرح عليَّ هذا السؤال: " ألا تشعرُ يا تنيسي أنك كاتب مغلق الأفق؟ "

جوابي: " نعم، أشعرُ، لطالما كنتُ مغلق الأفق ككاتب، لكني أحبُّ الكتابةَ حُباً جمَّاً حتى أني دائماً أخترقُ سطحي "

أشعرُ أنَّ مشكلةَ بيل الأولى كانت ذات طابع أناني مَرَضي: فبعد سلسلةٍ من النجاحات الساحقة لم يكن في إمكانه أن يقبلَ الفشل: وأخيراً أصبحَ خاضعاً لرعاية اثنين من الممرّضين الذكور.

أتذكَّرُ سطراً من مسرحيتي " مملكة الأرض ":

" الحياة صخرةٌ وعلى الإنسان أن يكونَ، بدوره، صخرةً، وإلا انكسَرَ أحدهما، ولن تكونَ الحياةُ أبداً هي التي تنكسر "

أو شيء من هذا القبيل...

* * *

كما كنتُ قد قلتُ سالفاً، كتبتُ المسوَّدة الأولى لمسرحية " كامينوريل " في نيو أورلينز عام ١٩٤٦، تلك المخطوطة التي طلبتْ أودري وود مني أن أطرحها جانباً وألاَّ أُريها لأحد. وكانت ردّة فعلها قد سبَّبَت لي الغمّ حتى أني ظننت أنه لابد أنّ المسرحية رديئةٌ ولا أملَ يُرجى منها. ثم بعد مرور بضع سنين، كنتُ موجوداً في مدينة نيويورك فتوقَّفتُ في مقرّ " محترف الممثلين "، فإذا بكازان يدير تدريباً يُجريه مع إيلي والاش وباربرا باكسلي وبعض الممثلين التلاميذ الآخرين - وكانوا يؤدّون " عشرة أبنية على كامينوريل ". وأدركتُ أنَّ أودري كانت مخطئة تماماً، وأنَّ المسرحية تؤدَّى بشكلٍ رائع، وقلتُ " أوه، كازان، يجب أن ننفِّذ هذه، يجب أن ننفِّذها مع مسرحية أخرى ربما، على مسارح برودواي ". وفي تلك الأيام لم يكن هناك مسارح خارج برودواي، فوافقَ. وقد فرِحَ كثيراً بالفكرة وخلال ذلك الصيف ناقشنا الأمرَ كله بالمراسلة (حين كنتُ في روما، وكان هو في نيويورك). وفجأةً وافقَ كازان على تولّي مهمة إخراج مسرحية أخرى، فانزعجتُ كثيراً واعتكفتُ في كي ويست. لكني لم أتخلَّ عن فكرة " عشرة أبنية على كامينوريل " وواصلتُ العملَ عليها ووسَّعتُها حتى أصبحت مسرحية " كامينوريل ".

في تلك الأثناء، مُنيتْ المسرحية التي كان كازان قد قرَّرَ أن يخرجها وفضَّلَها على" عشرة أبنية... " بالفشل. هذه هي العدالة الشِعرية. حينئذٍ أصبحَ مستعداً لتولّي إخراج النسخةَ المُعدَّلة من " كامينوريل ".

كانت مهمَّةً ثقيلةً في ذلك الوقت، لكنَّ الشجاعةَ لم تكن مرةً تنقصُ كازان وسارَ قُدُماً. كانت البروفات مثيرةً جداً، جداً، وكان الاستقبال خارج المدينة مرتبكاً جداً، جداً. وخرجَ عددٌ كبيرٌ من الناس أثناء العرض. وبدا الحنقُ على الناس بسبب ما تتضمَّنُهُ من ابتكارات.

كنتُ متحمِّساً لمواصلة العمل. كنتُ أعرفُ أني أقومُ بأشياء جديدة ومختلفة وأسعدني ذلك ورأيتُ أنها ستنجحُ تحت إمرةِ كازان. ونجحتْ؛ لكنَّ الجمهورَ عموماً لم يُردْ لها أن تنجح، لم يُساندها الجمهور في ذلك الوقت. أما الآن فهو يساندها؛ إنه يحبها الآن. وقد حدثَ للمرة الأولى في مسرحية " كامينو ريل "، حسب علمي، وفي برودواي، أن نَزَلَ الممثلون عن الخشبة وتغلغلوا بين الجمهور. ظننتُ أنَّ تلك التقنية قد استُخدمَتْ بشكلٍ تقليديّ، ولا أحدَ، غيري، تعرَّضَ للتجريح بسبب كتابتي بتلك الصورة. لكنَّ عرضَ خارج المدينة كان ممتعاً جداً على الرغم من ردودِ الفعال الغاضبة لقسمٍ كبيرٍ من الجمهور.

كنتُ دائماً أستمدُّ متعةً من عملي مع كازان.

أغلبُ النقاد أيضاً أبدوا غضباً عارماً من المسرحية، لكنَّ بعضهم ميَّزَ الابتكارات ومنحوها بعض الثقة.

أثناء افتتاح العرض في فيلاديلفيا، نَزَلتُ مع فرانك في أحد الفنادق وكان جناحنا يقعُ مباشرةً فوق جناح المُغني جوني راي الذي كان في ذلك الوقت يحقِّقُ أول عهد شهرته الواسعة مع أغنية عنوانها " الغيمة البيضاء الصغيرة التي بكَتْ ". وكان لابد أن نقابله وكان رفيقاً بهيجاً. وقمنا أنا وكازان وفرانكي بزيارته معاً ووقَّعَ لنا على صوَرِه الفوتوغرافية. وما زلتُ أحتفظُ بواحدةٍ في نيو أورلينز. كان ما يزالُ فتى ظريفاً جداً لكنه لم يستطع أن يتجنَّب المشاكل.

ذات ليلة بعد انتهاء عرض " كامينو.. "، في مسرح شوبرت وكان المنتج سينت سَبر موجوداً بين المشاهدين، اندفعَ نحوي وهتفَ " أنت ما يسترو! " وارتمى راكعاً أمامي. وأعتقدُ أنه كان أشدَّ ما شهدتُ من التصرفات خزياً، وإفراطاً في هستيريته، وأبدى لي مظاهراً تزلُّف مُبالغاً فيها، وأخشى أنها لم تكن حقاً صادقة لأني لم أرَ وجهه منذ ذلك الحين. هذا هو عالم الاستعراض.

كان كازان قد انتقى كامل طاقم الممثلين من " محترف الممثلين "، وهي منظَّمةٌ كانت على جانبٍ كبير من الأهمية في الأيام المجيدة - أعتقدُ أن عليَّ أن أقولَ الأيام " المزدهرة " - لبرودواي، في عهد شهرتي خلال الأربعينات والخمسينات، وهما الحقبتان العظيمتان بالنسبة إلى " محترف الممثلين ". وكل ممثل عظيم واعد تقريباً دَرَسَ هناك. وكانت تقنية " محترف الممثلين، تتناسبُ تماماً ونمطي في الكتابة المسرحية. وكان " محترف الممثلين " - بوجود إيليا كازان، وستراسبورغ، وبوبي لويس - مكاناً عظيماً لارتياد الممثلين وليتبادلوا الملاحظات حول أعمالهم، وكان يُشكِّلُ بالنسبة إليهم ما يشبه المُستَقَرَّ الأليف.

افتُتِحَتْ مسرحية " كامينوريل " في نيويورك عام ١٩٥٣. جلستُ في مقصورةٍ مع أمي وديكن وأذكرُ أني كنتُ أفكرُ قائلاً إنه على الرغم من أنَّ فيها نقصاً، إلا أنها تجاوزت نقائصها.

ثم أُقيمتْ حفلةُ ما بعد الافتتاح وبدأتْ تقارير نيويورك العنيفة تردُ حول المسرحية، التي حرَّرَت إلى حدٍ بعيد المسرحَ الأميركيَّ المعاصر من معوِّقاته الواقعية.

في تلك الليلة عانيتُ من القيامة المعتادة لهستريا ليلة افتتاح مدينة نيويورك. وفررتُ من الحفل ومن التقارير إلى شقَّتي في الشارع الثامن والخمسين الشرقي وإلى فرانكي.

حاولتُ أن ألجأ إلى النوم لكنَّه جافاني. وكان فرانكي أعجوبةً في المشاركة الوجدانية الهادئة والمنضبطة.

عند نحو الساعة الواحدة صباحاً وصلَ كازان وزوجته إلى باب داري، وكم كان مقدار رُعبي عندما اكتشفتُ أنهما بصحبة السيد والسيدة جون شتاينبك.

طاشَ صوابي من شِدَّة الغضب وصرختُ بكازان " كيف تجرؤ على إحضار هؤلاء الناس إلى هنا في هذه الليلة؟ "

ثم صفعتُ باب غرفة النوم على نفسي وأزلجته.

إنني دائماً أكره أن يراني أشخاصٌ غرباء تماماً عليَّ أثناء مروري بفترة أزمة.

على الرغم من ذلك الاستقبال الأقلّ من ودِّي مكثَ آل شتاينبك مدة ساعة في الشقة وواصلَ فرانكي سلوكه المُعجِز. فقدَّمَ لهم المشروبات وشرحَ لهم طبيعتي، وأخشى أنه كان دائماً يعرفها حقَّ المعرفة لكنه كان أحياناً، وفي أيام الأزمة، يدافع عنها...

في اليوم التالي تناولتُ طعامَ الغداء مع كازان في محلٍ يُقدِّمُ أطباقَ السمكِ ووضعنا الأمورَ في نصابها.

طبعاً قرَّرَتْ المنتجةُ المسكينة شيريل كروفورد أن تُغلقَ المسرحية. وخلال الأسبوع الأخير من عرضها حَذَفَتْ النثارَ[٥٧] من مشهد الكرنفال الكبير من باب الاقتصاد، على الرغم من أنَّ المسرحية، بعد إعلان قرار إيقاف عرضها، ظلَّتْ تُعرَض بعدد كامل.

* * *

حفلات، في الخمسينات. أتذكَّرُ كيف تعودَّتْ آيرين ماير سلزنيك، ابنة ذلك العجوز الفظيع لويس. ب، أن تدعوني إلى وجبات عشاءٍ على جانبٍ من الأهمية الاجتماعية في محل بيير وتقول " أطلبْ من فرانكي أن ينضمَّ إلينا لاحقاً "

وكان (أي فرانكي) دائماً يردُّ بعبارته المناسبة " قُلْ لها أن تذهب وتنيك نفسها ". وذلك حين كنتُ ألقي على مسمعه تلك الدعوات المُهينة.

أيضاً في هذا السياق، أذكرُ حين كان جاك وارنر يعملُ على تسليتي وتسلية فرانكي في غرفته الخاصة في ملاك استوديو وارنر. وكان يتنمَّرُ على بعض المرؤوسين الذين تأخَّروا قليلاً عن وجبة الغداء.

سدَّدَ فرانكي إليه نظرةً ثابتةً خاليةً من التعبير لاحظها وارنر أخيراً.

" وما هو عملك، أيها الشاب؟ "

وبدون أن يطرأ أي تبدُّلٍ على تعبير وجهه، وبصوتٍ عالٍ، واضحٍ، أجابَ فرانك" إنني أضاجع السيد ويليامز "

ربما تركَ جاك شوكتَه تسقط لكنَّ فرانك لم تطرف له عين وهو يواصلُ تحديقه الثابت في المستبدِّ العجوز.

* * *

والآن، عن المسرحيات، ماذا عنها؟ المسرحيات تُكتَبُ ومن ثم، إذا ما حالفها الحظ، تُنفَّذُ، وإذا حافظَتْ على حُسنِ حظها، وهذا نادراً ما يحصل، يكونُ تنفيذها من النجاح بحيث يُدركُ كل من الجمهور والنقاد منذ الليلة الأولى أنهم وُهبوا عملاً مسرحياً صادقاً ومُسلِّياً معاً وأيضاً، وبصورةٍ ما، قادراً على أن يجذب استحسانهم الجمالي.

إنني لا أحبُ أبداً أن أتحدث عن الجانب المهني من حياتي. فهل أخشى أن يفرَّ كعصفور مُجفلاً من المناقشة، كما يفرُّ من ظِل صقر؟ أعتقد ذلك.

يســألني الناس دائمـاً، في الندوات التي أرضخُ لهـا في السنوات الأخيـرة، أي مسرحيةٍ هي المفضَّلَة لديَّ من بين أعمالي، والتي يغيبُ عن ذاكرتي عددها، فإما أقول لهم " هي دائماً آخرها " أو أخضعُ لفطرني في البوح بالحقيقة وأقولُ " أعتقد أنها لابد النسخة المطبوعة من قطة على سطحٍ من الصفيح الحار ".

إنَّ تلك المسرحية هي الأقرب لكونها معاً عملاً فنياً وعملاً حِرَفياً. إنها حقاً مكتوبةً بشكلٍ جيد جداً، في رأيي، وكل شخصياتها مُسلّية وذات مِصداقية ومؤثِّرة. وأيضاً تتقيَّدُ بالأمر الذي أصدَرَه أرسطو بوجوب أن تكونَ للمأساة وِحدتا زمان ومكان وعَظَمَة في الموضوع.

إنَّ مكان أحداث مسرحية " قطة... " لا تتغير أبداً ومدة عرضها هي بالضبط المدَّة التي تستغرقها الأحداث، بمعنى أن حَدثاً ما، وكذا الزمان، يتواكبان معاً، ولا أعرفُ أيَّ مسرحية لأي كاتب أميركي معاصر تُحَقَّقَ فيها هذا.

إلا أنَّ مُبرِّراتي لإعجابي بمسرحية " قطة... " أكثر من غيرها هي أعمق من ذلك. إنني أعتقد أني في الفصل الثاني من " قطة... " تجاوزتُ نفسي إلى نوعٍ من فصاحةِ التعبيرِ الفجَّةِ عند شخصية بيغ دادي، حتى أني نجحتُ في ألاّ أُبدع أي شخصيةٍ أخرى.

الآن يجب أن أحكي حكاية إنتاج مسرحية " قطة.. " في عام ١٩٥٤ والكارثة التي تلتْ نجاحها الساحق.

لقد شاركَ كازان على الفور أودري حماسها لمسرحية " قطة... "، لكنه قال إنَّ في أحد فصولها عيباً. وحسبتُ أنه يقصد الفصل الأول، ولكن لا، إنه الفصل الثالث. أرادَ بطلةً مُثيرةً أكثر للإعجاب من ماغي في المخطوط الأصلي.

في دخيلتي لم أوافق؛ رأيتُ أني قدَّمتُ من خلال شخصية ماغي صورةً مؤثِّرةً جداً وصادقةً لفتاةٍ شابةٍ دفعَتها خيبتُها في الحب ونزعتها العملية إلى اللجوء إلى الغواية الحَرْفيّة لشابٍ لا يشتهيها. إنَّ كلمة غواية كلمةٌ مُخَفَّفَةٌ أكثر مما ينبغي. لقد أجبرتْ ماغي حَرْفياً الشابَ الوسيمَ إلى العودةِ إلى السرير، بعد أن خلَّصَته من سُكرِه...

ثم كان لابد لي أيضاً أن أنتهك حدسي بجعلُ بيغ دادي يظهر من جديد على خشبة المسرح في الفصل الثالث. وعندما عاد إلى الظهور في ذلك الفصل لم أجد له

عملاً يقوم به ولم أرَ أنَّ من المناسب دراميــاً أن يعودَ إلى الخشبة. وعليه جعلتُهُ يحكي " حكاية الفيل "، التي تعرَّضتْ لهجوم الرقابة. وأُمِرتُ بحذفها. والمادة التي اضطررتُ إلى وضعها في مكانها ظلت دائماً تُشعرني بالمهانة.

ما كنتُ لأحكي هذا لك لولا النتائج التي أثَّرَتْ بي ككاتب بعد أن نالت مسرحية " قطة... " جائزة النقَّاد وجائزة بوليتزر.

مع ذلك فإنني دائماً أصابَ بالجنون في ليالي الافتتاح، وليلة افتتاح " قطة... " في نيويورك كانت فظيعة بصورةٍ استثنائية. لقد رأيتُ أنها كانت فاشلة، وتشويهاً لما كنتُ أرمي إليه. وبعد انتهاء العرض خُيِّلَ إليَّ أني سمعتُ سُعالاً طوال فترة العرض. أعتقدُ أنه لم يكن كثيراً، وربما عدداً عادياً من المرات. وقد أصبحتْ مسرحيتي هي الأكبر، ومدة عرضها كانت الأطول. ولكن بعد انتهاء العرض في ليلة الافتتاح قال كازان " فلنذهب إلى الشقة ريثما تتوقف التقارير عن التوافد ". كان واثقاً ثقةً تامّةً من أنها ستُحقِّقُ نجاحاً ساحقاً. وفي الخارج قابلتُ أودري وود، وكنتُ في ذلك الوقت مُعتمداً عليها كل الاعتماد لأكتسبَ أيَّ قدرٍ من الثقة الخلاّقة، فقلتُ لها " أودري، نحن جميعاً ذاهبون إلى منزل آل كازان لانتظار التقارير النقدية، فقالت " أوه، لا، لديَّ مشاريعُ أخرى "، فتأذَّيتُ، وقلتُ شيئاً خسيساً.

بعد ذلك، سافرتُ مع فرانكي إلى إيطاليا وللمرة الأولى، كلا، بل الثانية من المكوث الطويل، أعجز عن الكتابة.

لم تعُد القهوة المُركَّزة تكفي لحثّ العُصارة الخلاّقة على التدفُّق.

تحمَّلت هذا العقم في الإبداع عدة أسابيع، ثم أخذتُ أجرعُ مزيج السيكونل مع المارتيني. بعد ذلك أصبحتُ " مدمناً " على تلك العادة. وقد نتجَ عن حالة التهتُّك الخلاّقة تلك، خلال صيف عام ١٩٥٥ في روما، فيلم " الدمية "، وهو سيناريو يتَّصِفُ، في رأيي، بمرحٍ صاخبٍ لعوب، لم يستخدم قط استخداماً كاملاً وبشكلٍ صحيح في الفيلم.

قد يبدو وكأني أضعُ اللوم على كازان لبداية نكباتي ككاتب مدمن على المخدرات. إنني لا ألومُ أحداً أبداً من أجل أي شيء، ماعدا القسوة المُتَعَمَّدة، لأني كنتُ دائماً أنطوي على إيمان بلانش الراسخ بأنَّ " القسوة المُتعمَّدة لا تُغتَفَر ".

لعلّي ألومُ أودري على إهمالها، خلال فترة الستينات الرهيبة، ولكن حتى هي لا ألومها إلا قليلاً. أما كازان فلا أضعُ أيَ قدرٍ من اللومِ عليه، ولا حتى لطرحهِ عليَّ سؤالهِ ونحنُ في سيارة ليموزين مُستأجَرَة - وكنا عائدَين من أمسية حزينةٍ في منزل جين وتوني سميث -" تنيسي، كم سنةً ستعيشُ، في اعتقادك؟ "

لم أُصدَم لقسوةِ السؤال، بما أني كنتُ أعلمُ منذ زمنٍ بعيد أنَّ عُنصر القطة المحترقة يجب أن يوجد في الفنانين كلِّهم.

أجبتُه بهدوء " بضعة أشهر أخرى، يا غادج[٥٨] "

مرَّتْ دقائقُ لم يتكلَّم خلالها أيٌ منا ونحنُ في الليموزين المُستأجَرَة عائدَين من ساوث أورانج.

أعتقدُ أننا جميعاً أدركنا أنَّ لحظةً من الحقيقة قد ظهرت.

* * *

عبرَ مسرحية " قطة... " قابلتُ فوكنر. كان على علاقة حبٍ مع جين ستاين التي كانت تعملُ في المسرحية، وقد قَدمَ إلى فيلاديلفيا حين كنا هناك نعملُ في المسرحية، وتعرَّفتُ إليه هناك. وهو لم يتحدَّث معي قط. أعتقد أنه استهجنني. ومن ثم في وقتٍ لاحقٍ من ذلك الصيف كان مرةً أخرى مع جين في باريس وذهبنا جميعاً لتناول طعامَ العشاء معاً. استشعرتُ في الرجل عذاباً رهيباً. كان دائماً يُخفض بصره. حاولنا أن ننسجَ حديثاً لكنَّه رفضَ تماماً أن يشارك. وأخيراً رفعَ عينيه مرةً كإجابةٍ على سؤالٍ طرحتُهُ عليه، وكانت النظرةُ المُطِلَّةُ من عينيه مُخيفة جداً، وحزينة جداً، حتى أني أخذتُ أبكي.

* * *

مع ذلك، إنَّ جين باولز هي في اعتقادي أعظم كاتبة. طبعاً أنا لستُ ناقداً، لكني كاتبٌ وأظنُّ أنَّ الكُتَّابَ نقادٌ جيدون، خاصةً إذا انفصلوا عن مجال المنافسة كما فعلتُ أنا. إنني أعتبرها بلا تحفُّظ أعظم كاتبةٍ في قرننا هذا باللغة الإنكليزية. وقد أخبرني هارولد بنتر أنَّ هذا أيضاً هو رأيه.

* * *

هل أخبرتُكَ عن الأمسية التي ذهبنا فيها، أنا وصديقي " البروفيسور " لمشاهدة مسرحيةٍ تُدعى " أقذر عرضٍ في البلدة "؟

بعد ذلك أخذنا نتمشّى على طول شارع في منطقة إيست فيليج . وأصبحنا نسير بمحاذاة شخصٍ بدا أنه من أهل المنطقة وإذا بي أرى أنه صديقي العزيز كازان.

في تلك الأثناء كان البروفيسور الطيب منهمكاً في حديثٍ مع فحلٍ أسود وارتبكتُ حين أدركتُ أنه يوشكُ أن يتورّط في متاعب خطيرة.

لا أذكُر بدقّةٍ ماذا تبعَ العبارة التي قالها كازان، لكنَّ العبارة كانت:

" إنَّ كلاً منا ، يا تن، يموتُ، وكلاً منا يموت وحده "

قلتُ له " أعرفُ حقَّ المعرفة، يا غادج، أنَّ كلاً منا يموتُ وحده. لكني لا أوافقكَ على أننا جميعاً نموتُ وحدنا "

كان جوابه لي عبارة عن نظرةٍ ذاهلةٍ، مستبطِنة. عندئذٍ أوليتُ انتباهي البروفيسور ونجحتُ، بطريقةٍ ما، شاذةٍ تماماً، في صرفِ نظرِهِ عن مغازلته الخطِرة التي انخرطَ فيها على رصيف في حي باوري للعملاق الأسود.

* * *

بدءاً بصيف عام ١٩٥٥ أصبحتُ متعوِّداً على أن أكتب تحت تأثير المُنبِّهات الاصطناعية، بغض النظر عن المُنبِّه الحقيقي لحاجتي المتجذِّرة إلى مواصلة الكتابة.

في استطاعتي أن أَعْبُرَ أرضَ الغرفة وأصلَ إلى حقيبةٍ كبيرةِ الحجم تضمُّ أعمالي الكاملة - التي جمعتُها في هذا العام ونشرتْها دار نيو دايركشن - وأزوِّدكَ بلائحةٍ بالمسرحيات التي كتبتُها منذ صيف ذلك العام وأعتقدُ أنك ستُصاب بشيءٍ من الدهشة جراّء قدرتي على مواصلة عملي تحت تلك الظروف الفاسقة.

في استطاعتي طبعاً أن أوردِ أسماءَ عددٍ من الفنانين المعروفين، أقصد الكُتّاب منهم، استسلموا للمُنبِّهات الاصطناعية. وفي وسعي أن آتي على ذِكرِ لجوءِ فوكنر إلى الصعود إلى علِّيّةِ أحد المستودعات في مزرعته في ميسيسيبي بصُحبةِ زجاجةٍ كاملةٍ من البوربون حين ينوي أن يكتبَ، وهو عملٌ أعتقدُ أنه كان يقومُ به في صباح كل يوم. وفي وسعي أن أوردَ اسمَ كولريدج وأن أذكر جان كوكتو، اللذَين أُنجِزَتْ أفضل أعمالهما وهما تحت تأثير الأفيون؛ سمعتُ ذلك من مصدرٍ موثوق.

يمكنني أن أذكر العديد من الكُتّاب الشُرَفاء والغريزيّ الإنتاج ممَّن أدمنوا شرب الخمر، خاصةً في منتصف أعمارهم.

إلا أني، طبعاً، لن أنصح أي كاتب شاب بأن يختار هذه الطريقة إلى أن تُفرَض عليه، إلى أن يعجز عن متابعة عمله بدون اللجوء إلى المُنبِّهات.

قبل وقتٍ ليس بالبعيد، في الحقيقة ذات أمسية قريبة، اعترفَ لي كاتب سيناريو للسينما شابٌ ووسيم، حين أودعني السرير وأعطاني جُرعةً وقت النوم من منوِّمٍ نبيوتال، بأنه باتَ الآن لا يستطيع أن يكتب إلا بعد أن يشرب.

شعرتُ كأني أخٌ كبيرٌ له، فقلت " إنك أصغر سناً بكثير من أن تلجأ إلى هذا , لاتتَّبِع هذه الطريقة منذ الآن "

بدا أنه فهِمَ أنه لن يحظى بكأسٍ أخرى فبدا وجهه يرسمُ أثرَ الإفراط في الشُرب الذي يُقسِّي القسمات.

هل من العدل ألاّ نُقدِّم للكُتّاب الإعفاء الضريبي للمصادر المستنفذة نفسه الذي يُقدَّم، مثلاً، لأصحاب الملايين الكبار في مجال استخراج البترول وصناعة الفولاذ وللمؤسسات المشتركة التي تملُك بلدنا وتُديره؟

ها نحنُ نخوض في الاحتجاج وفي السياسة.

كانت فكرة المسرحيات تأتيني عادةً في صباحات الأيام الجميلة في مُحترفي في كي ويست، وإنْ كانت قد واتتني أيضاً في صباحات كل الأيام في كل مكان، حتى في منزلي في نيويورك المُسمَّى الجناح الفيكتوري، وقد نفعتني كثيراً، وكذا أيضاً في غُرفٍ في فندق كولون في برشلونه، وعلى الرغم من أني لم أشعر يوماً بأنَّ في استطاعتي أن أكتب جيداً في شققي الرومانية المختلفة، ثمة دلالة على أني كنتُ أحياناً أكتبُ بصورةٍ حسنةٍ بقدرٍ كافٍ، كما في حالة " وشم الوردة " و " الربيع الروماني للسيدة ستون ".

لكن لا ريبَ في أنَّ مُحتَرَف كي ويست كان دائماً الأفضل، وعلى امتداد أسبوعين من أواخر فصل الخريف القادم وأوائل فصل الشتاء، آمل في أن أعود إلى هناك لكي أعمل على إخراج مسوَّدةٍ ثانيةٍ لمسرحيةٍ جديدةٍ.

* * *

في عام ١٩٥٥ قابلتُ فشلَ مسرحية " أورفيوس يهبط " بشعورٍ حقيقي بالهزيمة المُدمِّرة - وهي البنت الشرعية لمسرحيتي الأولى التي نُفِّذَتْ في نيويورك " معركة الملائكة ".

خسارة، لأنَّ مسرحية " أورفيوس... " ليس فقط أُعيدَتْ كتابتها بل وأُسيء إخراجها على يدِ ذلك الرجل العزيز والناقد الراقي هارولد كْلَرمن.

لدور فال أخطأ خطأً قاتلاً عندما اختارَ شاباً ظهرَ وكأنه ضابطٌ في المافيا، وهذا ليس من صِفات فال في المُطلَق. ورفضتُ أن يُطرَد في فيلاديلفيا، وأمرتُ كلرمن بأن يقوم بالدور، فقام به، ثم جاء الفتى المسكين إلى جناحي في فندق ووروِيك وهو يذرف الدمع، ليس غضباً مني بل اعترافاً منه بحبِّه العظيم للمسرحية و - في الواقع، لقد تعاطفتُ معه وتأثَّرتُ لحالته عميقاً لكني بقيتُ متمسِّكاً برأيي. " إنك بلا ريب لا تصلح للدور، يا صغيري. إنَّ أمامك مستقبلاً باهراً لكنَّ هذا الدور ليس لك "

لم يُبدِ لأقلّ بادرة من غضب، حتى حين اتضحَ له أني لن أتزحزح عن موقفي قيد أنمُلة، خاصة وأنه الدور الذكّري المُميَّز الأول في المسرحية.

ثم انضمَّ الممثلُ كليف روبرتسن إلى طاقم المسرحية ولا أزالُ أذكُرُ ظهوره الأول، وكان أداؤه هو الأفضل في مسرحية " أورفيوس... "، وأذكر كيف اقتربَ أحد رجال المسرح، واسمه روبرت وايتهيد، أثناء ذلك العرض الصباحي الناجح، في فيلي، وجلسَ القرفصاء إلى جانب مقعدي بالقرب من خشبة المسرح وهتف بانفعالٍ شديد، " أوه، لقد نجحتُ، نجحتُ، شكراً لله لقد نجحت! "

في الواقع، ولسوء الحظ لقد أخطأ بوب وايتهيد في تقديره خطأً كاملاً. فالمسرحية لم تُحقِّق أي نجاح: اللهم ماعدا في تلك الحفلة الصباحية اليتيمة.

لقد حُمِّلَتْ المسرحية فوق طاقتها، وكانت المتطلبات المُلقاة على عاتق مورين وكلرمن ثقيلة جداً.

ولكن كان يمكن للنقاد أن يروا مَوَاطِن السلاسة الغنائية وأن يسمحوا لأنفسهم بمنحِ المسرحية بعض الوقت. وهذا ما لم يختاروه. ومن المُدهِش، بالنظر إلى التعليقات النقدية، أنَّ المسرحية عاشتْ شهرين أو ثلاثة. وفي ذخيرة روسيا المسرحية عُرِضَتْ طِوال سبع سنين، إنْ كان لهذا أي مغزى، وأنا أعتقد أن المغزى موجود.

في نيويورك أسقطوها انتقاماً، وقد كان انتقاماً دمَّرني ورمى بي بين يدي الدكتور لورانس كوبي - هذه المرة، أيضاً، كانت قضية سوء توزيع أدوار - بسبب خطأ في تحليل فرويدي صارم. لقد علَّمني الكثير عن طبيعتي الحقيقية لكنَّ الحلَ الوحيد الذي

أعطانيه كان أن أقطع علاقتي بمرلو، وهي فكرةٌ كانت بكل وضوح مستحيلة التنفيذ، لأنَّ حياتي كانت مبنيَّة حوله.

ولماذا وجَّه النقَّادُ هجومهم الشرس عليَّ في أواخر حقبة الخمسينات وأوائل الستينات أعتقد أنها كانت مؤامرةً حيكتْ لإعادتي إلى ما رأوا أنه حجمي الطبيعي.

وما هو حجمي الطبيعي؟ أعتقد أنه حجمُ فنانٍ يمنحُ على الدوام كل ما يستطيع أن يمنحه لعمله، بالشغف الأشدّ تميُّزاً.

لا عليك من لمسة هوسٍ بالذات التي تطلُّ الآن برأسها القبيح. ففيها، أيضاً، تكمنُ الحقيقة... أليس الهوَس بالذات هو تقريباً الشرط المُسبق لكلِ عملٍ خلاّق؟ إنَّ لا سببَ يدعوني إلى تبديد هذه الفكرة.

ومع ذلك فداخل هذا الهوس بالذات عند الفنان يسري التوقُ العظيم إلى أنْ " تمدّ ذراعيك وتضم العالمَ كلّه إلى صدرك ". وطبعاً هذه الجملة أيضاً تكشف عن هوسٍ بالذات.

إنَّ الحقيقة هي الطائر الذي نأملُ في أن نحبسه في " هذا الشيء "، ويمكن أن يُشكِّلَ مدخلاً أفضل إلى عمق قصة حياتي من أن أسردَ مسيرتي المهنية. يا إلهي، إنَّ الأمرَ لم يكن قط مسيرة مهنية بالنسبة إليّ، لم يكن أكثر من " أداء ما عليَّ " بضراوة وبأقصى ما لديَّ من طاقة.

* * *

إنها أمسيةُ القراءة الأولى لتنفيذ كازان لمسرحية " طائر الشباب العذب "، إخراجٌ ضخمٌ بكل المقاييس المعتادة: إنتاج شيريل كروفورد، ومن بطولة بول نيومن وجيرالدين بيج، وممثلين من الدرجة الممتازة مثل مادلين شروود، وريب تورن، والمرحوم سيدني بلاكمر، يقومون بأدوارٍ معاونة ونحن محجوزون داخل حظيرة مارتن بك الضخمة. وربما هناك أيضاً صفقة كبيرة لإنتاج مُمهِّد لفيلم.

وتبدأ القراءة.

وسط هذه القراءة إذا بي أقفزُ عن الكرسي وأصرخ " كفى! كفى! لا يمكن الاستمرار، إنها فظيعة جداً! "

خيَّمَ صمتٌ تامّ على قاعة التدريبات وأنا أخطو بهياجٍ خارجاً إلى ساحة تايمز. ثم أتوجَّه إلى المنزل وأصرعُ نفسي بالسُكر وبقرصٍ مُهدِّئ. فإذا رنَّ جرسُ الهاتف أتجاهله.

وكان " الحصان " قد خرجَ من الشقة ليشرعَ بصفاء في القيام بعمل الجياد الغامض التي خرجتْ سالمةً من الكثير من العواصف في سنوات شبابها...

وحلَّ المساء، وإذا بقرعٍ قويَ يهزُّ الباب، من النوع الذي كأنه يقول " افتح باسم القانون! "

فتحتُ فإذا بي أمام مولي وغادج كازان يبتسمان بودٍ وعذوبةٍ وكأنَّ لا شيءَ غير طبيعي قد وقع.

أعتقد أننا كنا في فترة عيد الميلاد وكانت هناك شجرة ميلاد مُضاءة في الزاوية فجلسا بارتياح عندها.

إنني الآن أشعرُ بالخجل الشديد بسبب سلوكي أمام المجموعة لكنني لم أزح حتى الآن عن إيماني الراسخ بأنه ما كان ينبغي أن يستمرَّ عرضُ المسرحية.

تحدَّثَ غادج ومولي إليَّ كما يتحدثُ المرءُ إلى حيوانٍ جريح أو إلى طفلٍ مريض. وأخذ تصميمي الباتّ يتداعى: إنني أحبهما. وقرَّرتُ أن أضعَ ثقتي فيهما.

ولكن في تدريبات اليوم التالي لم يتركني كازان، وللمرة الأولى، أجلس إلى جانبه مباشرة. في الواقع لقد كان يجلسُ إلى جواره كاتبٌ، فانتابني ارتيابٌ مهووس في أنهم أحضروه لكي يُعيدَ كتابة مؤلَّفي. جلستُ مُتَّكئاً إلى الجدار تتولاني الكآبة: قراءة النص مملَّة ومموات ولم تعُد، لأذنيَّ، مخطوطةً صالحةً للتقديم أكثر مما بدتْ القراءةُ الأولى في اليوم السابق. لكني احتفظتُ بهدوئي. وفي فترة استراحة الغداء قدَّموني إلى الكاتب الشاب. ويبدو أنَّ " مُحتَرَف الممثلين " كان قد أرسله بوصفه " مستمعاً " للإنتاج، فاطمئنَّ قلبي إلى أنه لن يمسَّ مخطوطتي، على الرغم من رداءتها لكني ما زلتُ أشعرُ بالغيرة من قُربه من غادج.

شيئاً فشيئاً، ومع تواصُل التدريبات، أخذَ يختفي من الصورة بالنسبة إليَّ وعدتُ أجلسُ في مكاني الصحيح إلى جوار أبينا الأبيض العظيم كازان.

* * *

هذه النادرة أقحمتُها هنا فقط لكي أُبيِّنَ مرةً أخرى حالة التوتُّر، والرعب، والانزلاق الطويل، الطويل نحو الانهيار التي امتدَّت بشكلٍ مفزع أمامي، حتى بعد مرور كل ذلك الوقت.

* * *

يبدو لي هنا أني أغفلتُ سردَ إحدى " مغامراتي الدرامية " الأكثر أهمية، وأقصد بها مسرحيَّتين قصيرتين قُدِّمتا تحت عنوان " منطقة الحديقة ". الأولى ملهاة سوداء من فصلٍ واحد اسمها " شيء لا يصحُّ ذكره "، والثانية أكثر أهمية تدعى " فجأةً في الصيف الماضي ". وأعتقدُ أنَّ هذه كانت أول مسرحية أعملُ عليها منذ الكارثة " أورفيوس يهبط " وإسهامي الثاني في مجال التحليل الفرويدي. وخلال الصيف السابق لتقديم هذه المسرحية تصادفَ أنْ قمتُ بزيارة ساوثمبتن، حين كان ذلك المخرج المرح والموهوب هربرت ماتشز يقضي عطلته. وكنتُ أعملُ بإيقاعٍ مُتَقطِّع على " فجأةً في الصيف الماضي ". وذات مساء عرضتُ عملي على ماتشز وعلى الفور أبدى افتتانه بها. وللتو باشرَ العمل على إنتاجها وأشركَ في ذلك جون س. ويلسن الذي أبدى اهتمامه. واختارَ بشكلٍ مُلهَمٍ للقيام بدور كاثرين هولي الممثلة آن ميتشم.

قد لا يكونُ ماشيز مخرجاً كبيراً لكنّه شُعلةٌ من النشاط عندما تدقُّ ساعة العمل، كان يتمتَّعُ بـ elan vital (نشاط متدفِّق)، وبصحبته جون مايرز، ذو العون الكبير.

سارتْ الأمور بكل سرعة وحرارة. وحجزنا أحد أوائل أهمّ المسارح خارج برودواي، مسرح يورك، الكائن في الجانب الشرقي الأعلى، وبعد إعطاء الدور الرئيسي الفائق الأهمية لآن ميتشم، وحصلنا على خدمات هورتنس آلدن (كانت في السابق متزوجةً من جيمس ت. فاريل) التي تدلُّ على موهبةٍ قُصوى، بوصفها نجمة داعمةً في المسرحيَّتين اللتين ترتبطان بشكلٍ مقبول باشتراكهما بخلفيَّة منطقة الحديقة في نيو أورلينز نفسها.

كانت ليلة الافتتاح مذهلةً. لقد نَهَشَتْ المس ميتشم دورَها كنمِرَة: وهورتنس آلدن كانت ممتازة في دور مسز فينابل، وطبيبها الشاب، روبرت لانسنغ كان ممثلاً جذاباً ومسيطراً على دوره.

أسدل الستار في ليلة الافتتاح على احتفاءٍ احتفاليّ. وبعد خروج الجمهور، وهم يهتفون دهشةً، بقيتْ مجموعةٌ صغيرةٌ في مقدمة المسرح وكان كازان بينهم.

في تلك الأيام كانت تتملكني عادةٌ سيئةٌ هي تقويةُ نفسي، أخلاقياً، لمواجهة ليلة افتتاح بتناول مُهدِّئ وأُتبعه بعدَّة كؤوسٍ من مشروبٍ قوي.

لذا كان لديَّ من الشجاعةِ ما جعلني أتقدَّمُ من السيد والسيدة كازان ومَنْ معهما وأهتف " حسنٌ، ما رأيكم؟ "

كان جوابهم مُبهماً: إلا أنهم رافقوني وفرانكي إلى شقتنا ليتفرَّجوا علينا ونحن نرزح تحت وطأة التعليقات النقدية. وكالمعتاد وَرَدَتْ التعليقات التلفزيونية أولاً، وكالمعتاد كانت منتقِصَة. وعانيتُ هستيريا ليلة الافتتاح المعتادة. وأذكرُ أني قلتُ " إذا كان المسرحُ لا يحتاجُ إليّ، فأنا لا أحتاجه! " - وتصريحاتٌ عنيفةٌ أخرى مختلفة دفاعاً عن الذات.

ثم دَخَلَتْ كلٌ من صحيفتيّ التايمز والتربيون في وقتٍ واحدٍ على الخط بتعليقاتٍ نقدية إطرائية.

ما دمتُ لا أزالُ أخوضُ في موضوع " منطقة الحديقة "، يجب أن أذكر أنَّ آن ميتشم حلَّتْ محلَّها أوليف ديرنغ في دور كاثرين. وقد أوصلتْ أوليف المسرحيةَ إلى مسرح كوست، حيث كانت التقارير النقدية عظيمة، وخاصةً في مدح الصغيرة أوليف. ويجب أن أذكر أنَّ صديقتي المتوفاة، ديانا باريمور، قد حقَّقَتْ نجاحاً شخصياً باهراً من خلال هذا العمل في شيكاغو، مع كاثلين نسبتْ في دور مسز فينابل.

إنَّ في مسرحية " فجأةً في الصيف الماضي " فقراتٍ كُتِبَتْ بشكلٍ جيدٍ كأي عملٍ آخر كَتَبتُهُ.

بعد ذلك بفترةٍ من الزمن كنتُ في ميامي، جالساً خارج كوخي عند البركة في فندق روبرت كلاي، وإذا بي أتلقَّى مكالمةً هاتفية خارجية من المنتج السينمائي سام شبيغل. وكانت المرة الأولى التي أعقدُ فيها صَفَقَةَ فيلمٍ سينمائي بنفسي.

سألني سام عن مطالبي لحقوق الفيلم المأخوذ عن " فجأةً... "، فقلتُ " ما رأيك بخمسين ألف دولار، بالإضافة إلى نسبة ٢٠ ٪ من الأرباح؟ "

قال سام " اتفقنا ". وتمَّ الأمرُ، وكانت الأرباحُ طيِّبةً بقدرِ ما كانَ الفيلمُ رديئاً - وهذا عادي.

كم تغيَّرَتْ الأفلام السينمائية - نحو الأفضل. لقد بزَّتْ المسرحَ في الصدقِ، والمغامرةِ، والتقنيةِ، على الرغم من انهيار الاستديوهات الكبيرة مع نظام النجوم الذي تتَّبِعهُ. أم ربما بسببه؟

* * *

إنَّ هناك فرقاً كبيراً بين الأسلوب الكلاسيكي في التمثيل والأسلوب المنهجي، وقد سَنَحَتْ فرصةٌ واحدةٌ لي لأشهدَ هذا الفرقَ وذلك عندما حظيتُ بامتياز هائلٍ بمشاهدةِ إدفيغ فويِّير في الإنتاج الباريسي لمسرحية " الطائر العذب ". وهذا الإنتاج عُرِضَ قبل سنتين فقط. والآن أصبحتْ فويِّير ممثلةً بأسلوبٍ كلاسيكي، لكنها ممثلةٌ رائعةٌ بحيث أنَّ في استطاعتها، بدون أي تمزُّقٍ واضحٍ، أن تتحول فوراً عن أسلوبها الكلاسيكي، الذي يتَّسمُ بالخطابيّة، كان في استطاعتها أن تنتقلَ مباشرةً منه إلى الحوار العصري جداً. وقد كانتْ مُقنعةً بشكلٍ كاملٍ وكانت إحدى أعظم الممثلات اللواتي شاهدتهن. والمسرحية ذاتها تلقَّتْ تعليقاتٍ نقديةٍ متناقضةٍ في فرنسا، لكنها استمرَّتْ فيها وأعتقدُ أنها جالتْ بها فرنسا كلها بعد عرضها في باريس. وقد عالجَتْ فراسواز ساغان مسرحية " الطائر... " لكي تُقدَّم في فرنسا، وقامت بذلك بعملٍ جميلٍ جداً. كانت صديقةً عزيزةً لي، وعلى الرغم من أننا لم نكن نلتقي إلا لِماماً، وعندما نفعل، كانت صداقتنا تتواصلُ وكأنها لم تنقطع قط.

* * *

كانت ديانا باريمور تريدُ أن تقومَ بدور الأميرة في مسرحية " الطائر العذب " في إنكلترا. في الواقع، لقد رأيتُ أنها لا تصلح للدور، رأيتُ أنَّ دياناً تشبه أميرةً إلى درجةٍ لا يمكنها معها أن تُحسِن لعب دور الأميرة. وكانت صديقةً مُقرَّبة من ماريون فاكارو وكنا نحن الثلاثة قد تلازمنا ذات مرة في فندق الناسيونال في كوبا. في كوبا لم تكن تشرب بل تفرِطُ في تدخين الحشيش. وأذكرُ أنها كانت ترتدي سترةَ ركوبٍ نسائية حمراء اللون قصيرة وبنطالاً من الحرير الأسود وقميصاً أبيضَ مكويّاً كَيّاً جيداً وتضعُ ربطة عنق خيطيّة سوداء اللون. كانت مذهلةً وهي ترتديها مع شعرها الحالك وعينيها الوامضتين. كانت لذيذة جداً.

على أي حال، هيَّأنا لها كي تقرأ نصَّ " الطائر العذب " ولكن، لسوء الحظ، صحَّ ظني. لم يحمل الأداءُ أي مفاجئة، واضطررتُ إلى أن أُبلِّغَها بكل صراحة " ديانا، ببساطة هذا الدور ليس لكِ ". لم يخطر في بالي أنها سوف تتلقَّى تصريحي بذلك السوء. وطبعاً لم تُقَدَّم مسرحية " الطائر العذب " قط في إنكلترا. أحياناً أتساءلُ إنْ لم يكن عليَّ أن أعطيها الدورَ، لكني شديد الأنانية في العمل، وأنا لم أُرِدْ لديانا أن

تقومَ بلعبِ الدور الذي رأيتُ أنها لا تصلُح له. وأعتقدُ أنَّ على المؤلِّف أن يحمي نفسه بهذه الطريقة. لكنَّ قولي لديانا أنَّ الدورَ ليس لها تركَ أثراً رهيباً على الفتاة المسكينة. لقد كانت بشكلٍ ما تضعُ آمالها عليه، ولعلَّها تطابقَتْ معه. ولو كنتُ قد علمتُ أنها تطابقتْ معه بشكلٍ تام وأنَّ قلبَها تعلَّقَ بالقيام به بقوةٍ، لحاولتُ أن أتصرَّفَ. لكني لم أفعل واتَّجهتُ جنوباً إلى كي ويست لأنخرط في عملٍ آخر وبعد ذلك بأسبوع توفيتْ ديانا باريمور. وقد ماتت بطريقةٍ يلُفُّها الغموض؛ فقد عادتْ إلى إدمان الخمر وتدخين الحشيش. وخلال أسبوعٍ واحد حدثَ فيها انهيارٌ مدوٍ. وكأنها أسقطتْ الحياةَ من اهتمامها. وقد قالتْ مُديرةُ أعمالها التي اكتشفتْ موتها ذات صباح أنَّ غرفتَها كانت في حالةِ فوضى شاملة، وبدا لها وكأنَّ أعمال عُنفٍ قد وقعَتْ، وأنَّ ديانا كانت ممدَّدة على الأرض وهي عارية تماماً ووجهها نحو الأسفل، والدمُ يسيلُ من فمها وأنه كانت هناك منفضة للسجائر من الرخام ثقيلة جداً مُهشَّمة على الجدار ودلائل أخرى على حدوثِ صراعٍ وأعمالِ عنف. ولما لمْ تذكُر الصُحُف ذلك اللغز على صفحاتها: أفضَتْ مديرةُ أعمالها بالسرِّ إليَّ خلال إجراء مراسم الجنازة في نيويورك. وأنا واثقٌ تماماً من أنَّ ديانا، سواءَ أمثَّلَتْ في" الطائر العذب " أم لمْ تُمثِّل، كانت عاجلاً أم آجلاً ستفعل الشيءَ نفسه، لأنها كانت فتاةً موهوبةً ولكنْ ليس بقدرٍ كافٍ وكانت موهبتها تتلبَّسُها وتعملُ على تدميرها. أعتقد أنَّ ما يشبه اللعنة تحلُّ على آل باريمور. ومع ذلك، كانت ديانا إنسانَة عظيمةً وسيدةً عظيمة، وقد أصابني ما حدث لها باضطرابٍ عميق.

* * *

أتريدُ الآن أن أُسلِّيكَ بمسرحي أم بحياتي، على فَرَض أنَّ ثمةَ فرقاً شاسعاً فيما بينهما؟ أشعرُ أني حقَّقتُ أعلى المراكز في مجال المسرحيات، وإنْ كان ذلك قد تمَّ ربما بمعيَّةِ رشاقةِ ورهافةِ ساطورِ تقطيع اللحم بين يديّ لحَّام مُتمرِّس!

لكني خلاف هذه المذكرات لم أقترب قط من أعمالي غير المسرحية، وأنا كتبتُ مقداراً جيداً من الأعمال غير المسرحية، وبعضه أُفضِّلَه على مسرحياتي.

إنَّ الممثلة فاي دوناواي مُكرَّسة لمشروع قيامها ببطولة فيلم يعتمدُ على قصة قصيرة لي بعنوان " العصفور الأصفر "، وكانت تحتفظ بها على شريطٍ مُسجَّلٍ بصوتي لصالحِ شركةِ كيدمن لا زالَ يلقى رواجاً في مبيعاته، وأسمعتنيه مرَّتين.

يبدو لي أن عدداً كبيراً من قصصي، بالإضافة إلى مسرحيات الفصل الواحد، سوف تكونُ مادةً مُربحةً ومثيرةً لاهتمام السينما المعاصرة، إذا ما أودعَتْ بين يدين رقيقتين كيديّ المس دوناواي، أو يديّ جون فويت. وأن يتولّى الإخراج أحد أساطين الإخراج السينمائي من أمثال جاك كليتون الذي جعل من " غاتسبي العظيم " فيلماً بزَّ، في اعتقادي، حتى نصَّ الرواية التي ألّفَها سكوت فيتزجيرالد.

لكنَّ الزمنَ ليس في صالح مَنْ تجاوز سن الثلاثين وأنا الآن قد تجاوزتُ سن الستين وأشكُّ في أني سأعيش حتى أشهد هذه التحولات.

إحساسٌ بالراحة اللذيذة أعيشه حين أعودُ إلى شقة شارع دومين وأجد أنَّ الأثاثَ الذي جُلِبَ بالتدريج من مخزن مورغن- مانهاتن إلى نيو أورلينز قد وصلَ أخيراً ووُزِّعَ بتناسُقٍ جميلٍ. توقَّعتُ - بما أتّصفُ من ارتيابٍ مميَّزٍ - أن أجده مستقراً بصورةٍ ما على السقف.

كم من مادةٍ منسيَّةٍ عادتْ إلى الظهور - بقايا من شُقَق سكنتُها في نيويورك، وكلها ويا لدهشتي لا تزالُ في حالةٍ جيدةٍ. وعلى طاولة الكتابة الكبيرة من خشب الجوز يقومُ مصباحٌ نحاسيٌّ للطلاب بكُرياته الزجاجية المهتزَّة ذات الظِلّة الخضراء اللونِ، والمناسب تماماً لتلك العينين العجوزين في الساعة الثالثة صباحاً.

سوف تكون فترةَ مكوثي في نيو أورلينز وجيزةً، أسبوعين فقط، وذلك قبل أن أنطلقَ في رحلةِ حجٍ مفعمةٍ بالحماس لحضور مهرجان البندقية السينمائي على متن طائرةٍ مملوءةٍ بـ " الوسيمين " من أمثال آندي وارول، وجو داليساندرو، وسيلفيا مايلز وريكس ريد، ولا أنسى العزيز بيلي بارنز، الذي رتَّبَ الأمرَ لي. رائعٌ أن أعودَ لأركبَ " ليدو البندقية "، وأنزلَ في فندق اكسيلسيور الفخم: والهدف الرئيسي للرحلةِ هو تحقيقُ مُصالحةٍ مع التريّة، ماريا، ليدي سينت جوست. وبعد تمضية أسبوعٍ على متن السفينة " ليدو "، أشاهدُ الأفلام السينمائية وأندمجُ مع الوسيمين، أُخطِّطُ للطيران إلى روما ومن ثم إلى تاورينا لكي أسبحَ، وأسبح، وأسبح في تلك المياه التي لا تزالُ باردةً ومنعشةً، وبعد أن يرحلَ تقريباً كلُّ السُيَّاحُ - لكنَّ هذا، طبعاً، يعتمدُ على إيجادِ رفيقِ سفر. فأنا لا أستطيع أن أتجوّلَ وحدي، وغالباً أحتاجُ إلى مَنْ يقودُ لي السيارة على طول سواحل جزيرة صقلية، بحثاً عن تلك المزرعة الصغيرة الأسطورية لكي نتقاعدَ فيها ونُربي الماعزَ والإوز على مدى البقية الباقية من عمرنا.

إنني بحقّ لا أظنُّ أني في نهاية شهر أيلول سوف أعودُ إلى الولايات المتحدة لأشاركَ في إنتاجِ إحدى المسرحيات. وبالأمس أمضيتُ مع غلينفيل جلسة قراءة نص، وبعد أن أرعبني غلينفيل بتقريره أنَّ جنفييف بوجو قد أسمَعَتْهُ قراءةً رديئةً جداً، قال إنه يُخبِّئ في كُمِّه ممثلةً شابةً عظيمةً تتمتَّعُ بخبرةٍ مسرحيَّةٍ وبعُنصرِ جذبِ الجماهيرِ إلى شُباك التذاكر، لكي تُمثِّل في " مسرحيةٍ يؤدِّيها ممثلان "، (الصرخة).

آه، يا إلهي، إنَّ حياتي متوقِّفَةٌ على إنتاج تلك المسرحية كما تتعلَّقُ قُبَّعةٌ بالمشجب. يبدو أنها آخر هدفٍ أُحقِّقه في حياتي في مجال المسرح، أما الباقي مني فسوفَ يذهب إلى إيطاليا ويستقرُّ بين طيات هذه المذكرات.

١٠

إنَّ أطولَ جولةٍ وأشدّها بثّاً للرعب قمتُ بها مع مسرحيةٍ كانت تلك المطوَّلة مع مسرحية " ليلة الإغوانا " في عام ١٩٦١، بدأتْ بدايةً سيئةً في روتشستر وتابعتْ إلى ديترويت وكليفلند ومن ثم مكثنا فترةً طويلةً جداً في شيكاغو.

لقد توَّجَتها، في رأيي، صُحبةُ كلبِ الرعي البلجيكي الأسود الضخم ذاك، المدعو ساتن. ففي إحدى مراحل الجولة قلتُ لفرانكي إني بحاجةٍ إلى صُحبةِ ذلك الكلب، فشحنه إليَّ من كي ويست.

كان قد دخلَ في خَلَدي أنَّ ساتن مُخلصٌ لي لكن اتضحَ أنَّ الحقيقةَ هي العكس تماماً. كان يجلسُ أمامي مباشرةً في فندق بوك - كاديلاك في ديترويت، ويُحدِّقُ إلى عينيَّ بعينيه الصفراوَين الجميلتين، وبين حينٍ وآخر يُبرزُ لسانه ويلعقُ يدي. وأذكر أني شعرتُ بشيٍ من الارتباك جراً ء تلك الملاطفات المتواصلة.

ثم وقَعَتْ متاعبُ بالجملة.

ذات صباح، وبعد أن أنهيتُ عملي، دخلتُ غرفةَ النوم، حيث كان ساتن يتمدَّدُ كالحارس الأمين بجوار سرير فرانكي المزدوج. وحين خطوتُ عبرَه لأتجاوزه وأصلَ إلى سرير فرانكي، أصدَرَ دمدمةَ انزعاجٍ خفيضةٍ، بل لقد كانت عميقةً ومُنذِرةً بالشر، لكني اندسستُ في الفراش مع فرانكي.

في تلك الليلة هاجمني ساتن بمخالبه الضخمة.

كان هناك طبيبٌ أحمقُ يخصُّ الفندقَ حاضراً، فصعَدَ إلى جناحنا لكي يُعالجني من برودةٍ مُتشبِّثةٍ برأسي، وبينما كان هو وفرانكي في غرفة النوم، يناقشان حالتي، قفز ساتن إلى سريري وعضَّني في كاحلي عضَّةً غرزَتْ حتى العظم. وكادَ يثِبُ إلى نحري لولا أنْ اندفعَ فرانكي وأبعدَه.

قلتُ " فرانكي، أطلِقْ هذا الحيوان في الأدغال حيث ينتمي "

قال فرانكي " كلا، الأفضل أن يموت ". وفي صباح ذلك اليوم أخذَ ساتن إلى طبيبٍ بيطريّ وجعلَه يُنيِّمُهُ إلى الأبد.

لما كان فرانكي مولعاً بالكلب، الذي حصلَ عليه في روما آخذاً بنصيحة مانياني، فإنَّ موت ساتن ألقى ظِلاً مخيفاً على فرانكي لم يُفارقه على امتداد فترة الجولة الطويلة، الطويلة...

بعدَ حادثة عضّ الكلب بنحو أسبوع اكتشفتُ أنَّ كاحليَّ قد تورَّما حتى بلغا ما يُقاربُ حجم كاحليّ فيل. حتى أني من فرط انغماسي في تقلُّبات المسرحية لم ألاحظْ الألم، وعندما لم أتمكَّنْ من انتعال حذائي، طلبتُ حضورَ الطبيب الأحمق. ولم يظهر حتى المساء.

على أي حال، لقد كان يتمتَّعُ بما يكفي من الذكاء بحيث يلاحظُ وجودَ إصابةٍ بالمكوَّرات العنقودية، متورِّمة، في كِلا الكاحلين. وأخذ يملأ حُقَناً كبيرةً خاصةً بالخيول بتشكيلةٍ من المضادات الحيوية ويحقنني بها في ذراعي. وفي الحال، تقريباً، دخلتُ في حالةٍ غريبة. كانت هناك عاصفةٌ ثلجيّةٌ عنيفةٌ تحت جنح الظلام في الخارج، وكان البردُ قارساً. إلا أني لم أستطع أن أتنفَّس كما يجب، وأخذتُ أترنَّحُ وأنا أسيرُ نحو إحدى النوافذ لأفتحها طَلباً للهواء.

سألني دعامةُ الطب ذاك " يا إلهي، أتريدُ أن تُصابَ بذات الرئة؟ "

وكان ردِّي الغاضب " إنني أفضِّلُها على الاختناق الفوريّ "

عندئذٍ استدعى الطبيبُ سيارةَ إسعافٍ وظللتُ أشهقُ عند النافذة المفتوحة إلى أنْ وصلتْ. حينئذ اندفعَ اثنان من الممرضين مع كرسي متحرِّك، وهرعا بي نزولاً في المصعد المُثقَل إلى المدخل الخلفي، ومدَّداني على ناقلة ورميا بي إلى سيارةٍ بيضاء كالشبح مُعلَّقٌ في سقفها مصباح قرمزي. وانطلقتْ، وصفَّارتها تزعقُ. جلسَ فرانكي إلى جانبي تلُفَّه الكآبةُ وهو يقبضُ على يديِ المُثلجة: كان مشهداً أقرب شبهاً بما يظهر في أحد مسلسلات الأطباء الرائجة على شاشة التلفزيون.

في المستشفى أوصلوني على عجلٍ إلى جناح الطوارئ، وهي ساحةٌ مرعبةٌ يدورُ عليها صراعُ الموت والحياة. وكلُ متنافسٍ يوضعُ في مهجعٍ ذي ستائر من نسيج الكنفا الأبيض، بعيداً عن مرمى بصر زميله المُنافس وليس عن مسامع ضجيج صراعهم.

ضخّوا في مجرى دمي أدويةً لتُقارعَ فيضَ المضادات الحيوية واستغرقَ مني مدة ثلاث ساعات خروجي من الصدمةِ وهدوءِ تنفُّسي اللاهث ليصبحَ طبيعياً أكثر.

(إنَّ النجاةَ من الموتِ بأعجوبةٍ تجربةٌ مذهلةٌ. ومن الغريب خاصةً كيفَ يُحجَبُ الخوفُ بعنفِ كفاحِ المرءِ للثبات: لابد أنَّ هذا يشبه كثيراً شعورَ المصارعين الرومان خلال الصراع حتى الموت في المدرج الروماني).

حين بات ممكناً أن ينقلوني إلى غرفةٍ عُليا في المستشفى، فعلوا. لكني اكتشفتُ أنَّ " أقراصي " ليست معي. وزوَّدَتني إحدى الممرضات على مضضٍ بنصف مقدارٍ من العقار المنوِّم. وأقسمتُ لها قائلاً " لا أستطيعُ أن أنامَ بهذه الكمّية ويجب أن أنالَ قسطاً من النوم "، فهزَّتْ كتفيها لا مباليةً واندفعتْ خارجةً من الغرفةِ وهي تقولُ إنه لا يُسمَحُ لأي شخصٍ خارجٍ من قسم الطوارئ أن ينال ذرة واحدة فوق النصف مقدار من المنوِّم. وهكذا، كان هناك جهاز هاتف في الغرفة فاتَّصلتُ بالفندق وتحدَّثتُ مع صغيري المسكين فرانكي.

كان قد أوى إلى السرير بعد سَهَرِهِ مدة ثلاث ساعات بجانب سريري في قسم الطوارئ، لكني قلتُ " إكراماً للمسيح، انهضْ وتعالَ بسرعةٍ إلى هنا مع زجاجة العِقار المنوِّم ".

اعتقدُ أنه كان شديد النعاس بحيث لم يُميِّز زجاجةً من أخرى، لأنه وصلَ بعد وقتٍ قصيرٍ مع زجاجةٍ من أقراصٍ مُدِرَّةٍ للبول كنتُ أتناولُ منها في تلك الفترة. حطَّ الزجاجةَ بقوةٍ قبل أن يُتاحَ لي أنْ أُميِّزَ محتوياتها واندفعَ خارجاً.

في الواقع، أريدكَ أن تعلمَ أني عندما أدركتُ أنها الزجاجةُ الخطأ خرجتُ من السرير، وارتديتُ ملابسي ماعدا الحذاء الذي كان ضيِّقاً على كاحليَّ، وانطلقتُ على طولِ رواقِ المستشفى. وفي الرواق قابلتُ الممرضة.

قالت " مستر ويليامز، ماذا تظن أنك ستفعل؟ "

قلتُ " لا شيء، لكني خارجٌ من هذا المكان المَنيك "

" ولكن مستر ويليامز، إنَّ المستشفى ليس فندقاً يمكنكَ أن تغادره بدون إذنٍ منّا "

" أيري في هذا. أنا آذنُ لنفسي وكلُّ ما أريده منكِ هو أن تحضري سيارةَ أجرة حتى الباب "

بذلتْ محاولاتٍ أخرى لمنعي، فاضطررتُ إلى استدعاء السيارة بنفسي. جاءتْ واستقلتها وتوجَّهتُ عائداً مباشرةً إلى فندق بوك - كاديلاك، الذي ربما أصبحَ اسمه الآن شيراتون أو شيئاً آخر.

عندئذٍ كان فرانكي قد كفَّ منذ زمن بعيد عن الدهشة جراءَ سلوكي الغريب الأطوار. فتحَ عينيه الناعستين وتقلَّبَ في السرير ليُفسحَ لي مكاناً، ولكي أُكملَ هذه القصة الأغرب من الخيال، أقولُ إني أخذتُ أمارس الجنس مع ذلك الصقلّي الطيِّع اللذيذ.

ظلَّ كاحلايَ متورِّمَين جداً حتى أني اضطررتُ إلى انتعالِ خف غرفةِ النومِ لكي أحضَرَ التدريبات في كليفلند وحتى في شيكاغو خلال فترة المكوث الطويل هناك.

وهناك في شيكاغو قالت بيتي ديفيز إنها لم تعُد تستطيع أن تتحمَّل إخراج فرانك كورسارو ومَنَعَتْهُ من دخول المسرح. ولم يعُد يدخل المسرح لكنه بقيَ في شيكاغو، لكنَّ بيتي قالت إنها تشعرُ بحضوره المُخيِّم على شيكاغو، وإنَّ عليه أن يعودَ فوراً إلى نيويورك وإلى فرقة" مُحترف الممثلين " اللعينة التي فَرَّخَتْهُ.

ثم تولَّيتُ مع تشك بودن مهمَّة الإخراج، على الرغم من أنَّ اسم كورسارو ظلَّ مُدوَّناً على الإعلان. وهناك في شيكاغو، بعد أن ربِحَتْ بيتي المتقلِّبة المزاج معركتها ضد" الطريقة "[٥٩]، أقامتْ لنا حفلةً كبرى بمناسبة حلول عيد الميلاد، وقدَّمت لكلٍ منا هدية. وكانت برفقتها فتاةٌ شقراء ممشوقة القامة وجميلة، ابنةٌ لها من أحد أزواجها، وكان عيد ميلاد رائع لم أكن قد شهدتُ له مثيلاً منذ عهد طفولتي.

إنَّ الجنتلمَن في مجال المسرح هو من أنْدَرِ الطيور قاطبة. هل أعطيكَ الآن قائمة بهم؟ أقصد أولئك الذين عرفتُهم في أيام ازدهاري.

خوزيه كوينتيرو إيليا كازان، روبرت وايتهيد، جو لوزي. ثم، نعم، ديفيد ميريك، الذي كان دائماً يسمحُ لي أنْ أُحضرَ معي مسرحيةً محكوماً عليها بالدمار على مسارح برودواي، وهو الآن يخضعُ للرقابة لكي تُحدِّدُ قيمة الضريبة وذلك وفقاً لمعالجته مسرحيتي الجديدة " بطارية بعلامة الشيطان الأحمر "، وطبعاً العزيزة المرحومة تالولا.

إنني أضعها في خانة الجنتلمانات ليس انتقاصاً من قدرِ السيدة وإنما لأنها كانت سيدةً ذات حضور قويٍ بصوتها وصلابتها، جديرٌ بـ " جنتلمن ".

من الطبيعي أنَّ هذه اللائحة يمكن إطالتها...

* * *

هاكَ لقطةً من الماضي.

أعتقدُ أنه كان أوائل عام ١٩٦٠ عندما بدأ فرانكي يفقدُ حيويته ويُصبحُ مُتقلّب المزاج. وطبعاً أرجعتُ ذلك إلى المخدرات، ولم أضع في حسباني إمكانية أن يكونَ مريضاً.

لكنَّ فرانكي كان يعلمُ أنه ليس على ما يرام، وانتقلَ من كي ويست إلى نيويورك لإجراء فحصٍ طبي عام. في ذلك الوقت تقريباً - وبسبب نفوره من ممارسة الجنس معي - أخذتُ أُعاشرُ شاباً لوطياً من نيو أورلينز كان يُعرَفُ بلقب " ديكسي دوكسي(٦٠)"، وكان بحقّ يستحقُّ لقَبَه. كان فتى أشقرَ وسيماً في نحو الثانية والعشرين من عمره ذا بشرةٍ ملساء ومؤخِّرةٍ مغريةٍ جداً كان يتوقُ إلى أن يهبها.

حين عادَ فرانكي بعد إجراء فحصه الطبي العام، كنتُ أنا مع ديكسي دوكسي في فندقٍ مُترفٍ في كي بسكين، نعيشُ حياةً رغيدة. وكانت النسخةُ الكاملةُ الأولى لمسرحية " إغوانا " تُقدَّمُ في مقرّ الكوكونت غروف، القريب. وسمعَ فرانكي من مصدرٍ ما أننا كنا هناك فوصلَ فجأةً إلى المكان، بينما كان ديكسي دوكسي يتنزّه حول بركةِ الماء وهو ببنطالِ السباحة القصير النيلون القرمزي اللون، ويُغْني المشهدَ العام.

رماه فرانكي بنظرةِ امتعاض، وكان ديكسي دوكسي يشعرُ بأمانٍ تام لصالحي ولم يتأثّر قط بازدراء فرانكي له.

ولكن لا داعي إلى القول إنَّ فرانكي أعادني إلى أرض الوطن، إلى كي ويست، في اليوم التالي ولم أعُدْ إلى لقاء الأشقر بعد ذلك. لكنَّ سلوكي الجنسي الغليم استمرَّ.

بعد انتهاء فترةِ عرضِ النسخةِ الأوليّةِ من " إغوانا " والتي بلَغَتْ أسبوعَين، دعوتُ المخرجَ الشابِ، فرانك كورسارو، الذي كان قد أخرجَ نسخةً حتى قبل هذه في سبوليتو في الصيف الفائت، لكي يأتي إلى كي ويست، مع فتى شديد الجاذبية واللطف يلعبُ دورَ أحد عشاق ماكسين في المسرحية. لم يكن يعرفُ القيادة أصلاً، وأخذتْ السيارةُ تترنَّحُ من أحد طرفيّ الطريق العامة إلى الآخر، وكان لابد لي من أن أتولّى القيادةَ عنه، مع أني لا أملكُ رخصة قيادة.

فرانكي نفسه أُخِذَ بالفتى، وفي ليلتنا الأولى في كي ويست لم يصعد فرانكي إلى الطابق العلوي لينام. جلس يدخّن على الأريكة في الطابق السفلي وكان يمكن أن أكون

مخطئاً في ريبتي في أنه ينتظرُ أن تسنح له الفرصة كي يغري الفتى ليخرج من غرفة النوم الرئيسية في الطابق العلوي - مما ساهمَ في إشعال شهوتي.

انتابتني نوبةُ حنقٍ غيور، وبعد أن لجأتُ إلى السرير في الطابق العلوي ودخَّنتُ بعض الوقت، اندفعتُ هابطاً إلى الطبق السفلي لأجدَ فرانكي ما يزالُ جالساً على الأريكة مثل نسخةٍ مُذكَّرةٍ من لوريلاي[٦١].

صحتُ فيه " هيا إلى السرير. أنا أعرفُ ماذا تُبيِّتُ! لا تخفْ، لن أتودَّدَ إليك هذه الليلة، لأني لن ألمسك، الآن، بعمودٍ ذي عشرة أقدام "

هزَّ فرانكي كتفيه استخفافاً وصعدَ معي إلى فوق وسرعان ما أخذ يغطُ في النوم بينما بقيتُ يقظاً حتى الفجر.

استمرتْ علاقتي مع " الحصان " تتدهور، مع فترات ٍقصيرةٍ من المصالحة. وفي الحقيقة هو لم يمنع نفسه عني قط لكنه خَلَقَ جواً لم أستطع، بما أتَّصِفُ من كبرياء جامحةٍ، أن أقْبَلَ معه في أغلب الأحيان حلاً وسطاً.

ذات مساءٍ جاء ثلاثةٌ من اللوطيين من ميامي إلى البلدةِ ونزلوا في فندقٍ على الطريق العامة على الشاطئ الجنوبي.

بالكاد كنتُ أعرفهم، ولكن بما أنَّ مزاجي كان عربيداً، رحتُ أقضي معهم بعد الظهر وأول المساء، ويتكشَّفُ لي الآن أني أقمتُ علاقةً جنسية مع الثلاثة - وأنا في حالةٍ من التهتُّك والسُكر، وكلها لا تزيد أهمية عن تجاوز زريبة خنازير وثباً.

كان فرانكي قد حضَّرَ طعامَ العشاء أو كان ما يزالُ يُحضِّره حين دخلتُ منزلَ شارع دنكن. كان صمتُهُ يُنذر بالشؤم. جلستُ على المائدة الموجودة في الفناء جلسةَ ملك، منتظراً تقديم الطعام وإذا بباب المطبخ يُفتَحُ بخبطةٍ قويةٍ وبفطيرةِ لحمٍ تمرُّ بي طائرةً، وتُخطئ رأسي بمسافةٍ قصيرة. ثم جاء بعدها طاسٌ من السكوتاش[٦٢]، ومرة أخرى يُخطئ هَدَفَه، ثم كان دور السَلَطَة وحتى إبريق القهوة.

كنتُ من فرط السُكر بحيث أنَّ تلك القذائف لم تُخفني. وحين أُغلقَ بابُ المطبخِ بصفعةٍ عنيفةٍ وانطلقَ فرانكي بالسيارة، التقطتُ فطيرة اللحم عن قرميد الفناء وأكلتُها بأكبرِ قدرٍ من التلذُّذ وكأنها قُدِّمَتْ إليَّ على طبقٍ من ذهب.

كان فرانكي خلال تلك الفترة قد بدأ، بشكلٍ غامضٍ، يفقدُ قوَّته ووزنه. ومرةً أخرى ذهبَ إلى نيويورك لإجراء فحصٍ طبيّ عام، وخلال فترة غيابه تصادفَ أن اتصل

بي رسامٌ شابٌ وذو موهبةٍ فائقةٍ كنتُ قد قابلتُهُ قبلها بسنةٍ أو نحوها في طنجة، أقولُ اتصل بي من ميامي ليقول إنه موجودٌ هناك، فأجبته " أنا وحدي، تعال إلى كي ويست"

أتاني في تلك الليلة ومن ثم أمضينا عدة أيام ربيعية رخيّةٍ بريئةٍ معاً. وكنتُ أنا نفسي أميلُ إلى الرسم في ذلك الوقت، لكنني لم أكن بارعاً قط، كنتُ أمارسه فقط كتسريةٍ عني بعيداً عن الكتابة. فكان الرسامُ الشابُ ذو الموهبة العالية القادم من طنجة يرسمُ وهو جالسٌ في أحد أركان الفناء وأجلسُ أنا في ركن. هو يرسمني - الصورة شبه التجريدية الرائعة ما زالت مُعلّقةً في غرفة جلوس منزل كي ويست - وأنا أرسم صبياً من بنات مخيلتي يحمل قيثارةً ويرتدي بنطالاً ضيّقاً ورديَّ اللون.

ذات مساء بينما نحن في هذا الجو حضرَ صديقُ فرانكي المُقرَّب ليتناولَ طعام العشاء. وبعد العشاء ولجتُ مع الرسام الشاب الوسيم إلى داخل المنزل بينما بقيَ الآخرون في الفناء. وعندئذٍ لم أكن بعد قد ضاجعت الرسام لكننا في تلك الأمسية أطفأنا الأنوارَ في غرفة الجلوس وتمدَّدنا جنباً إلى جنب على الأريكة الطويلة ورحنا نتبادل العناق والقبلات.

دخلَ صديقُ فرانكي على عجل وراقبَ ما يجري وللتو اتصلَ بفرانكي الموجود في نيويورك، في المستشفى حيث كان يُجري الفحص الطبي العام.

على الفور عاد فرانكي إلى الوطن، بدون سابق إنذار.

في مساء ذلك اليوم رفضَ أن يتناولَ الطعامَ وبالكاد نطق. جلسَ في ركنٍ من غرفة الجلوس، يبدو مُخدَّراً، عيناه الكبيرتان ثابتتان بنظرةٍ مشؤومة على الرسام وعليَّ. وبذلنا أقصى جهدنا كي نُثيرَ حديثاً طبيعياً تحت نظرةِ فرانكي القاسية المُدَقِّقة.

ثم انفجرَ الجو.

فقد قفزَ فرانكي، مثل قط بريّ، عبرَ الغرفةِ وأمسكَ بخُنَّاق الرسامِ وخُيِّلَ إليّ أنَّ الرسام يلفظُ أنفاسه الأخيرة - حدث ذلك ذات أمسية كنتُ خلالها متأكِّداً تماماً من أنه كان تحت تأثير المخدرات الكامل.

رفعتُ سماعة الهاتف واستدعيتُ رجال الشرطة قائلاً إنّ في بيتي حالةَ طارئة خطرة.

حرَّرَ فرانكي الرسام. وبعد بضع دقائق وصل رجالُ الشرطة.

قلتُ لهم " إنَّ السيد مرلو ليس على ما يرام، وأعتقدُ أنَّ الأفضل أن يقضي ليلته في منزل أحد الأصدقاء "

أبدى رجالُ الشرطةِ تفهُّماً نادراً ما يَظهَرُ في مهنتهم.

كان رجالُ الشرطة كلهم مولعين بفرانكي - بل أكادُ أقولُ سكان الجزيرة جميعاً. ولطالما اعتقدتُ أنه يمكن لفرانكي أن يخوضَ انتخابات كي ويست وأن يفوزَ بها بالأغلبية الساحقة.

رافقَ الضابط فرانكي إلى منزلِ صديقه. وفي اليوم التالي عاد.

في ذلك اليوم حدثَ الشرخُ الحقيقي بين فرانكي وبيني. وبدون أن أنطق بأي كلمة جمعتُ أوراقي الموجودة في المُحتَرَف كلها ووضعتُها في السيارة. ثم ركبتُها مع الرسام. كان فرانكي جالساً صامتاً في الشرفة مع ليونسيا، مُدبِّرة منزلنا المُخلصة، الصامتة بدورها. ولكن حالما اشتغلَ المحرِّك هرعَ فرانكي هابطاً من الشرفة.

" ستتركني بدون أن تصافحني؟ بعد أن عشنا أربع عشرةَ سنة معاً؟ "

صافحتُه. ثم انطلقتُ مع الرسام. كانت قيادتي رديئةً جداً، وأخذتُ أترنَّحُ من جانب إلى آخر على طريق أوفرسيز، حتى أنَّ الرسامَ ربضَ داخل السيارة في حالةٍ من الرعب الأبكم. لكننا وصلنا إلى مقر الكوكونت غروف بدون أن نصطدم بشيء. ونزلنا في فندقٍ يُشيعُ الغمَّ في النفس، وفي اليوم التالي، بعد أن قضينا الليلةَ السابقة نتضاجعُ حتى استغرقنا في نوم فرطِ الإرهاق، تناولنا طعامَ الغداء في منزل ماريون فاكارو وأخبرتُها أني تخلَّيتُ عن فرانكي.

كان الرسامُ فوق طاقتي، إذ ببساطة لم يكن يتوقف عن ممارسة الجنس وبعد نحو يومين قلتُ له إنَّ من المُستحسن أن يتابعَ طريقه إلى سان فرانسيسكو ودفعتُ له مبلغاً ثمن الصورةِ الشخصيةِ التي تركتُها في كي ويست، ولكي يُعينه على تكاليف رحلته. ثم توجَّهتُ وحدي إلى شقة نيويورك في الشارع الخامس والستين الشرقي رقم ١٣٤ وسكنتُها وحدي مدة شهرٍ أو شهرين.

في نحو ذلك الوقت بدأت أتودَّدُ جنسياً بصورةٍ جدِّيةٍ إلى شاعر شاب وسيم وموهوب. كان يعيشُ مع شاعرٍ أكبر منه كثيراً في السن وكانت علاقتهما تسوءُ، بما أنَّ

الشاعرَ الأكبر سناً كان في كل ليلة وبدون استثناء يُشبعُ تفاهته التي تتفاقمُ مع مرور الوقت بمعاقرة الخمر. كان خلال الساعة الأولى من سُكرِه يبدو متهللاً وطيباً: ثم يصبحُ نكداً: ثم يهيج ويموجُ في أرجاء المكان كأسدٍ عجوزٍ داخلَ قفصٍ لم يتصالح قط مع قفصه.

أما الفتى الموهوب، الذي يجب ألاّ أذكرَ اسمه، فقد تعوَّدَ أن يقضي عِدةَ ليالٍ في الأسبوع معي. وكما صرتَ تدركُ الآن وقعتُ في حبه بسهولة، وتكون السهولةُ أكبر حين يكونُ المحبوب ودوداً، راغباً و " متعةً دائمةً ".

إنني أجدُ مشقَّةً في وضعِ الأحداث في تسلسُلِها التاريخي. أستطيعُ فقط أن أخبرك أن قصةَ الحب مع الشاعر بدأتْ بعد " ليلة الإغوانا "، وطبعاً بعد شجار كي ويست مع فرانكي.

ما أعرفه هو أننا، أنا والشاعر الشاب، طرنا في أواخر ربيع عام ٦١ أو ٦٢ إلى طنجة، لكي نشغلَ منزلاً مُستأجَراً صغيراً وجميلاً يُشرِفُ على شاطئ البحر.

كان ذاك الصيف عصيباً بصورة غريبة، لي ولرفيقي الجديد. وعلى الرغم من الاضطراب الذي رافقَ انفصالي عن فرانكي، وعلى الرغم من سحر المنزل الأبيض الصغير ووسامة الشاعر، اكتنفتني عذابات داخلية، وأشدُّها وضوحاً كان عدم قدرتي على التحدُّث إلى الناس. في ذلك الصيف في طنجة كان يجري الكثير من النشاط الاجتماعي. وقد جعلنا جمالُ رفيقيَّ مقبولَين كضيفين. لكني في حفلات الكوكتيل ودعوات العشاء كنتُ أجلسُ يلُفّني صمت نادراً ما يُكسَر. حتى مع الشاعر الشاب لم أكد أتواصل إلا في السرير.

لقد كان شديد العذوبة والتفهُّم في هذه النقطة. أذكر خاصةً ليلةً طويلة ممطرة.

قال لي " المطر هو أنقى نوع من المياه "

فتحنا مصاريع نافذة غرفة النوم وملنا وبدأنا نأسر ماء المطر في كؤوس ومن ثم نُدنِّسَه بالويسكي.

كانت لحظات من المشاركة الربَّانية...

بعد ظهر أحد الأيام كنتُ وحدي مع جين باولز، فقلت لها " جيني، لم أعد قادراً على التكلُّم "

نَفَحَتْني بإحدى ابتساماتها الصغيرة السريعة وقالت " تنيسي، أنت لم تكن في أي وقت من حياتك مُحدِّثاً جيداً "

لسببٍ من الأسباب، ربما لأنه أضحكني، والضحك دائماً هو مبعث ارتياح، كما كانت جيني نفسها مصدر راحة، وهذا الجواب كان، وكم أتوجَّعُ إذ أعترفُ بهذا، مصدر ارتياحٍ فترة وجيزة.

(وصفتُ ذلك الصيف في طنجة في قصيدةٍ عنوانها " الصيف الصامت "، في العدد الأول من مجلة " أنتيوس ")

في أثناء تلك الفترة كنتُ أعملُ بكآبة على " قطار الحليب لم يعد يمرُّ من هنا "، لذا من المناسب أن أُقحِم، عند هذه النقطة، قصة تلك المسرحية، التي كانت أشد درامية خارج خشبة المسرح مما هي عليها، مما عَكَسَ بشكلٍ شديد الإيلام ازدياد قتامةَ حياتي كإنسانٍ وكفنان.

قال الناسُ وقالوا وقالوا إنَّ عملي شديد الذاتيّة: أجبتُ على تلك التهمة لتوّي بكل إلحاح بتوكيدي على أنَّ كل عمل صادق يُنفِّذه الفنان يجب أن يكون ذاتياً، صراحةً أم مُداورةً، ويجب أن يعكُس المناخات الشعوريّة لمُبدِعها، وهذا ما يحدث.

* * *

في أواخر ربيع عام ٦٢ جاء فرانكي إلى مانهاتن، كانت تُفزِعني فكرةُ أن أقابله أو أُقابلَ سانتو بعد الأحداث العنيفة التي جرت في عام ١٩٤٧. وكنتُ أسمعُ عبر وسطاء أنَّ فرانكي، الذي ينزل في فندق دوفر، يلحّ على أن نتقابل. فرددتُ عليه بأني لن أُكلِّمه إلا بحضور أودري وود.

على امتداد فترة الانفصال تلك كلّها كان فرانكي يتلقّى مني راتباً منتظماً ولم يمرّ قط بأزماتٍ مالية، بما أنه يمتلك نسبة ١٠٪ من إنتاج " قطة... " و " وشم الوردة " و "كامينوريل ". والغريب أني لا أذكُر كم كان راتبه الأسبوعي: أُخمِّنُ أنه كان ١٥٠ دولاراً. ولم تكن لديه حتى ذلك الحين أي " تكاليف معيشة ".

جرى اللقاءُ مع المس وود في شقة الشارع الخامس والستين. كان فرانكي في أفضل حالات سلوكه: وقوراً، هادئاً، ويتَّخذ هيئة المجروح والمُرتبك جرّاء تباعدنا. والمس وود كانت كعهدها دائماً، دبلوماسيّة رائقة.

عندما غادرت أصررتُ على أن يغادر فرانكي معها. وكل " ما اتفقنا " عليه كان أن أواظب على إمداده بالراتب - أما فراقنا فسيكون " نهائياً ".

بعد مغادرة أودري وفرانكي معاً بنحو عشر دقائق، اتصلَ فرانكي هاتفياً وقال إنه كان من المستحيل عليه أن يأتي على ذِكر أمورٍ في حضورِ أودري وأنه سيعودُ لكي نتحدَّثُ على حدة في الشقة.

قلت له " أوه، كلا، إذا كنتَ ترى أنه ما زالَ هناك مزيدٌ من الكلام يُقال بيننا، فسأقابلك في حانةٍ قريبة "

في اللقاء الذي تمَّ في الحانة بقيتُ مُصَمِّماً بشكلٍ غريب على موقفي. وأذكرُ أني قلت له" فرانك، أريدُ أن أستعيدَ طيبتي "

أخذَ ينظر إليّ صامتاً ومُتفهِّماً.

ماذا كنتُ أعني بالضبط؟ لقد بدا أنه يعرفُ الجوابَ لكني الآن لم أعُد واثقاً من ذلك.

ورحلَ، عندئذٍ، وعدتُ وحدي إلى الشقة. وبعد ذلك بوقتٍ قصير طرتُ مع الشاعر الشاب، الذي سأُسمِّه اينجل (ملاك)، إلى طنجة...

لدى عودتنا إلى مانهاتن في أوائل ذلك الخريف، تلقَّيتُ مكالمةً هاتفيةً من ماريون في كوكونت غروف. قالت إنها تحملُ إليَّ نبأً سيئاً جداً: لقد تلقَّتْ لتوِّها مكالمةً هاتفيةً من فرانكي، الذي كان في طريقهِ إلى مانهاتن ليُجري عمليةً جراحيّة لاشتباهٍ بإصابته بسرطان الرئة.

كان قد استقلَّ لتوه الطائرة ليُجري فحصاً طبيّاً في مستشفى ميموريال، وتقرَّرَ إجراءُ عمليةٍ جراحية له في غضون بضعة أيام.

علمتُ لاحقاً أنَّ فرانكي كان جالساً مع صديقه الحميم دان ستيراب وآخرين في مقهى خَلَويّ في كي ويست حين مالَ فجأةً على الطاولة وانبجسَ دفقٌ من الدم من فمه. فذهبَ إلى طبيبه الخاص في كي ويست، وأُخِذَتْ له صورةٌ على الأشعة السينية وكَشَفَتْ منطقةَ الرئة القاتمة اللون.

وشعرتُ بندمٍ شديد.

أما ما لمْ أكُن أعرفه فشدَّةُ حبي لفرانكي طوال فترة أوائل الستينات العصيبة كما كان حالي دائماً. صحيح أنَّ الحبَّ كان قد وَهَنَ، لكنه ظلَّ عميقاً. قمتُ بزيارته في

مستشفى ميموريال في اليوم السابق لإجرائه العملية الجراحية، وقد كان واقعياً تماماً فيما يخصُّ هذا الأمر الذي كان جديراً أن يُصيبني بالجنون وبالرعب.

الميموريال هي مستشفى الأمراض السرطانية في نيويورك واللجوء إليها بحد ذاته يُعتَبَر، في اعتقادي، شهادةً على الإصابة بالمرض.

هل سبقَ أنْ ذكرتُ أنَّ فرانكي كان مُدخِّناً مدمناً؟ كان يُدخِّن على الأقل أربع عُلب في اليوم.

أُجرِيَتْ العملية الجراحية والمرة التالية التي رأيتُ فيها " الحصان الصغير " كانت في غرفة الطواريء، بالكاد كان واعياً وقادراً على أن يهمسَ بضع كلمات.

جلستُ بجوار سريره في قسم " الطوارئ " وأنا أشدُّ على يده، إلى أنْ أخطَرَني الممرِّض أنَّ مدةَ الزيارة قد انقضتْ. بعد ذلك أخذتُ أقومُ بزيارته في كل يوم إلى أن سُرِّحَ من المستشفى.

وذات يوم - بُعيد تسريحه أو ربما بُعيد إجراء العملية الجراحية - اتصلتُ بأطبائه فقيلَ لي أنَّ سرطان رئة فرانكي لا تنفع معه الجراحة. لقد كان متموضعاً مباشرةً على طول قلبه وكانت حالته متقدِّمة جداً بحيث لا تنجع معه أي جراحة. فأعادوا الجرح كما كان، هكذا ببساطة.

سألته " إلى متى؟ "

كان الجواب أنَّ أمامه ستة أشهر.

علَّقتُ سماعة الهاتف ثم انفجرتُ بالبكاء. كان هناك شخصٌ معي، أعتقد أنه كان الشاعر الشاب اينجل، وقد حاولَ أن يواسيني.

حالما سُرِّحَ من المستشفى توجَّه فرانكي من فوره عائداً إلى كي ويست - وحده. وهناك اتَّخذَ له بيتاً صغيراً مُقاماً على مَلاك أحد أصدقاء فرانكي من الكُتَّاب كنتُ أشكّ (ربما كنتُ مُخطئاً) في أنه يُقيمُ علاقةً سرِّيةً معه.

كان كوخاً خشبياً صغيراً لكنه جميل.

لم أُضِعْ الوقتَ ولحقتُ به إلى هناك.

لم يكن فرانكي يعي بأي حال أنَّ العملية الناجعة لم تُجرَ له، وخلال الشهر الأول أو الشهرين كانت الدلائل كلها تشيرُ إلى أنه كان يعتقدُ أنه قد شُفيَ تماماً. وأذكر أنه

كان يقوم بإحدى " وثباته الراقصة " الجامحة في مربَعٍ ليليٍّ محليٍّ في كي ويست، لكني أذكرُ أيضاً أنه في نهايتها بدا وكأنه يوشكُ أن ينهار.

ابتعتُ له جهاز تلفزيون في منزله في زقاق بيكر. وكانت كلبتنا جيجي معه؛ لم يكونا يفترقان. ثم أعجبه قردٌ صغيرٌ كنتُ قد اشتريته في نيويورك، كان مخلوقاً شديد النَزَق وعصبياً، فأطلقتُ عليه اسماً على مُسمًّى هو " مخلوق ". لا أدري لماذا وجدَ هذا المخلوقُ هوى شديداً عند فرانكي. أنا لم أحبه.

ذات يوم حملتُ " مخلوق " وهو في قفصهِ إلى فرانكي، وقلتُ " احتفظ به بعض الوقت وسوف تتحرَّر من سِحره "

ومع ذلك أعتقدُ أني كنتُ مُعجباً به، لأني لم أقابل في حياتي حيواناً لم أُعجَب به...

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية اتصلَ فرانكي بي وكان صوته شبه هستيري. لقد أخرجَ " مخلوق " من قفصه واختفى عن الأنظار.

انصَرَمَتْ الأمسية في عمليةِ بحثٍ هذيانيٍّ عن " مخلوق ". وبعد مُضيِّ ساعتين أو ثلاث تخلَّيتُ عن البحث لكنَّ " الحصان " لم يتخلَّ. وعند نحو منتصف الليل، أو ربما في صباح اليوم التالي، اتصلَ فرانكي بي هاتفياً.

مرةً أخرى كان صوته هستيرياً.

صرخَ " لقد عاد، لقد عاد! "

" ماذا؟ "

" لقد خرج ببساطة من تحت السرير، المكان الوحيد الذي لن نبحث فيه عنه، وكان هو موجوداً هناك طوال الوقت "

ثم أخذ يبكي...

بعد مُضيِّ بضعة أسابيع، طلبتُ من فرانكي أن يعودَ إلى منزل شارع دنكن. خشيتُ أن يرفضَ لأنَّ اينجل كان ما يزالُ معي، لكنه لم يعترض.

شغلَ غرفة نومنا القديمة في الطابق العلوي واحتللتُ مع اينجل غرفة نوم الطابق السفلي.

كان واضحاً لديَّ أنه ينهارُ بالتدريج وبسرعةٍ كبيرةٍ، وكان جلياً أيضاً أنه يُنْكِرُ بكل قِواه هذه الحقيقة أمام نفسه وأمام الآخرين كلهم. كان ما يزال يدَّعي، وبضراوة.

قال لي صديق فرانكي الكاتب " لا أدري إنْ كان حقاً يعتقد أنهم استأصلوا السرطان أم أنه يُمثِّلُ أمامنا أضخم مسرحية قاطبة! "

الأشهر الستة التي منحها الجراحون لفرانكي انقضتْ الآن وتجاوزَ ذلك التوقيت وهو يزدادُ وَهَناً باطّراد، ولكن بدون أن يتخلّى مطلقاً عن كبريائه الجبارة. وقد بدا منزعجاً لأني أطلتُ مكوثي في ذلك الربيع في كي ويست، وحتى منتصف أيار. ولم يكن ذلك لأنه كان يبغضُ اينجل - فالشاعر كان يعامله بشكلٍ رائع، لكنه كان يتصرَّفُ مع اينجل وكأنما لا وجود له، وهذا أقرب إلى الحقيقة، عندئذٍ: أقصد في قلبي.

لم يكن فرانكي يريد أي شهود على تدهور صحته، ليس شاهداً قريباً منه مثلي. لذا، في منتصف أيار، طرتُ مع اينجل شمالاً واتخذنا منزلاً على جزيرة ننتكت. وحالما استقرينا فيه اتصلتُ بفرانكي وتوسَّلتُ إليه كي ينضمَّ إلينا لقضاء فصل الصيف.

وفوجئتُ بموافقته.

انتقلتُ إلى اليابسة كي أكونَ في استقباله: كانت ليلةً ليلاء؛ هبَّتْ عاصفةٌ من رياحٍ باردةٍ في غير موسمها وأخذتْ تكنسُ المياه: لم نلحق بالمعدية المعتادة المتوجِّهة إلى جزيرة ننتكت، فاستأجرتُ قارباً لينقلنا إلى هناك، أنا وفرانكي وجيجي. وأضحتْ الرياحُ مُصقعةً. شدَّ فرانكي جيجي بقوةٍ إليه، وهو جالسٌ باستقامةِ السهمِ ويلزمُ جانب الصمت خلال ما بدا عبوراً لا ينتهي.

اتضحَ على الفور تقريباً أنَّ حركة انتقاله إلى ننتكت لن تفيد. فقد أبدى فرانكي كُرههِ للكوخ الصغير الجميل بقدرِ ما كرهتُهُ: لكنه لم يكن يخرج منه إلا عند تناول الوجبات التي لم يكد يتذوقها. أعتقدُ أننا لم نتحمَّل هذا الوضعَ أكثر من أسبوع. بعد ذلك انتقلَ إلى مانهاتن وأخذتُ أقومُ برحلاتٍ مستمرَّة، من أجل فرانكي، بين شقة الشارع الخامس والستين الشرقي ومستشفى ميموريال. كان السرطانُ ينتشرُ بلا رحمة، وبسرعة، من عضوٍ إلى عضو، ولم يعد يتناولُ أي شيءٍ من الطعام وهَبَطَ وزنُهُ إلى ما دون المائة.

ذات مرة عندما أعدتُهُ إلى الميموريال لمعالجته بالكوبالت، ذاك العلاج الفظيع الذي كان يحرق صدره حتى السواد، قال الأطباء " إنَّ كل ما في مقدورنا أن نفعله هو أنْ نراقبَ أين سيُصيبه في المرة التالية "

أعدتُ اينجل إلى كي ويست وبقيتُ مع فرانكي وحدنا في الشقة. شَغَلَ هو غرفة النوم ونمتُ أنا على الأريكة الطويلة في غرفة المكتب الضيقة.

كنتُ في كل ليلة - وهذا أشدُّ ما يمكن أن أتذكَّره إيلاماً - أسمعه يثبِّت بالرتاج باب غرفة النوم. فهل كان ذاك الفتى المسكين يعتقد أنه ما زالَ من الممكن أن أتبعه إلى هناك وأستغلَّ جسَده النحيل مرة أخرى للمتعة الجنسية؟ إنَّ هذا يبدو غير مُقنِع. ولكن لماذا كان يرتجُ الباب، إذاً؟

أعتقد أنه كان يفعلُ ذلك بحركةٍ تلقائية: لعله كان يظن أنه بذلك إنما يوصد الباب في وجه الموت.

خلال الليل كان نومي، الخفيف دائماً، تقطّعه بين حين وآخر، نوبات السُعال القوية، تخترق الجدار، ولم أكن أجرؤ على التحدُّث معه.

* * *

ربما كان هذا اليوم على جانب عظيم من الأهمية في حياتي المهنية - فقد وصلت جنفييف بوجو إلى نيويورك البارحة وأوضحتُ لكلٍ من بيل بارنز وبيتر غلنفيل أنها سوف تتولّى القيامَ بالدور النسائي الأول في مسرحية " الصرخة " - وفي هذه الليلة طارت عائدةً إلى مونريال وسوف يتَّصِل بيل بها وهي هناك من أجل إعطائها الموافقة النهائية.

حين قابلتُها في هذا اليوم في شقة بيل رأيتُ فيها صورةً مطابقةً تماماً لشخصية كلير. وحالما قابلتها شهقتُ وقلتُ " ما أجملك! وفيكِ عرقٌ من جنون! "

طبعاً كان يمكن أن يكونَ جوابها الذي لم تُدلِ به هو: " وأنتَ قبيح ومجنون تماماً "

بعد ذلك ارتديتُ بذلتي الجديدة الجميلة، وقدمت أفضل أداءٍ لي حتى الآن - بدون أي غلطة - وبعد ذلك صحبتُ كاندي دارلينغ إلى مطعم ساردي. كان دخولها، طبعاً، مُبهراً. وأُعطِيَتْ لنا إحدى الموائد الممتازة وسرعان ما انضمَّ إلينا الكاتبُ الشابُ بصورةٍ مؤثِّرة نلسن ليون ومعه فتاةٌ جميلةٌ هي ناشرة. فقلتُ لليون " إنك تقفُ على أول طريق مسيرتك التي قطعتُها أنا كلها الآن ". وقصدتُ بقولي أني الآن أُنهي مسيرتي أنا، وليس مسيرته هو - فليكُن هذا واضحاً. ثم أودعنا السيدتين كلاً إلى منزلها الخاص - منزل كاندي المجاور لكنيسة العِلْم المسيحي - والناشرة إلى نُزُلٍ عامٍ في شارع شرقي

رقمه في مرتبة الستينات أو السبعينات - ثم صحبتُ ليونَ إلى الجناح الفيكتوري لشرب كأسٍ قبل النوم فبقيَ معي حتى تخلَّيتُ عن تناول عقاري المُنوِّم. إنه وسيمٌ لكني لَجَمتُ سلوكي بصورة تُثير الإعجاب.

* * *

إنَّ استعادة هذه الذكريات الأخيرة عن فرانكي الحيّ تُثيرُ الحزن. غير أنها تحتوي الكثيرَ مما يستحقُ التذكُّر مع تعجُّبٍ من قوةِ روحه ومن كبريائه التي لا تنكسر.

جاءَ ستيراب من كي ويست وكان آل سلون أيضاً، وهو صديقٌ مُقرَّبٌ من فرانكي، يمكثُ معنا طوال النهار تقريباً. وكان المرض عندئذٍ ينهشُ فرانك بكثافةٍ شرسة. وظلَّ ستيراب يلحُّ على فرانك كي يكتبَ وصيةً - أما فرانكي فتجاهلَ هذه الاقتراحات التي تدلُ على شيءٍ من تبلُّد الحس وتابعَ بعنادٍ حياته الضيِّقة. وكان في صباح كل يوم وقرابة الظهيرة يخرجُ مع جيجي من غرفة نوم سيّد المنزل ويجلسان جنباً إلى جنب على مقعدٍ قبالة جهاز التلفزيون، ووجهاهما يحملان التعبير الرزين نفسه وعيونهما تُرسِلُ تقريباً نظرةً متطابقة.

أعتقدُ أنهما كانا يجلسان هكذا أغلب فسحة النهار، وكانت جيجي تخرجُ أحياناً إلى الشرفة الصغيرة لتُلبّي نداء الطبيعة.

ثم فجأةً ذهبَ للمرة الأخيرة إلى مستشفى ميموريال. وبينما هو يرتدي ملابسه استعداداً للخروج، وَلَجتُ غرفةَ النومِ لكي أساعده لأكنه رفضَ تلقّي أي مساعدة. ورمى عنه مبذله. كان جسده، ذاك الذي كان في الماضي جسَداً لهرقل مُصغَّرٍ قد تحوَّلَ إلى شيءٍ أقربَ شَبَهاً بهيكلٍ عظمي أو عصفور دوري.

حين دخلَ بهو مستشفى ميموريال للمرة الأولى، كان أوهنَ من أن يسيرَ حتى جناحه وقبلَ الجلوس على كرسيٍ متحرِّكٍ. ثم وضعوه - وهذا في اعتقادي أمرٌ رهيب - في جناحٍ كلُّ المرضى فيه كانوا قد أجروا عملية جراحية لاستئصال ورمٍ في الدماغ. وكان مجرَّدُ النظرِ إليهم كابوساً. وتوسَّلتُ إليه كي لا يبقى في ذلك الجناح ويتَّخذ له غرفة خاصة. فقال بحِدَّة " لم يعُد الأمرُ يهمّني الآن البتة، أرى أني احب أن أكونَ بينهم"

لما كان يتردَّدُ كثيراً على الميموريال، لم أُدرك أنَّ تلك كانت المرة الأخيرة.

تصادفَ أن تزامنَ ذلك مع افتتاح النسخةِ الثانية من مسرحية " قطار الحليب... " في مسرح بارتر في آبنغدن، ولاية فيرجينيا - من بطولة دونالد مادن، الذي لمعَ في دور كريستوفر، وكلير ليوس، الوسيمة ولكن غير كافية في دور غوفورث. والإخراج كان لأدريان هول، والإعداد المسرحي لبوبي سول.

طارت أودري وود لتحضر ليلة الافتتاح ,كانت استجابتها مبهمة، وربما يجب أن أقول فاترة.

في اليوم التالي تلقَّيتُ مكالمةً هاتفيةً من آل سلون تفيدُ بأن حالة فرانكي تسيرُ بلا ريب من سيئ إلى أسوأ. ووصفها لي. فقلت " سوف يموت في يوم الخميس القادم. سوف أعود بالطائرة حالاً " - وطرتُ عائداً قبل أن تصدر التعليقات النقدية لإنتاج مسرح بارتر. وفي صباح يوم التالي لوصولي قمت بزيارة فرانكي في الميموريال. كان عندئذٍ يتلقَّى الأوكسجين من خزانٍ موجودٍ بجوار السرير. مكثتُ معه في ذلك اليوم وكانت ليلةً رهيبةً أمضيتها هناك. لم يكن يُلازم سريره أكثر من دقيقةٍ أو اثنتين، وينزل عنه وهو يترنَّحُ ثم يجلسُ مدة دقيقتين على السرير. ومن ثم يترنح عائداً إلى السرير.

" فرانكي، حاول أن تظلَّ مستلقياً "

" اليوم أشعرُ باضطرابٍ شديد. إنَّ الزائرين يُضجرونني "

" فرانكي، أتريدني أن أغادر الآن؟ "

" لا، إنني متعوِّدٌ عليك "

خلال سَهَري معه في ذلك اليوم، نُقِلَ من الجناح إلى غرفةٍ خاصةٍ - لاشك في أنه لاحظَ أنها الغرفة التي سيموتُ فيها.

ثمة أمورٌ لا أستطيعُ أن أغفرها لـ " ميموريال ". فقد استغرق منهم نصف ساعة لكي يُحضِروا خزان الأوكسجين من الجناح العام إلى الغرفة الخاصة، وكان طوال النصف ساعة تلك التي حسبتها لن تنتهي يشهقُ مثل سمكةٍ عالقةٍ في صنارة.

بعد أن وصلَ الخزَّان وبعد أن قال " إنني متعوِّد عليك الآن " أشاحَ بوجهه عني. كان صعباً تأويلُ تعبير التعوُّد على أنه تصريحٌ بالحب، لكن فرانكي لم يكن قط قادراً على أن يُصرِّح بحبه لي إلا عبر مكالمةٍ هاتفيةٍ من مكانٍ بعيد.

استلقى هناك على جنبه في صمت. فكّرتُ أنه سوف يستغرقُ في النوم. فمكثتُ معه بعض الوقت ومن ثم غادرته بهدوء.

في الطريق إلى المنزل قلتُ في نفسي إنَّ الوضعَ قد تجاوزَ كلَّ الحدود. فتوجَّهتُ إلى مكتب طبيبي الخاص الدكتور وليم ج. فون ستاين، وأخبرته بلهجةٍ تميلُ إلى الهذيان عن الكابوس الذي تحوَّلتْ إليه مستشفى ميموريال خلال الأيام الأخيرة التي أمضاها فرانكي هناك. أعطاني فون ستاين جرعة مُهدِّئ وقال " سوف أتصل بطبيب فرانكي "

في تلك الليلة خرجتُ لأسهرَ واتَّخذَ هذياني منحى مختلفاً. فقد أفرطتُ في السُكر مع ثُلَّةٍ من الأصدقاء في حانةٍ للوطيين ثم عدتُ إلى المنزل في نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً. وما أن وصلتُ حتى رنَّ جرسُ الهاتف. إنه صديقُ فرانكي الأشدّ إخلاصاً؛ اتصلَ ليُعلِمني أنَّ فرانكي قد رحل. فعلَ ذلك بحنوٍ شديد.

" تنيسي، لقد فقدناه. أستغرقَ الأمرُ بضع دقائق. أعطتْه الممرضةُ حقنةً، فاستقامَ في جِلستِه وشهقَ شهقةً ثم سقطَ عائداً إلى وسادته وقد فارقَ الحياة قبل أن يتمكَّنَ طبيبُ الطابق الأرضي من الوصول إليه "

ردَّةُ فعلي الأولية من الصعب تحليلها الآن. أعتقدُ أنها كانت ارتياحاً لأنه وعذابه قد انتهيا.

عذابُهُ، نعم. عذابي، لا.

كنتُ أقفُ على عتبةِ جزءٍ رهيبٍ من حياتي. تطوَّرَ ببطء.

طالما كان فرانك بخير، كنتُ سعيداً. كان موهوباً في خلقِ الحياة، وبعد أنْ مات، لم أستطع أن أخلقَ الحياة لنفسي. وهكذا رحتُ أخوضُ في سبعِ سنينَ من الكآبة.

* * *

وصلَ كل أفراد عائلة فرانكي المستقرَّة في نيو جرزي إلى وكالة فرانك كامبل لدفن الموتى. كان فرانكي مُسجًّى في تابوت. وقالتْ أخته الكبرى، آنا - وهي امرأةٌ رائعةٌ - لي: " اذهبْ والمسْ يدَه "

رضختُ مع إحساسٍ بالرعب. بدا غايةً في السكينة، والوقار والنُبل. أما ملمسُ يده الميّتة تماماً والباردة جداً، وهي موضوعةٌ على صدرِهِ، فكانَ اتصالاً صاعقاً.

أُعِدَّتْ جنازتان، واحدةٌ في الكنيسة الكاثوليكية، أعدَّتها عائلته، والثانية أُقيمَتْ في وكالة كامبل. وكنتُ قد دعوتُ أصدقاء فرانكي العديدين كلّهم في مجال المسرح لحضور جنازة وكالة كامبل ودعوتُ قريبي المحترم سيدني لانيير ليترأسَ القُداس هناك، كما كان قد فعل في جنازة ديانا باريمور قبل ذلك بثلاث سنوات.

لكنَّ قداس الكنيسة الكاثوليكية أُقيمَ أولاً، وهذا واجب، وكان قداساً جميلاً، قداساً جنائزياً فخماً.

ثم أُعيدَ جثمان فرانكي إلى وكالة فرانك كامبل لدفن الموتى لأداء القداس الثاني. وكان المُصلّى الكبير مملوءاً حتى آخره. وقُبيلَ القداس مباشرةً جعلتُهم يضعون فرانكي في تابوت آخر لأني لم أحب البطانة المضروبة الوردية اللون ولا لونَ الخشب الفاتح. ونُقِلَ إلى تابوتٍ أجمل بكثير ذي بطانةٍ من الساتان الأبيض البسيط.

بعد ذلك، لم أقوَ على الخروج إلى المقبرة وعدتُ إلى شقتي مع كازان وزوجته مولي. وقد حافظتُ على هدوء سيمائي لكني لاحظتُ أنهما يتبادلان النظر؛ كانا يعلمان أني فقدتُ ما كان يؤازرُ حياتي.

* * *

نشأتْ النسخةُ الأولى من مسرحية " قطار الحليب لم يعُد يتوقفُ هنا "، وهو عنوانٌ مثيرٌ للاهتمام لكنه طويل قليلاً، من قصة قصيرةٍ لي، وأعتقدُ أنها من أفضلها، عنوانها " Man Bring This Up Road". كتبتُ هذه القصة ذات صيفٍ رائع في فندق ميرامار في بوزيتانو على شاطئ ديفينا كوستييرا الإيطالي. كنتُ هناك مع ماريا وكان من المفترض أننا كنا هناك من أجل العمل في فيلم لوتشينو فيسكونتي Senso (إحساس).

لطالما وجدتُ مشقةً في الالتزام بعملٍ مُوكلٍ إليّ، وقد صحَّ هذا في حالة Senso لأني لم أكن أعتبرُ فارلي غرينجر ممثلاً لامعاً. ثم لأني كنتُ أعملُ بدون أي مُقابل. لم يُثِر سيناريو الفيلم اهتمامي به. وفي الحقيقة، إنَّ العملَ القليلَ الذي قمتُ به فيه قمتُ به بدافعٍ من إعجابي بفيسكونتي ولشعوري بالامتنان له لأنه أسند لصديقتي العزيزة ماريا عملاً أكثر أهمية في الإنتاج.

لدى عودتي إلى الولايات المتحدة، تناولتُ القصةَ القصيرةَ ذات صباح فإذا بها تتفاعلُ في ذهني لتغدو مسرحيةً قصيرةً-طويلة، وهكذا كتبتُها وهكذا قُدِّمَتْ في

الصيف الذي تلا في "مهرجان سبوليتو لعالَمَين". هذا الإنتاج الأوَّلي كان يتميَّزُ بشكلٍ رئيسي بأداء هرميون بادلي في دور فلورا غوفورث. وكانت ليلة الافتتاح احتفاليَّةً في قاعةٍ ممتلئةٍ حتى آخرها. وقد قَدمَتْ آنّا مانياني من روما مباشرةً لتشهَدَ وجلَسَتْ معي في مقصورةٍ واحدة. كانت تُحدِّقُ إلى بادلي بانشداهٍ مطَّرِد.

" ! Come magnifica" (ما أروعها!). هكذا ظلّتْ تهتفُ من بين أنفاسها، وكنتُ أعرفُ أنها تُشيرُ بذلك إلى النجمة وليس إلى المسرحية.

كانت آنّا ناقدةً عظيمةً وصارمةً جداً في أحكامها على المواهب التمثيلية، وقد ميَّزَتْ في هرميون بادلي ممثلةً عملاقةً تقتربُ من قامتها وهي لم تكن حسوداً، كشأن النساء الأقلّ قيمة، بل لقد ابتهجتْ ابتهاجاً حقيقياً. وبعد انتهاء العرض، كان احتفاؤها بالمس بادلي وتهنئاتها لها لا تصدر إلا عن آنّا وكانتْ تنبع من صميم قلبها.

المسرحيةُ بحدٍّ ذاتها لم تترك تأثيراً مميَّزاً ولن تُعرَض إلا مرة ثانية خلال ذلك الصيف في سبوليتو. ولاشك في أني طالما كنتُ أرتابُ قليلاً في جدِّية المهرجانات الصيفية التي تُقامُ في سبوليتو؛ إنها دائماً تصدمني بكونها، في المقام الأول، جولةً ذاتيّةً لصالح المايسترو جيان- كارلو مينوتي(٦٢)، ولصديقه تومي سيبرز. ونقطة الذروة في المهرجان هي دائماً حفلةُ عيد ميلاد مينوتي التي يُقيمُها لنفسه. ويُقامُ عرضٌ رائعٌ للألعاب النارية في كل أرجاء البلدة الصغيرة الفاتنة: وفي نقطة الذروة يظهرُ مينوتي وشيبرز في زي خاصٍ ذي حزام ويتجولان في الشوارع المزدحمة في سيارة ذات غطاء قابل للطي كبيرة وجديدة، ربما ماركة كادي أو رولز...

على أي حال لا يهم؛ لقد كان احتفاله هو، ولا أظنُّ أني يجب أن أنتقدَ بهجة أي إنسانٍ، أو رحلاته الأنانية، ولا العالمَ الخياليّ الذي يعيش فيه. إنني أتساءلُ بحقّ إنْ لم يكن العالمُ الخياليُّ هو العالمُ الوحيدُ المسكون بالفنانين.

في ذلك الموسم التالي قرَّرَ روجر ستيفنز أن يُنتجَ مسرحية "عربة الحليب..." على مسرح برودواي. في أول الأمر، أرادَ أن تقوم تالولا بانكهيد بدور غوفورث. لكني كنتُ قد شاهدتُ هرميون بادلي تؤدِّيه فتشبَّثتُ برأيي في وجهِ ستيفنز العظيم وأصررتُ على أن تبقى هرميون بادلي في الدور الرئيسي. في الواقع، في تلك الأيام كنتُ ما أزالُ أتمتَّعُ بقدرٍ من النفوذ...

أيضـاً تمَّ الاحـتـفـاظُ ببـول روبلنغ، الذي جـسَّدَ دور كـريس فـلاندرز في عـرض سبوليتو، ليؤديه في عرض برودواي، وبدأ العمل.

كان العرض الافـتـتـاحي في نيـوهيـفن كارثـيّاً بشكل مـا. وظلّتُ هرمـيـون عظيـمة كعهدها دائماً غير أنَّ الجمهور لم يتعاطف مع المسرحية بأي حال من الأحوال.

أُقيـمَ ما يشبه الغرفة الخضراء لسامرات ما بعد العرض الافـتـتـاحي بين كل مَنْ له علاقة بالعمل، لكنها أخذت تمتلئ بأشخاصٍ لا علاقة لهم بالعرض فانفجرتُ في إحدى نوبات الغضب الفاغنيريّة.

" لماذا تتوافدون إلى هنا يا مُعلّقي الشارات؟ خذوا مشروباتكم واخرجوا، إنَّ لدينا مسرحية تعاني من المشاكل وعلينا أن نناقشها بصرامة فيما بيننا "

* * *

تلقَّى العرضُ الافـتـتـاحي لمسرحـيـة " قطار الحليب... " في بوسطن ترحـيـبـاً أفـضل بكثير، على الرغم من عدد من العثرات المثيرة للضحك التي ظهرت في المشـهد الأول. إذ فورَ ظهور هرميون تقريباً سقطَ شعرها المستعار، ولكن بدا أنها تجاهلتْ الحادثة. ثم دارتْ برشاقةٍ حول طاولة المكتب التي كانت تُملي عندها مذكراتها وعندما وصلَتْ إلى مكان الشـعـر المسـتـعـار، التـقطتـه بسـرعـة - ووضـعـتـه على رأسـهـا بالمقلوب، فـضـجَّ الجمهور بضحكٍ صاخب. لقد بدا تصرُّفاً طبيعياً جداً من شخصيـة " الأخت " غوفورث. وحسب مـا أتذكر - على رأى أحد متآمري ووترغـيت - فـإن التـعليـقات النقدية كانت مـتـفـاوتة، ولكن بشكلٍ مـثـيـر للاهـتـمام، ولاشك في أنَّ عـمـيـد نقَّـاد بوسطن، إليـوت نورتن، لاحظ أنها مسرحية تجريبية ولكن مهمَّة وقد أُعجِبَ أيَّما إعجاب بالمس بادلي كشأن كل من حظي بشرف مشاهدتها.

لقد قـمنا بعملٍ جيـد في بوسطن في ويلبر وكـان من الممتـع أن أعـود إلى جناح في ذاك الفندق الذي يُثلج الصدر الريتز - كارلتون بمدفأته ومشـهد الأرض المُحيطة به التي يغطيها الثلج الأبيض في الشـتـاء الذي يطلُّ عليه.

ولكن بعد نزلنا في فيلاديلفيا، بدأت الأمور تسوء.

كانت التعليقات النقدية المتفاوتة أقلّ إثارة للاهتمام، والإقبال لم يكن جيداً.

إلا أنَّ أبرز مـا اتذكَره عن عـرض فـيـلاديلفـيـا حفلة أقـامـتـهـا السـيـدة روبلنغ لطاقم

الممثلين حيث يجلسُ آل روبلنغ، وبادلي، وطبعاً المخرج، هربرت ماتشيز، على مائدة كبيرة رئيسية زُيِّنَتْ بشكلٍ احتفالي أما أنا - أه، أنا - فأبعِدتُ إلى مائدةٍ صغيرةٍ منعزلةٍ، من النوعِ المُخصَّص لشخصين فقط.

رحتُ أحترق ببطء وأنا أبتلع هذا الوضع المُهين. ثم ارتفعت إلى مستوى الحَدَثْ بعمل انتقامي، فمشيتُ بشموخٍ حتى المائدة الرئيسية الاحتفالية، التي أُقصيتُ عنها، وتوجَّهتُ مباشرةً إلى مسز روبلنغ، الجالسة على رأسها، وقبَّلتُ يدها. ثم قلت، حسب ما أتذكَّره، ما يلي:

" لقد أقمتِ حفلةً جميلةً للطاقم فشكراً جزيلاً لكني واثقٌ من أنك تدركين لماذا سأغادر فوراً! "

ثم توجَّهتُ إلى المصعد، لكن ذلك الفتى اللطيف والممثل الموهوب، بول روبلنغ، نهضَ عن المائدة الرئيسية ولحقَ بي وحاولَ أن يستبقيني.

في هذه المرة عَمَدتُ إلى شيءٍ من التهريج وتلفَّظتُ بأشدِّ الملاحظات عجرفةً التي أذكر أني تلفَّظتُ بها في حياتي كلها وتبدو أنها كثيراً ما تقودني إلى العجرفة.

أفضل ما تسعفني به الذاكرة هو أني قلتُ للعزيز بول " عندما أحضر حفلة أُقيمتْ على شرف مسرحيةٍ من تأليفي وأُبعَدُ إلى طرفِ المائدة الكبيرة، فهذه إهانة يسعدني أن أتحمّلها. إنَّ ما حدثَ هو خدعة ميكيافيليّة مورسَتْ عليَّ على يد هربرت ماتشيز وإني في أشد حالات الدهشة لأنك وأمك سمحتما بحدوثها "

عندئذٍ كان المصعدُ قد وصلَ إلى الطابق حيث الوليمةُ، وبذلَ بول أقصى جهده ليُثنيني عن ولوجِه لكنَّ حنقي جعلني أقوى مما كنتُ فدفعتُهُ إلى الخلف ودخلتُ المصعد وضغطتُ بفظاظةٍ على زر الهبوط.

وصلتْ المسرحيةُ إلى نيويورك خلال إضراب الصُحُف لذلك لم نتلقَّ أي تعلق مكتوب في الصحف، ولكنْ وزَّعتُ نسخةً من الملاحظات النقدية وكانت كلّها منتشية بهرميون وباردة قليلاً حيال المسرحية.

في اليوم التالي دخلتُ مكتبَ روجرز ستيفنز وقلتُ له " إنَّ هذه المرأة تلقَّتْ أفضل التعليقات، لأدائها في مسرحيةٍ من تأليفي، منذ أيام لوريت تيلر في مسرحية " مجموعة الحيوانات... "، وأعتقد أنه في إمكانك أن تمدَّ في عرضِ المسرحية إذا عملت على استغلال الاحتفاء بها. ماذا تنوي أن تفعل؟ "

كانت نواياه سلبيّة.

إنني مُعجَبٌ بروجر كثيراً لكني شعرتُ أنه قد خذلني فقلتُ، بعد فترة قصيرة من المراوغة اللفظية من قبله " فهمتُ قصدك، وداعاً " - وخرجتُ بخُطى شامخة.

إذا ألّفتَ مسرحيةً ذات دور نسائي قويّ التأثير، مثل دور فلورا غوفورث في " قطار الحليب لم يعُد يتوقف هنا "، فمن المتوقّع أن يتكرّر ظهوره، بما أنَّ النجمات عند سنٍ مُعيَّنة يجدنَ صعوبةً في العثور على وسيلة نقل تتلاءم مع مواهبهن، وشخصياتهن، ومظهرهنّ العام. إنَّ وصفَ " قطار الحليب... " بوسيلة نقل لا يُنصفها. في تلك المسرحية - التي يُعادلُ نجاحها، مع السيناريو، نجاح فيلم " بوووم "- كنتُ ممسوساً بهوسٍ بمحاولةِ أنْ أقول أشياء مُعيَّنة. كانت عملاً فنياً مُخفَّفاً. ومن المؤسف جداً أن تالولا لم تُمثِّلها قبل ذلك بخمس سنين، لكنها عندئذٍ لم تكن قد كُتِبَتْ بعد. وعندما وُهِبَتْ لها بشكلٍ مُطلق، كان الأوان قد فات؛ كانت تالولا قد فقدتْ قُدرتها الجسديّة على الاحتمال اللازمة لأدائها، كانت قد غاصت في الإدمان على الخمر والمخدرات، وبدأت تجد صعوبةً بالغةً في أن تُعبِّر بوضوحٍ على خشبة المسرح.

تمَّ إنجازها بطريقةٍ غريبة. فقد حصلَ المخرج الإنكليزي توني ريتشاردسن على المخطوط وذات يوم اتَّصلَ بي هاتفياً، وأخذ يُغدق على النسخة المُعدَّلة تقريظاً مُفرِطاً إلى حدٍ مخيف.

(لا أدري لماذا يعتقدُ المخرجون والمنتجون أنَّ عليهم أن يتبرَّزوا على الكاتب المسرحي بهذا الشكل في حين أنَّ كل ما عليهم أن يقولوه هو " إنها تعجبني وأريدُ أن أنفِّذها ")

في ذلك الوقت كان ريتشاردسن " مُتَّقِداً " وكان لابد له من أن يُسيطر على الإنتاج، بما أنَّ تالولا كانت محتفظةً بروحها المتمرِّدة لكنها فقدَتْ قُدرتها على القتال، والشيء نفسه ينطبقُ عليَّ. ولم يكن ريتشاردسن يريد تالولا لكنَّ المنتج وأنا أردناها. وقد توصّلنا إلى تسويةٍ غريبةٍ، لم تُرضِ تالولا ولم تُرضني. فقد قال لي (سوف أقبلُ تالولا، يا تن، في دور غوفورث شريطةَ أن تقبل أنتَ تاب هنتر في دور كريس فلاندرز). وكرهتُ أن أقبَلَ عَرضَهُ لأني لم أرَ في تاب الخاصيّة الصوفية والغامضة التي يتميَّزُ بها الدور المطلوب. قال لي توني " إنني مُلتزم أخلاقياً أمام تاب هنتر وإذا

أعطيتُه دورَ كريس فسوف أُصفّي حسابي ". لم أفهم ما هو ذلك " الالتزام الأخلاقي"، وسوف أُبقيكَ في الحيرة نفسها.

(سُئلتْ تالولا مرةً إن كان تاب شاذاً جنسياً، فأجابت بذكاء " كيف لي أن أعرف، يا عزيزي؛ أنا لم أنكهُ ") . وبالنظر إلى عروضه السابقة، أقولُ إنه برزَ في " قطار الحليب... "، وأبدى من الموهبةِ أكثر مما كان يمكن أن أتوقَّع منه، لكنَّ الصوفية المتأرجحة لم تكن جليَّةً كثيراً في أدائه لعرضِ بشرته ومفاتنه الجسدية كموهبةٍ مُهيمنة. كان دائماً دمثاً معي، أما هو وتالولا فلم يتفاهما قط. وهذا أمرٌ مفاجئ، لأنَّ تالولا كانت في المعتاد تولع بشُركائها الذُكُور في التمثيل.

لقد أمدّنا روبن تر - أرتوريان بمجموعة بائسة من الممثلين للاشتراك في المسرحية، تفتقرُ إلى روح البحر المتوسط وتُظهِر ولوعه بالصارخ والغريب الأطوار. كنتُ مغموراً بحزني على موت فرانكي، وكان إدمان تالولا على شرب الخمر وتعاطي المخدرات على خشبة المسرح هو الأمر الحقيقي الوحيد. انتقلَ العرضُ بخُطى متعثِّرة بين مدنٍ عدة، وكان نادراً ما يحظى بتقريظ ولم يدعمه إلا عُشاق تالولا المتميِّزون والمتعصبون. وعندما وصلنا بالتيمور سرعان ما غادرنا ريتشاردسن. فقد اضطر إلى العودة إلى لندن في محاولةٍ لإنقاذ زواجِه المضطرب من فانيسا ريدغريف.

كان في ريتشاردسن الكثير من الجوانب التي أحببتُها وأخرى استنكرتُها. كانت لديه امرأة تساعده في أوقات التدريبات وكانت في أوقات الاستراحة كثيراً ما تهرعُ خلف خشبة المسرح على عجل لتحضِّر له مشروبا، وهو ليس ماء. وعلى الرغم من تحمُّسه الأوليّ للمسرحية، أبدى لامبالاة غريبة حيال فشلها على صعيد الشارع. وذات مرة حين كنتُ منزعجاً من أمرٍ ما، قال لي: " لا أعتقدُ أنك مجنون لكنك هستيريّ مزمن (أو بالفطرة) "

(لقد كان مُحقاً عندئذ فيما قال، إنْ لم يكن ذلك دائماً حالي)

كان ودوداً وموهوباً، وإنْ كان نادراً ما يتحمَّلُ المسؤولية.

حضَرَ ديفيد ميريك، المنتج، آخر توقُّفٍ لنا في بالتيمور وكان من الدماثة بحيثُ سألني إنْ كنتُ أريدُ أن أجلبَ المسرحية إلى نيويورك فأجبتُ " أعتقدُ أننا إذا أقفلنا الآن فسوفَ نقتلُ تالولا ". وهكذا ذهبنا. وقد هيمنتْ على العرض الأوليّ كلياً متابعةُ

تالولا المرحة التي قوبلتْ بالاحتفاء. وعلَّقَ ميريك قائلاً لي " لو نحصلُ على مثل هذا الجمهور في كل ليلة، سوف تُحقِّقُ نجاحاً ساحقاً ". على أي حال، في ليلة الافتتاح لم يتقبَّلْ الجمهورُ المسرحيةَ والنُقَّادُ نَسَفوها.

إلا أنَّ السينما اشترتها. جَرَتْ المفاوضات، التي كانت مُعقَّدةً، في إنكلترا. وكانت الأصابع الصغيرة الحيوية لليستر برسكي منهمكة بحرارةٍ في المشروع. أُعطِيَ دورُ كريس لشون كونري، الذي كان يمكن أن يؤدّيه بجدارة لكنَّه رَفَضَه بدماثة. ثم انخرطَ جوزيف لوزي فيه كمُخرج، وهو اختيارٌ ممتاز. إنَّ لوزي مُعلِّم. ثم كان الاختيار الفظيع. لقد قدَّمَ ليستر الفيلم إلى آل برتون[٦٤]. قال لي إني إذا وظَّفتُ ثلاثينَ ألف دولار سوف يُحوِّلها وسوف تُدخِّلُ لي مليوناً. لكنَّ الأمرَ لم يؤلْ إلى هذا المآل، بالضبط. الفيلم (وعنوانه " بوووم ") صُوِّرَ في سردينيا. كان الإخراجُ، والسيناريو والإعدادُ مذهلةً، لكنَّ ديك كان عجوزاً جداً على دور كريس وكانت ليز صغيرةً جداً على دور غوفورث.

نقطةٌ أخرى أُخِذَتْ ضد استقبال الفيلم هي أنه كان هجوماً لا ريبَ فيه على الإمبريالية، متمثِّلةً في غوفورث الأميركية ، التي كان شعارها الشخصي هو حيوان الغريفين الذهبي، المُتَّهَمة بارتكاب جريمة قتلٍ لكنها أفلتت من العقاب لأنها تتمتَّعُ بـ " droit de domaine" (حق الهيمنة) على الجزيرة وساكنيها كلهم.

على الرغم من سوء توزيع الأدوار شعرتُ أنَّ فيلم " بوووم " كان نجاحاً فنياً وأنه في نهاية المطاف سوف يلقى الترحيب.

إنَّ التاريخ يتَّجه، مرة بعد أخرى، نحو انهيارٍ كانهيارِ بابل، اتجاهٌ لا يقف شيءٌ في طريقه كما يندفعُ سيلٌ جبليٌ نحو البحر.

بدأتُ هذا السرد للإنتاج الرابع لـ " قطار الحليب..."، ذاك الذي مثَّلتْه تالولا (كان الأول في سبوليتو والثالث في مسرح بارتر في فيرجينيا)، بإقرارٍ نابضٍ بالحياة مَفَاده أنَّ مسرحيةً تضمُّ دوراً نسائياً قوياً مثل دور فلورا غوفورث، من البديهي أن " يتكرَّر ظهوره ". إنني بعد التفكير، أخشى أنَّ هذا الادِّعاء لم يُسوَّغ بعد. قُدِّمَتْ " قطار الحليب... " في لندن في مسرح رويال كورت (وهو المسرح الناطق باللغة الإنكليزية المُفضَّل لديّ بين مسارح العالم كله)، تحت ما بدا أنها ظروفٌ مبشِّرةٌ بالخير. روث غوردن بدور غوفورث، ودونالد مادن في دور كريستوفر فلاندرز. لكنَّ المشروعَ

انتهى إلى لاشيء. العملُ لم يُقدَّم، ولا أستطيعُ أن أخبرك بدقَّةٍ عن الخطأ الذي ارتُكِبَ. ولكن سمعتُ من أحد الممثلين المُشاركين أنَّ المس غوردن الرائعة لم تكن راضيةً عن الرائع السيد مادن، والعكس بالعكس. وسمعتُ أنه حين كان السيد مادن يقولُ سطراً كانت المس غوردن تقاطعُ التدريب لكي تسأله " أهكذا سيكونُ أداؤكَ؟ ". وطبعاً كان ذلك يُسبِّبُ منتهى الإرباك لطبيعة مادن الأيرلندية.

من الواضح أنَّ الأمرَ برُمَّته كان أكثر من مُحبِط للمخرج، العزيز جورج ديفاين، لأنَّ المشروعَ عُلِّقَ إلى أجلٍ غير مُسمَّى حين أُصيبَ بانسداد الشريان التاجي.

آمل أني لا أُلِّحُ إلى أنَّ في المسرحيةِ ذاتها ما يُريب أو منحوس. ولكن لم يُفلتْ من انتباهي أنه خِلافاً لإحياء العرض في سان فرانسيسكو، في ظل الإخراج المُلهَمْ لجون هانكوك - المخرج الوحيد الذي اقترح عليّ أن أجري تبديلاً في مواقع بعض المواد وكان ذلك فعّالاً من الناحية الفنية - ويبدو أنّ " قطار الحليب... " قد أُسيء إليها، وأخشى أنها قد خرجَتْ عن مسارها الحقيقي هناك بالجَمال المفرط لغوفورث من خلال ليز تيلر في فيلم " بووووم ". إلا أني ملتزمٌ بهذا في أغلب جوانب إصراري الأصلي: أي أنها تظل وسيلةَ نقلٍ رائعةٍ لنجمةٍ لا تقلُّ روعةً، ولا أقصد بهذا كوكب الزهرة. إنَّ المس هرميون بادلي دائماً تهبُّ لتقديمِ الدعمِ لذاك النضال للكاتب المسرحي .

مَنْ التي تصلح للعبِ دور غوفورث الآن؟ لعلَّ مس بادلي تقبل بتمثيله ثانية. وربما أنجيلا لانسبري، وربما سيلفيا مايلز.

في تلك الأثناء، إنَّ باخوس راغبٌ وصبور.

(فلنتأمَّل قليلاً في المسرحيات التي تهتمّ بعمقٍ بفنائيةِ البشر. أخشى أنَّ الجمهور خائف. أعتقد أنَّ جون هانكوك في سان فرانسيسكو عملَ على بث الرعب في قلب حتى صاحب المسرحية، في إنتاجه لـ " قطار الحليب... "، حين وضعَ أشكالاً هيكلية من الجص الأبيض تجلس هنا وهناك في مسرحه (يا له من ابتكارٍ غريب الشكل ولامع!)، وحين دعا الكاتب المسرحي إلى الصعود إلى خشبة المسرح ليقرأ دور غوفورث بصوتٍ عالٍ على مسمع من طاقم ممثّلي العمل، مما أشاعَ بينهم استحساناً حماسياً).

* * *

إنَّ أجملَ ما كان في فترة إقامتي القصيرة الأمد تلك في سان خوان هو التقائي من جديد بخوزيه كوينتيرو، حيث كان وصديقه نيكي اليوناني قد استأجرا منزلاً ساحراً هنا. وكان من المفروض أن يكونَ مثوى للضيوف لكنَّ النزيل الدائم الوحيد في المبنى حتى ذلك الحين كان جرواً فاتناً جُلِبَ من الشارع إبَّان تَعَرُّضه لحادثة اصطدام بسيارةٍ مارة، بسيطة، ولم تُسبب إلا رضوضاً مثيرةً للأعصاب. وكنتُ أعرفُ خوزيه منذ وقتٍ طويل، منذ أن أحيا " صيف ودخان "، بقوةِ سحرِ إخراجه المسرحي وبقوةِ سحرِ تمثيل جيرالدين بايج. ولاحقاً سكنَّا معاً في بناءٍ عالٍ بجوار مقرّ داكوتا في الشارع الثاني والسبعين الغربي وكنا نُمضي ليالٍ صاخبة في لعب البوكر مرةً في الأسبوع على الأقلّ.

ليلة أمس لعبنا من جديد البوكر، هنا في سان خوان، وقَدَّمَ لي النسخة الأولى (على شكل بروفات طِباعية مجلَّدة) من مذكراته التي كانت توشكُ أن تصدر. وكان عنوان الكتاب " إذا لم ترقص يضربونك "، وهو كتابٌ رائعٌ شجَّعني عنوانه الوثيق الصلِة بالمحتوى على أنْ أُفكِّر في تغيير العنوان الحالي لمذكراتي أنا (التي لم تُنشَر بعد). وعلى أي حال، على المرء ألاَّ يُشيرَ إلى حياته الخاصة وكأنها فندقٌ يُخيِّمُ عليه الحزن في حين أنها في الغالب حانةٌ تضجُّ بالمرح، وسيكونُ كاذباً كبيراً إذا ادَّعى أنه توَّاقٌ إلى مغادرتها.

* * *

من الصعب أن تكتبَ عن فترةٍ تتَّسِمُ بالكآبة المغرِقة، المَرَضيّة في حقيقتها، لأنك حين تكونُ في تلك الحالة، فإنكَ تنظرُ إلى كل شيء بمنظارٍ أسود ليس فقط يحجبُ كل ما ترى وإنما يُشوِّهه. ثم إنَّ الكتابة عنها تنطوي أيضاً على مُخاطرةٍ، لأنَّ جرثومته ما زالتْ موجودةً في كيانك ويمكنُ أن تنشطَ من جديدٍ باجترارِ التفكيرِ فيها.

يجب أن أنتهزَ هذه الفرصة في صباح هذا اليوم على الرغم من أني قد أُصِبتُ لتوي بكآبةٍ بسبب حالةِ أقدمِ أصدقائي في أوكسنر كلينيك، بعد أن تكرَّرَ ظهورُ عوارضُ مَرَضيّة عليه. (كان قبل بضع سنوات قد أجرى عملية استئصال سرطانٍ في الدماغ: بعد ذلك كان العلاجُ بالكوبالت. وفي غضونِ بضعة أشهر بدا أنه قد أحرَزَ شفاءً مُذهلاً حقاً: وعاودَ برنامجه التعليمي الكامل في قسم اللغة الإنكليزية في إحدى جامعات كاليفورنيا: وحدثَ انتعاشٌ كبيرٌ في مهنته ككاتب: وسارَ كل شيء على

أحسن ما يرام حتى قبل الأشهر القليلة الأخيرة، حين بدأ وبدون سابق إنذار يُعاني من نوبات دوار، نتجَ عنها سقوطه المتكرِّر وسبَّبَ له تمزُّقاً في نقطةِ التقاء العجُز والحُرقفة، وجروحاً أخرى خطيرة. وهو الآن عاجزٌ تماماً عن الحركة ويتملَّكه الرعبُ من أن يعمد زوج إحدى قريباته المقرَّبات، والذي يعتبره عدائياً، إلى إيداعه إحدى المصحَّات العامة)

* * *

فور وفاة فرانكي تقريباً، طرتُ إلى كي ويست، حيث كنتُ قبل ذلك بأشهر عديدة قد أرسلتُ الشاعر اينجل. لكن الشاعرَ كان عندئذٍ عاجزاً عن مساعدتي ولا أذكر أنه كان هناك أي إنسان قادر على ذلك. ربما كان يجب أن أخضع للعلاج في المستشفى بضعة أشهر، شئتُ أن أبيتُ. غريبٌ كيف يغدو المرءُ وحيداً في أوقات الأزمات الشخصية العظمى. وكلمة " غريب " مناسبةٌ تماماً، ومُلطَّفةٌ إلى أقصى حد. وحقيقة الأمر القاسية والباردة هي أنَّ كل مَنْ يعرفك تقريباً يبتعد عنك وكأنك تحملُ مَرَضاً خطيراً ومُعدياً. على الأقل، هكذا أتصوَّرُ الأمرَ.

إنَّ انهياري خلال " فترة الستينات "، عصرُ تحجُّري، يُذكّرني بصورةٍ لبناءٍ يُدَمَّرُ بالديناميت بالحركة البطيئة: إنه يظهر بمراحل متطاولة، لكنَّ الإطالةَ لا توفِّرُ أي راحة.

في كي ويست عاودتُ اتصالي بإينجل. ولكن حتى الملائكةَ عُرضةٌ لنقاطِ ضعفِ ونقائصِ الإنسانية التي أوجدتها.

ارتدَّ إينجل عاطفياً (وأنا أتفهَّمُ ذلك) إلى شابٍ كان سابقاً طياراً في الخطوط التجارية ومن ثم أصبحَ، في ذلك الوقت، مدمنَ مخدرات وذا دوافع انتحارية لكنه يتمتعُ بسحرٍ طاغٍ وجاذبيةٍ جسديةٍ هائلة.

* * *

إذا كان إدماني على المخدرات والكحول مصحوباً بدافعٍ إلى الانتحار، وهو دافعٌ يتميَّزُ عن الإحساس المطَّرد بالاغتراب، فإنه كان بأكمله على مستوى اللاوعي. أعرفُ أنَّ هذه إشارة سخيفة. إنني لستُ مفوَّهاً بأي حال في التحدُّث عن الموضوع الصعب حول انهياري في حُقبة الستينات. إنني عاجزٌ عن إمدادكَ بسردٍ مُفصَّلٍ عنه بدون أن أبعثَ المللَ في كلينا معاً. سوفَ أكتفي بمحاولةِ تسجيلِ بعض الأعراض والحوادث الأشدّ تشبُّثاً بالذاكرة، مثل –

ذات يوم حضَرَتْ سيداتُ نادي حديقة كي ويست بالجملة للقيام بجولةٍ في منزلي وفي بقعة الأرض الصغيرة المحيطة به في شارع دنكن.

أخذني برادلي وشيرلي آيرز، أرملةُ ليول آيرز، إلى ثاوث بيتش واستقْبَلَتْ ليونسيا وأينجل سيدات نادي الحديقة.

في ذلك النهار لم أطقْ الشاطئ، فتناولتُ منوِّماً وذهبتُ إلى البيت بينما كان والأرض المحيطةُ به ما يزالان مزدحمين بالسيدات الفضوليات.

دخلتُ ورحت أصيح فيهُنَّ " برّه، برّه، برّه، برّه، برّه! "

هربنَ في كل الاتجاهات كهروبِ الدجاجِ إثر عاصفةٍ رعديةٍ، ثم تناولتُ قرصاً آخرَ وأويتُ إلى السرير...

(ما زالتْ هذه الحادثةُ شائعةً كأسطورةٍ في كي ويست)

في وقت لاحقٍ من ذلك الربيع صرفتُ اينجل. وأذكر أنه قال لي، والدموعُ تُخضِّلُ عينيه، " كنتُ أظنُّ أني عثرتُ على منزل "

في الحقيقة، لقد كان اينجل فتىً عزيزاً حقاً: وأنا رجلٌ فاسد.

أعتقدُ أنَّ هذا شكَّلَ بدايةَ انهياري الاجتماعي على تلك الجزيرة التي تقعُ في أقصى الطرفِ الجنوبي من البلاد. وسوفَ يكونُ بمثابة " العنب الحامض " أن أقول إني لم آبه قط بمجتمعِ كي ويست التقليدي. لقد كان لديَّ اعتقادٌ دونكيخوتيّ مفاده أنَّ في استطاعتي أن أظلَّ أنخرطُ في مختلف الأجواء الاجتماعية، البوهيمي منها والنخبويّ، المستقيم والشاذ جنسياً. وأعرفُ أشخاصاً كثيرين في " مجتمع اللوطيين " حقَّقوا هذه الخدعة بسهولةٍ جليّةٍ: إلا أني مع ذلك أعتقدُ أنه ما زالَ الأمرُ يتطلَّبُ قدراً كبيراً من النِفاق، وحتى في هذه الأيام التي يفتَرَضُ أنَّ المجتمعَ في العالم الغربي قد نَبَذَ تحاملاته. أما إحساسي فيقولُ إنَّ التحاملات ببساطة قد استترت.

على أي حال لقد كنتُ مفرطاً في غرابةِ أطوارِ سلوكي خلال ذلك العقد، حتى بالنسبة إلى أعضاء عالم اللواط المتحفّظين.

(أرجوك لا تُسيء فهمي - إلا إذا كنتُ أنا الذي أُسيء فهمَ نفسي)

كان منحى حياتي قد حادَ عن إقامة أي اتصالات اجتماعيةٍ أو جنسية، ليس بالاختيار الواعي وإنما من خلال التراجُع أعمق فأعمق إلى داخل عالم ذاتي المكسور.

وصلتُ إلى الدركِ الأسفل لتلك الفترة المُطوَّلةِ من الكآبة حين بدأتُ أعيشُ في عزلةٍ مُطلَقةٍ. نسيتُ العامَ والفصلَ لكنَّ الغريزةَ عادتْ بي إلى نيو أورلينز وقمتُ بآخر جهدٍ منعزل للمْلَمَةِ شتات نفسي. في ذلك الوقت كان ما يزالُ في مقدوري أن أبذلَ مثل ذلك الجهد ولكن كان دائماً يُقَدَّرَ له الفشل الذريع. أعتقدُ أنَّ الكآبةَ تُصنَّفُ بأنها " مَرَضيّة " عندما يكفُّ الضحية عن الحركة، ويمتنعُ عن الأكل والاستحمام. وأنا لم أهبط قط إلى تلك النقطة، ولكن على الرغم من جهودي التي بذلتُها لأواصلَ الحياة، أعتقدُ أني كنتُ مدركاً لجاذبيّةِ الموت. ولطالما كان أشدُ جوانب الكآبةِ إيلاماً عجزي عن التحدُّث إلى الناس. فما دامَ المرءُ قادراً على التواصُل مع إنسانٍ آخر متعاطف، فإنه يستبقي فرصةَ الخلاص.

* * *

في الوقت الذي وصلتُ إلى نيو أورلينز كنتُ قد انحدرتُ تقريباً إلى حد الخَرَس. ومع ذلك كان هناك شيءٌ يحاولُ بهذيانٍ، بل بيأسٍ، أن يجدَ حلاً.

اكتشفتُ عبرَ أحد الأصدقاء، مكاناً مثالياً للقيام بمحاولةِ الخندق الأخير تلك. وقد أعدَّ أو أعدَّتْ، لستُ متأكداً من هويته، العِدَّةَ لأجلي كي أُقيمَ فترة ستة أشهرٍ في منزلٍ صغيرٍ وردي اللون جميل ذي مصاريع نوافذ بيضاء ويقعُ في شارع دوفين في " الحي ". وكان قد جُدِّدَ بشكلٍ جميلٍ وأُثِّثَ على يدِ المرحوم كلاي شو، وكان يُشكِّلُ جزءاً من مجموعةٍ من المنازل الصغيرةِ تواجه شارعيّ دوفين وسينت لويس، أُنشئت على هيئة حرف ""L حول فناء جميل يحتوي بركةَ ماء للسباحة، ولكلِ منزلٍ حديقته الصغيرة الخاصة. وكان على الرغمِ من هذه الظروف الملائمة كلها، حولّتُ المنزلَ إلى شيءٍ ممكنٌ الدفاع عنه من الناحية النفسية مثل" جُحر " كافكا.

كنتُ في صباحِ كل يوم أحاولُ أن أكتب، لكنَّ الأمرَ لم يكن يقلُّ صعوبةً عن محاولةِ التكلُّم.

بعد مرورِ أسبوعَين أو ثلاثة نجحَ آخرُ مَنْ بقيَ لي صِلة بهم في نيويورك في إقناعي بإقامة حفلة، وكانت من أشدَ ما شهدتُ من حفلاتٍ كارثيّة وإثارة للسخرية.

كانت " قضيةُ أكل " وقد دُعيَ إليها كلُّ مَنْ أعرفه في المدينة. ولم يكن في استطاعتي غير أن أُحَيّي بعضاً منهم باسمه. وقبعتُ في ركنٍ ورحتُ أنظر إليهم جميعاً بسيماء الانسحابِ المتجمِّد.

أترى مدى صعوبة الكتابة عن كآبةٍ بهذا العمق؟

أوصاني أحدهم باللجوء إلى مُحلّلٍ نفسي. فرحتُ أتردَّدُ عليه يومياً لكني كنتُ حالما ألجُ غرفةَ مكتبِه أصرخُ " إنني مريضٌ جداً وعاجزٌ عن التكلُّم. إنني مرعوبٌ، أرجوكَ أعطني الزجاجةَ الخضراء "

والـ " زجاجة الخضراء " تحتوي سائلاً يُسبِّبُ قليلاً من النُعاس، يعملُ على التخفيف من مستوى الرعب لكنّه لا يُطلِقُ لساني في الكلام.

إنني لستُ متأكّداً من التسلسل الزمني لبعض الأحداث خلال فترة الكآبة الرهيبة تلك.

أعرفُ أني كنتُ بين حينٍ وآخر أعودُ إلى الشقةَ الصغيرة الرائعة الكائنة في الشارع الخامس والستين الشرقي. كنتُ أخرجُ مرةً كلَّ أربعٍ وعشرين ساعة إلى محل البقالة الصغير عند المنعطف في ليكسنغتن، لكي أشتري علبة سباغيتي. وكانت تلك هي وجبتي اليومية الوحيدة في عزلتي، ولا أذكُرُ أني كنتُ أُزيّنها بأي نوعٍ من أنواع الصلصة.

لم أكنْ أُجيبُ على رنين جرس الهاتف أو باب الدار، الذي كان يرنُ بجانب مُكبِّر الصوت في المطبخ.

نجحتْ سيدتان في اختراق عزلتي التامة. إحداهما كانت قريبةٌ بعيدةٌ لي عن طريق التصاهُر، اسمها نان لانيير. ظلّتْ تقرعُ كل الأجراس في الطوابق السفلى إلى أنْ سمحَ لها أحد النزلاء بالدخول. فجاءتْ إلى بابي وقَرَعَتْ ونادتْ عليّ إلى أنْ أدخلتُها أخيراً. فنظرتْ إليّ وسألتني " ألا تنام، يا توم؟ "

" هنا؟ لا، إني لا أعرفُ للنوم طعماً "

أعطتني اسمَ مُحلّلٍ نفسيّ وأرسلتني إليه. قاسَ ضغطَ دمي فإذا به منخفضٌ كثيراً حتى أنه قال لي إنه لا يفهمُ كيفَ استطعتُ أن أرتقي الدَرَجَ حتى المسطبة الأولى حيث تقعُ عيادته. وزرقَني بحُقنةٍ ليرفعه. وعندما ارتفعَ وَصَفَ لي أقراصَ الدورايدن وقرصاً من الميلاريل ذي الخمسمائة ميلليغرام في كل ليلة. ووعدَ بأنها ستجلبُ النومَ إلى عينيّ. وقد فعلَتْ.

السيدة الأخرى التي قامتْ بزيارتي كانت صديقةَ أوقاتٍ أكثرَ سعادةٍ كنتُ قد قابلتُها على متنِ سفينةٍ عائدةٍ إلى أوروبا. كانتْ فارعةَ الطول ووقوراً، وذات صوت

أخّاذ. ولا أدري لماذا يُراوغني تذكُّر اسمَها. إنها تُذكّرني بـ " اليانور الأكيتينيّة"[٦٥]. وقد أقنعتُها بأنْ تُسجِّل بصوتها مقاطعَ من مسرحية " كامينوريل " لشخصية مارغريت غوتييه. كانت تُقيمُ في بولتيمور حيثُ تتبوّأ مركزاً اجتماعياً رفيعاً.

ذات مساء اقتحمَتْ عليَّ عُزلتي في الشارع الخامس والستين الشرقي بطريقة نان نفسها.

تعرَّفتُ على صوتها عند الباب وأدخلتُها.

قلتُ لها " لا أستطيعُ أن أتكلم "

قالت " ليس ضرورياً "

ثم جلستْ إلى جواري على مقعد الحب الصغير ذي اللون المشمشي في غرفة الجلوس وبيديها النحيلتين الطويلتين أَخذتْ تُدلِّكُ جبيني. لم نتبادل الحديثَ، لكنَّ يديها على جبيني منحتاني قدراً من الراحة.

بعد ذلك بفترةٍ من الزمن اتَّصَلَتْ بي هذه السيدة العظيمة من بولتيمور وقالت لي " إنني أحتضرُ يا توم "

قلت " أوه، رباه، كلا "

" نعم، إنني أموت "

لم يَشُبْ صوتَها أوهى أثرٍ من رثاءٍ للذات.

قالت " لقد باتَ الأمرُ مؤكّداً الآن، وأريدُ منكَ أن تُصلّي كي يحدثَ ذلك سريعاً، بأسرعِ ما يمكن "

بعد ذلك بفترةٍ قصيرة ماتت.

لقد عرفتُ خلال حياتي عدداً من الشخصيات النبيلة.

أقولُ هذا ربما بسبب ظروف وفاتها المأساوية - كلا، ليس هذا هو الأسلوب الأمثل للتعبير عن الأمر، لقد كانت طريقةً نبيلةً جديرةً بأقصى إعجاب أن تموتَ بأنْ تُبلِّغَ صديقاً عزيزاً بذلك هاتفياً مع مراعاةٍ فائقة لردَّة فعله. ومع ذلك، كان وَقْعُ الحَدَث صاعقاً جداً عليَّ، عندئذٍ والآن، ولعلَّ هذا يُفسِّرُ لماذا لا أتذكَّر هذه السيدة إلا على صورة اليانور الأكيتينيّة.

خلال إحدى تلك الفترات التي أمضيتُها في نيويورك توصَّلتُ بصورةٍ ما إلى الاتصال بقريبٍ بعيدٍ لجدَّتي لأبي، هو جيم آدمز، وأقنَعتُهُ بمرافقتي إلى كي ويست.

وبعد أن راقبني بضعة أيام قال " هذا لن ينفع، يا توم، أنا وأختي ستيلا نعرفُ مُحلِّلاً نفسياً ممتازاً من نيويورك وأعتقدُ أنَّ في استطاعته أن يُساعدك ". وهكذا عُدنا أدراجنا إلى نيويورك.

كان الحالُ أفضل هناك. عثرَ لنا جيم على شقةٍ من طابقين تقعُ في أعلى المبنى نفسه الذي يقعُ فيه السيتي سنتر ثم سلَّمَني إلى المُحلِّل النفسي، وكان أحد خرِّيجي مدرسة كارين هورني، واسمه رالف هاريس. كان يعودُني في كل يوم وبدون تكلفةٍ عالية، بدا مُهتماً من الناحية الإنسانية، وليس فقط المِهَنيّة، بل لقد سمحَ لي بأن أحتفظَ بكأسٍ من المشروب بجانب مضجعي، وأصبحتُ تدريجياً قادراً على التحدُّث إليه.

شَغَلَ جيم الطابق العلويَّ من الشقة وشغلتُ أنا السفلي، وكان لعقاراتي المنوِّمة الجديدة تأثيرٌ خفيفٌ مُنوِّم، وقبل أن أستغرقَ في النوم بنحو نصف ساعة تغمُرُني موجةٌ من السكينة، وتتراخى العُقَدُ المشدودةِ بعنفٍ داخلَ رأسي، وكأنَّ ملاكاً يسهرُ بجانبِ سريري الرحب.

تخلَّلَ عصر تحجُّري فتراتٌ من السكينة، تزامنت في الغالب مع العروض المسرحية في عقد الستينات، وكلها كانت فاشلة بصورةٍ كارثيّة - نظراً إلى عجزي عن مواكبة الاستعدادات لها وإلى التحوُّل الذي طرأ على عملي نحو أسلوبٍ جديدٍ وعالمٍ خلّاق جديدٍ وجدَ النقَّادُ والجمهورُ صعوبةً في تقبُّلهما بسهولة وسرعة.

لقد كانتْ حياتي ضالَّةً. تنقَّلتُ من مكانٍ إلى مكان، غالباً بصُحبةِ العزيزة ماريون فاكارو - ولم أعد أسافرُ مع عشيقٍ ذكَر. أذكُرُ أني ذهبتُ معها إلى طنجة، وإلى جزيرة رودوس اليونانية، وأذكر اشتراكنا في السُكر.

في رودوس حدثَ أمرٌ مضحك. فقد كان الأسطول الأميركي راسياً في الميناء الذي كان يتلألأ بأضواءِ السُفُن الحربية. جلستُ مع ماريون على مائدةٍ في مطعم على الشاطئ في الهواء الطَلْق، ورحتُ أتذمَّرُ من الفندق الذي كنا ننزلُ فيه والذي أطلَقَتْ ماريون عليه لَقَبْ " معسكر الاعتقال "

" لماذا لا تذهبين يا عزيزتي إلى فندق ديه روز وتحجزي لنا إذا أمكنكِ ذلك؟ "

لم تكن ماريون ترفضُ لي طَلَباً طوال سنوات معرفتي العديد بها. فانطلقتْ، وهي سكْرى وتترنَّحُ، إلى فندق ديه روز.

بقيتُ جالساً وحدي على الطاولة المُطلَّة على واجهة الماء، يجعلُني السُكرُ كالأبله، أتلفَّتُ فيما حولي، كالسحلية، بحثاً عن أحد أفراد طاقم البحرية الأميركية الجذّابين الذين نزلوا لتمضية الإجازة.

جلستُ، خائبَ الأملِ، طويلاً، بل طويلاً جداً، أتساءلُ عما حدثَ لماريون.

أخيراً عادتْ وكان منظرُها فُرجة. كان الجزءُ الأماميُّ من ثوبها منقوعاً بما بدا لحاسَّتي الشَمِّيّة وبشكلٍ لا يرقى إليه الشك أنه بول.

سألتُها بتعقُّلٍ مُندهش " كيف تبلَّلتِ هكذا يا عزيزتي؟ "

" في الواقع يا عزيزي، في منتصف الطريق إلى فندق ديه روز شعرتُ بحاجةٍ إلى التبوُّل فرفعتُ أذيالي ببساطةٍ وتبوَّلتُ على الطريق، وسرعان ما اكتشفتُ أني إنما تبوَّلتُ على ثوبي "

" ثم ماذا فعلت؟ "

" لا شيء، تابعتُ طريقي إلى فندق ديه روز وحاولتُ أن أحجزَ غرفةً لنا هناك، لكنَّ الموظَّف الأبله الجالس خلفَ النضُد قال إنَّ المكان كله محجوز على آخره حتى بعد ثلاثة أشهر "

" أوه "

وطفقنا نضحك معاً.

* * *

في منتصف عقد الستينات وقعَ أمران على جانبٍ عظيمٍ من الأهمية في حياتي. أقلّهما شأناً كان ارتباطي بشخصٍ يجمعُ ما بين الرفيق والوكيل يتمتَّعُ بقدرٍ هائلٍ من السحر، والفكاهة، وبشكلٍ يتَّسمُ بشيءٍ من الفتنة، سوف أمنحه اسماً زائفاً هو راين. ولا أزالُ أهيمُ به ولكن يجب أن أتجنَّبَ ملاقاته لأنَّ مقابلته حتى إنْ قَصُرَتْ مُدَّتُها وكانت عَرَضيّةً تُعيدُ إليَّ ذكرى عقدٍ كارثيّ من حياتي، في الستينات. إنني أخشى أن أقرنَه ظُلماً بمِحَنٍ كابدتُها وبالكاد نجوتُ منها في تلك الحقبة من الكآبة المستحكمة وجنون الارتياب. ولعله كان الأقربَ في تمثيله شخصيةَ تشانس وين في مسرحية " عصفور الشباب العذب " في حياتي، على الرَغم من أن المحتوى الجنسي - حسب ما أذكُر، وأنا أحاولُ بكل جهدي أن أتذكَّرَ قدرَ ما أستطيع - لذلك الارتباط كان ضئيلاً جداً وكان باختياره هو.

الحَدَثُ الأشدُ أهمية الذي وقَعَ في منتصف الستينات هو كوني أصبحتُ أحد مرضى طبيبٍ يُكنَّى أحياناً بالطبيب المُداوي. فقد كنتُ قد وصلتُ إلى دركٍ من الكآبة بحيث أنَّ شخصاً يهمّه أمري رأى أنه يجب أن يقدِّم لي يد المساعدة، فإذا بتلك المساعدة تتمثلُ بسيدٍ كنتُ أرتبطُ معه مهنياً - أعتقدُ أنه يُفضِّلُ ألاّ أذكرَ اسمه. وقد كان مريضاً عند الطبيب المُداوي فترةً طويلةً من الزمن، يتلقّى مداواته كبديلٍ لفترةٍ من الإدمان على الكحول مرَّ فيها في الماضي وكان يؤمنُ بإخلاصٍ بأنَّ ذلك الطبيب يستطيعُ أن يُشفيني مما كنتُ فيه. وهكذا، ذات أمسية إبَّان عودتي إلى نيويورك، وأنا في حالةٍ من شبه انهيارٍ تامّ، رافقني ذلك السيد، مُبدياً أقصى حالات الاهتمام بي، إلى مكتب الطبي المُداوي وهناك تلقَّيتُ أوَّلَ جرعاتي " المُداوية ". ويجب أن أعترفَ بأني كنتُ مذعوراً من تناولها، لكنَّ الطبيبَ كان يُحيطُ به جوٌ سحري من التفهُّم والتعاطف. لم يُخضعَني للفحوصات الفيزيائية المعتادة: أعتقدُ أنه حتى لم يَقِس نبضي أو ضغطَ دمي ولم يدفعني إلى ملءْ ورقة استبيانٍ عن تاريخي الطبي، واكتفى بالنظرِ إليّ وكانت مُعاينته عَرَضيّةً بشكلٍ خادع، فهو لم يكتف بالنظرِ، ولعله كان ينْفَذُ ببصره إلى دخيلتي. ثم بدأ يُعدُّ الحقنة، ويسحبُ قدراً ضئيلاً من سائلٍ من زجاجةٍ ومقداراً آخر من أخرى ثم أخرى بينما ترقُّبي وذُعري يتفاقمان. وكان طوال تلك الإجراءات يُسامرني بأشدّ الأساليب المازحة بثّاً للطمأنينة في النفس. وأخيراً طلبَ مني أن أُنزلَ سروالي وحقنني بكمياتٍ كبيرةٍ من السوائل الغامضة تحت الجلد في فخذي. وبعد مُضيّ ما يُقاربُ الدقيقة حدَثَتْ معجزةٌ. شعرتُ كأنَّ ناووساً صلداً يُغلِّفني انفتحَ وانطلقَتُ أحلِّقُ كعصفورٍ متحرِّر.

السيد الذي أخذني إلى هناك كان قد عادَ إلى منزله، لكنَّ ممثلاً شاباً أعرفه كان حاضراً: بل إنه في الواقع كان مُساعداً بعض الوقت للطبيب بالإضافة إلى كونه مريضاً عنده. أوصَلَني إلى الشقة الخالية في الشارع الخامس والستين الشرقي، ولكن بعد أن قُمنا بالتفافةٍ طويلةٍ، بما أني كنت قد تركتُ أمتعتي في مطار كينيدي. وكنتُ أكرِّرُ قائلاً " رباه، إنني أعيشُ شعوراً مذهلاً. ثم سألته " كم سيدوم؟ " فابتسمَ مع لمسةٍ من حزنٍ، وقالَ " لا تفكِّر في هذا يا تنيسي "

في أول الأمر كنتُ أترددُ على عيادة الطبيب المداوي لكي أتلقَّى الحُقَن، ولكن سرعان ما أخذَ يُزوِّدني بزجاجاتٍ، تختلفُ كلٌ منها قليلاً عن سابقتها، وصرتُ أحقنُ نفسي بنفسي في العضل إبَّان استيقاظي في صباح كل يوم.

لعلّي لو امتنعتُ عن معاقرة الخمر، والمُهدِّئ الليلي المؤلَّفُ من قرصيَّ الدوريدان وقرص الميلاريل ذي الخمسمائة ميلليغرام، ناهيك عن المُسكِّن الصباحي الذي كنتُ أتناوله فور أخذ حقنةِ العضل، لما حصلَ لديَّ مضاعفاتٍ عكسيةٍ من تورُّطي مع الطبيب.

حين كنتُ أسافرُ، وهو ما واظبتُ على ممارسته كثيراً، كان الطبيبُ المُداوي يُرسل زجاجات الدواء بالبريد إلى حيثما أذهب. فإذا ما تأخَّرَ وصولها يوماً أو اثنين عمّا كنتُ أتوقَّعُ يُصيبني الذعر جرّاء ذلك: إلا أنها كانت، في آخر المطاف، تصلني. كانت تدفعني إلى العمل؛ كانت تُحفِّزني على الاستمرار. إلى أنْ – لكنَّ ذلك وقعَ لاحقاً.

الآن سأعودُ إلى الشاب الفارع الطول الذي سمَّيتُهُ راين.

ساكنتُهُ مدةً تُقاربُ الخمس سنوات في منتصف الستينات. كنتُ أقابله في تلك الشقة العليا، ذات الطابقين، التي شغلتُها فترةً وجيزةٍ مع ابن العم جيم آدمز. ثم ظهرَ راين ومايك ستين ذات يوم وأخذاني إلى مكانٍ ما في سيارةِ راين السبور الإنكليزية، من نوع تريومف.

سألني راين إنْ كنتُ أتذكّر لقاءنا الأول: لم أتذكّر. قال إنه كان قد حضرَ إلى مسكني مع مجموعةٍ من الأصدقاء ذات ليلةٍ في عقد الخمسينات وأني علَّقتُ فوراً على جمالِ مؤخرته – حسنٌ، إنَّ هذا، حتماً، خليقٌ بي...

بعد ذلك بفترة قصيرة أخذَ راين يتردَّدُ عليَّ ليلاً أكثر فأكثر. وأتذكَّرُ كم كانت لذيذةً كؤوس الكوكتيل، المصنوعة مع عصير البرتقال. وأتذكَّرُ إنصاتنا إلى آخر ألبومِ لبيلي هوليداي " سيدة بثوبٍ من الساتان " وطَرَبي لسماعه.

كثيرون سيقولون إنَّ راين كان أشدُّ مَنْ رافقتُهم وسامةً، لكني أؤكد لك أنَّ مُلازمتي الطويلة الأمد له يعودُ سببها إلى خبرته الإدارية – وكان بارعاً فيها بحق – أكثر منها إلى ارتباطي العاطفي به. صحيحٌ أنه كان يتَّصفُ بطبيعةٍ مَرِحةٍ وأننا ضحكنا كثيراً معاً، لكنَّ الطريقةَ التي دفعَ بها ابن العم الشابَ إلى مغادرة الشقة لكي يحلَّ محله كانت قاسيةً نوعاً ما.

إنني لا أزال أهيمُ براين. لعله تسبَّبَ كثيراً في انهياري العصبي التدريجي (؟)، ولكن هو أيضاً قاسى كثيراً. إذ ليس من السهل معايشة كاتبٍ اختارَ أن يكونَ جثةً

حيّةً إلا أثناء نوبات العمل الصباحي. لم أكن مهتماً إلا بالعمل. لم أكن أعرف إنْ كنتُ أريدُ أن أعيش أم لا، وكان على راين أن يتأقلم مع هذا وطبعاً كان عبئاً ثقيلاً.

لقد كرَّسَ راين فعلاً أغلب وقته لي، يُرافقني إلى آخر مُحلِّل نفسي ألجأُ إليه وإلى جمعية الشبان المسيحيين لأسبح. ومع ذلك أخشى أنه في الغالب اعتبرني وسيلةً من وسائل الراحة، وأصدقك القول كما كنتُ دائماً إنه خلال تقريباً السنوات الخمس من تلازُمنا لم يعرُض نفسه عليَّ إلا ثلاث مرات أو أربع، وحسب ما أتذكَّر فإنني خلال فترة مكوثه معي لم أُقِم أية علاقة جنسية مع أي شخصٍ آخر.

إنَّ كلَّ العلاقات الحميمة تتحوَّل لاحقاً إلى قصائد جميلة. وهذا الشيء[٦٦] يمكن أن يحتوي صوراً تضُمُّني وراين في أماكن مثل روما وكي ويست ونيويورك: تُبيِّنُ راين وهو يعانقُ اليزابيث تيلر أثناء تصوير فيلم " بوووم " في جزيرة سردينيا. وقد كان خنثوياً ولديه جاذبية شديدةٌ للنساء فيما عدا ليدي ماريا سينت جوست والآنسة ايلين ماكول، اللتين كانتا تعترضان على فرط وسامته وشدَّة زُرقة عينيه.

(كانت أمه قد قالت له لدى مغادرته ليقوم بعملٍ حقيقي في أوقات الصباح " بارك الله في عينيك ")

أتذكَّرُ ذات ليلة في عقد الستينات حين كنتُ وراين نقطنُ (في غرفتيَّ نوم منفصلتين) ذلك البناء الشاهق المخيف المجاور لمقرَّ داكوتا، في غرب سنترال بارك. وكنا نشغلُ الطابقَ الثالث والثلاثين، وذات ليلة، في وقتٍ متأخر جداً جداً، تلقَّيتُ مكالمةً هاتفيةً مسعورةً من صديقةٍ كانت قد اختفتْ - وأدمنتْ المخدرات - عدة سنوات. قالت إنها لا تملك المالَ اللازم لتسافر إلى أهلها، فطلبتْ منها أن تأتي لكي أنفحها أجرة السيارة.

لم تمكث غير بضع دقائق كانت خلالها تتوسَّلُ إليَّ كي أعطيها بعض الحبوب المنوِّمة. " أنا أعلمُ أن لديك بعضاً منها "

كان لدي فعلاً، لكنني خشيتُ ألاّ تعود إلى والديها إذا ما تناولتُ أيَ قدرٍ آخر من" أقراصي " الثمينة. بدلَ ذلك أعطيتُها قرصَين من شيءٍ آخر.

ثم عادَ راين من جوسه الليلي المعتاد، فأخذتْ تراقبه بصمتٍ برهةً أو اثنتين، ومن ثم قالت " أريدُ أن أتحدث معك على انفراد يا تنيسي ". فخرجنا إلى تلك الشُرفة

الإسمنتية الصغيرة المُرعبة التي كانت بالكاد تتَّسِع لكرسيين. وهناك قالت لي " تنيسي، كيف تجرؤ على أن تسكن الطابق الثالث والثلاثين من بناءٍ مع رجلٍ ذي عينين كتينك وشُرفة يمكنه أن يرمي بك منها؟ "

بما أني كنتُ، عندئذٍ، مجنوناً، عملتُ في صباح اليوم التالي على الاتصال بمخزن مورغن - مانهاتن وجعَلتُهم يُفرغون الشقةَ من قطع الأثاث كلها، هكذا ببساطة.

ثم انتقلتُ وحدي إلى أحد الفنادق - لعله آلريه؟ - لكنَّ راين اكتشفَ مكاني في غضون يوم أو يومين وانتقلَ ليعيشَ معي. وتقبَّلتُ عودته. وشغلنا جناحاً بغرفتيَّ نوم. وضحّينا بالإيجار المُقدَّم الذي دفعناه، في شقة البناء الشاهق. ولعلّ راين، عندئذٍ، بدأ يكرهني. فإذا كان قد فعلَ، فإنه أخفى الأمر. وعاودنا تجوالنا اليومي في أنحاء مانهاتن، نتبضَّع ونتناولُ طعامَ الغداء في مطعمٍ فرنسي صغير فاتن يُدعى ليسكارغو ونسبح في الجمعية.

ثمة حادثة صغيرة، وقعتْ في بوزيتانو، إيطاليا. كنا نمضي فصل الصيف هناك، قابلتنا نان لانيير، وكانت عندئذٍ قد انفصلتْ عن زوجها، في نابولي في فندق اكسيلسيور وشكَّلنا معاً ثلاثياً في بوزيتانو. كنتُ أجدُ صعوبةً في السير جراًء ما كنتُ أتلقاه من حُقنٍ وأقراص. فاستقلنا سيارة لنذهب إلى مكانٍ ما. وجلسنا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي، ثم أحاطَ راين كتفيّ نان بطريقةٍ مُغرية بذراعه، وكانت هي سيدةٌ مثيرة جداً. ثم التفتَ نحوي وقال لي بعجرفته المفرطة " تنيسي، لمَ لا تنتقل إلى المقعد الأمامي مع السائق؟ "

كان بهذا قد أساءَ تقدير ردَّة فعلي على إهانته تلك، فقلت " أُخرج من هذه السيارة، يا راين! "

فخرج...

إنني لم أصل قط في حالة النسيان في الستينات إلى حد الانسحاق. كنتُ كثيراً ما أقعُ، نعم، ولكن لم يسحقني إلا النقَّاد...

* * *

في عام ١٩٦٧، وبمعيَّة ٤٠٠.٠٠٠ دولار هو " مُقدَّم " من شركة هوليوود ستوديو، وديفيد ميريك كمنتجٍ لصالح برودواي، وخوزيه كوينتيرو كمخرج - قُدِّمَتْ

مسرحية " مملكة الأرض " التي كنتُ قد كتبتُها من أجل مورين ستابلتن لكن قامت استيل بارسنز بالدور.

لكنَّ الأمورَ لم تسُر قط على ما يرام.

أرادَ ميريك أن يطردَ كوينتيرو، لكني أصررتُ على بقائه فرضخَ ميريك أمام إصراري.

كان العرضُ الافتتاحي في نيويورك كارثياً على الرغم من الأداء الرائع لبارسنز وبراين بدفورد.

كان بعض النقّاد المتحيِّزين بغيضين جداً حيال المسرحية. قالوا إنهم كانوا متحرِّقين لحدوثِ الفيضان المتوعَّد، وانهيار المنزل وغرق الجميع.

الغريب في الأمر، أنَّ والتر كير هو الذي لاحظَ، في عموده الذي يكتبه يوم الأحد، أنها مسرحيةٌ تحتوي تصويراً ممتازاً ومضحكاً للشخصيات، وأنه يأملُ في أن أُعيدَ كتابتها ذات يوم.

في الحقيقة، إنَّ ما كانت تحتاجُ إليه هو الاختصار، ولم يكن خوزيه العزيز هو الشخص المناسب للقيام بالمهمة. هو يتمتعُ بحسِّ الفكاهة، لكنها فكاهة مرهفة توجد في القلب المُترع بالحزن.

لعلّي ذكرتُ أني شهدتُ إحياءَ عرض " مملكة الأرض " في دار مسرح صغير، نائية في الكوست. كانت قد اختُصِرَتْ إلى طولها المناسب، مع توزيعٍ جميلٍ للأدوار، والسيدة التي أخرجتها أبرزتْ أسلوبها الفاحش ولكن المؤثِّر في المشاعر وموضوعها القوي.

إليكَ المزيد عن مسرحيات عقد الستينات، " العصر المتحجِّر ".

" مأساة هزلية "، مؤلَّفَةً من مسرحيتين قصيرتين، قُدِّمَتْ في عام ١٩٦٦ ومرة أخرى هاجمتني الصحافة بمخزونها الهائل كله الذي لا يعرفُ الرحمة من الذخائر.

كانت مارغريت لايتن ممتازة في دور " The Gnodiges Frraulin" (الآنسة الرحيمة)، وزويه كولدويل أيضاً ممتازة. لكنَّ هذه المسرحية ذات الفصل الواحد رفضها والتر كير بهذا السطر المُدمِّر الذي وَرَدَ في نهاية تعليقه " إنَّ الكوميديا السوداء لا تناسبُ السيد ويليامز ".

إنني أنا الذي ابتكَرَ الكوميديا السوداء الأميركية ولا شك في أنه كان من الذكاء بحيث يعرفُ ذلك.

تحدَّثَ أيضاً بشفقةٍ متعاليةٍ عن المسرحية الثانية من المسرحيتين، " المجدوع "، وهي عملٌ كان واعداً لكنه فشِلَ. كان قطعةً مفرطة الطول، طنَّانة، وفي رأيي أنه أُسيءَ إخراجها على يد ألان شنايدر، المخرج الضئيل المكشِّر ذو قلنسوة رياضة البيسبول الحمراء. قُدِّمَتْ في أربعةِ عروضٍ برعاية تشارلز بودن وليستر برسكي.

في الأمسية اللاحقة لعرضها الافتتاحي أخذتُ ماغي لايتن ومايكل ايلدنغ إلى مطعم ساردي. من باب التحدِّي الصِرف. وكان راين معنا، ودخلنا فسمعتُ ماغي تقول لمايكل" يا له من مسكين، يُثيرُ الشفقة؛ إنه لا يعرفُ ما يُصيبه "

لقد كنتُ أعرفُ ما يُصيبني، لكني أمسكتُ لساني...

لن أنسى ما حييتُ الأداءَ المذهل للايتن في تلك المسرحية ولن ينساه كل مَنْ شاهدها.

مسرحيتي التالية في الستينات كانت " في بار فندق طوكيو ". وخلال تلك الحقبة كنتُ دائماً أسقطُ ودائماً أقولُ، قبل السقوط، " إنني أوشك على السقوط "، ولا أحد تقريباً، لا أحدَ كان يسندني.

ذات صباح في ذلك " العصر المتحجِّر "، وكان صباحاً فظيعاً، خرجتُ إلى غرفة الجلوس لأجدها ملآى بمايك والاس وفريق التلفزيون، وقال مايك أخيراً " أوكيه، هيا بنا، لن نحصل منه على أي شيء اليوم "

حضَرَ الزوجُ والزوجةُ اللذان أنتجا " بار طوكيو " إلى كي ويست، وعلى الرغم من أني كنتُ أراهما في كل يوم طوال أسبوعٍ، إلا أني بعد ذلك نسيتُ كل شيء عن زيارتهما تلك، وعن خطتهما لإنتاج هذا العمل الذي أعطته أودري لهما.

مثَّلَ كلٌ من دونالد مادن وآن ميتشم فيها وكانا رائعين.

حَضَرَتْ أمي وديكن العرض الافتتاحي. وقالت أمي لي " آنَ الأوان يا توم كي تجدَ لكَ عملاً آخر "

* * *

آه، ربّاه، ما أشدَّ شعوري بالوحشةِ هذا الصباح. أتدركُ ما أعني. أقصد إلى أي مدى أعنيه؟

الحقّ، لا أحدَ أدركهُ، منذ أيام فرانكي - إلا الأصدقاءُ القدامى.

تبدو في كلامي نبرةُ رثاء الذات، وهي عاطفةٌ إنسانيةٌ لا مناصَ منها أحياناً، بغضِّ النظر عن تخلِّيها عن الكبرياء.

لكني عشتُ حياةً رائعةً ورهيبةً ولن أبكي على حالي: هل كنتَ فعلتَ أنتَ؟

* * *

يبدو أني أوشكُ أن أفقدَ أمي. فحين اتصلتُ بها هاتفياً قبل يومين رداً على رسالتها الغريبة التي تناشدني فيها أن أعودَ إلى الوطن وآخذها معي أينما كنتُ، قلتُ لها إني أهمُّ بالمغادرة إلى نيو أورلينز ويُسعدني أن أستقبلها عندي هناك، وإنه في إمكان ديكن أن يودِعها الطائرة وإني سأكون في استقبالها.

" أوه، توم، لقد عدتُ لتوي من نيو أورلينز. كنتُ في مستشفى الشمَّاسة هناك لأني أُصِبتُ بالتهابٍ شديدٍ في الحنجرة جراًء النوم على ملاءاتٍ قذرة. أسرعْ بالعودة إلى البيت "

" أمي، سأتصل بديكن. أين يمكن أن أجده الآن؟ "

" أعتقدُ أنه في مكتب المحاماة خاصته "

" وما هو رقم هاتفه هناك، يا أمي؟ "

" أوه، بُني، سيكونُ عليَّ أن أصعدَ إلى الطابق العلوي لأُحضِرَه ولا قُدرةَ لي على الصعود"

طبعاً اضطربتُ اضطراباً شديداً. فحصلتُ على رقم هاتف مكتب ديكن بمساعدةِ الدليل في كولينزفيل. ردَّ أمين سرِّه بهدوءٍ شديد، وقالَ إنه لا يمكنُ الوصول إليه في الوقت الحاضر، ولكن في وسعي أن أتَّصِلَ به في تلك الأمسية عند أمه، في الساعة السادسة.

اتَّصَلَ بي عند السادسة وكان عند أمي. فقلتُ له إنها أبلغتني أنها قد عادت لتوِّها من مستشفى الشمَّاسة، في نيو أورلينز، وسألته إن كانتْ حكايتها المفتقرة إلى التناسق صحيحة.

أخبرني أنها لم تذهب إلى نيو أورلينز، لكنها سُرِّحَتْ من مستشفى الشمَّاسة في سينت لويس.

" كيف حالها؟ "

" شديدة الوهَن. تجدُ مشقَّةً في السير على قدميها "

ثم استلمتْ سماعة الهاتف وقالتْ من جديد " توم، عُدْ بسرعة "

اليوم سأتَّصِلُ بأطبائها لكي أحصلَ على تقريرٍ عن واقع حالتها.

ليلة أمس انتابني قلقٌ عارم حتى عجزتُ عن التمثيل في عرضٍ يُقدَّمُ على المسرح الجديد.

إذا كان تقريرُ أطباء مستشفى الشمَّاسة سيئاً، كما أتوقَّعُ، سأضطرُّ إلى التوجُّه إلى سينت لويس، المكان الذي يُرعبني، في وقتٍ أعاني، أنا نفسي، رعباً فطرياً.

قدَّمتُ لتوي ما أتوقَّعُ أن يكونَ آخرَ أداءٍ لي في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة"، وكان أيضاً بمثابةِ عرضٍ وداعيّ لهيلينا كارول فابتعتُ زجاجتين من شمبانيا بايبر - هايدسك، وعند إسدال الستار أعلنتُ على الجمهور، بعد أن انحنينا الانحناءَ الجماعية، أنَّ عرضَ هذه الليلة كان " العرض رقم مائة واثنين وخمسين للآنسة كارول وإننا نودُّ أن نُعبِّرَ عن تقديرنا لعملها الشجاع واللامع ". ثم، وكما كنا قد رتَّبنا - التفتنا جميعاً نحوها وصفَّقنا لها مع الجمهور. وبعد إسدال الستار شربنا نخبها ونخبَ أختها، التي كانت تشاهدُ العرضَ في تلك الليلة، بالشمبانيا. وهكذا انتهى ارتباطها بتنويهٍ كريمٍ - أشعرُ أنها كانت تستحقّه لأنها كانت، بحقّ، قد قدَّمتْ جهداً شاقاً في ظروفٍ صعبة.

ثمة إشاعةٌ مفادها أنَّ المنتجين أرادوا إبعادها عن المسرحية فقالوا لها إنَّ المسرحيةَ سوف تغلق ليحصلوا على استقالتها: بكلمةٍ أخرى، إنَّ رحيلها خطَّطَتْ له الإدارةُ، وأنا أعتقدُ أنَّ المرأةَ الرقيقة تتمتعُ بالموهبة الكافية للشك في هذا القول ويؤلمني، الآن، أنها قد استُبدلَتْ ببغ موراي.

أعلمُ أنَّ هذه هي المقتضيات القاسية للحياة في عالم المسرح: حيثُ لا مجالَ للعثور على أقلّ قدرٍ من العاطفةِ في مكائدها. إنها مرآةٌ تعكسُ عملَ الطبيعة. حيث الفردُ يُطرَدُ بلا رحمة لاعتبارِ الربحِ القديم، القديم.

بعد انتهاء العرض هرعتُ قاصداً المنزل. كانت جين وتوني سميث ينتظران في البهو فصعدنا إلى الجناح الفيكتوري ومعنا بيلي بارنز، لكي نُجري اتصالنا الهاتفي المُقرَّر له مع ليدي سينت جوست الساخطة. وقد أخبرنا الخدمُ الذين ردُّوا على الهاتف في منزلها في لندن وفي عزبتها الريفية في سالزبري، أخبرونا بكل برود أنه لا يمكن

الاتصالُ بـ " سيادتها ". عندئذٍ عبَّرتُ لتوني عن الخوف الذي بدأ ينتابني من أن تكونَ " السيدة قد ابتُليَتْ بـ folie de grandeur (جنون العَظَمَة) " - فابتسم.

لم يحالفنا الحظ، أنا وبيلي، في الاتصال بجنفييف بوجو في مونتريال. وخشيتي تتفاقمُ من أنْ تكونَ خائفةً من مسرحية " الصرخة " ومن الانتقال إلى نيويورك لعرضها هناك - فماذا سنفعل مع ميريك ومع العرض المُقرَّر له أن يبدأ في أواخر أيلول؟

تناولنا الطعامَ في مطعم كيسي في منطقة فيليج وانتعشتُ كثيراً في حانةِ مارغو. وفي طريق عودتنا إلى المنزل، تعثَّرتُ بحافةِ الرصيف، فتمزَّقَ بنطال أفضلِ بذلةٍ عندي وخَدَشتُ ركبتي ولاشك في أني مذعورٌ لعودة هذا الميل إلى التعثُّر بالأشياء. والآن أصبحت ركبتايَ مخدوشتين.

أُشيرَ عليَّ بالراحة وبالإقلال من شُرب الكحول في فترة المساء لإخفاء مظاهر الإرهاق المتزايد - خاصةً بعد أن اتضحَ أنَّ التخفِّي ما هو إلا مزيدٌ من الكشف...

لدى وصولي إلى المنزل، اتصلتُ بأمي. وقد كانت بطيئةً جداً في الردِّ على الهاتف: وحين فعَلَتْ قالتْ إنه كان عليها أن " تنتظر حتى منتصف الليل " لتفتحَ البابَ لديكن ولـ" امرأة سوداء شابة " تسكنُ معه في الطابق العلوي. وذُهلتُ لعلمي أنَّ هذا التصرُّف لا يمكن أن يصدرَ حتى عن أخي الصغير الذي لا يمكن التكهُّنُ بتصرفاته. وليلة أمس طلبتُ منها أنْ تجعلَ ديكن يتَّصِلَ بي حالما يصل - لأنها لا تتذكَّر اسمَ طبيبها الخاص.

اتصل ديكن بي عند نحو منتصف الليل، بتوقيت نيويورك فضحكَ من اتِّهام أمه له بمساكنة " امرأةً سوداء شابة في الطابق العُلوي "، ثم زوَّدني باسم طبيب أمي الخاص، وسأحاولُ في هذا اليوم أن أتصلَ به ليُشخِّصَ لي حالتها. ويقولُ ديكن إنها لا تستطيع أن تمشي إلا بضع خطوات دفعةً واحدة بدون أن تتمسَّكَ بشيءٍ ما - وأيضاً يعترفُ، ويا للغرابة، بأنه هو نفسه لن يتحدث إلى الطبيب.

ذات ليلة رائعةٍ من صيف عام ٦٧ -، حاولَ بيل إنج أن يحتجزني في مصحٍ عقلي. فقد كنتُ أُقيمُ في منزلٍ في هرمتز غلين، لوس أنجلوس. وفي تلك الليلة الغريبة، تشاجرَ راين وشخصٌ سأدعوه بات بينما كنتُ مستلقياً وأنا مُخدَّر في غرفة نومي الخلفية، فاستيقظتُ ومشيتُ وأنا أترنَّحُ حتى غرفة الجلوس - المطبخ من المنزل

لأجدَ أرضَ المكان مُبقَّعةً بالدم ورجلاً غريباً ضخم الجثة موجوداً في المنزل أخذَ يُخضعُني لاستجوابٍ دقيق. في تلك الأثناء لزم أمين سري، " الفرجيني "، الصمتَ، واكتفى بالوقوف في حيِّز المطبخ وهو يغسلُ الأطباق.

ارتفعتُ إلى مستوى الحَدَث وطلبتُ من الرجل الغريب - وقد اتضحَ أنه طبيبُ إنج النفسي، حضَرَ بإيعازٍ من إنج - أن يغادرَ المنزلَ على الفور أو يواجه تُهمةَ دخول المكان بدون وجه حق. أخيراً أدركَ الطبيب النفسي أنه لن يستطيعَ أن يستجوبني أو يؤثِّرَ بي بتحديقه.

قال " دعه يتصل هاتفياً بوليام إنج، إذا وعدَ بألاّ يتصل بالشرطة! "

اتصلتُ بإنج وأخبرته بشأن الوضع في هرمتز غلين وطلبتُ منه أن يأتي على جناح السرعة ويوضِّحَ الأمر. أجابَ إنج بغطرسةٍ " آسف لا أستطيع أن أحضر، إنني أقضي وقتاً ممتعاً هذه الليلة "

على الفور أدرتُ قرص " O" أي عامل الهاتف وصرختُ في السماعة " استدعِ الشرطةَ حالاً إلى هرمتز غلين؛ هناك مَنْ اقتحَمَ بيتي والدماءُ تُغطي الأرضية! "

هرعَ الطبيبُ النفسيُ يهبط الدرجَ واندفعَ بأقصى سرعةٍ إلى سيارته، وخرَّ راين مع بات على أربع ليزيلا بقعَ الدم عن السجادة.

بعد أن ربحتُ هذه الجولة، اتصلتُ بأودري وود - التي كانتْ تمقتُ باتْ ومولعةً براين - وحكيتُ لها وأنا ألهث وقائعَ ما حدث.

أبلغَتني، قائلة " في هذه اللحظة أُخرِجُ راين من السجن بكفالة وبات هو الذي تسبَّبَ له في ذلك لتُهمة اقتحام المنزل، وقد أمرْتُهُ أن يتوجَّه من فورهِ إلى فندق هوليوود روزفلت وينتظركَ هناك".

غادرتُ المنزلَ في هرمتز غلين بمرافقةِ رجال الشرطة - قاصداً فندقَ هوليوود روزفلت، وسرعان ما انضمَّ راين إليّ. وفي اليوم التالي طرنا معاً عائدَين إلى مانهاتن...

لكني كنتُ متوجِّهاً نحو الكارثة، وفي عام ٦٩ -، وبعد الانهيار القاسي لمسرحية "في بار فندق طوكيو" - وطيراني مع آن ميتشم إلى مدينة طوكيو بعد أن قالت لي أنَّ مجلةَ" لايف " سوف تنشرُ تقريراً عن انهياري المهني - وبدأتُ فعلاً أتقوَّضُ.

آه، إنني أتقوَّضُ منذ سنين عديدةٍ لكنَّ التقوُّضَ آنئذٍ كان أشبه بالصَدْع التحت-أرضي، تحت الشاطئ الغربي.

* * *

إنني أحبُ مجموعَ مَنْ يحيطون بي، هنا في البندقية: سيلفيا مايلز، وجو داليساندرو، وبول موريسي، والصغير آندي وارول أحبه كثيراً حبي لصبيّ صغيرٍ تائه، تائه في الزمن.

فوجئتُ بأنَّ موريسي إنسانٌ مميَّزٌ جداً. وأودُّ لو يصنع فيلماً عن قصة قصيرةٍ من قصصي: لمَ لا تكون قصة " اثنان في حفل "، أجودُها جميعاً؟ سوف أطلبُ منه أن يقرأها. لكني أشكُّ كثيراً جداً في قدرتي على دفعه إلى تنفيذها.

آمل في أنْ يحدثَ تطوُّرٌ أخلاقيٌّ ما إلى الأفضل قريباً، وأنْ أتخلَّصَ من وحشتي، وآمل في ألاّ تكونَ الأمنيتان متناقضتين تماماً أو متوازنتين...

أعتقد أني مُعجَبٌ بريكس ريد. فحالما تقابلنا اندمجنا في الحديث لكني أظنُّ أني تماديتُ كثيراً في الحديث حين أجرى معي حديثاً صحافياً لصالح " اسكواير ". كلا، إني أسحبُ كلامي. صحيحٌ أني لم أقرص مؤخِّرة النادل الأسود الذي يعملُ في محل بريننان، لكنه مع ذلك أثارني جنسياً.

ليلة أمس كانت أمسيةً جميلةً. بعد أن نمت طوال فترة بعد الظهر في جناحي هنا في فندق اكسيليسيور العريق الأليف، ومياه البحر الأدرياتيكي تغسلُ برفقٍ وثباتٍ الشاطئ تحت النوافذ ذوات الشرفات، سبحتُ قليلاً. وعلى المرء أن يخوضَ مسافةً بعيدةً جداً خارج شاطئ الليدو حيث لا يمكنُ وصف المياه بالشفَّافة كما هو حالُ مياه البحر المتوسط، أو كما كانت، عند شاطئ التاورينا - لقد حان وقتُ تناولِ مشروبٍ مع بات ومايكل يورك. كان بيل بارنز قد أعدَّ لهذا اللقاء بينما كنتُ نائماً، ثم، أوه، مكالمة هاتفية من لندن - ماريا ستصلُ غداً وبدَتْ عبر الهاتف دافئةً ومبتهجة.

طبعاً عانيتُ بعضاً من التهيُّجات المألوفة الناتجة عن السفر وحدي. أشعرُ أني مسافرٌ وحدي، حتى وأنا ضمن مجموعةٍ من الناس، وذلك حين لا يشاركني غرفتي أحد. إني عاجزٌ عن ترتيب أغراضي. يستغرقُ مني تجميع سترتي وبعض المُلحقات أربعين دقيقة. وكان بنطالي قد سقطَ في قعر الحقيبة، وطبعاً أخذتُ أسبُّ، لأني كنتُ

مقتنعاً بأنَّ السترةَ وحدها قد حُزِمَتْ. ولكن بعد أن جمعتُ كلَّ الأغراض وارتديتُ أفضلَ ما عندي - القميص ذا طرَفيْ كُمَّين مُخرَّمَين يلمعان بحَذَرٍ ومقدّمة القميص المكشكشة وربطة العنق السوداء أُمِّنَتْ أخيراً بشكلٍ مُتقلقل - هل يمكن تأمينُ شيءٍ ما بشكلٍ متقلقل؟ - بعد ذلك كله كنتُ ما أزالُ مبكِّراً على موعد حفل الكوكتيل الذي سيُقامُ في الساعة السادسة.

نفَدَ صبري، فاتَّصلتُ ببيلي وقلتُ إني أعتقدُ أنه سيكون ممتعاً إذا تقابلنا في ردهة حفل الكوكتيل في الفندق، بدل بهو جناحي وطبعاً كنتُ مخطئاً تماماً. وجلستُ مع بيلي على مائدةٍ مُخصَّصةٍ لأربعة أشخاص وبدأ لوطيٌ بائسٌ يعزفُ على آلة بيانو كبيرة خلفنا مباشرة.

قلتُ بصوتٍ عالٍ لبيلي " هناك طفلٌ لعين يخبطُ على ذاك البيانو "

قال بيلي " أخشى أنه عازف البيانو المحترف العامل عندهم، والأفضل أن ننتقل إلى مكانٍ آخر نستطيعُ فيه أن نتحدث "

إذا أخذنا الأمرَ من زاوية استقبال آل يورك لنا فإنَّ الأمسية كانت ممتعة. وكانت بات قد صفَّفَتْ شعرها حديثاً، لذا لزِمَتْ مقصورة اللنش مع بيلي - وجلستُ أنا على المقعد الطويل بدون ظهر مع مايكل وكانت البحيرةُ فائقةَ الجمال بقدر ما أتذكَّرُها.

قلتُ، مُقتطفاً من مسرحية " كامينوريل ": " آه، مدينة البندقية، مدينة اللآلئ "

تناولنا طعامَ العشاء ببساطة وبسرعة على مسطبة غريتي (أكلنا سباغيتي مع بلح البحر) بينما ثلاثة أرباع قمر يعومُ متمهِّلاً متنقِّلاً من خلف القبة البيضاء للكنيسة عبر القنال وانتشيتُ أيَّما نشوة بشرب، أولاً، فراسكاتي، ومن ثم أفضل نبيذ تُعرَفُ به مدينة البندقية.

في الواقع، كان علينا أن نهرع عائدين إلى ليدو لأنَّ فيلم مايكل " كاباريه " كان الـ spettacolo (العرض) الافتتاحي للمهرجان.

والآن لنعُد إلى بار اكسيليسيور، حيث جلستُ مستنداً إلى ذراع كرسي بات وجلستْ سيدات جميلات من نمط ماريزا بيرينسن قبالتنا بينما كانت الصحافةُ تجري حديثاً مع مايكل خلفنا مباشرةً. وكانت آلات التصوير تومض بلا انقطاع.

سألتُ أحدَ المنتجين الموجودين على المائدة إنْ كان معه نقود. فقال لا. فقلت " إذن فلن أُجري حديثاً معك"

* * *

في أواخر صيف عام ٦٩ -، قَفَلْتُ مع آن ميتشم وجيجي عائدَين من رحلتنا المُقبضة للصدر إلى طوكيو وعدتُ إلى رقعةِ الأرض الصغيرة في كي ويست. ولم أرتحْ هناك، لم أحظَ بأي قدرٍ من الراحة، فقد كان الانهيارُ قد بدأ.

بناءُ المطبخ الجديد الكبير كان أيضاً قد بدأ، المطبخُ الذي كلَّفَ ضِعفَ ما دفعتُهُ ثمناً لشراء العقار كله عام ١٩٤٩. وعملية البناء ستستغرقُ ما يقارب أربعة أشهر، وهي فترةُ بناءٍ أطول بكثير مما كان يمكن حتى لكازانوفا أن يرغب فيه.

نُقِلَتْ المدفأةُ إلى الفناء حتى أستطيع أن أعدَّ إبريقاً من قهوتي الصباحية. وذات صباح مُعتم، بُعيد عودتي إلى كي ويست بأيام قلائل، أعددتُ إبريقاً رائعاً من القهوة. وفي ذلك الوقت، لعلَّكَ تذكُر أني كنت دائماً أقعُ، وبينما كنتُ أنقلُ القهوةَ التي تغلي من المدفأة في الفناء، سقطتُ بعنفٍ على آجُر الفناء، وسفحتُ القهوةَ المَغليّةَ على كتفيَّ العاريين.

كنتُ من فرطِ التخدير بحيث أني لم أشعر بأي ألم وتابعتُ عملي الصباحي كالمعتاد.

عند هذه النقطة يسودُ الضباب. وأذكُرُ أني لجأتُ إلى طبيبٍ ضمَّدَ لي الكتف التي احمرَّت حتى أصبحت بلون جرادِ البحر ثم أذكُرُ أنَّ ديكن كان موجوداً في كي ويست. ثم أذكر أننا كنا في مطار كي ويست ثم اقتربتْ ايدي كيد من طاولتي فقلتُ لها " يعجبني رسمَكِ، يا ايدي، ولكن لا شيء آخر يُثيرُ اهتمامي فيك "

ثم كنتُ في منزل جادة ويندون في كليتون، مسكن أمي القديم ذو الطراز الأسباني الجصِّي، وبحلول الصباح كنتُ قد صمَّمتُ على ألاَّ أدخل أي مستشفى.

" أمي، هل سمعتِ عن حَسَد الأقارب؟ "

قالت مس إدوينا ببرود " أه، نعم، أعتقد ذلك "

بعد قليل قلتُ إني سوفَ ألجأ إلى المستشفى شريطة أن يستدعوا سيارةَ إسعافٍ لنقلي. لكنَّ ديكن أقنعني بالتخلي عن هذه الفكرة، ووضعني في سيارته وقادني إلى مستشفى برناكل. في ذلك اليوم وُضِعَتُ أولاً في " قسم الملكة " - ولم أفهم معنى هذا الاسم، هكذا كان عنوانه. إنه غالباً القسم الراقي الخاص بـ " المضطربين باعتدال ". وخضعتُ لـ" عناية " ثلاثة من أطباء الأمراض العصبية وطبيب أمراض باطنية.

إنَّ كل ما أذكرهُ عن يومي الأول في " قسم الملكة " هو أني مستلقٍ أشاهدُ التلفزيون. وقد بدا كل برنامج عُرِضَ أمامي موجَّه إليَّ تحت قناعٍ سميكٍ من العِدائية، حتى مسلسل شيرلي بوث الدرامي شعرتُ أنه تهديدٌ شخصيٌّ لي.

عند نحو الساعة السادسة مساءً دخلَ ديكن عليَّ، مبتسماً، مع باقةٍ من الأزهار الصفراء ورسومات بالألوان الخشبية تخلو من أي موهبة رسَمَتْها ابنتاه المتبناتان لإدخال السرور إلى نفسي.

ثم ولَجَتْ أمي، بخُطى ضابط بروسي صغير.

كان جلياً جلاءً تاماً عندئذٍ أنَّ هناك أمراً مُخيفاً يوشكُ أن يحدث. لقد شعرتُ بذلك ثم زحفتُ برشاقةٍ مدهشةٍ خارج السرير وقلت " سأعود إلى البيت حالاً "، وهرعتُ إلى مكان الخزانة أبغي إخراجَ ملابسي.

" أوه، لا يا بُنيَّ "

" عليكم جميعاً أن توصلوني فوراً إلى المنزل وإلا ذهبتُ سيراً على قدميَّ "

ارتديتُ ملابسي بخفَّةٍ مذهلةٍ، وأنا أصرخُ بالسباب في وجه ديكن.

" لعنَكَ الله ولعنَ ابنتيك المتبناتين. كيف تجرؤ على أن تمنحهما اسم العائلة "

ديكن: " لستُ مضطراً إلى الجلوس هنا والإنصات إلى هذه الإهانة "

بعد أن ارتديتُ كامل ملابسي وفقدتُ صوابي كله، اندفعتُ في الرواق واتجهتُ إلى المصاعد. وهممتُ بولوج أحدها، فاعترضَ مسعى هذا القرار شابٌ ضخمُ الجثةِ يرتدي زيَّ المستشفى. أذكرُ أنَّه كان أشقرَ، ذا وجهٍ بدينٍ ساخر. ونجحتُ بصورةٍ ما في تجاوزه ودخول أحد المصاعد لكنه منعَ البابَ من الإغلاق.

اندفعتُ عائداً ماراً به، أرغي وأزبد وأطلق السباب، إلى الغرفة حيث كانت أمي تطلب من إحدى الممرضات أن تحضِّر لها بعضَ أملاح الشمّ. يا إلهي!

ثم وجَّهتُ نحوها جام غضبي.

" لِمَ تجلب النساءُ الأطفالَ إلى العالم ومن ثم يدمِّرنهم؟ "

(لا أزالُ أعتبرُ هذا السؤال وجيهاً)

قالت مس إدوينا _أكانت صادقةً؟ - " لا أعلمُ بالضبط إنْ كنا نقومُ بالعملِ الأمثل "

استدرتُ من جديدٍ نحو الرواق لكنَّ البابَ عندئذٍ كان قد سُدَّ بكرسيَّ مدولَبٍ ذي أحزمةٍ وبفريقٍ أبله من الأطباء المقيمين.

حينئذٍ أدركتُ فجأةً أني قد انهزمتُ واستسلمتُ.

قبضتُ على الحقيبة التي تحتوي الخمرَ والأقراصَ المُخدِّرةَ، وزجاجة الحُقَن، قبضتُ عليها بيأسٍ وحزمٍ، فشدُّوني إلى الكرسي ودفعوني خارج " قسم الملكة " إلى جناح فريغنز للعنيفين - وهناك انتزعوا الحقيبة مني، وعند هذه النقطةِ غبتُ عن الوعي...

* * *

إنني موجودٌ في جناح العنيفين من قسم فريغنز من مستشفى بارنكل. قلتُ إني غبتُ عن الوعي وهذا ما حصلَ - وذلك عندما انتزعوا الحقيبةَ الخفيفةَ مني.

الآن سأخبركَ قدرَ ما أستطيعُ عن أقربِ نقطةٍ من الموتِ وصلتُ إليها.

بعد أن غبتُ عن الوعي، لا أدري إنْ كنتُ قد أفقتُ أم لا.

ولا أدري كم من الزمن دامتْ تشنُّجاتي. ما أعرفه هو أنه كان هناك ثلاثةُ أشخاصٍ ذاتَ صباحٍ وكان هناك " انسدادُ الشريان التاجي "، وهو الشيء الوحيد خلال فترة الرؤيا الذي تجلَّى لي، لأني شعرتُ، بين نوبات تشنجاتي، بطعنةِ ألَمِه.

وخضتُ في زمنٍ من العالمِ الوهمي.

أتذكَّرُ أنهم شدُّوني إلى طاولةٍ وراحوا يدورونَ بي. لكنهم لم يُطبِّبوني.

أرفضُ أن أعزو إلى جنون الارتياب اقتناعي بأنَّ الطبيبَ المُقيمَ كان ينوي أن يرتكبَ جريمةَ قتلٍ يُجيزُها القانون في حق شخصي واقتربَ كثيراً من نجاحِه في فعل ذلك.

لقد مررتُ بتجربةٍ خارقةٍ قد تكونُ حصلَتْ أو لم تحصل في الأمسيةِ التي تَبِعَتْ التشنجات.

إنني أسيرُ بخُطى بطيئة، بطيئة، في الرواق متَّجهاً نحو غرفةٍ مُضاءةٍ وأنشدُ قصيدة.

بيت الشعر الذي يتكرَّرُ هو " الخلاص، الخلاص ". وبينما أسيرُ ببطءٍ في الرواق، أقومُ بتقليدٍ مُبالغٍ فيه لِمشيةِ لوطيَّ خليع. عمَّ كنتُ أنشد؟ عن مولد أخي ديكن حين كنتُ في الثامنة من عمري ورأيته للمرة الأولى، يرضعُ من ثدي أمي العاري في مستشفى سينت لويس.

خلاصٌ ممَّ؟ أعتقدُ أنه خلاصٌ من منافسةٍ لم يُعلَن عنها قط معه. وأيضاً خلاصٌ من" ارتكابي جرم " عشقي للفتيةِ وللشبان اليافعين...

* * *

الحقيقة هي أني لا أرغبُ حقاً في أن أستعيدَ فترةَ مقامي في قسم فريغنز من مستشفى بارنكل في مدينة القديس تلوُث. لقد تمَّتْ مُعالجةُ كل شيءٍ على أعلى مستوى، وبطريقة وثائقية، على نمط: " ما البند التالي في البرنامج، يا سيد ويليامز؟"

سوف أكتفي بسردِ بضع نِقاطٍ حُذِفَتْ من " القصيدة ".

بعد انتهاء نوبات تشنُّجي وفترة هياجي غير المحدودة، أفقتُ لأجدني في مهجعٍ ضيِّقٍ على سريرٍ ذي جوانب من القضبان مثل مهد وليدٍ عملاق. وعندما أقولُ إني قد أفقتُ، فإني أقصدُ أني فتحتُ عينيَّ ومارستُ درجةً من التفكير لكني لم أستيقظ حقاً حتى بعد ساعةٍ أو ساعتين، وليس قبل ذلك لأني لا أتذكَّرُ أي شيءٍ ولم أدرِ أين أنا.

ثم جاءني الإدراكُ كحلولِ الموت.

مرَّتْ من أمام بابي المفتوح في الرواق أشكالٌ غريبةٌ، لم أُصدِّق أنها حقيقية. واعتقدتُ جازماً أني كنتُ أحلم.

أظنُّ أنَّ لا أحدَ قام بزيارتي، وربما لم يجلبوا لي طعاماً، قبل حلول المساء، على الأقلّ لا أتذكَّر حصولَ ذلك.

لكنْ في المساء كنتُ خارجَ المهجع وكان ديكن في " غرفة الجلوس العامة ". كان يرسمُ ما يُشبه ابتسامةَ انتصارٍ مُتكلِّفةٍ على وجههِ ويحملُ نسخةً من " الاسكواير "، الطبعة التي تحتوي تلك القطعة الأدبية الفظيعة، مقالة عنوانها " حلم تنيسي ويليامز ". وكانت كلماته الأولى التي خاطبني بها، خلافَ ابتسامته وتحيَّته ومُصافحته الحميمة، هي السؤالُ المُدمِّرُ التالي " أتعلمُ أنكَ كنتَ مُصاباً بالسكتة التاجيّة؟ وبتشنجاتٍ عديدة؟ "

ثم قدَّمَ لي تلك النسخةَ من " اسكواير " ورحلَ مع ابتسامته وبدأتُ أبذلُ جهودي المُضنية لكي أتماسكَ وأنا في جناح فريغنز للعنيفين.

بأي صورةٍ تمثَّلَ عنفي هناك؟

كنتُ أمتثلُ لتناولِ وجباتهم الشنيعة ومن ثم أُمضي باقي الوقت رابضاً كحيوانٍ لا حولَ له ولا قوة في إحدى الزوايا أراقبُ مرورَ موكبِ الأيامِ والليالي؛ عرضٌ نتواصلُ لعروضٍ مرعبة، داخلَ رأسي وخارجه.

وصمَّمتُ على التمسُّك بالحيـاة.

* * *

إليكَ بعضاً من التذكارات الصغيرة.

كانت ممرِّضـةٌ ضخمةُ الجثةِ ذاتُ رأسٍ أشقر جرماني ضخم وتكشيرٍ ثابتٍ ينمُّ عن سُلطةٍ مبتهجةٍ تتنقَّلُ بتشامُخٍ في المكان، تُلوِّحُ بذراعيها مثل مصارعٍ قبل أن يُطبِقَ على خصمه، أه نعم، كانتْ مس روتشيلد طريفةً، ودعني أؤكِّدُ لك ما يلي: لم أفتحْ فمي بكلمةٍ واحدةٍ مع تلك السيدة!

بمناسبة الحديثِ عن الأفواه، كان هناك ذلك اللوطي الكهل الذي يستعرضُ نفسَه بشكلٍ فاضحٍ وهو يتجوَّلُ في المكان، تماماً بعكس المس روتشيلد، وكان دائماً يُرتِّبُ شعرَه الشائب بأصابعه المرتعشةِ ويتنقَّلُ بخطواته المتكلِّفة في أناقتها، ومن ثم ذات يوم وثَبَ عليه ذلك الأيرلندي المُحملِق بانشداهٍ من نوعِ سائقي الشاحنات وسدَّدَ إليه أقوى لكمةٍ على فمه شهِدتُها في حياتي. وتحطَّمَتْ أسنان اللوطي الأمامية كلها وكأنما ضُرِبَ فمُهُ بمطرقة. وظلَّ وجهُه على مدى أيامٍ طويلةٍ أقبحَ من مؤخَّرة سعدان، فالفمُ متورِّمٌ وبارزٌ حتى وصلَ مستوى أنفه وداخله أشبه بفجوةٍ قُرمزيةِ اللون. غير أنَّ ذلك لم يُدمِّر اهتمامه بشَعرِه الشائب، وظلَّتْ الأصابعُ ترتعشُ فوقَ التموُّجات المُرتَّبة بعناية.

ثم – والعياذُ بالله! – بدأ ذاك الذي اعتدى عليه يُقرِّبُ كُرسيه مني، وأنا في مربضي عند الزاوية، ويُسدِّدُ إليَّ، بين حينٍ وآخر، النظرةَ ذاتها التي رماها إلى اللوطي العجوز النرجسي.

وحَدَثَ ذات يوم أنَّ فتاةً صغيرةً برأسٍ كبيرٍ ذي شعرٍ أحمرٍ لامعٍ جُرَّتْ وهي تزعقُ إلى الجناح ورُمِيَتْ في زنزانةٍ مُبَطَّنةٍ وتُرِكَتْ هناك وظلَّتْ تزعقُ طوالَ الليل وحين رأيتُها في المرة التالية، كان بدلَ الشعر الأشقر اللامع والكثيف كتلةٌ من الأربطة المُدمَّاة.

كنتُ قد بدأتُ أطرحُ أسئلةً حولَ طبيبٍ شابٍ مُقيمٍ كان أكثرَ وداً من الآخرين وقد أبلغني أنَّ الفتاةَ قد نَتَفَتْ شعرها كله واقتَلَعَتْه وهي تصرخ في الزنزانة المُبطَّنةِ في تلك الليلة، اقتَلَعَته كله من جذوره.

كان لديَّ في خزانتي بضع بذلات، أحضَرَها ديكن لي.

أخذتُ أُفتِّشُ خلسَةً الجيوبَ فعَثَرتُ على مخبئٍ صغيرٍ لنحو خمس كبسولات من" المُخدِّر ": كنتُ أتناولُ كبسولةً عند النوم لكي أُكمِل وصفةَ الدواء المُنوِّم العقيمة تماماً التي أوصى بها أطبائي، الذين لم يكونوا قد وجدوا بعد الوقتَ اللازم ليُعرِّجوا عليَّ في الجناح.

بعد أن استهلكتُ هذه الكبسولات بدأتُ أقضي ثلاثَ ليالٍ وأربعاً بلا نومٍ وأياماً في الشجار.

وأخيراً تأتي ليلةٌ أجدُ فيها ساعةَ نومٍ من فرط الإرهاق.

وذات ليلة بينما كنتُ أغطُّ في النوم - نعم، كنتُ أنجرفُ معه - فُتِحَ البابُ على طبيبٍ شابٍ مُقيمٍ كان أبعدَ ما يكونُ عن الودّ.

" يا إلهي، ماذا تريد؟ "

" أنتَ لم تُسلِّمْ آلة الحلاقة الكهربائية عند المنضدة! "

" ماذا عنها؟ "

خَطَفَ الآلةَ عن طاولة الكتابة الصغيرة وقال " يُمنَعُ على المرضى في هذا الجناح أن يحتفظوا بأي شيءٍ في غُرَفِهم يمكنهم بواسطته أن يؤذوا أنفسهم "

خرجتُ أُطارده إلى القاعة ثم ارتقيتُ إلى مقصورةِ ممرضةِ النوبةِ الليليةِ الزجاجية التي تراقبُ منها النُزلاء.

ضربتُ بقوةٍ على الباب، فتجمَّع عددٌ من الممرضات والأطباء المُقيمين، وأخذتُ أهذي حول الحادثة التي سردتُها للتو.

" كدتُ أستغرقُ في النوم. كنتُ أستغرقُ حقاً في النوم بعد أربع ليالٍ من الأرقِ فإذا به يقتحمُ عليَّ غُرفتي طَلَباً لآلة حلاقتي الكهربائية "

ظللتُ أُكرِّرُ هذا الكلام وأخذتُ أجهشُ فتحوَّلتْ الممرضةُ إلى امرأةٍ وبدأتْ تُكلِّمني برقَّة.

" عُدْ إلى مهجعكَ، قد يبدأ مفعولُ دوائكَ من جديد "

لكنه لم يبدأ.

كان مهجعي يقعُ مباشرةً بجوارِ مصنعِ التخلُّص من النفايات، من النوع الضخم، ويبدأ بالطحن الهادر قبل ساعةٍ من بزوغ ضوء النهار. وكانت تلك الطريقةُ الوحيدةُ لأعلمَ أنَّ طلوعَ النهار يقتربُ، فقد صودِرَتْ ساعتي أيضاً لأنها تحتوي على زجاجٍ، والأشياء التي تضمُّ زجاجاً في تركيبها كان يُمنَعُ على أي مريضٍ في الجناح حيازتها.

فورَ بزوغِ ضوءِ النهار تندفعُ ممرضةٌ رشيقةٌ، لا يحملُ وجهها أي تعبيرٍ، ذات صوتٍ أشبه بآلةِ حفرٍ أوتوماتيكيةٍ ، مقتحمةً المهجعَ لتُجري فحصاً وتقيسُ درجة الحرارة ومُعدَّلَ النبض.

" أحَدَثَ خروجٌ بالأمس؟ "

أحياناً لم أكنْ أُجيبُ وأحياناً كنتُ أُدمدمُ وأُغطي وجهي، وهكذا استطالتْ فترةُ مُكوثي في جناح العنيفين حتى بَلَغَتْ الشهرَ - ربما بداعي مواقف غير متعاونة.

أعتقدُ أنه عند رجلٍ يحملُ طبيعتي سيبقى نوعٌ ما من الكبرياء الأساسية حتى بعد أن ينتهي كلُ شيءٍ آخر عدا النَفَس...

كان الطبيبُ المُقيمُ ودوداً جداً مع ديكن وعندما كان ديكن يأتي لزيارتي - مرةً أو مرتين في الأسبوع - كان يتسامرُ معه في حضوري. يحكي له كيفَ كان يحصلُ لي ثلاث تشنجات في صباحِ يومٍ واحد وكان يحكي ذلك بنبرةٍ من فخر - وكأنَّ التشنجات هي إنجازٌ يهنِّئ نفسَه عليه.

حينئذ كنتُ قد قرأتُ مقالةَ " حلم تنيسي ويليامز " في " الإسكواير " منذ وقتٍ طويلٍ، فجاءني طبيبٌ ذات مساء وجلبَ لي نسخةً من الطبعة وقالَ وهو يرسمُ تكشيراً شريراً " أرى أنهم قد كتبوا عنكَ كلاماً طيباً جداً هنا. أترغبُ في قراءته؟ "

" لا، لا أظنُ ذلك. لقد قرأتُهُ "

قال الدكتور ليفي " إنَّ الأطباء المُقيمين يحسدوننا، لذا تراهُم يُنفِّسونَ عن غضبهم في مرضانا... "

حتى في جناح العنيفين يحصلُ المرضى على ساعةٍ من المعالجةِ بالعملِ في فترة الصباح وساعة أخرى في المساء.

في كل يوم يقفُ الذين يُنادى على أسمائهم بوصفهم مقبولين للمعالجة بالعملِ طابوراً أمام المصاعد. وكان لنا جميعاً الخَيار في أن نرفضَ، كان في وسعنا أن نرفضَ الهبوطَ بالمصعد لأداء أبسط الأعمال المتاحة لنا في الأسفل.

كنتُ في أغلب الأحيانَ أرفضُ الهبوطَ، بيد أني اكتشفتُ أنهم يعتبرونَ رفضي علامةً سيئة. فبدأتُ أعملُ. قبلتُ الرسمَ بالألوان المائية بوصفهِ أقلَّ الأعمال لإثارةً للضجرِ، وبدأتُ لسببٍ ما أرسمُ لوحةً بالألوان المائيةِ بيدي اليسرى.

أذكُرُ أنها كانت تقريباً قد انتهتْ حين دخلَ عليَّ ذاك العجوزُ الضخمُ الدكتور ليفي وهو يلهث.

" إنَّ إصبعكَ الصغيرَ ليس كبيراً بما فيه الكفاية يا توم "

هل كان يقصد أني كنتُ ما أزالُ أعاني من folie de grandeur (جنون العَظَمَة) ؟

* * *

كان الدكتور ليفي هو أقلّ أطباء الأمراض العصبية الثلاثة لا إنسانية، وهو الذي عمِلَ أخيراً - بعد أن تحمَّلتُ ظروفَ جناح العنيفين مدةَ شهرٍ - على نقلي إلى ما يُسمَّى بـ " الجناح المفتوح "

إنَّ ما أعانني على تحمُّل الاحتجاز في قسم فريغنز كانت حِزَمَ الكتبِ التي كان يُرسلها إليَّ آندي براون من سوق غوثام للكتب، ومباريات لعب البريدج الليلية التي كانت تستهلك الساعات الأربع الممتدة من العشاء وحتى إطفاء الأنوار، وذلك بعد أن نُقلَتْ إلى جناحٍ مفتوح. وكانت هناك عدةُ لاعباتٍ ممتازات للبريدج في الجناح المفتوح الأول الذي ذهبتُ إليه وكنتُ ألعبُ في كل ليلةٍ مدةً تقاربُ الأربع ساعات. وكانت إحدى اللاعبات سيدةً في الخامسة والسبعين من عمرها تخضعُ لسلسلةٍ قاسيةٍ من جلسات المعالجة بالصدمات الكهربائية كانت تُصيبها بالرعب المميت. ولم تكن تعلم حتى وقتٍ متأخِّرٍ من الأمسية أنها ستخضعُ من جديد لجلسةِ معالجةٍ بالصدمةِ في صباح اليوم التالي. كان يُلصَقُ لها إشعارٌ بذلك على باب مهجعها فتُصعَقُ، وترتجفُ وتنفجرُ في نوبةٍ من البكاء.

بعد أن تخضع لجلسةِ المعالجة بالصدمة كانت تجدُ صعوبةً في لعب البريدج. وأذكرُ بمشاعرَ حميمةٍ كيف كنا جميعاً نواسيها ونحاولُ أن نُهدِّئ من روعها حين ترى الإشعار المُلصَق بشأن برنامج المعالجة بالصدمة الكهربائية في صباح النهار التالي.

كان لها أبناء بالغون يزورونها نحو مرةٍ في الأسبوع، فلماذا لم يكونوا يضعون حَداً لذلك العذاب الذي تتعرَّض له أمَّهم العجوز؟ إنني لا أزال أتمتَّع بمزاجٍ ساخر بما يكفي لأرتابَ في أنهم يريدون " أن يبعدوها عن طريقهم " - وكان أحدهم بروفيسوراً في جامعة سينت لويس، المؤسسة الكاثوليكية.

يسعدني أن أُسجّلَ أني تلقّيتُ بعد ذلك ببضعةِ أشهرٍ بطاقةً بريديةً منها تقولُ فيها إنها قد تحرّرت من قسم فريغنز وإنها " عادتْ إلى البيت ".

النجـاة! يا لهـا من مقدرةٍ بطوليةٍ يتّصِفُ بها القلبُ الإنسانيّ، أشاباً كان أم عجوزاً!

* * *

هناك حوادثُ وشخصيات، مهما بدتْ كريهةً في وقت ظهورها، فإنكَ تتذكرها، من مسافةٍ آمنةٍ، باستمتاعٍ صاعق. فمثلاً، كانت هناك تلك المرأة السوداء الضخمة، العظيمة، التي كانت تجلسُ في منتصف غرفة الجلوس العامة. وكلما مررتُ بها تبتسمُ لي وتقول " أنت لذيذ جداً، أنت قطعة من السُكّر، مجرد قطعة لذيذة من السُكّر "

اعتقدتُ بإخلاصٍ، أنها كانت تعني ما تقول. ثم ذات يوم، بينما كانت تمدّني بالتحيةِ المُسكّرة، نَهَضَتْ فجأةً واقفةً وسدَّدتْ إليّ ضربةً عنيفةً كانت كفيلةً بطرحي أرضاً لو لم تُخطئ هدفها.

لقد أدمجتُها في برنامجي الخاص في التلفزيون " Stopped Rocking"

ثم كانت هناك السيدتان ذواتا الجمال الأخاذ اللتان كانتا قد ذهبتا في رحلةِ جلبٍ للمخدرات إلى استنبول ولم تكونا تقدران على النوم إلا إذا تناولتا الوصفةَ الطبيّة التي قِوامُها مركّباتٍ كيميائية معروفةٍ في عالم الرذيلة والإجرام باسم " ميكي فِنْ ". وفي كل ليلةٍ عند توزيع عقاقير النوم على المرضى تقفان لكي تتلقيا جرعتيهما، وحالما تبتلعانها تندفعان كالمجنونتين إلى مخدعهما، الذي لم يكن يبعد أكثر من خمسٍ وعشرين ياردة. كانتا على الدوام تنهاران على الأرض قبل أن تتمكنا من بلوغ بابيهما ويضطرون إلى جرّهما غائبتين عن الوعي إلى سريريهما.

آه، كم حسدتُ تينك الفتاتين! وقد توسّلتُ إلى الدكتور ليفي كي يمنحني الجُرعةَ نفسها، لكنه قال لي " مستحيل ".

* * *

ثم سُمِحَ لي أن أخرجَ إلى الشارع ولكن خلال، على الأقل، شهرٍ من الزمن لم يكن يُسمَح لي إلا بالتمشّي في الجوار وكانت تتبعني سيارة صغيرة تابعةٍ لفريغنز تحسُّباً لمحاولةِ فراري.

حين اقتربَ الأمرُ كله من النهاية، سُمِحَ لي أخيراً بأن أستقلَّ سيارةَ أجرة لأتجوَّلَ في قلب مدينة كليتون مدة ساعة.

كنتُ أتوجَّه مباشرةً إلى صيدليةٍ وأشتري علبةَ أقراصٍ منوِّمة لا تحتاج إلى وصفةٍ تُدعى نيتول.

وقد وجدتُ أنها تُسبِّبُ لي ضبابيّةً في الرؤية فتركتها.

ثم ذات يوم، وأنا في مدينة كليتون، ذهبتُ إلى عيادةِ طبيبٍ، وعرَّفتُ عن نفسي باسم كليمنتس أوتّه - وهو اسم أخو جدتي الألمانية - وقلتُ إني قَدمتُ إلى البلدةِ لحضورِ مؤتمرٍ وإنَّ النومَ يجافيني فهلاّ تفضَّلَ وكتبَ لي وصفةً بمنوِّم السيكونال.

أصرَّ الطبيبُ على إجراءِ فحصٍ فيزيائيٍ لي، فلاحظَ وجودَ اضطرابٍ في قلبي وأجرى لي رسماً بيانياً للقلب. وبعد ذلك كتبَ لي وصفةً مؤلَّفةً بالضبط من ثلاث كبسولات منوِّمة...

في مساءِ ذلك اليوم نفسه، ولدى عودتي إلى فريغنز، استُدعيتُ إلى مكتب الدكتور ليفي، وأعلنَ لي أنه تقرَّرَ تسريحي في اليوم التالي، بعد أن احتُجِزتُ مدةَ ثلاثةِ أشهر.

* * *

أول ليلة أقضيها في المنزل كانت في فترة أعياد الميلاد لعام ١٩٦٩.

جلستُ مع أمي أمام جهاز التلفزيون في الطابق السفلي لكي نشاهدَ عرضاً بفيلمٍ عن قصتي " الربيع الروماني للسيدة ستون ". ولم تكفَّ أمي عن التكلُّم، ظلَّتْ تثرثرُ طوالَ مدة العرض على الرغم من توسلاتي المتواصلة إليها أن تدعني أسمعُ الحوار. حين فشلتْ محاولتي، اكتفيتُ بالجلوس والتفرُّج على حُسنِ فيفيان لي[٦٧] وأسلوبها المأساوي. أعتقدُ أنَّ ذلك الفيلم قصيدةٌ جميلة. كان آخرَ عملٍ هامّ يقوم به كلٌ من فيفيان لي والمخرج خوزيه كوينتيرو، الرجل العزيز على قلبي بقدرِ ما كانت المس لي عزيزة.

خلال الأشهر الأخيرة من حياة فرانكي، أقامتْ فيفيان حفلةً دَعَتْ إليها فرانكي. كانت تلك المرة الأخيرة التي يخرجُ فيها.

لقد جَعَلَته فيفيان مركزَ اهتمامِ حفلِ العشاءِ كله بتعاطفها الحدسي الذي سيظلُّ يُحبِّبُ ذكراها إلى قلبي. وكانت تفعلُ ذلك وكأنها لا تقصد فعله...

بما أنها كانت قد مرَّتْ بتجربةِ الجنون، عرفَتْ كيف يشعرُ مَنْ يقتربُ من الموت.
هي أيضاً كانت تقتربُ من الموت، على الرغم من أنَّ أحداً لم يكن يعرفُ ذلك بعد...

* * *

أثناء ليلتي الأولى خارج مؤسسة فريغنز، بعد مشاهدتي للفيلم في التلفزيون، طلبتُ من أمي أنْ تعدَّ لي كوباً من الكاكاو. ويبدو أنها بحثتْ بدون جدوى في المطبخ، ثم قالت " لقد أخَذَتْهُ سوزي معها إلى بيتها "

سوزي هي الخادمة السوداء التي لازَمَتْها طوال نصف حياتها. وقد عثرتْ أمي لاحقاً على الكاكاو في خزانة المطبخ.

مسكينةٌ سوزي ومسكينةٌ مس إدوينا.

حين كانت سوزي تذهب إلى منزلها ليلاً، كانت أمي تفتحُ الأقفال الأربعة الموجودة على الباب الأمامي، وتنظر خِلسَةً إلى الخارج يملؤها الرعبُ، ثم تصفَعُ البابَ وتقفله، وتهتفُ لسوزي " سوزي، لا تذهبي الآن، هناك بعض السود ينتظرون الحافلة عند المُنعطف"

وذات ليلة، ضحكتْ سوزي وقالت " يا ميز ويليامز، لا أحدَ منهم أشدُ سواداً مني"

الآن مس إدوينا تتَّهمُ ديكن بأنه يحتفظ بـ " الفتاة السوداء " في الطابقِ العلوي لكي تبقى هي، مس إدوينا، في الطابق الأول من المنزل...

* * *

إنَّ صورةَ فرانكي الفوتوغرافيّة من جواز سفرِه تُحدِّقُ إليّ من خلف طاولةِ الكتابة: إنها تُشوِّشني. أُقلِّبُها بين صفحات قصيدتي " العجائز يجنُّون ليلاً "

إنَّ بقائي وأنا في سني هذه حِسِّياً ورومانسياً لشيءٌ بغيضٌ جداً ومُذلٌ ويدمِّرُ قدرتي على النوم.

* * *

في وقتٍ سابقٍ من النهار، في الحقيقة عند الظهيرة، علمتُ أنَّ مايكل يورك قرأ مسرحيةَ " الصرخة "، النسخة الأخيرة لها، وأبدى التزاماً شفهياً بالاشتراك في بطولتها. هناك بعضُ الصعوبات بشأن الضرائب - لكن وكيلي بيلي بارنز يعتقد أنَّ في إمكاني مع ميريك أنْ أحلَّ المشكلة.

* * *

ذات مرة كنتُ أتناولُ طعامَ العشاء في مطعم العشاء جو ألن مع الممثلة الحكيمة والظريفة روث فورد، التي تبدو وكأنها وُلِدَتْ مع حكمةٍ دنيوية تزيدُ عمَّا جَمَعَته حتى هذه النقطة من حياتي، وبدأتُ أتحدث عن إحساسي بالوحشة، وعن حاجتي إلى رفيقٍ بالأجرة.

قالت تنصحني " استأجِرْ رفيقاً، ولكن لا تصحبه إلى سريرك المزدوج. يمكنك دائماً أن تلتقط أحدهم من الشارع "

" أوه، يا إلهي، أنتِ لا تفهمين. لاشيء أشدَّ خواءً، وإرباكاً من شخصٍ ألتقطُهُ من منعطف الشارع. إنكَ غالباً لا تحصلين من أحدهم إلا على القذارة وستكونين محظوظةً إذا لم تُصابي بالسيلان كلما اقتطعتِ جزءاً من قلبكِ ورميتِ به إلى المجرور "

لم يكن لديها جوابٌ على هذا: رسمَ وجهُها الجميل تعبيراً مُبهماً وجاداً.

سألتُها " فما هو جوابكِ؟ "

(لا تبدُّل على تعبير ذلك الوجه الجنوبي النبيل)

* * *

كثيرٌ من الناس لم يفهموا لماذا رأيتُ أنَّ من الضروري بالنسبة إليّ، في صيف عام ١٩٧١، أن أقطع كل صِلة مِهنيّة لي مع أودري وود.

أعتقد أنَّ الانفصال عُزِيَ إلى جنون الارتياب، ومنتهى الجحود، وإلى انهيارٍ عامٍ حصلَ في طبيعتي الأخلاقية. وأعتقد أنَّ عليَّ أن أسردَ عليكَ، قدرَ ما تسمحُ لي مدركاتي الخاصة، القصة من وجهة نظري.

صحيحٌ أنَّ أودري ظلَّتْ تُمثِّلني من عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٧١، ولكن التمثيل استنفدَ أغراضه بصورةٍ من الصور، خلال السنوات العشر من فترة دوامه المفرطة الطول.

لعلَّ أودري، وبسبب هبوطٍ في صحة زوجها، بالإضافةِ إلى أسلوب حياتي النَفور وإدماني على المخدرات، والكحول، والحُقن " الممتعة "، ابتعدتْ، أو هكذا بدا لي، عن ظروفي المتدهورة باطراد، خلال حقبة الستينات.

بعد وفاة فرانكي، لم يبقَ هناك أي إنسانٍ قادرٍ على انتشالي من حالة الكآبة المَرَضيّة تقريباً التي غصتُ فيها.

بدا لي أنَّ ماريا وحدها بذلتْ جهداً صادقاً لتزويدي بالاهتمام الشخصي الذي كنتُ عندئذٍ في أمسِّ الحاجة إليه.

تبدَّى انفصالي عن أودري من خلال أحد " انفجاراتي المجنونة " الهستيرية التي تحصل قبل افتتاح مسرحية جديدة. ويُخجلني أن أقول إنها حدثتْ في حضورِ عددٍ من الشهود، اجتمعوا في غرفةِ تغيير ملابس دونالد مادن بعد عرضٍ أوليّ لنسخةٍ مُبكِّرةٍ من " الصرخة " في مسرح إيفانهو في شيكاغو، عام ١٩٧١.

كنتُ قد عملتُ فترةً طويلةً جداً على إنجاز " الصرخة "، وكانت قريبةً جداً من جوهر وجودي، أينما كان مركزه. وكان العرضُ الأوليّ لها قد حَضَرَه جمهورٌ أغلبُهُ من الشبان استقبلوا المسرحيةَ، التي قامَ كلٌ من دونالد مادن وآيلين هرلي بأداءٍ رائعٍ فيها، استقبالاً عظيماً جداً، ولكن خُيِّلَ إليّ أنَّ أودري لم تستجبْ للمسرحية ولاستقبالها الحار الذي تلقَّته. ولو لمْ تكن أودري لا تزالُ شخصاً مُقرَّباً جداً مني وهاماً بالنسبة إليّ لما كان للأمرِ أي اعتبارٍ عندي.

العرضُ الثاني التمهيدي حضَرَه أعضاءُ جمعيةٍ من مُحبِّي المسرح تُدعى شيئاً مثل "أخوات سارة سيدونز". وكنَّ في الغالب من الكهلات اللواتي يتبنَّينَ وجهةَ نظرٍ متزمِّتة عفا عليها الزمن من المغامرات المسرحية مثل " الصرخة ". فكان استقبالهن لها بارداً جداً في تلك الليلة. وبدا لي - وكان يمكن لهذا أن يُضلِّلَ بواعثَ قلقي المتأصِّلة - أنَّ أودري قد تأثَّرَتْ إيجابياً باستقبال ساره سيدونز أكثر مما تأثرَتْ بالحماسِ النسبيّ لجمهورِ الشباب في الليلة التي سبقَتْ.

في غرفة تغيير ملابس دونالد مادن انتابني ما يشبه الجنون. حملقتُ في أودري وقلتُ لها " واضحٌ أنكِ سُررتِ بردَّةِ فعلِ الجمهور هذه الليلة. لقد تمنَّيتِ لي الموتَ طوال عشر سنوات. لكني لن أموت "

لم أصرخْ في وجهها، بل تحدَّثتُ معها بضراوةٍ هادئةٍ، ولكن ما قلتُهُ كان فظيعاً، على الرغم من أن أودري كانت حتماً تعلمُ بحكمِ طولِ تجربتها حالةَ أعصابي المُحطَّمة قبل موعدِ الافتتاح الرسمي للمسرحية التي أرتبطُ بها عاطفياً بعمق.

لم تُردِ، بما تتَّصِفُ به من نبلٍ، على ثورتي في غرفةِ تغييرِ ملابس مادن. لكنها لمْ تمكث في شيكاغو لحضورِ الافتتاح. وعادتْ إلى نيويورك.

لقد شاعتْ بعض القصص المتطرِّفة حولَ هذه الحادثة. بل لقد قيلَ أني "ضربتُها" جسَدياً. وها أنا أحتجُّ! إنني لم أضرب امرأةً في حياتي. (قيلَ أيضاً أني أوصدتُ باب

غرفةِ نومي في فندق أمباسادور إيست في شيكاغو على ماريا وهدَّدتُها بأني سوف أقفزُ من النافذة إذا حاولتْ أن تهرب!)

إنَّ أياً من هذه القصص - هل أنا مضطرٌ إلى هذا القول؟ - ليس فيه ذرةٌ واحدةٌ من الحقيقة. وإنما يحتوي بدون أدنى شك على الكثير من الفكاهة الغريبة. على أي حال، إنَّ ما فعلتُ بالطريقة التي فعلته بها لم يدفعني بأي حال إلى العملِ على تعزيزِ ما يمكنُ أن أدَّعيه من كوني شخصاً عاقلاً جديراً بالثقة في كل المناسبات.

إنني وبكل صدق أشكُّ في أني رغبتُ مرةً في حياتي في أنْ أؤذي أي إنسانٍ، إلا أنه من المستحيل أن يعيشَ المرءُ حياته كلها بدون أن يُسبِّب الأذى لشخصٍ ما، ويكونُ في الغالب إنساناً تحرصُ عليه بقوة.

لقد كنتُ أحرصُ بكل صدقٍ على أودري وأعتقد أني ما زلتُ أفعلُ، وإنْ كان ذلك قد قلَّ بدرجةٍ طبيعيةٍ جداً على امتداد عقدٍ اتَّسمَ بالإهمال.

أعتقدُ أنه مع مرور الزمن سوف تتلاشى ذكرى تلك السنوات العشر عن امرأةٍ رائعةٍ بكل معنى الكلمة استحقَّتْ احترام العالم المِهني وعملتْ في مجالهِ وكانت مندوبةً لامعةً لعددٍ من الكُتَّاب المشهورين.

لقد كانت بالنسبة إليّ أشد شبهاً بفردٍ من العائلة أعتمدُ عليه اعتماداً خاصاً. وكانت ردَّةُ فعلها على عملٍ جديدٍ لي هي دائماً أول وأشد ما يهمّني: أقصد رأيها ورأي كازان.

ربما لو كانت مشاعري نحوها محصورةً ضمن المجال المهني لما اضطربتُ كثيراً ومن ثم ثارتْ ثورتي عندما بدا أنَّ اهتمامها بأمري - الذي كان في وقتٍ من الأوقات شديداً ومُخلِصاً، أو هكذا خيل إليّ - ينحسرُ، بحيث وجدتُني وحيداً كطفلٍ ضائعٍ أو كلبٍ عجوزٍ منبوذ...

١١

ماذا يعني أن تكونَ كاتباً؟ أنا أقول إنه يعني أن تكون حراً.

أنا أعرفُ أنَّ بعضَ الكُتَّاب ليسوا أحراراً، إنهم مُستَخدَمون مهنيّاً، وهذا أمرٌ مختلفٌ تماماً.

مهنياً، قد يكونون كُتَّاباً أفضل بالمعنى التقليدي لكلمة " أفضل ". إنهم يضعون آذانهم على أرض متطلّبات تأليف الكتب الرائجة: يُرضون ناشريهم وربما جمهور قرائهم أيضاً.

غير أنهم ليسوا أحراراً وبالتالي فهم لا يُحقِّقون ما أعتبره كينونة كاتب حقيقي.

أنْ تكونَ حُراً يعني أن تُنجِز حياتك.

يعني عدداً غير محدودٍ من الحريات.

يعني حريةَ أن تتوقفَ حين تشاءُ، وأن تذهب إلى حيث تشاء؛ يعني أن تكونَ رحَّالةً إلى كل مكان، تترك فنادق كثيرة، حزيناً أو سعيداً، لا يُعيقكَ عائق وبلا كثيرِ ندم.

إنه يعني حرية الوجود. وقد قالَ أحدهم بحكمةٍ، إذا لمْ تستطع أن تكونَ ذاتك، فما فائدة أن تكونَ أي شيءٍ مهما كان؟

* * *

أنا لستُ قارئاً مواظباً ولا أقتطفُ من الكتب المقدَّسة ومع ذلك أُحبُّ نصيحةً عثرتُ عليها بينها:

"فليشُعَّ نوركَ بين الذين يرون أعمالك الخيِّرة ويُمجِّدون أباكَ الذي في السماء "

هناك اتجاهٌ جديدٌ في الصحافة، واتجاهٌ جديدٌ في النقد الأدبي، ومنظور وأسلوب جديدان في السينما والمسرح، وفي كل جوانب حياتنا بلا استثناء، ولكن ما أعتقدُ أنه أشدَّ ما نحتاجُ إليه هو مبادئ أخلاقية جديدة.

وأعتقدُ أننا قد وصلنا إلى نقطةٍ باتَ عندها هذا ضرورةً مُلحَّةً وممكناً احتمالها...

* * *

استيقظتُ لتوي وأنا أشرحُ لغرفةِ النوم المظلمة، التي يُريحني ألاّ يُشاركني فيها أي غريبٍ ليليّ، هذه الصرخة الجديرةُ ببلانش: " آه، ولكنَّ قلبي سينفطر "

أنا واثقٌ من أنَّها مجردُ قول متطرِّفٍ جديرٍ بجنوبيّ وليس cri de Coeur (صرخةً من القلب) صادقة: وتأكَّد من أني لا أقصد أن أقولَ إنَّ " صرخةً جديرة ببلانش " ليست صرخةً صادقةً من القلب أو لا يمكن أن تكونَ كذلك. بل في الحقيقة كلّ صرخاتها تقريباً في وجه العالم في فترةِ يأسها بقي صداها يتردَّدُ لأنها صرخاتٌ صادقةٌ تصدرُ عن قلبها المُحصَّن، وهذا ما أضفى عليها المصداقيّة وأبقاها حيَّةً، يتردَّدُ صداها في قلوب سيداتٍ معروفاتٍ ومغموراتٍ على قَدَم المواساة. ولكن هذا ليس من شيَمي، ولا حتى أثناء وجودي في الجناح الفيكتوري. إنه تصريحٌ ينقصُهُ حسٌّ بلانش الفكاهي، وذلك الحسُّ الفكاهيُّ هو الذي جعلَ من بلانش، بالإضافة إلى صدقها، مخلوقة مسرحيةً شبه خالدة، تجسَّدتْ على خشبة المسرح في عروض ضخمةٍ خلال السنوات الأخيرة، قُدِّمَ أحدها على الويست كوست مع جون فويت في دور ستانلي، وآخر على الإيست كوست في مركز لينكولن، أخرجه إليس راب وقامت بدور بلانش زوجته السابقة روز- ميري هاريس.

هذا النهار بدأ بثلاثةِ أقدامٍ خاطئة ولا يبدو أنه سيكتسب فارقَ كونه ثلاثيَّ الأرجلِ عادياً، على فَرَضِ وجودِ مثل هذا الشيء وأنا لا أُسلِّم بأي شيءٍ بداهة.

أطَلْتُ النوم صباح أمس واضطررتُ إلى أن أتناولَ طعامَ الغداء وحدي في مطعم في الطابق السفلي. قضيتُ على نصفِ زجاجةٍ من كيانتي روفينو ثم عدتُ إلى السرير. أغارتْ عليَّ الوحشةُ مثل قطيعٍ من الذئابِ المسعورة. وهكذا - لما كنتُ قد تركتُ دفترَ عناويني الأحمر اللون الصغير في مدينة البندقية - اضطررتُ إلى اللجوء إلى دليل الهاتف لأطلبَ سيدةً أعرفها، لترسل إليّ رفيقاً بالأجرة. وأعتقدُ أنه كان قد قرأ قصتي " الرغبة والمُدلِّك الأسود " وتذكَّرها وهو يكيلُ لجَسَدي العجوز والمُتعَب أعنفَ ما تلقَّيتُ من ضربٍ وكبس.

" هيه، على مهلك، أنا لستُ مازوشيّاً "

في الواقع، لقد قلبني على وجهي وظهري عدة مرات، واستمرَّ هذا الحالُ مدة ساعة ويجب أن أعترفَ بأني بدأتُ أشعرُ بالارتخاء.

* * *

لديَّ حتماً خططٌ للمستقبل القريب بالإضافة إلى المشروع الحتمي الذي هو الموت. سوف أنتقلُ إلى جنوب إيطاليا أو صقلية وسوف أفي بوعدي وأمتلكُ قطعةً صغيرةً من الأرض أُربِّي فيها الماعز والبط وأكتبُ مسرحيةً أخرى.

إنني لا أحتملُ المتحرِّشين جنسياً في المدن الإيطالية كما يظهرون في شمال شبه الجزيرة الشبيهة بالقضيب الذكَري، لكنني لن أنسى أبداً لطف الـ contadini (الفلاحين)، خاصةً حين تشاجرتُ مع فرانكي وتوجَّهتُ وحدي إلى برشلونة في سيارتي الجاغوار ذات البابين مع ترمس من المارتيني وانعطفتُ بتلكَ السيارةِ الأنيقةِ حولَ شجرةٍ وإذا بسيارةٍ شاحنةٍ تخرجُ فجأةً من شارع جانبي ولم تثبُتْ سيارتي على الطريق فانعطفتُ لأتفاداها وطارتْ آلتي الكاتبة المحمولة عن المقعد الخلفي وضربَتني بقوةٍ على قفا رأسي، وطرَحَتني أرضاً لا أدري كم من الوقت. عدتُ إلى صوابي لأكتشفَ أني مُحاطٌ بالفلاحين، وكل منهم يمدُّ نحوي يداً مرتعشةً تحملُ كأساً صغيراً من نبيذهِ،أو كحوله وعذوبته وقلقه.

أُريدُ أن أكونَ بينهم حين أموتُ وأنا مُمدَّدٌ على الـ letto matrimoniale (السرير المزدوج الخاص بالأزواج) مع تلك الصورةِ الحيَّة لبُستانيٍ شابٍ جميلٍ يُمكنه أن يكونَ أيضاً سائقَ سيارة.

لمَ لا ؟ إنَّ للحلمِ المُلحّ معنى، وأحياناً يتحقَّق.

* * *

خرجتُ من مؤسسةِ فريغنز في عام ١٩٧٠ ، وتوجَّهتُ إلى موطني في كي ويست، حيثُ واجهني ما بدا لي دليلاً يُثيرُ الجنونَ على أنَّ راين لم يكن يتوقَّع لي أن أنجو بحياتي. ولم يكتفِ ببناءِ مطبخٍ باذخٍ وباهظ الثمن ذي نافذةٍ ضخمةٍ بزجاجٍ ملوَّن وكأنه كاتدرائية، وإنما أنشأ فناءً كاملاً جديداً وكأنه يخصُّ منطقةَ بيفرلي هيلز. وكانت نجاتي من الموت وعودتي إلى كي ويست مصدرَ خيبةِ أملٍ و - نعم، يمكنك القول إهانة - لسيادته.

كان يطوفُ البلدةِ مرحاً وهو دائماً بصُحبةِ سيدةٍ تشاركه عاداته الخليعة. وذات ليلة حضرتْ إلى مائدةِ العشاء تلبيةً لدعوته. فصفعتُ بابَ غرفةِ النومِ على نفسي، وعندما لحقَ بي أبلغْتُهُ أني لن أخرجَ إلا بعد أن تغادر المنزل.

مسكين! (هو). لقد أوصلها بنفسه إلى بيتها...

بعد ذلك بنحو أسبوع طُرِدَ راين نفسه. وكانت صديقتي العزيزة ميري لويز مانغ هي التي خطَّطَتْ لذاك العمل الباتّ.

كنتُ قد رفضتُ أن أستضيفَ حفلةً كبيرةً كان قد رتَّبَ لإقامتها في مطعمٍ غالٍ جداً، فهاجَ وماجَ وخرجَ شامخاً برأسه حين قلتُ إني لم أدعُ أياً من الضيوف وإني لن أستضيفهم.

عند نحو منتصف الليلَ كنتُ جالساً في غرفة الجلوس مع ميري لويز مانغ، والمؤلف الموسيقي ألك وايلدر، وجون ينغ، وإذا براين يدخلُ وهو ثملٌ ويركبُهُ الشرُ ويدأ يسخرُ مني.

قبلتُ تحدّيه، لفظياً. قبطَتْ ميري لويز على رسغي ثم قالت لراين، "أن نبض توم سريع جداً، وهو ليس في حالة تسمح له بهذا، اجمعْ أغراضكَ واخرج من المنزل فوراً"

أمَرَتْ جون ينغ بملازمتي في تلك الليلة، فمكث هناك كأمين سرّ مؤقَّتْ طِوال ربيع عامِ ١٩٧٠ بينما كنتُ أتعافى تدريجياً وبشكلٍ مؤلمٍ من احتجازي الذي كادَ يقضي عليَّ في فريغنز.

لطالما كان الاحتجاز هو رعبُ حياتي الأعظم: يمكنُ رؤية ذلك في مسرحيتي" الصرخةَ ".

إنني أعتبرُ " الصرخة " عملاً كبيراً وسوء الحظ الذي صادَفه في برودواي لم يُغيِّر احترامي الشخصي ذاك له، خاصة بعدما تمكّنتُ، بين فترتيّ الإنتاج والنشر، من حذف الجزء الذي أعاقَ سير عَرضه، ولكي أُحسِن ذاك المونولوج الافتتاحي الذي كان قد شُوِّه بالنزاع الذي نشأ بين المؤلفَ والمخرج وبرفض هذا الأخير أن يُجرِّب نُسَخَاً مُعدَّلةً سُلِّمَتْ في واشنطن. وأصبحتُ أضمرُ مشاعرَ مرَّةً نحو المخرج بسبب سلوكه الاستبدادي. وكنتُ ما أزالُ مقتنعاً بأنَّ وقوفَ جنفييف بوجو أمام مايكل يورك كانَ يمكن أن يُضفي على المسرحية قوةَ جذبٍ كان سيجعلها تصمدُ في برودواي إلى أن تجدَ جمهورها. إنَّ كارا دف- ماكورميك ممثلةٌ شابةٌ موهوبة لكنَّ اسمها وحضورها المسرحي لم يكونا كافيين لمتطلبات مسرحية " صرخة " الخاصة جداً. ومن فترة الاستراحة التي تخلَّلَتْ ليلة العرضِ

الافتتاحي في الليسيوم، سمعتُ أحدهم يهبطُ من الشرفة معي ويقولُ إنَّ المسرحيةَ كانت أفضل في عرضِ شيكاغو التجريبي الذي جرى في العام السابق، فالتفتُّ إلى الغريب وقلت " شكراً لك، أنا أوافقك "

مع ذلك، شدَّتْ الجمهورَ في ليلة الافتتاح: فلا سعال، ولا تململ في المقاعد: سادَ جوٌّ من الانجذاب المنتبه. غير أني شعرتُ أنَّ العرضَ محكومٌ بالفشل وأعددتُ العدة كي تقلّني سيارة ليموزين من أمام المسرح قبل إسدال الستار بنصف ساعة وتخرج بي بسرعة (مع صديقي) إلى اللاغوارديا لأطيرَ خلسةً إلى ميامي. إنني أتفهَّمُ تلقّي الممثلين احتفاءً حماسياً عند إسدال الستار ولاشك في أنَّ كليهما يستحقه. لقد أرهقَ العزيزُ مايكل نفسه حتى العظم. وكارا الصغيرة كانت راسخة القَدَم كطروادية، ولعلّها فهمت مغزى المسرحيةَ وأحبَّتها أكثر من كل مَنْ ساهمَ فيها، ماعدا المؤلِّف. وهي، خارج خشبة المسرح، تميلُ إلى الانجراف عاطفياً، وأثناء تناولنا وجبة غداءٍ في واشنطن التفتتْ إليَّ وقالت " أعتقدُ أنها أفضل مسرحيةٍ كُتِبَتْ حتى الآن "

ثم احمرَّتْ خجلاً حين ضحكتُ من هذا الاندفاع الفياض في التعبير عن المشاعر.

آه، ولكن رباه، كم أنا بحاجةٍ إلى مثل هذه الاستجابات المندفعة الفياضة التي تُمثِّل بالنسبة إليَّ الآن نفحَ الحياة!

الصحف اليومية لمانهاتن لم تُدمِّر المسرحية: لم تكن " إشعارات ماليّةً "، لكنها لم تُبدِ أي دافعٍ إلى التدمير.

كان كلايف بارنز يتصرَّفُ باحترامٍ حذر. وباستثناء ليونارد هاريس، تجاهلتُ نُقَّادَ التلفزيون. أعتقد أنه في العموم كانت ردودُ فعلهم سلبيّة.

إنَّ قولي أني تجاهلتُ نُقَّاد التلفزيون لا يُمثِّل الحقيقة كلها. فكيف أجرؤ على أن أتجاهل أي نقدٍ يُقرِّر حياة أي عرض مسرحي أو موته؟ إنَّ ما عنيته هو أني لم أُولِ كبيرَ اهتمامٍ بموهبتهم النقدية. ولم أكن أنا، بل ديفيد ميريك، الذي منعَ ناقداً تلفزيونياً من حضورِ عرضِ مانهاتن الافتنتاحي.

استغرقَ مني البراء من محنة عرضِ ليسيون مدة عام كامل على الأقل. وأعتقد أني لم أبراً بعد منها وأنَّ هذا الموقف الفاتر الذي اتَّخذه من إكمال مسرحية " البطارية ذات علامة الشيطان الأحمر "، ومن المسرحية الأخرى " هذا هو "، ينشأ من ذاك الجرح الذي عمره عام: إنَّ النزف بطيء وطالَ أمَدَه.

وفجأةً إذا بالمرء يعودُ إلى العمل ويواصل مسيرته: في حالتي لا بديل لهذا إلا الموت...

* * *

فجأةً شرَعْتُ أُصحِّحُ ما أخذتُ أرى أنه عيبُ بنيويّ أساسي في مسرحية " محاذير المهنة الصغيرة "، أي المونولوج الطويل الذي يُلقيه النادل مونك والذي يلي مباشرةً المونولوج الطويل لكوينتن، كاتب سيناريو الأفلام والشاذ جنسياً. وهو أشدُّ أجزاء المسرحية تأثيراً، ولما كانت مدلولات المسرحية لفظيّةً إلى حدٍ بعيد، فإنَّ خطابَ كوينتن هو بكل وضوح الذروة، على الأقل ذروة الفصل الأول. وخلال الأيام القليلة الماضية سلَّمتُ ثلاث مسوّدات من النُسَخ المُعدَّلة، حيثُ تبدأ المسرحية بمونولوج مونك، ثم جعلته يفتح أبواب البار. إنَّ هذا يُضفي إحساساً بالشكل الفني على المسرحية: ببدايتها مع مونك وهو يفتحُ محلَّه، وحيداً خائفاً مما يعانيه من خفاق الصدر، وفي النهاية يغلق المحل، بعد أن يقبَلَ فيوليت، المنبوذة والمثيرة للشفقة، كرفيقة، faute de mieux (لأنها أفضل الموجود)، والتي على الأقلّ أقنعها بأنْ تأخذ حماماً في الطابق العلوي.

إنني أدركُ كم أنا موضةٌ قديمة ككاتب مسرحي بسبب شدَّة اهتمامي بالشكل التقليدي، لكنَّ هذا لا يُحرجني البتة، بما أني أشعرُ أنَّ غيابَ الشَكَلِ دائماً تقريباً، إنْ لم يكن دائماً، يُثيرُ سخطَ الجمهور وسخطي على قَدَم المساواة. إنني أُصرُ على أنْ أعتبر مسرحية " قطة... " أفضل مسرحياتي الطويلة بسبب ما تتَّصِف به من وِحدَتيّ الزمان والمكان التقليديين وبسبب الضخامة المَلَكية لبيغ دادي. ومع ذلك يبدو أني أُناقضُ نفسي. فأنا كثيراً ما أكتبُ عن أُناسٍ لا يتَّصِفون بأبعادٍ ضخمةٍ، على الأقلّ ليس ظاهرياً. إنني أكتب عن " أناسٍ صغار ". ولكن هل لل " أناس الصغار " وجود؟ أحياناً أعتقد أنه لا وجود إلا للتصورات الصغيرة للناس. إنَّ كل من يعيشُ ويشعرُ بكثافةٍ ليس صغيراً، وحين أتفحَّصُ في العمق يبدو لي أنَّ أغلب " الناس الصغار " يعيشون بتلك الكثافة التي أستطيعُ أن أستخدمها بوصفي كاتباً.

هل كانت بلانش " شخصيةً صغيرة "؟ كلا بلا أدنى شك. لقد كانت مخلوقاً شيطانياً، حجمُ مشاعرها كان أعظم من أن تحتويها بدون أن تفلتَ من الجنون. وماذا عن المس ألما؟ هل كانت " شخصيةً صغيرة "؟ كلا بلا أدنى شك. إنَّ شغفَها يمنحُ الدراما مكانةً رفيعةً كما فعله لأوبرا لي هويلبي.

* * *

افهمْ من مفارقة حياتي ما تشاء، لقد بذلتُ جهداً مُخلصاً لأجعلها ذات مغزى.

صحيح أني مُحارب وقطعتُ مسافةً طويلة من سينت لويس، ولكن في حياتي فترة طويلة من الاندحار، منذ رحيل فرانكي. لكني حينئذٍ شعرتُ أن حياتي قد انتهت كما حياته وتخلّيتُ عن القتال. الأمرُ مختلفٌ الآن. إنني راغبٌ في الاستمرار، وثمة مشاريع جديدة هامة.

يا إلهي، إنني أتكلمُ مثل نيكسون!

* * *

هنا أودُّ أن أسردَ، بإيجاز أشد مما قد يتطلّبه محتواها الدرامي، رحلتي إلى بانكوك في عام ١٩٧٠. فقد انطلقت في الرحلة مدفوعاً بسوءِ فهمٍ غريبِ الشكل هو أني سأخضعُ هناك لعمليةٍ جراحية لاشتباه بوجود سرطان في الثدي، وأنَّ الجراحةَ سيقومُ بها جرّاحُ ملك تايلند، ولا أقلّ.

خلال رحلة بحرية طويلة وغير مقصود في البحر المتوسط في وقتٍ سابقٍ من ذاك العام لاحظت وجود تورُّمٍ صغير تحت حلَمة ثديي الأيسر. لم تكن تُسبِّب لي أي ألم ولم أُولِها أي اهتمام. ولكن أثناء قيامي بزيارة نيو أورلينز بعد ذلك بوقت قصير، مررتُ على طبيب مشهور طلباً للاستشارة بشأن حالة قلبي، فلاحظ وجود التورُّم في صدري.

قال لي " إنَّ سرطان الثدي نادر ظهوره جداً عند الرجال لكنَّ النوادر تحدث "

أكّدتُ له أني حتماً أتّفقُ معه في ذلك. نصحني بأن أُلغي مشاريعي كلها بشأن الرحلة إلى بانكوك وأعمل فوراً على استئصال الورم. لكني كنتُ مُصمِّماً على مواصلة الترحال، وقد عزَّزَ تصميمي على التوجّه إلى بلاد الشرق تأكيدُ صديقٍ لي أنه يعرفُ طبيب الملك الجرّاح شخصياً، وأنه سيقبلني مريضاً عنده.

لم يكن الطبيبُ الأميركي مطمئناً إلى التأخير الذي سينتج عن القيام برحلةٍ أخرى عبر المحيط قبل إجراء العملية الجراحية، لكنَّ وجهةَ سيري لم تهتز، وهكذا انطلقت في أوائل ذاك الخريف في رحلةٍ بحرية جميلة عبر المحيط الهادئ، لم يعكرها قليلاً إلا ازدياد التورُّم وإمكانية إجراء العملية الجراحية في مدينة بانكوك الأسطورية.

دخلتْ السفينة بريزيدنت كليفلند مرافئ عِدة في طريقها إلى هناك، بما فيها هونولولو، وأعتقد أني في هونولولو شربتُ بضع كؤوسٍ من الكوكتيل أثناء الرسو

الليلي وكشفتُ لبعض الأشخاص المهذارين عن أني، في نهاية الرحلة، قد أخضع لعملية جراحية لاستئصال ورم في الثدي.

لقد أذهلني مدى الهياج الذي سبَّبه هذا الاحتمال الذي ذكرتُهُ عَرَضاً بين صحافيّ يوكوهاما، في الميناء التالي الذي توقّفنا فيه. ففور نزولنا من السفينة، أحاطَ بي المصورون ومراسلو الأنباء والمترجمون من كل جانب.

وبينما كانت أضواء آلات التصوير الساطعة تبهر بصري، أخذ المترجمون يهتفون لي: " أحقاً أنتَ مُصابٌ بالسرطان، يا سيد ويليامز؟ "

تصادفَ أنْ كانت تلك الزيارة، التي لم تدُم أكثر من يومين، هي آخر لقاء يجمعني مع يوكيو ميشيما. كنتُ أنزلُ في فندقٍ في يوكوهاما أثناء رسوّ السفينة في الميناء. وجاء يوكيو ذات مساء بسيارته إلى الميناء لكي يتناول طعامَ العشاء معي.

أعتقدُ أنه حينئذٍ كان قد قرَّرَ لتوه أن يلجأ إلى الهارا- كيري، وهذا ما حدثَ بعد ذلك بشهرٍ أو اثنين وكنت ما أزالُ موجوداً في بانكوك. وقد لاحظتُ عندما وَلَجَ بار الفندق أنَّ جواً من التوتر والجاذبية يُحيطُ به مما دفعني إلى الاعتقاد أنه كان قد قرر أن يُنفِّذ ما نوى، وأنه نفَّذه ليس بدافع قلقٍ سياسيّ حول انهيار التقاليد القديمة في اليابان وإنما لأنه شعر أنه مع اكتمال ثلاثيته أنهى مهمَّته الكبرى كفنان.

لقد أثَّرَ بي قلقه العميق حول إدماني على شرب الخمر على الرغم من أني لم أشرب، على مائدة العشاء، أكثر من كأس كوكتيل وقليل من النبيذ. وفي اليوم التالي اتصل بي هاتفياً ليقول لي أنْ أنتبه إلى عاداتي في شرب الكحول...

بعد يوكوهاما توقفنا في هونغ كونغ. ومن هناك طرتُ إلى بانكوك. مكثتُ في فندق أورينت، شغَلتُ فيه جناحاً كان قد تقدَّسَ بشغله سابقاً من قِبَل نويل كوارد(٦٨) وسمرست موم.

سبقني خبر إصابتي (المزعومة) بسرطان الثدي إلى هناك. وما أن استقريتُ في جناحي حتى اتصلتْ بي المضيفة الاجتماعية التابعة للفندق هاتفياً لتقول لي إنَّ مراسلي الصحف ينتظرونني لإجراء مؤتمر صحفي في غرفة الطعام في الأسفل.

وصحَّ ما قالتْ. فقد كانت هناك طاولة طويلة يشغلها صحافيون، ومترجمون ومصوّرون متشوقون. كان السؤال الذي وُجِّه إليَّ صاعقاً.

" أصحيح يا سيد ويليامز أنك قَدِمْتَ إلى بانكوك لتموت؟ "

لمّا كنتُ قد جئت إلى بانكوك لسببٍ مختلف كل الاختلاف، انفجرتُ بالضحك.

أخبرتهم: " إنَّ المكان الوحيد الذي أودُّ أن أذهب إليه لأموت فيه، إنْ كان لي الخَيار، هو روما، ليس لأنها مقرّ الفاتيكان وإنما لأنها طالما كانتْ مدينتي المفضَّلة في العالم "

لقد وعدتُكَ أن أختصر القصة وسوف أحاولُ أن ألتزم بوعدي.

اتَّضَحَ، ويا للعجب، أنَّ الطبيبَ الجرّاح الذي كان سيُجري لي العملية الجراحية لاشتباهٍ بوجودِ سرطان في الثدي لم يكن فقط " ليس " الطبيب الجرّاح الخاصّ بالملك وإنما لم يكن قط، وهذا ما أعترفَ به وهو يضحك، قد قابلَ أيّاً من أفراد الأسرة المالكة؛ كان مجرَّد طبيبٍ جرّاح في الجيش السيامي وحصل على تدريبٍ طبي في الولايات المتحدة.

ومع ذلك، أُعجبتُ به.

أُجريَتْ لي العملية الجراحية في ظروفٍ غير نظامية، إنْ لمْ أقُلْ بدائية: كنتُ ما أزالُ أشدّ قلقاً على قلبي مني على هذا السرطان المزعوم في الثدي، وكنتُ طوال فترة إجراء العملية أحمل بيدي زجاجة صغيرة من أقراص النيتروغليسيرين. وقد أُجريَتْ وأنا تحت تأثير تخدير موضعي انتهى مفعوله in medias res (من غير تمهيد)، دامَ إجراء العملية مدةً تُقاربُ الساعة، وقال التقرير الباثولوجي إنه جينيكوماسيتا، وهو تضخُّم شائع جداً في غِدَّة ثدي الذكَرْ في الحالات التي يتأذَى بها الكبد جرّاء الإفراط في شرب الكحول في وقتٍ سابقٍ من الحياة.

لم تُخصَّص لي غرفةٌ للاستشفاء في المستوصف الصغير. وبعد انتهاء العملية الجراحية مباشرةً تناولتُ جرعةً كبيرةً من الشيري، ثم غادرتُ مع مجموعةٍ صغيرةٍ من الشبان التايلنديين إلى أفضل مطعم في البلدة، وهناك أولمنا بتناول شريحةٍ لحم au poivre (بالفلفل) وأنواع النبيذ المُعتَّق.

ما تبقَّى من فترة مكوثي في بانكوك كان حُلماً آملُ أن أعيشه من جديد ذات يوم. تمنَّيتُ لو أنه توفَّرتْ لي فُسحةٌ زمنية أكبر لأمجِّد مباهجها الغريبة!

عدتُ إلى الولايات المتحدة عن طريق سان فرانسيسكو، ووجدتُ للمرة الأولى في حياتي اسمي يغزو عناوين الصحف الرئيسية. وكانت العناوين الرئيسية تقولُ ما يُشبه:

" تنيسي ويليامز يمزح حول السرطان والموت ". وقد وصفوني بأني " قبيح، وأنيق ومتعجرف ".

حدثَ كل هذا قبل خمس سنوات والآن أنا أبحث عن سببٍ وجيهٍ آخر أتعلّلُ به لأعود إلى بانكوك: لعلني عثرتُ لتوّي على واحد، لا علاقة له بالعمليات الجراحية.

* * *

هذه أول مرة منذ صيف عام ١٩٤٦ أحاولُ فيها أنْ أكتبَ بينما هناك شخصٌ آخر معي في الغرفة. في عام ١٩٤٦ كانت كارسن ماكلر هي التي جلسَتْ على أحد طَرَفيَ طاولة العمل الطويلة وجلستُ أنا على الطرف الآخر، كانت تعدُّ مسرحيةً عن روايتها " عضوٌ في حفل الزفاف " وكنتُ أنا أُصارعُ عذابات الملعونة، أقصد مس ألما واينمللر بطلة " صيف ودخان ". لكنَّ الشخص الآخر الآن هو شابٌ عبقري - لم يجد بعدُ مَنْ يرعاه - وأنا أنسى بسرعةٍ وجوده، وحضوره حالمٌ ودافئ كحضور كارسن عندئذٍ، هو شديد الانغماس في عمله على الآلة الكاتبة المؤجَّرَة التي سَخَرتْ الإدارةُ بها منا، وأنا أخربشُ هذه التفاهات.

وضعتُ لتوّي سماعة الهاتف بعد مكالمةٍ من إريك مان، الثوري الذي أمضى مرةً، في الشتاء الفائت، الليلَ نائماً على أرضيةِ غرفةِ الجلوس هنا. وكانت لديه عادةُ النوم على السطوح القاسية في سجون Amerika كما كان يلفظها. لا أدري إلى أي مدى أنا متورط في هذا اللفظ الكافكاوي لكلمة جميلة مثل " أميركا "(٦٩)، بل في الحقيقة إني أشكُّ في أنَّ لي أي يد في ابتكارها.

أعتقدُ أنَّ ابتكاري هو ثورةُ شخصية وفنيّة، ولكنها ليستْ مُناضلة وليست سرّية، وأشعر أنها سوف تحقق ذاتها، ربما حتى خلال فترة حياتي، بدون عنفٍ عام.

العنف! إنَّ أطبائي النفسيين القُدامى كلهم، ولكن على وجه الخصوص الدكتور لورانس كوبي، الفرنسي، أخبرني أنه متأصِّلٌ عندي، وكان مُحقّاً فيما قال. إلا أنَّ العنفَ عندي لفظيٌّ كله.

ومع ذلك أنا لا أتهرَّبُ من خوضِ معركةٍ جسدية مُحتَمَلة، وهذا يُذكِّرني بحادثةٍ مُذهلةٍ وقعَتْ خلال فترةِ استراحةِ ليلةِ أمسٍ في النيو ثياتر. فقد كنت جالساً في غرفةِ تغيير ملابس الرجال وفجأةً إذا بالتقنيين ورجال الشرطة (يؤدّون أدواراً صغيرةً جداً)

كلهم يندفعون بين الجمهور حيث اندلعت أعمال عنف. فانتفضتُ وشققتُ طريقي بين صفوفهم لكي أواجه رئيس المباحث بالشغب الحاصل. لم أكن أُدركُ ما كنتُ أقول أو أفعل، كان يوماً غريباً، ولكن سمعتُني أصرخُ " إننا جميعاً وَضَعنا جهدنا كله في هذه المسرحية. إذا لم تكن تُعجبك، فأنا الذي ألّفَها، وَجِّه كلامكَ إليّ ". ثم وجدتُني في مواجهةِ شابٍ يبلغ ضعف طول قامتي، وجهه يتلظّى بغضبٍ مكظوم. وفي الحال أحاطَ بي الجميع، محاولين أن يخلّصوني من ذلك الشجار. المهمّ في الأمر أني لم أكُن خائفاً، على الرغم من أنه كان يمكنُ أن يُلصِقني بخشب الجدران، إنْ صحَّ التعبير. ويبدو أني منيعٌ بشكلٍ خطر في وجه ما قد يحدثُ لي حين تُوجَّه إليّ إهانةٌ وأواجه الشخصَ المهين.

كما ترى، أنا أحبُّ " مهنتي الصغيرة ".

شعرتُ بالارتباك حين علمتُ بالخبر الصاعق أنَّ " محاذير المهنة الصغيرة " ستُختَصَرُ مدةُ عرضها أسبوعَين من أصل ستة أشهر كنتُ أتوقعها لها، في النيو ثياتر. ذهبتُ إلى طبيبي الخاص فحقنني بجرعةٍ قويةٍ جداً من الريتالين، وهو عقار له صلة بالمُنشِّط السريع، وكان طبيب فندق في شيكاغو قد أعطاني منه في الصيف الفائت عندما استدعيته وقلتُ له إني أشعرُ بوهنٍ ولا أقوى على مغادرةِ فراشي لكنني لم أغادره حتى بعد أن حقنني بالجرعة.

كنتُ دائماً أغادر الفراش بعد أن أتلقّى الحُقَن المُنشِّطة السريعة. ومساء أمس، وبعد أن تلقيتُ جرعة الريتالين أخذت أؤدي في المسرحية كأداء المجانين. كنتُ أُحرِّفُ الحوار ومن ثم أقولُ لجين ماننغ، الذي يلعب دور مونك " هل قلتُ هذا لتوي؟ أوكيه، سأقوله ثانية ". وحين جاء صوتُ مُتنبِّئ الطقس اللعين عبر جهاز راديو (مزيف): يقول لي مونك " إنه تحذير المهنة الصغيرة، يا دوك "، فألتفتُ أنا نحو الجمهور، أواجهه مباشرة، وأقولُ " نعم، هذا هو عنوان المسرحية، وأنا النجم ". انفجر الجمهور بضحكٍ قاصف. لكني أؤكد لك أنَّ المسكين جين ماننغ - الذي يحب الدورَ الذي يمثله ودائماً يلعبه بشكلٍ تقليدي - راحَ يقذفني بنظراتٍ حانقةٍ كخناجر مسمومة.

لسوء الحظ أني أنا " النجم ": واسمي وُضِعَ فوق اسم بغ موراي وها أنا أُسارعُ لأؤكِّد لكَ أني اعترضتُ على ذلك. يا إلهي، إنني لستُ حتى ممثلاً؛ إنني فقط أظهر على خشبة المسرح لأدعم إيراد موسم الصيف. ومع ذلك عندي ميزةٌ ما، وهي أني

أعرفُ كيف أكونُ شائناً. وحين أرغب الآن في أن أُمثِّل بأسلوب تقليدي أعتقد أني أجيده. فمثلاً ليلة أمس، حين عدتُ (وأنا في دور دوك) إلى البار بعد أن قتلتُ امرأةً حامل، وضعتْ قبل الأوان طفلاً ميتاً - في الواقع، إنَّ دوك لا يقتلها بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وإنما، وكما يعترف دوك لمونك، بينما كانت تنزفُ حتى الموت كان في إمكانه أن يستدعي الإسعاف لنجدتها. لكن دوك يقولُ إنه أخذَ يفكر في العواقب المحتملة التي ستترتَّب عليه، وبينما كان يفكر في تلك العواقب، توفيت المرأة.

لكني في الواقع لا أحبُّ شخصية دوك. وما كنتُ لأتردَّدَ لحظة واحدة في استدعاء الإسعاف لنجدتها، على الرغم من العواقب المحتملة المترتِّبة عليّ كطبيبٍ قد يفقد رخصته الرسمية بسبب إدمانه على شرب الخمر وكان ما يزال يمارسُ مهنته سراً.

يمكن القول إنَّ بيني وبين دوك نقاطَ تشابه، كالسن وحتى ربما في عمق إذلال النفس. ولكن شكراً لله لأني كنتُ سأستدعي الإسعافَ للمرأةِ المسكينة بغضّ النظر عن العواقب المترتِّبة، ولن أكتفي بنفح الرجل الذي يعيشُ معها في العَرَبة المقطورة خمسينَ دولاراً كنتُ في ذلك اليوم تلقَّيتُها لقاء إجرائي عملية إجهاض.

أترى كيف أن هذه المسرحية، التي ستوقف عروضها في نيو ثياتر في نهاية هذا الأسبوع، ما زالت تسكنني؟ لن أسمح بإيقافها. لا بأس إنْ توقفت في نيويورك، لكني سوف أعملُ بطريقةٍ ما على إلزام ECCO بأخذها في جولةٍ تستحقها.

* * *

بعد أن أمضيت عدة ليالٍ بدون تناول عقاقير النوم، نجحتُ بالأمس في الحصول على كمية من النمبيول من أحد الأطباء وعوّضتُ عن الليالي التي تقريباً لم أحظَ فيها بأي قدرٍ من النوم، بالنوم بتناول زنبور واحد، كما كانت ماريون تُسميها، من منتصف الليل وحتى الساعة التاسعة صباحاً. واستيقظتُ آملاً في أن يُجدِّد النومُ الطويل طاقتي للعمل، ولكن سرعان ما ظهرَ العكس.

عندما حاولتُ أن أعاودَ العملَ على قصتي " ساباتو والعزلة "، كنتُ في حالةٍ شبيهةٍ بالغيبوبة، فتخلَّيتُ عنها بعد أن قمتُ بإنجازٍ صغيرٍ تَمَثَّلَ في إضفاءِ شيءٍ من النظام على الصفحات.

فيما يخصّ القصة: إنها بشكلٍ ما هِجائية ولكن أخشى أنها لم تتم.

في الواقع، إنها متنافرةٌ من نواحٍ معيَّنة. ثمة شيء يحدثُ لي لا يُبشِّرُ بخير وفي وقتٍ غير مناسب أبداً، لأني قريباً جداً مُقدِمٌ على تنفيذ آخر عملٍ مسرحيّ كبيرٍ لي. ولعلَّ ضخامة هذا الحَدَث وتَّرَتْ أعصابي. ولكن ألمْ أكُن دائماً متوتر الأعصاب؟ - لذا إنَّ هذا العذر لا يصدُّ ماءً أو حتى - وأي شيءٍ أضعفُ من الماء؟ - مطراً أو ندى.

ومع ذلك، ذات يوم سوف تتماسكُ القصة. إنَّ عملاً ما عندما يُتاحُ له ما يكفي من الوقت، ينجح. ولِمَ العَجَلَة؟

إنني أسترجعُ ذكرى الأشهر التي كنتُ خلالها أُدوِّنُ هذا التأريخ للحاضر والماضي، فأدركُ أنه لم يُلقِ عليّ أي ضوءٍ جذابٍ غير أنَّ هذا لا يُدنِّسُ ما تقدَّمَ - وهل يمكن تدنيسُ ما تقدَّم؟

إنني بحاجةٍ إلى مَنْ أضحكُ معه.

منذ تسريحي من قسم فريغنز في موسم الأعياد عند نهاية عام ١٩٦٩ وأنا على الدوام في حالة حاجةٍ إلى مَنْ يُقاسمني الضحك، وأنا أدرك، الآن، أنَّ هذا قد أنزل بشكلٍ ما الضررَ بعملي. قسمٌ كبيرٌ منه كان على صورة ضحك هستيري، يفتقرُ، في صميمه، إلى الروح، بقدر ما كان صاخباً في عُلُوِّه.

لم يكن من السهل أن أعيش ككاتب بدماغٍ دمَّرَته ثلاثة تشنجات خلال صباح يوم واحد وبقلبٍ تخرَّب بانسداداتٍ تاجيَّة إلى درجةٍ أنَّ الإيواء إلى النوم في كل ليلة يصحبه دائماً ارتيابٌ مضطربٌ وأحياناً مسربلٌ بالخوف من أنه قد لا يستيقظ أبداً في الصباح.

كم أحبُ أوقات الصباح! - وانتصاراتها على الليل.

أحياناً يتبدَّى لي أني عشتُ حياةً من صباحات متواليةٍ، بما أني أعملُ وكنتُ دائماً تقريباً أعملُ في أوقات الصباح.

* * *

تقولُ لي إحدى الصديقات إنها اتَّصَلَتْ هاتفياً بصديقٍ يعملُ لصالح نيويورك تايمز، لتطلب منه نسخة من ورقة النعي التي لاشك في أنَّ تلك الـ eminence grise(العجوز الشهيرة) في الصحافة الأميركية قد أودعتها الأضابير، لأنها عاشت حتى سنٍ معيَّنة، وحين يتعلَّق الأمر بوفاة " شخصية مشهورة " يجب أن تخرج ورقة النعي بسرعة.

ثمة في هذه الممارسة الصحفية جانب مروِّع.

إنني أقول هذا ليس لأني أشكُّ في أنَّ وفاة الفنانين الأميركيين يجب أن يُبلَّغ عنها فور حدوثها وإنما لأني أشعر أنَّ الموهبة الرئيسية لأي فنان أصيل هي صدق نيَّته، وأنَّ هذا لا يمكن اكتشافه من خلال نسخةٍ صغيرةٍ تورِد مراحل حياته ومظاهر تكريمه، وتذكر أعماله الرئيسية، وإنما من كونه مؤهلاً لإجراء دراسة جديرة بالتأمُّل عن حياته وعن " oeuvre" (إنجازه).

إنَّ كلمة " oeuvre" طنَّانة. لِمَ لا أقولُ فقط عمله؟

عمل!! - إنها أجمل الكلمات المؤلَّفة من ثلاثة أحرف، وهو يبزُّ حتى الحب في أهميته، في الغالب.

* * *

إنَّ أشدّ ما يرعبني هو ما أُلاقيه من صعوبةٍ مطّردةٍ في النوم: لم يكن مرةً من قبل بمثل صعوبة نيله الآن.

وكأنَّ شيئاً مُبهماً يسكنني ويمنعني من الاستغراق في النوم أكثر من فترةِ دوام مفعولِ المنوِّم القصيرة جداً.

وماذا عن المسرحيات التي تنتظرُ التنفيذ؟

إنَّ في الإمكان تحمُّل المِحَن كلها بقليل من لعق الجِراح، خاصةً أني سأكونُ حراً في أن أهاجر باستمرار إلى تلك: المزرعة الصغيرة في صقلية " لكي " أُربِّي الماعز والإوز "

أعتقد أنَّ ما يسكنني هو شيءٌ أُخفيه عن نفسي، بلا وعي ولكن بحكمة.

لعله حالة أمي الميؤوس منها، التي لا تني تنهشُ " عقلي " ولكني لمْ أولِها ما يكفي من الاهتمام. قد أحاولُ أن أُبرِّر موقفي بأنَّ العودة إلى سينت لويس تبثُّ الرعب فيَّ، هو فادح إلى درجة أني أشعرُ بالعجز عن أن أقومَ بها.

أيكونُ مرضُ أختي؟ إنَّ هذا يبدو سبباً مقبولاً أكثر. ومع ذلك فحتى هذا لا يبدو سبباً كافياً...

سألني أحد المُحاورين لماذا تتملَّك المؤلِّفين فكرتا المرض والموت؟

قلتُ له " إنَّ كل فنان يموت ميتتين، ليس فقط موته هو كمخلوقٍ ماديّ وإنما أيضاً موت طاقته الخلاّقة، فهي تموتُ معه "

إنَّ كل مسرحية تمرُّ على عددٍ كبيرٍ من الناس وتخضع لظروف كثيرة، متبدِّلة كانت أم ثابتة، ولتأويلات مختلفة ومُربكة تصدر عمَّن سُلِّمَتْ إليهم بحيث أنه لا عَجَبَ إذا أُصيبَ المؤلِّف بدوارٍ عُضال وسقطَ إلى الأبد في وَجْرَة مملوءةٍ بالأفاعي والجنون.

ومع ذلك، اليوم، وأنا أُكمِل تعديلاتي لأخرج النسخة المطبوعة من مسرحية " الصرخة "، لا أشعر بأي فقدان للتوازن. فالجو جميل، وأنا مُحاط بأصدقاء مُقرَّبين، وفي هذا المساء سوف أشاهدُ عرضاً تمهيدياً لمسرحية " عربة اسمها الرغبة "، يتولى القيام بالأدوار الرئيسية فيها ممثلون يفهمونها ويُحبُّونها، والعرض الجديد يُخرجه على خشبة المسرح المخرجُ الشابُ والموهوبُ جيمس بريدجز.

إنْ كانت ثمة عوائقُ على الطريق، فإني لا أرى منها ما هو جديرٌ بكبحِ تقدُّمي...

* * *

على الإنسان أن يتعايش خلال فترة حياته مع مجموعته الصغيرة من مُسبِّبات الخوف والغضب، ومع الريَبْ والتفاهات، ومع شهواته، الروحية منها والجسدية.

إنَّ الحبْل السرِّي حبلٌ طويلٌ، طويل من الدم يتدلَّى منه كبهلوانِ الجو على أُرجوحةٍ طائرةٍ لا نهاية لطولها، آه، ما أطول الدرب الذي يبدأ من رعشةِ الحياةِ الأولى التي تلدُ حياةً أخرى!

إنَّ ما نعرفه عن الله كله يمكن أن تُسمِّيه شَغَفَاً بالخلق.

أيكونُ هذا القول نوعاً من اللا أدري؟ لا أظن.

لعلَّكَ ستقبلُ ادِّعائي الصدقَ الاستثنائيَّ، ككاتبٍ وكإنسان. ولو كنتَ عرفتني خارج نطاق هذا الكتاب، لوجدتَني رجلاً يُقدِّرُ اللطفَ والصبرَ عند الآخرين.

لقد أمضيتُ جُلَّ حياتي مع أصحابٍ حميمين ذوي طبائع صعبةٍ ومُعقَّدةٍ. ولم أتعلَّم إلا مؤخَّراً كيف أقبلُ الصفقة، وأقصد بذلك أنْ أكنزَ الجوانب الجميلة من طبائعهم، وجميعهم كان يتمتَّعُ بها، وأن أتعايش برزانةٍ مع تقلُّباتِ أمزجتهم الفظَّة. على أي حال، إنَّ أياً منهم لم يكن يطيقُ العيشَ معي أو مرافقتي في أسفاري.

على مدى عامين ونصف كان يُرافقني شاب عاصف المزاج، ميَّالٍ إلى التفوُّه بالألفاظ النابية بلغةٍ اكتسَبَها أثناء أدائه خدمته العسكرية في جنوب شرق آسيا. يقولُ إنه يُحبني. وأتساءلُ " كيف استطاع ذلك؟ "

لو أنه يتركني اليوم، فسوف أكونُ سعيداً جداً بعلمي أنه أثناء وجوده معي أكملَ قراءة اثنتين من أبرز الروايات الحديثة التي قرأتها.

لو أنه يتركني اليوم - ولكن أعتقد أنه لن يفعل...

نحن الاثنين من الجنوب، وكلانا من الكُتّاب، وكلانا ملتزمٌ بالصدق في عمله وفي حياته.

بمناسبة الحديث عن الصدق في العمل: هناك نوعان منه: صدقٌ مع ذوق، وصدقٌ بدونه.

باشرتُ تأليف هذا الكتاب في عام ١٩٧٢: نحن الآن في عام ١٩٧٥. وعليه، فإنَّ الفقرات الحاضرة تتنقَّل في الزمن جيئة وذهاباً.

هذه السِمة غير مسبوقةٍ في أي كتابٍ يتحدثُ عن حياة رجل. وقد ألَّفَ غارسون كانن، الشديد الذكاء، واللامع غالباً، سيرة حياة سمرست موم مع إغفالٍ أشد للترتيب الزمني مما حاولتُ أنا أنْ أفعله: وقد أعجبني بطريقته تلك. والآن لقد وصلَ الزمنُ الماضي والزمن الحاضر إلى نقطةِ التقاءٍ في هذا الشيء.

* * *

هذا المساء قَدِمَتْ مس روز من ستوني لودج لتناول طعام العشاء. العزيزة تاتيانا، مرافقتها، لم تكن حاضرة فعملنا أنا والكاتب الشاب على مرافقتها إلى سان ريجي لتناول وجبة العشاء.

هل ذكرتُ أنه في آخر مرة جاءت إلى المدينة، تحوّلتْ دفةُ الحديث بيننا إلى السفر إلى الخارج وسألتُها إنْ كانت تحب أن تزورَ إنكلترا؟ وعَرَضَتْ عليها صديقتي ماريا، الليدي سينت جوست، دعوةً مفتوحةً لتنزل عندها في ويلبري، التي أعتقدُ أنها ستسلب لبَّ مس روز. أتيتُ على ذكر هذه الدعوة، وأضفتُ قائلاً إني أظنُّ أنه يمكن ترتيب مقابلة لها مع ملكة إنكلترا. فأجابت بدون لحظة تردُّد أو أدنى غياب للاقتناع " أنا ملكة إنكلترا "

أعتقدُ أنكَ إذا عشتَ في عالمٍ من الأحلام، فأمرٌ جميل أن تكونَ ملكةً فيه.

فعلاً، غالباً ما يُحيطُ بها جوٌ فخيم يبدو طبيعياً تماماً. وعندما تدخل مطعماً ترفعُ يدها وتومئ للغرباء.

في هذا المساء كان انتباهها متجهاً خاصةً إلى الأطفال الذين مررنا بهم خلال مشوارنا القصير إلى الحديقة العامة. لوَّحتْ لهم بيدها بابتهاجٍ وردّوا جميعهم على تلويحها بمثله.

" مَنْ كان ذلك الطفل يا روز؟ "

قالت " إنه ابني "

(أيكونُ وريث عرش إنكلترا؟)

في المرَّتين الأخيرتين اللتين أتت فيهما إلى هنا أحضَرَتْ معها فرشاة أسنانها ومعجون أسنان، آملةً في أن تقضي الليل. لاشك في أنَّ الترحال سيسعدها: ولم لا تذهبْ إلى إنكلترا.

لا تزال ماريا على حبها الهائل للمرح، ومما يبعثُ على المرح أن نرسِّخَ روز في قصر بالادين الجميل، في ويلبري، بوصفها سيدة من الأسرة المالكة، وتنحني لها السيدات والسادة احتراماً. فبعد تحمُّلها البطولي لمحنة الجنون، ورأسها الشامخ، وروحها التي لا تنكسر، لِمَ لا تُمنَح مثل هذا الإجلال، سواء أكانت ملكة إنكلترا أم لا؟

وهل سبقَ أن ذكرتُ أنها الآن تعتقد أنَّ " الأم " (ألعلّها الملكة الأم؟) موجودة بين المرضى في مصحّ ستوني لودج؟ وتقول تاتيانا أنها تربتْ برفقٍ على كتف هذه الأم البديلة وتقولُ " مرحباً، ماما "، وحين لا تتلقّى رداً ولا تتوقَّعه، تتابع طريقها. وفي هذه الليلة سألتُها " كيف حال الأم في اللودج؟ "

" أوه، بأحسن حال "

" وماذا تفعل؟ "

" تجلس "

كانت كارسن ماكلر مولعةً بروز وكثيراً ما كنا نصحبها في زيارةٍ لكارسن في ناياك. وبما أنَّ كارسن دائماً تفيضُ بالـ tendresse (الرقة)، قالت ذات مرة " أوه، روز، تعالي واعطني قُبلة "

فقالت روز " لا، شكراً، رائحةُ فمي كريهة "

في أمسيةٍ أخرى كانت كارسن قد دعتنا على وجبة عشاء تأخَّرَ تقديمها كثيراً، وكانت مس روز متعوِّدة على أن تتناول العشاء باكراً، لذلك أخذ قلقها يتفاقم. وكانت

دائماً تُخاطبُ كارسن بـ " ك " لسببٍ غامض، وأخيراً أصرَّتْ على أن تتوجه إلى المطبخ لترى كيف تتقدم عملية إعداد العشاء. في الحقيقة، كانت تتقهقر، فقطعة اللحم المشوي احترقت.

قالت روز " ك، أخشى أنَّ اللحمَ المشوي قد احترق "

كانت كارسن مستغرقةً بشكلٍ حالمٍ في شرب البوربون فلم تولِ هذا التقرير اهتماماً، لكنَّ مس روز لم تكن مثلها.

" ك، هلاَّ نهضتِ من فضلك وارتديتِ ملابسكِ؛ إنَّ أخي قادرٌ على أن يأخذنا إلى أحد المطاعم "

طبعاً استغرقَ من كارسن وقتاً طويلاً لتنهض واقفة، ومن ثم طلَبَتْ من روز أن تساعدها في ارتداء ثوبها.

لم تكن روز ميَّالةً كثيراً إلى ذلك.

" أخشى أنَّ عليكِ أن تتدبري أمرك وحدك "

* * *

كانت كارسن وزوجها ريفز قد جاءا إلى باريس قادمَين من منزلهما Ancien Presbytere (منزل الكاهن العتيق) الكائن في الريف. وها هما ينزلان في الفندق نفسه الذي أنزلَ فيه مع فرانك، فندق بون رويال. إنها أُمسية العرض الافتتاحي في باريس لفيلم من بطولة مانياني، ولما كنتُ قد تلقَّيتُ دعوةً لحضوره، كنت أهمُّ لارتداء سترة السهرة وإذا بجرس الهاتف يرن. كارسن على الخط، وهي مهتاجة ثائرة.

" أوه، تن، عزيزي، يجب أن ننتقل من الطابق الخامس إلى الثاني لأنَّ ريفز يُهدِّد بالقفز من النافذة. أرجوك تعال حالاً وحاولْ أن تُثنيه "

كان هذا الاستدعاء عاجلاً أكثر من دعوة آنّا، وهكذا اندفعت إلى غرفتيهما.

" ما هذا الكلام عن الانتحار، يا ريفز؟ لا أظنكَ جاداًّ! "

" نعم، أنا جادٌ تماماً "

" ولكن لماذا؟ "

" لقد اكتشفتُ أني شاذ جنسياً "

طبعاً بما أني لم أكن أتوقَّع أنه سوف يُقدِم فعلاً على قتل نفسه بعد ذلك بعام أو اثنين، انفجرت بالضحك.

" ريفز، إنَّ آخر ما يمكن أن أقومَ به هو أن أقفز من النافذة لأني شاذ جنسياً، إلا إذا أُجبِرتُ على أن أكونَ خلافَ ذلك "

تسلّى آل ماكلر بهذا الكلام، وأُرجئ تهديد ريفز بالانتحار إلى حين.

وصلتُ متأخِّراً على افتتاح فيلم مانياني. كانت نظراتها مُسلَّطَةً عليَّ كالخناجر فغُصتُ في مقصورتي.

في الـ Andien Presbytere، التي عادَ إليه آل ماكلر، كان يوجد شجرة كرز، وكان ريفز يلحُّ على كارسن باقتراحه بأنَّ عليهما أن يشنقا نفسيهما عليها.

بل إنه كان يحتفظ بحبلين لهذا الهدف. لكن كارسن لم تنخدع بتلك المراودة .

ثم اضطرّها أحد أمراضها المستعصية على العودة إلى باريس لتلقّي المعالجة الطبيّة.

أوصلها ريفز بالسيارة، لكنه في الطريق عَرَضَ عليها الحَبلَين ومرة أخرى حَضَّها على شنق نفسها معه.

تظاهَرَتْ بالإذعان، لكنها أقنعَتهُ بالتوقُّف في حانةٍ على الطريق لكي يشتريا زجاجة من النبيذ تشدّ من عزمها على القيام بالعمل.

حالما وَلَجَ الحانة ترجَّلَتْ كارسن من السيارة وحصلتْ على توصيلة من الطريق إلى المستشفى الأميركي الكائن في ضواحي باريس.

بعد ذلك لم ترَ المسكين ريفز حياً قط. فقد قتلَ نفسه بعد ذلك ببضعة أشهر، بزجاجة منوِّم الباربيتوريت والإسراف في معاقرة الخمر.

ما أشدّ ما أكتب باستخفاف عن تلك الذكريات المُريعة!

بأي طريقة أخرى يمكن أن أُقدِّمها إلى مَنْ لا يكاد يعرف كارسن وريفز؟

* * *

مساء أمس أجرى معي الناقد الدرامي في نيويورك والتر كير، ولا أقلّ، حديثاً ولأوّل مرة في حياتي.

كنتُ خائفاً. لقد رفضَ أن يتناول طعام الغداء في لافارانda (الشرفة) في الطابق السفلي ورفضَ أن يشاركني شرب زجاجة من " السوف " التي أحضرتها إلى الجناح - أعتقد أني شربتُها كلها لأنه لم يتبقَّ منها أي شيء في غرفة الجلوس.

لكنَّ مـجـرَّد جلوسي مع هذا الرجل الإنسـاني الذي يشـيـعُ الطمـأنـينة في النفس، والذي أطالَ العَبَث بآلة التسجيل وترك وراءه أحد الأشرطة المُسجَّلة - وفَّرَ عليَّ الثرثرة العصبية حول أمورٍ خارجةٍ عن الموضوع.

طبعاً لا أحد يعرف كيف ستؤول إليه مقابلة صحفية ولا كيف سيكون النقد - وحتماً، أيضاً، لا أحد يعرفُ كيف ستظهر المسرحية.

* * *

نصَحَني طبيب قلبي في نيو أورلينز، وعلى امتداد السنوات الأربع الأخيرة، أن أعودَ إلى كي ويست وأعيش عيشةَ التماسيح. وهي نصيحةٌ تجاهلتُها، بدون أن أعرف كيف تعيشُ التماسيح خِلاف أن تركدُ بتكاسُل في المستنقع، وذاك النمط من الحياة يجذبني إليه بقوةِ جذبِ الموتِ نفسه.

" امشِ بهدوء وسوف تذهب بعيداً " - إلى أين يا تُرى؟ - سأقوم بالمحاولة بدون شك، على الرغم من هذا التلهُّف المستمر إلى الحركة والترحال.

بمناسبة الحديث عن الترحال: هذا الصيف هو أول صيف منذ عام ١٩٤٧ لم أسافر خلاله إلى الخارج، ليس حتى إلى إيطاليا. وفجأة، وأثناء تناول طعام الغداء في الومنز اكستشينج مع صديق شاب، طرحتُ عني فكرة التوجُّه إلى مونريال لأنها لا تُعتَبَر خارج البلاد، وأيضاً كل تفكير في العودة إلى نيو أورلينز أو كي ويست. لم أكن أُطيق الكوكالوني كي في موسم الإعصار. وأخذتُ أناقشُ بحماسٍ فكرةَ الطيران إلى إيطاليا في شهر أيلول. وقد اتَّخذُ لي بيتاً صغيراً شَرِحاً مدةَ شهرٍ في بوزيتانو بعد أن يكون معظم رواد الصيف قد رحلوا، حيث المياه مُنعشةٌ ونظيفةٌ، وفي وسعي أن أُنفِّذَ بعض الرسومات وأُفسِحَ المجال لمشروعِ كتابٍ جديدٍ بالبروز إلى السطح، والأفضل ألاَّ يكونَ أشبه بجثةٍ غارقةٍ وإنما مخلوقاً حياً أساسه الماء، والهواء، والنار، مثل كليوباترا.

كان في وسعي أن أعودَ إلى الولايات المتحدة عن طريق لندن، وأمضي بعض الوقت مع ماريا، بحيثُ يمكن للكاتب الشاب، الذي كان يمقتها ربما بقدرِ ما هي تمقته، أن يطيرَ عائداً من روما. وفي لندن يمكنني أن أعملَ على إثارةِ اهتمام الرويال كورت أو مسرح نادي هامستد بمسرحية " الأيام الأخيرة لمغناجٍ شهيرة " من بطولةِ آن ميتشم، التي تناولنا طعامَ العشاءَ معها في هذا المساء وكنا ضيوفاً عليها. وهي ما زالت تأملُ

في أن تحصل على التزام من بيتر كوك وددلي مور بأنْ يظهرا معها: إنني لا أشاطرها أملها ذاك ولستُ مهتماً. أعتقدُ أنَّ المشروعَ الآن يحتاجُ فقط إلى دار مسرح تقع في أقصى الحي الغربي وإلى مخرج مُبدع يبرز فكاهتها الرائعة وأيضاً - آن ستقولُ " الرعب "، لكني أعتقد أنَّ ذاك العنصر تمَّ التخلُّص منه بالكوميديا السوداء الجامحة التي تُغلِّفه.

ولأقتطفِ ما قاله بايرون في " كامينوريل ": " قوموا بالأسفار، جرِّبوها، لم يبقَ غيرها"

* * *

أعتقدُ أنه حانَ الوقتُ لأتساءل إنْ كنتُ مجنوناً أم نسبياً عاقلاً. أعتقد أن أغلبَ الذين تابعوا قراءة هذا الشيء قد خلصوا لتوِّهم إلى رأي خاصٍ بهم عند هذه النقطة، ربما ليس في صالحي. إلى هؤلاء، إلى الأكثرية المرتابة، أقولُ non contendre (لا تتردَّدوا). إنَّ لكم عالمكم الخاص المستقلّ ومعاييركم الخاصة المستقلّة حول صحة العقل. إنَّ أغلبكم ينتمي إلى شيءٍ ذي تأثيرٍ يُحقِّقُ التوازن: وحدة العائلة، مركز اجتماعي مُحدَّد، العمل ضمن نظام، وسلوكٍ أكثر ضماناً في الوجود. أنا أعيشُ كغجريّ، أهيمُ على وجهي. لم يعُد أي مكانٍ يُغريني بالتمسُّك به، ولا حتى جلدي.

في الواقع، إنَّ كلمتيّ عاقل ومجنون هما كلمتان قانونيتان. ولا أصدِّق أنَّ الملازم كالي[٧٠] Calley، الذي أصبحَ الآن أسطورة، ورمزاً للأعمال الوحشية الخارجة عن العقل وهو ضابط شاب حوَّلَ الخندق الموحل أحمر اللون من دماء المدنيين العُزل، من أجداد وجدات إلى أطفال، قد أُعلِنَ مجنوناً رسمياً.

يمكن متابعة المسألة بعددٍ لا يُحصى من الأمثلة حول ما ظُنَّ أنه صحة عقل في العالم، لكنها مسألة مملة. وسأعود إلى ما يتعلَّق منها بي وأعترف بأني أجد نفسي باطِّراد متميِّزاً.

لقد قطعتُ عهداً على نفسي بأن أستمرَّ في الكتابة، بما أنه لا خَيارَ لي في ذلك، فهي تمدُّ جذورها داخلي كأسلوبٍ في الحياة وكشكلٍ من التحليق - ولكن ربما لن أنخرط في أي عرضٍ مسرحيّ إلا ككاتب وكمُشاهد. سوف لن أُعذِّب نفسي ولن أسمحَ للهواجس أن تُعذِّبني، ولا للضغوط النفسية، جرَّاء الاشتراك في تحويل نصٍ مكتوبٍ إلى عرضٍ مسرحيّ في برودواي.

هل أعني ما أقول؟ عليَّ دائماً، في هذه الأيام، أن أنتظر لأرى.

* * *

الموتُ هو الاحتمال المحتوم الذي غالباً ما نعمل على تجنُّبه أطول مدة ممكنة، ولكن، في النهاية، وبعد استنزاف كل الخيارات الممكنة، علينا أن نحاولَ أن نتقبَّلَه بأكبرِ قدرٍ مما تبقَّى من قبول تحت سيطرتنا. لا شيء من هذا يبعثُ على الدهشة اللهم إلا ربما عند بعض المؤمنين الصَلبين بالعِلم النصراني. إنَّ أجملَ ما قرأتُ مؤخراً عن الموت موجودٌ في كتاب ستيوارت ألسوب " حبل تنفيذ الإعدام ". قال: " إنَّ الإنسانَ المُحتضر يحتاجُ إلى الموت احتياج إنسانٍ مُتعَبٍ إلى النوم "

طبعاً إنَّ الاحتياج إلى شيءٍ لا يساوي بالضبط إرادته.

في مسرحية " قطة على سطحٍ من الصفيح الساخن " يقول بيغ دادي في موقع من الفصل الثاني إنَّ الخنزير يُطلق صراخاً حاداً أما الإنسان فيستطيع أن يكبته. ثم يقول إنَّ الخنزير يتمتَّعُ بميزة، وهي أنه لا يعرفُ أي شيءٍ عن الموت. إنَّ الحيوانات تعيشُ بدون أن تعرف أنها ستموت ولكن حين تموت فإنها تُطلِقُ عِواءً أو صراخاً بسببه. إلا أنَّ الإنسان يعرفه ويلزم الصمت إزاءه.

إنَّ ما يُثيرُ السخرية أنَّ بيغ دادي، في الفصل الثالث، يعوي بقوةٍ من الألم، وبيغ ماما المسكينة، التي تحبُّه، تندفعُ إلى غرفة نوم ماغي وبريك طلباً للمورفين لتُسكِّنُ معاناته الختامية.

قبل صيفَين من الآن، بعد أن أجريتُ عمليةً جراحيةً في مستشفى الأطباء في مانهاتن، أطبقتُ فمي على إحساسي بالرعب عندما نقلوني إلى حجرة العمليات وطبيب التخدير حقنني في العمود الفقري بجُرعةٍ اعتقدتُ أني لن أفيقَ منها أبداً. ولكن حين أفقتُ وأنا على سرير المستشفى ومزَّقوا شاش العملية الجراحية، عويتُ كحيوانٍ، أو كما فعلَ بيغ دادي في الفصل الثالث. وحمداً لله على أنهم أعطوني على الفور قرصاً من الديميرول القويّ المفعول ليُغيِّبني عن الوعي. ولكن سرعان ما تبدَّد النومُ الرحيمُ، وفي اليوم التالي وصفتُ الليلة السابقة بأنها " ليلة السكاكين الطويلة ".

آمل في أن أموتَ على سريري حين تأتي الساعة، وآمل في أن يكونَ سريراً نحاسياً كبيراً وجميلاً في شقتي في نيو أورلينز. السرير المرتبط بالكثير من الحب

وبمرلو في شققنا المختلفة في نيويورك في الشارع الثامن والخمسين الشرقي والشارع الخامس والستين الشرقي.

قرأتُ أنَّ رجلاً وفناناً لامعاً مثل يوكيو ميشيما كان يؤمن بالتقمُّص. إنْ كان هذا صحيحاً فإنه لم يناقشني قط في الأمر.

إنني غير قادرٍ على الإيمان إلا بالنسيان التام بعد الموت. إنه ردَّةٌ مريعةٌ بها نعيشُ حياةً إنسانية. لقد قيلَ لي أنَّ الخطوط المستقيمة كلها في الكون تنحني في آخر المطاف، وأنَّ الخطَ المنحني قد يعودُ فيستقيم كما كان في البداية، فيما يشبه الولادة الثانية. ولكن ما أطوله من انتظارٍ، وإذا كان التفكيرُ في إمكانيةِ حدوثِ ذلك يواسي، فيا لها من مواساة باردة، لأنك ستولد من جديد على كوكبٍ تحوَّلَ إلى كومةٍ من الخَبَث، هذا إنْ وُجِدَ أصلاً. ومن بين الحالات الأخرى التي أخافها أن أتخيَّل.

بل إني لستُ واثقاً من أنه قد أثبتَ بما لا يدعو إلى الشك أنَّ الفضاء والكونُ لهما صِفة الانحناء بالمعنى الذي نعرفه عن الكلمة.

وهكذا نبقى أخيراً إما مع الولاءات البسيطة لطفولتنا، غير المقبولة من شخصٍ بالغٍ، أو من --- ماذا ؟

حقاً، ماذا! أهي الملاهي التافهة للحياة اليومية والليلية التي تُخفتُ وقْعَ الأقدام المكبوتة ولكن العملاقة لنهايتنا الدانية؟ أهي ممارسةُ التأمُّل في العُزلة وأيضاً، من خلالها، السموّ الرزين الرائع، البطيء، للذات الجسدية واهتماماتها ؟

إنني مُدركٌ كل الإدراك عناصر الجذب في هذا الأسلوب الشرق-أقصويّ في تصالُحٍ ذات المرء مع فقدانها لذاتها، لكنني مخلوقٌ غربيّ قلباً وقالباً ولا أستطيع أن أتَّبعه حتى النهاية بدون اللجوء إلى غليون الأفيون.

لم يبقَ بالنسبة إليَّ إلا أنْ أشعرَ بتيارِ الموت الذي يرتفعُ باطراد من تحتي وأن أستجمعَ كل ما في دمي من شجاعة فطرية لمواجهته، وقد كنتُ أتحلَّى ذات مرة بالكثير منها.

مؤخراً تناولنا الطعام مع شاب أسود عالي الموهبة كان يُدوِّن تاريخ موسيقى الجاز والموسيقى الشعبية في هارلم. وخلال سياق تناول الوجبة أبدى ملاحظةً حكيمةً و " سوداء " بشكلٍ مُسلٍ، حتى أني دوَّنتُها على فوطةٍ وَرَقيّة.

" إنَّ الله لا يأتي عندما تطلبه لكنه يأتي في وقته بالضبط "

* * *

أثناء الانتظار، ماذا أفعل؟ طبعاً سوف أتابعُ العملَ، ولكن لا لأخدعَ نفسي بافتراض أنَّ ما أنجزه الآن ما زال يتمتَّع بحيويةِ إنجازي في عهد ذروته، حين كان يتفجَّر مثل ينابيع الربيع.

" *هذه الينابيع بانبجاساتها الخطرة،*

التي أمخُرُها بتهوُّر "

(هذان البيان من قصيدة مُبكِّرة عندما كنتُ أتفجَّرُ بالصِور الفنية لكني لم أكن بعد قد كسرتُ أكفان البحر الخُماسي التفعيلة)

ماذا أفعلُ أيضاً في أثناء الانتظار؟

بما أني مخلوقٌ حِسِّي - ولماذا أظلُّ أقولُ مخلوقاً بدل إنساناً؟ - سأظلُّ أفعلُ ما أفعله أثناء الانتظار. سوف أواسي نفسي بالنبيذ الجيد والطعام الطيِّب ولكن بدون أن أصلَ إلى حد السُكر والشبع وتكدُّس اللحم. سوف أحاولُ أن أتمسَّكُ بأولئكَ الأصدقاء الذين بقوا أصدقاءً على الرغم من سنوات الغضب الصعبة التي أعتقدُ أنها مضت الآن وانتهت. وسوف أحصلُ، وما أزال آمل في أن أحصل، على المعرفة الروحية والجسدية معاً لرفيقٍ شاب وجذاب: لم يعد هذا يحدثُ كثيراً، بل على فترات متباعدةٍ وبتعقُّل.

سوف لن أنغمس في الخُيلاء لكني سأتمسَّكُ بالكبرياء، وهما شيئان مختلفان تماماً، الأول يدلُّ على الضعف والانغماس المستهتر، والثاني يدلُّ على القوة وعلى ضرورة الحياة بشرف.

أتظنُّ أني رويتُ لك قصة حياتي؟

لقد سردتُ عليكَ الأحداث البارزة في حياتي، ووصفتُ بأفضل ما استطعت، وبدون ترجيعات قانونية، شخصياتها الدراميّة.

غير أنَّ الحياةَ مكوَّنةٌ من ظواهر لحظيّة تتبدَّى في الأعصاب وفي المفهومات، ومهما تحاول لن تستطيع أن تدوِّنها في وقائع تاريخ حياتك.

إنَّ عملَ رسَّامٍ مُبدعٍ، مُخصَّصاً حصراً للرؤيا، ومجرَّداً وتلميحيّاً كما يريده، لهو أكثر قدرة على أن يُبدع لأجلك لحظات وجوده الأكثف إدراكاً. إنَّ في إمكان جاكسون

بولوك أن يرسم النشوة كما لا يمكن أن تكتب. وفان غوخ كان يستطيع أن يأسُر لأجلك لحظات من الجمال، عصيَّة على الوصف كالسقوط في الجنون.

وأولئك الذين رسموا ونحتوا الحِسّيَّ والشهوانيَّ في الحياة العارية في أبهى لحظاتها جعلوه لأجلك ملموساً كما لا تستطيع أصابعنا والأجزاء الحسَّاسة جنسياً من جسدنا على تحسُّسه.

لا أذكرُ، في هذه اللحظة، إلا كاتباً واحداً هو الشاعر الفتى رامبو استطاعَ أن يهربَ من الكلمات ليغوصَ في أحاسيس كونه، عبر شبابه، المضطرب بالثورة، لفظاً مُتاحاً بليالٍ من الأفسنتين. وطبعاً هناك هارت كرين؛ وكِلا هذين الشاعرين لمسا ناراً أحرقتهما حيَّين. ولعلَّ فقط من خلال تضحيةٍ بالذات من هذا النوع في وسعنا نحن الكائنات الحيّة أن نُقدِّم إليك حقيقتنا الكاملة ضمن الحدود المعقولة لكتاب.

إنْ كان هذا هو الحالُ، إذن، فإنَّ نقائصَ محاولتي هذه لأروي قصة حياتي، وصدِّقني، لقد حاولتُ ذلك، لعلها كانت، بل هي فعلاً، لصالحي، وأنا لم أستودعُكَ أي خيبةِ أملٍ خطيرة.

* * *

في هذا العام تمَّ الاحتفالُ بعيد الميلاد[٧١] الخاص بروز في يوم رأس السنة الجديد (عام ١٩٧٥) بما أني كنتُ قد أمضيتُ عيد الميلاد متنقِّلاً " داخل البلاد " ولم تتلقَّ روز مُقدَّماً إلا هدية رمزية هي قرطان من اللؤلؤ، يعادلان قِلادة اللؤلؤ التي كنتُ قد اشتريتُها من محل ساكس مع ثوبِ السهرة، وكان ثوباً فضّيَّ اللون جميلاً يُدعى " أخضر فستقي ". وكنت قد زرتُ محل ساكس في اليوم السابق ليومِ رأس السنة لأحصل على هداياها الهامة من أجل عيد الميلاد المؤخَّر: سترة من الفرو الفضيّ الجميل وبلوزتين من الحرير مُزيَّنتين بأزهار الربيع. (لم تكن روز قد فقدتْ أيَّ قدرٍ من شغفها الباطل بالملابس، الذي دفعها إلى أن تُكرِّسَ ساعاتٍ عديدةً ممتعةً في عهد طفولتها تمضيها أمام واجهات محلات مقاطعة سينت لويس. والمشكلة الآن هي إيجادُ مُتَّسعٍ في خزانتها في ستوني لودج - اضطروا إلى تخزين معظم ملابسها خارج غرفتها).

إلا أنَّ أهمَّ هداياها قاطبةً تلقَّته من هيئة الأطباء في ستوني لودج. وقد وافقوا على أنْ تقضي ثلاثة أيام في مدينة نيويورك بصُحبتي وصحبة مرافقتها التي أتيتُ

على ذِكرها سابقاً، تاتيانا، وهي لاجئةٌ من روسيا البيضاء ومن مدينة " سينت بطرسبرغ ". تاتيانا سيدة رائعة في سبعينات عمرها تعملُ " حسب الطلب " كممرضة عملية[٧٢] في نيويورك. ومن الضروري لروز أن تسهرَ ممرضةٌ على راحتها لأنها عُرضَةٌ لنوبات غير منتظمة من الصَرَعِ الخفيف، نتيجة أنسجة ندبةٍ مُتبقّيةٍ كتذكارٍ من جراحةٍ فصّيةٍ أُجريَتْ في مصحّ ولاية ميزوري. إنني أعتبرُ ذلك إجراءً خاطئاً بشكلٍ مأساويّ، وأعتقدُ أنه كان في مقدور روز، لولاه، أن تبرأ وتعودَ إلى ما يُسمَّى بـ " الحياة الطبيعية "، التي، على الرغم من تعدياتها المتكرِّرة على طبيعتها الهشّة، ما زالت أفضل من الحياة في المؤسسة.

وهكذا، بعد ظهر يوم رأس السنة، ذهبَتُ مع تاتيانا إلى أوسينغ في سيارة ليموزين مُستأجَرَة لنُحضرَ ملكة إنكلترا الـ soi-disant (المزعومة). وكانت تلك عطلة روز الحقيقية الأولى منذ سنواتٍ طويلةٍ إلى درجةٍ أني لا أستطيعُ أن أتذكّر عددها بسهولة، وهي لا تقلّ عن خمس وعشرين سنة، وكنت أنا وتاتيانا قلقَين حول كيف ستسير.

استقبلتنا روز بودٍّ ودعتنا إلى غرفتها الجديدة، التي كانت صغيرةً نسبياً لكنها معقولة. لم يكن لديها حقيبة سفر لكن تاتيانا أحضرتْ معها واحدةً لروز ورتبت داخلها كل ما استطاعتْ برشاقةٍ مذهلةٍ. لقد كانت تعرفُ بدقَّة مكانَ كل غرضٍ. بعد ذلك أعلنتْ أنها تنوي أن تمكث معي إلى الأبد. وارتأينا ألاّ ننصحها بذلك لأنَّ فترةَ المكوث لا تتعدَّى الأيام الثلاثة. وبينما كانت الممرضات يُزوِّدن تاتيانا بأدوية روز، انتظرت مع روز في غرفة الاستقبال، وهناك كانت فتاة متمدِّدة على الأرض فوق السجاد تقوم بحركاتٍ التوائيّة غريبة وترسم على وجهها تكشيرات متنوِّعة. لم يُعجِب ذلك مس روز، فتقدّمت من ذلك الشكل الطريح، وقالت بأدب " بعد إذنك "، وجلست على الأريكة الطويلة لكي تُشعِلَ سيجارة.

في مؤسسة ستوني لودج يسمح لروز بتدخين ثلاث سجائر أو أربع في اليوم ولكنها عندما تنزل إلى المدينة لا تكفّ عن التدخين. وقد أريتها تحذير كبير الأطباء الموجود على علبة السجائر، والذي يقول إنها تضرُّ الصحة. تظاهرت روز بأنها لا تتمكن من قراءتها، على الرغم من أنها، لاحقاً، وفي أحد المطاعم قرأت بسهولة قائمة طعام مكتوبة باللغة الفرنسية.

بغضّ النظر عن أنها كانت تنتهز كل فرصة مُتاحة لتختطف سيجارة فإنَّ الزيارة سارت سيراً حسناً جداً. وفي الليلة الثانية استضافنا بيل بارنز على مائدة العشاء في شقته الكائنة في أعلى البناء، وقد أعدَّ وجبته اللذيذة وصيفُهُ الأسود ذو الثمانية والستين عاماً واسمه إرنست ويليامز. وحين قابلتْ روز إرنست للمرة الأولى، وقبل ذلك بمدَّة، أخبرها أنَّ اسمه هو، أيضاً، ويليامز، فابتسمتْ روز وقالت له " يكفي أن تقولَ إنك من مقاطعة ويلز "

إنَّ روز، مثلي، مولهةٌ بالسود، ربما بسبب كَلَفنا الشديد بمرضتنا السوداء الجميلة أوزي حين كنا صِغاراً في ميسيسيبي. كانت متعوِّدة دائماً على أن تُنهي رسائلها إليّ بعبارة " حبي إلى أولادي، بيضاً كانوا أم سوداً ". وقد لاحظتُ ونحن في نيويورك، أنَّ روز كانت تُلوِّحُ باستمرار، في الشوارع والمتاجر، للأطفال من العرقين.

إنني أكنُّ حباً كبيراً لتاتيانا. إنها شجاعةٌ وقلبُها مترعٌ بالعطف. وهي مُصابةٌ بالتهابٍ حادٍ في المفاصل، وتُصابُ حالياً بنوباتِ دوارٍ مخيفةٍ عندما تتحرَّك فجأة. إنها تستخفُّ بها، لكني قلقٌ، خاصة وأنَّ عليها أن تعمل باستمرار لكسب لُقمة عيشها.

بعد ظهر اليوم الثالث ذهبنا لمشاهدة فيلم فيلليني Amarcord (أنا أتذكَّر). وقد استمتعتْ روز بمشاهدته. وكان يتضمَّنُ بعض المشاهد الجنسية الكوميدية المذهلة حسبتُ أنها ستصدمها. على العكس تماماً! ولدى انتهاء فترة الزيارة، وقبلتْ روز على مضض خَبَر استحالةِ بقائها معنا على الدوام، سألتُها تاتيانا بماذا استمتعتْ أكثر. قالت روز " بذلك الفيلم الرائع ". إن الفيلم لا يحتاج إلى المزيد من " الإرشادات " لكن فيلليني يستحقُّ هذه من المُهيمنة المزعومة على الجُزُر البريطانية.

إنَّ نجاح هذه العطلة الوجيزة قد أحيا عندي أملاً قديماً في أن يسمح لروز، ولمرافقتها المرضة، أن تشغلا العقار المُسمَّى كوكونت غروف، في فلوريدا، الذي انتقيته بمساعدة ماريون فاكارو لأجلها قبل سنين عديدة جداً، وقد تزايدت قيمته المالية من سعر شرائه الذي كان ٤٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً من الدولارات ولعلها ستزداد باطراد. وربما في إمكانها مع تاتيانا أن تخلوا إلى نفسيهما معاً هناك مع مُدبِّرة منزل طيبة، أو في إمكانهما أن تتخذا شقة عقاري المؤجَّر الكائنة في نيو أورلينز.

إنَّ تحقيقَ هذا الحلم متوقِّفٌ طبعاً على حدوثِ انقلاب في منحى حالتي الصحية المتدهورة.

على أي حال، لا يمكن للمرء أن يتمنى مَلَكةً أعذب من روز وأرقّ منها حاشية، أو، في رأيي، أرفع تهذيباً وكياسة. فتبوُّء مركز رفيع في الحياة يتحقق، قبل أي شيء، بالشهامة التي بها تبقى التجارب المروِّعة حيّةً بشرف.

انتـــهى

الهوامش

١ - بوب الميؤوس منه : يسخر ويليامز هنا من الممثل الكوميدي الأميركي بوب هوب ، وكلمة هوب في الإنكليزية تعني : أمل .- المترجم .

٢ - غور فيدال : من أكبر الروائيين الأميركيين في الوقت الحالي . له " المدينة والعامود " و " جوليان " و " واشنطن دي سي " وغيرها . - المترجم .

٣ - آنا مانياني : ممثلة إيطالية ، سينمانية ومسرحية ، عظيمة . من أفلامها " روما مدينة مفتوحة " و " ماما روما " . - المترجم

٤ - ستونهنج : أطلالٌ ماقبلتاريخية توجد في جنوب إنكلترا كانت لها أهمية دينية وأغراضٌ فَلَكيّة .

٥ - هارت كرين (١٨٩٩ - ١٩٣٢) : شاعر أميركي . أشهر قصائده " الجسر " . انتحر غرقاً .

٦ - كامينو الحقيقية : في عبارة كامينو ريل ، كلمة ريل في الإنكليزية تعني حقيقي .- المترجم .

٧ - الهوغونوتيين : البروتستانت الفرنسيون .

٨ - البيانو العمودي : بيانو عموديّ الأوتار .

٩ - واسم " روز " يعني زهرة ، طبعاً!

١٠ - سكوت فيتزجيرالد (١٨٩٦ - ١٩٤١) : روائي أميركي شهير . نال شُهرةً مبكِّرة من روايته " هذا الجانب من الجنة " . كان يُقيمُ مع زوجته زيلدا حفلات صاخبة تتسم بالبذخ والإسراف .

١١ - ميري بيكفورد (١٨٩٣ - ١٩٧٩) : ممثلة أميركية شهيرة أيام السينما الصامتة .

١٢ - هذا النوع من المنظّمات شائعٌ في جامعات الولايات المتحدة ، خاصةً بين الذكور ، وله طابع اجتماعي وتحملُ أسماءً مؤلَّفةً من الأبجدية اليونانية .- المترجم .

١٣ - هو الشخص الذي يستمدُّ المتعة الجنسية من خلال ارتداء قِطَع ملابس تخصُّ عادةً الجنس الآخر .

١٤ - الجرحة الفصّية : عملية جراحية تُجرى في فصوص المُخ .

١٥ - عصفور الدوري الصغير : اللقب الذي أُطلِقَ على مطربة فرنسا الأولى إديث بياف (جيوفانا كاسيون) : (١٩١٥ - ١٩٦٣) .

١٦ - " أربعة قديسين في ثلاثة فصول " ، مسرحية للكاتبة الأميركية غرترود شتاين (١٨٧٢ - ١٩٤٦) .

١٧ - هذه الملاحظة هي من وضع المؤلِّف . - المترجم .

١٨ - النُّعاظ : شبَقٌ مفرط أو غير سويّ عند الرجل .

١٩ - غليمة : عارمة ؛ شديدة .

٢٠ - العَلَقَة : إشارة إلى اللوطي .

٢١ - بول باولز (ولد عام ١٩١٠) : روائي ومؤلِّف موسيقي أميركي . له " السماء الواقية " .

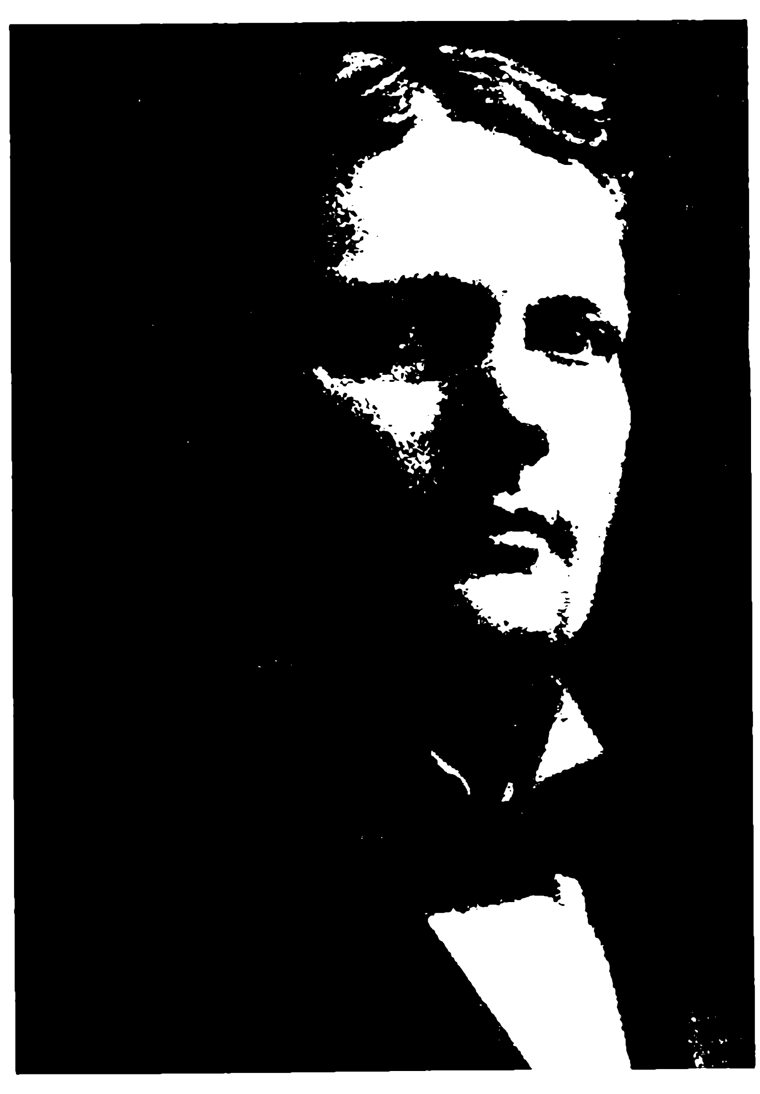
٢٢ - تالولا بانكهيد (١٩٠٣ - ١٩٦٨) : ممثلة أميركية مسرحية وسينمانية .

٢٣ - سير آرثر وينغ باينيرو (١٨٥٥ - ١٩٣٤) : كاتب مسرحي إنكليزي .

٢٤ - فلورنز زيغفلد (١٨٦٩ - ١٩٣٢) : منتج مسرحي أميركي .
٢٥ - الحالة السَلّيّة : في الأصل عبارة تُطلَق على الشخص المُقعَد ، الذي بُترَتْ أطرافه .
٢٦ - إشارةً إلى الجمعة العظيمة ، أو الجمعة الحزينة .- المترجم .
٢٧ - اللجّافة : نافذة صغيرة فوق بابٍ أو نافذةٍ أخرى . - المترجم .
٢٨ - الزموهة : هي عملية إزالة الماء أو عُنصرَيه من مُركّبٍ كيمياني . - المترجم .
٢٩ - الزي الخيطي : هو الزي الذي يرتديه فنانو التعرّي ويُغطي العورة فقط ويتّصل ببقية الجسم ببعض الخيوط .
- المترجم .
٣٠ -فترة الخيار : المقصود بها الفترة التي يمكن خلالها رفضُ تنفيذِ عقدٍ ما أو قبوله . - المترجم .
٣١ - المتمردين : المقصود بهم جيل الخمسينات من القرن الماضي في أميركا ، الذين تمرّدوا على التقاليد ، وكان الممثل الأميركي جيمس دين ومغني الروك الشهير الفيس بريسلي هما ممثلَي ذاك التمرّد . - المترجم .
٣٢ - اليانور ديوز (١٨٥٩ - ١٩٢٤) : ممثلة إيطالية كبيرة .
٣٣ - ساره برنار (١٨٤٤ - ١٩٢٣) : الممثلة الفرنسية الشهيرة .
٣٤ - ويليم إنج (١٩١٣ - ١٩٧٣) : كاتب مسرحي أميركي . أشهر أعماله " عودي يا سبأ الصغيرة " .
٣٥ - ليونارد برنشتاين (١٩١٨ - ١٩٩٠) : مؤلّف موسيقي ، وعازف بيانو ، وقائد أوركسترا أميركي . أشهر أعماله موسيقى وضعها لمسرحية ، ومن ثم فيلم ، " قصة الحيّ الغربي " .
٣٦ - فاغنيري : نسبةً إلى الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) .
٣٧ - كونراد فايدت (١٨٩٤ -١٩٤٣) : ممثلٌ سينماني .
٣٨ - المقصود به الممثل الأميركي مونتغمري كليفت (١٩٢٠ - ١٩٦٦) . من أفلامه " من الآن وإلى الأبد " و " مكانٌ تحت الشمس " " ,إني أعترف " . - المترجم .
٣٩ - كارسن ماكَلَر (١٩١٧ - ١٩٦٧) : روائية أميركية . من أعمالها " القلبُ صيّادٌ وحيد " .
٤٠ - نسبةً إلى منطقة تيرول ، في غرب النمسا .
٤١ - سبقت ترجمته . ونُذكِّر بأنه شاعر أميركي ، انتحرَ غَرَقاً . (١٨٩٩ - ١٩٣٢) . - المترجم .
٤٢ - الفيكترولا : جهاز يشبه الفونوغراف .
٤٣ - فرانك ميرلو : ستردُ علاقته بتنيسي مفصلا لاحقاً .
٤٤ - الغرفة الشمسية : هي غرفةُ جلوسٍ تدخلها أشعة الشمس من كل جانب ، لأنّ جدرانها كلها من زجاج .
٤٥ - جراحة فصّية : تُجرى في فصوص المخ الجبهيّة .
٤٦ - براكسيتيليس : نحاتٌ يونانيّ من القرن الرابع قبل الميلاد . صاحب تمثالَيّ هرمز وأولمبيا .- المترجم .
٤٧ - الدمّوم : الكلب الذي يتعقّبُ طريدي العدالة . - المترجم .
٤٨ - جاكي : جاكلين كينيدي ، زوجة الرئيس الأميركي كينيدي .- المترجم .
٤٩ - أي أنه خَلَطَ بين اسميّ الأديبين الفرنسيين أندريه مالرو وأندريه موروا .- المترجم .
٥٠ - غريتا غاربو (١٩٠٥ - ١٩٩٠) : ممثلة أميركية من أصل سويدي . أعظم ممثلات السينما في عهدها الصامت . اعتزلت وهي في أوج نجاحها وشهرتها ، وعاشت حياةً منعزلة يلفُّها الغموض . - المترجم .
٥١ - أي في أوائل سبعينات القرن الماضي - فلنقُل ، ١٩٧٣,- المترجم .
٥٢ - برنهارد بيرينسون (١٨٦٥ - ١٩٥٩) : ناقدٌ فني أميركي من أصلٍ ليتواني . - المترجم .
٥٣ - جون غيلغود (ولد عام ١٩٠٤) : ممثل مسرحي وسينماني مخضرم ، بريطاني .
٥٤ - ترومن كابوت (١٩٢٤ - ١٩٨٤) : روائي أميركي . له رواية " بدمٍ بارد " .
٥٥ - اللجاف : هو النافذة الصغيرة التي توجد مباشرة فوق الباب الخارجي للمنزل ، أحياناً .

٥٦ – تشيز : كرسي طويل .
٥٧ – النِثار : قُصاصات من الورق تُنثَرُ على الناس في الاحتفالات .– المترجم .
٥٨ – غادج : الاسم الذي كان تنيسي يخاطب به إيليا كازان .
٥٩ الطريقة : المقصود بها نَسَقُ ستانيسلافيسكي في التمثيل ، والمُبيَّنُ في كتابه " إعدادُ الممثِّل " . –المترجم .
٦٠ – دوكسي : كلمة إنكليزية قديمة ، وتعني عاهرة . – المترجم .
٦١ – لوريلاي : في الأساطير الجرمانية ، هي حنيَة يُقالُ إنها تسكنُ صخرةً على ضفاف نهر الراين وتجذب البحارة لكي تتحطَّمُ سفنهم على الصخور .
٦٢ – السكوتاش : طبق من الطعام قِوامه الذرة الخضراء واللوبياء .
٦٣ – جيان- كارلو مينوتي (ولِدَ عام ١٩١١) : موسيقي إيطالي الأصل ، مقيمٌ في الولايات المتحدة .
٦٤ – آل برتون : المقصود بهم الممثلة اليزابيث تيلر وزوجها (آنئذ) الممثل ريتشارد برتون . – المترجم .
٦٥ – اليانور الأكيتينيَة (١١٢٢ – ١٢٠٤) : ملكة فرنسا . ثم ملكة إنكلترا . والدة ريتشارد الأول وجون .
٦٦ – هذا الشيء : يقصد هذه المذكرات .
٦٧ – فيفيان لي (١٩١٣ – ١٩٦٧) : ممثلة بريطانية . من أفلامها : " ذهبَ مع الريح " و " عربة اسمها الرغبة " . – المترجم .
٦٨ – نويل كوارد (١٨٩٩ – ١٩٧٢) : كاتب مسرحي ، ومؤلف موسيقي وممثل إنكليزي . – المترجم .
٦٩ – الإشارةُ هنا إلى رواية فرانتز كافكا "أميركا" ، التي تُكتَبُ بالألمانية Amerika بحرف K ، خِلافاً للكلمة الإنكليزية - America . المترجم .
٧٠ – في عام ١٩٧١ ، وأثناء حرب فيتنام ، أُدينَ الملازم الأميركي ويليلم كالي بارتكاب مذبحة في إحدى قرى فييتنام الجنوبية راح ضحيتها ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ مدني فيتنامي ، وحُكِمَ عليه بالسجن ١٠ سنوات . – المترجم .
٧١ – المقصود هنا عيد الميلاد Christmas ، وليس عيد المولد الشخصي birthday .
٧٢ - الممرضة العملية : هي الممرضة التي لمْ تتخرَّج من معهد للتمريض ، وإنما اكتسبتْ خبرتَها بالممارسة .– المترجم .

ملحق الصور



جدّي لأبي، توماس لانيير وليم الثاني، الذي استنفد دون مبالغة ثروة العائلة، في مجال العقارات في الغالب، بخوضه باستمرار معركة انتخاب الحاكم ضد ديماغوجي ذي شعبية. الشرخ الذي يقطع الوجه في الصورة الفوتوغرافية هو لمسة رمزية حدثَتْ بالمصادفة، بما أن الأمور لم تبدأ تسوء إلا مع مجيء هذا الوسيم ولكن المنحدر المُبذّر وليم -سيفيير-لانيير. وعلى الرغم من أنه تثقّف في جامعة هايدلبرغ إلا أنه لم يرتقِ في المجال السياسي إلى أعلى من منصب مندوب دولة في سكة الحديد. كان متزوجاً من سيدة عظيمة - أتساءل إن ان سيتحمّلني.





إيزابيل كوفن وليمز، والدة أبي. توفيت وهي في سن الثامنة والعشرين متأثرة بمرض السل. وهذا يعني أنَّ والدي نشأ في الغالب دون أي تأثير مباشر من الألم.

أبي قبل وفاة أمه وحرمان طفولته بعد ذلك من التأثير الرقيق.

أمي في سن التاسعة. تدرس العزف على الكمان. لقد حاول جدي أن يعلّمها العزف لكنَّ أمي لم تنجح إلا في أن تقف الوقفة الصحيحة مع الآلة.



منزل القسيس في كولومبوس، ميسيسيبي - نموذج للطراز الغوطي الجنوبي في البناء.

أمي في لقطةٍ أخذها لها الشاب المفضَّل لها، بعد زن تزوَّجَت من سي سي. وليامز - لهذا تحمل هذه النظرة الحزينة.



أمي وجدتي روز.

جدي وأنا في سينت لويس.



صورتي المفضلة لجدي. أُخِذَتْ في وقتٍ متأخر من حياته. الوقاد والحِكمة - وحُسن الشيخوخة - مجتمعة في وجهه.

في وضع البراءة - وميسيسيبي.



أمي وأبي، يمضيان العطلة في أوزاركس.



أختي روزا كامرأة صغيرة.

روز في مصحة كاثوليكية في سينت لويس. بعيد انهيار أعصابها.



أثناء عطلة أوزاركس. أنا على اليسار.

٥٣ أرندل بليس، كليتون، ميسوري.





صورة في المرحلة الثانوية.

ديكن وأنا بجوار بركة سباحة في نادي ريفي صغير.



في هيئة إليوت الإدارية. المجلة الجامعية في جامعة واشنطن. سينت لويس. أنا في الصف الأمامي، في أقصى اليسار.



في اول شقة لي في نيو اورلينز. عام ١٩٤٦.

في المحترف في شقة شارع الثامن والخمسين الشرقي.



لماذا يحترقُ الكتّاب. صورة أخذها كارش في شقة الثامن والخمسين الشرقي.



نوشك أن نركب الدراجات إلى المكسيك انطلاقاً من مزرعة الزغانيل في هوثورن، كاليفورنيا، خلال صيف عام ١٩٣٩.

صورة كيب، ندوب السفر.



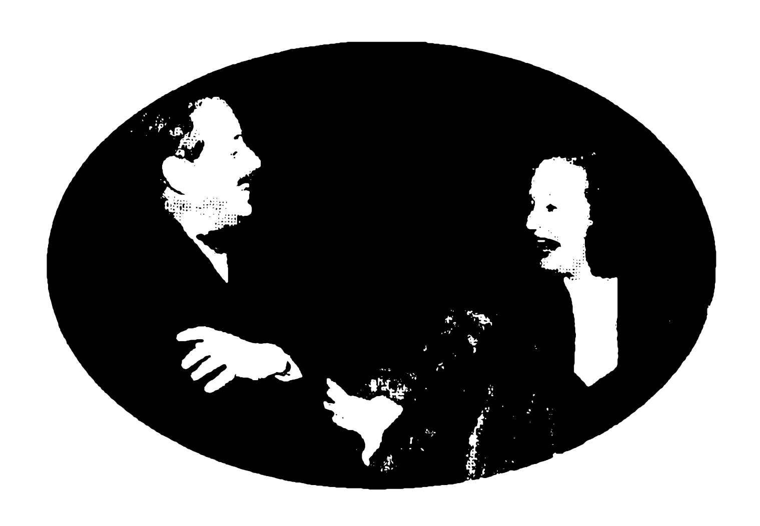
على شاطئ الليدو مع ماريا.





في إحدى المناسبات التي خرجت فيها مع كارسون - أودري وود، وكارسون ماكللر وأنا في الحفلة بعد افتتاح برودواي لمسرحية "صيف ودخان".

مع آيرين سلزنيك وإيليا كازان خلال فترة استراحة أثناء التدريبات على عربة... .





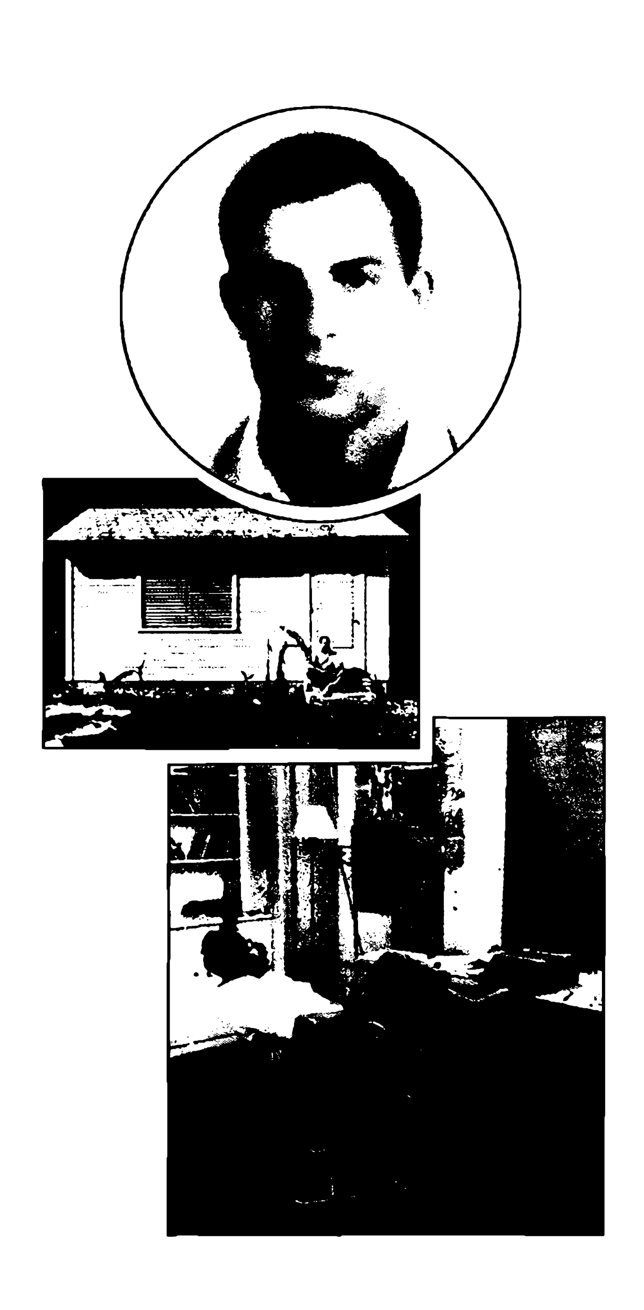
مع الرائعة تالولة. أثناء التدرّب على عرض إحيائي لمسرحية عربة... عام ١٩٥٥.

ونالد ويندام، مساعدي في "لقد لمستني!" عام ١٩٤٦. وصديق مُبكِّر في نيويورك. الذي آسفُ لنفوره الحاليّ مني.



مانياني تستهلّ عاصفةً في نادٍ ليليّ في روما. جحيمٌ كاملٌ يوشك أن يستعر - كانت مانياني في حالة غضبٍ عارم من مرافقها. كنتُ أعلمُ ذلك وقد تسلّيتُ.

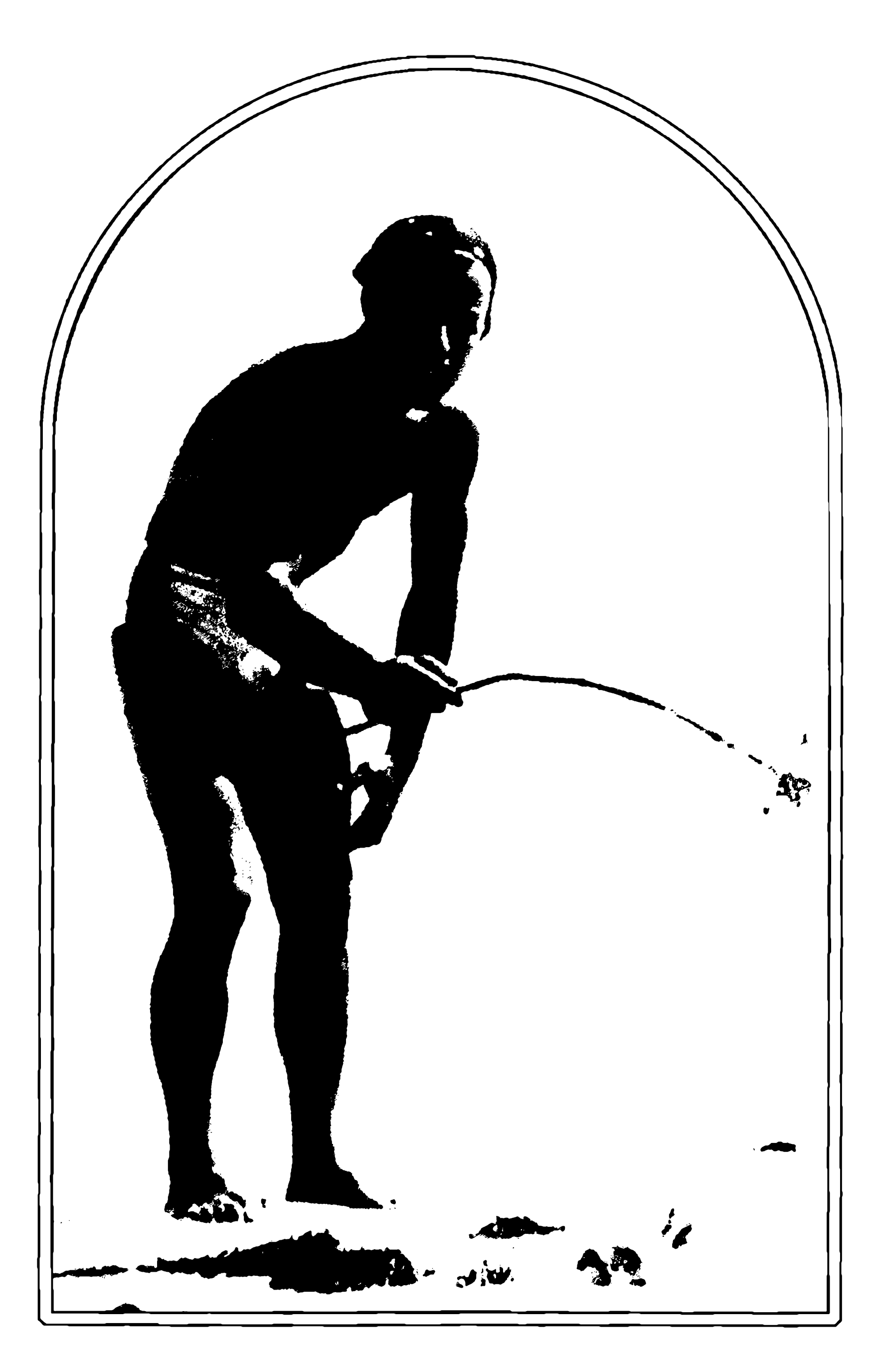
أنّا مانياني وأنا، على متن السفينة أندريا دوريا. كانت توشك أن تمثّل الدور الرئيسي في "وشم الوردة".



فرانكي.

خارج المحترف في كي ويست. حين كان جديداً وقبل أن يتشكل المنظر الطبيعي. إنني أعمل في كل مكان - لكنني أكون في أحسن حالاتي هنا.

آتفكَّر داخل مُحترف كي ويست. خلال حقبة الخمسينات.



فرانك ميرلو على الشاطئ في كي ويست.





في شقة نيويورك مع "بفو" وفرانكي.

كريس إشروود في سانتا مونيكا.





النسخة السينمائية الفظيعة لـ مجموعة... - أسوأ فيلم حظاً أخذ عن أحد أعمالي. والسبب في الغالب يعود إلى التغييرات التي أجريت على النهاية لجعلها سعيدة. مع كيرك دوغلاس في دور الجنتلمن كاللر، وغرترود لورانس في دور الأم وآرثر كينيدي في دور توم. كانت غرترود لورانس تستحق أفضل من ذلك. وكذلك المسرحية.

لوريت تيلر. مع إيدي دولنغ في دور توم. في مجموعة...



ما يحدث أحياناً للسيدات اللواتي يعتمدن دائماً على لطف الغرباء - المشهد الختامي لـ عربة... .
إنتاج برودواي مع كيم هنتر. جيسيكا تاندي. ومارلون براندو.



مع مورين ستابلتن وفرانكي في ناد ليليّ في تشيكاغو أثناء عرض وشم الوردة في تشيكاغو.

فيفيان لي في دور بلانش. وبراندو في دور ستانلي كوالسكي - أداء رائع في فيلم عظيم. لكنّ هوليوود شوّهته قليلاً في النهاية التي وضعتها.



حفل سنوي لـ عربة... (من اليسار إلى اليمين: إليا كازان، جيسيكا تاندي، توم، آيرين سلزنيك، كارل مالدن، كيم هنتر).

مع صديقي ووكيلي، السيد بيل بارنز.



فيفيان لي ووارن بيتي في فيلم عام ١٩٥٠ المأخوذ عن روايى "الربيع الروماني للسيدة ستون". هذا أفضل الأفلام كلها التي أخذَتْ عن أعمالي: وقد أخرجه خوزيه كوينتيرو. الذي لم يكن قد أخرج أيَّ فيلم قبله.

مشهد من "كامينو ريل". نسخة مع آل باتشينو في دور كيلروي.





نسخة الفيلم لمسرحية "قطة على سطح من القصدير الحار"، الذي تلقَّيتُ عنه أكبر كمية من المال تلقَّيتها عن أي فيلم. بول نيومَنْ في دور بريك وإليزابث تيلر في دور ماغي.

العظيمة إليزابث آشلي في "قطة على سطح من القصدير الحار" عام ١٩٧٤.



إيلي والاش وكارول بيكر في «الطفلة الدمية» في فيلم قائم على أساس قصة «٢٧ عربة مملوءة بالقطن».



كيت هيبورن سرقت شرف التمثيل كله في فيلم "فجأة. في الصيف الفائت".

مونتي كليفت وليز تيلر في "فجأة"... فيلم رديء كان مربحاً جداً.

نيومَنْ وبيج يتقاسمان من جديد الدور الرئيسي ويلمعان في نسخة الفيلم من "العصفور الجميل".



بتي ديفيز في دور ماكسين فوك في "ليلة الإغوانا".



ريتشارد برتون وإيفا غاردنر في نسخة الفيلم من ليلو الإغوانا.



"محاذير المهنة الصغيرة". وفيها ظهرت للمرة الأولى والأخيرة كممثل - محققاً النجومية من دون موهبة.



كارا دف- ماكورميك ومايكل يورك في "الصرخة". مسرحية ناجحة مادياً أغلقَتْ بتهوُّر بعد أن دمَّرها نقَّاد نيويورك.



كلير بلوم في غرفة تبديل ملابسها بعد العرض الافتتاحي لـ "عربة..." في لندن، عام ١٩٧٤.



- إنها أشد الكتب المحلية الرائجة نزاهةً هذا العام!

"إنه كشف قاسٍ لحياةٍ خاصة"

"مراجعة نيويورك تايمز للكتب"

- في واحدة من أشد ما كُتِبَ من مذكّرات حميمة إذهالاً، يُسجِّل مؤلّف "مجموعة الحيوانات الزجاجية" و"حافلة اسمها الرغبة" و"قطة على سطح من القصدير الحارّ" وأعمالٍ عظيمةٍ أخرى للمسرح الأميركي، حياةً "لا تقلُّ دراميّة عن عوالمِهِ المسرحية... لكائنٍ بشريّ شَبِق... صادق - صادق بشكلٍ مؤلم، يدعو إلى الإعجاب".

"مراجعة لوس أنجليس للكتب"

- "إنه يعرف كيف يُسيء السلوك بشكلٍ مُسلٍ... ويُعطي صورةً كاملة لنجوم عالم الاستعراض وحياة الكسل الناعمة. غاربو موجودة هنا، وكذلك كابوت وتالولا وبان لا نعرف غير أسمائهم الأولى".

"صوت القرية"

- "المذكرات هامة... هناك الكثير من التفاصيل، الخاصة والمهنيّة، ومُعظم ما وردَ فيها مُذهل... هذه قصة رجل يتمتّع بحيوية هائلة"

"مراجعة ساترداي للكتب"



ISBN:2-84305-786-X
9 782843 057861